مقاصد الشريعة الإسلامية

في فكر الإمام حسن البنا - رحمه الله -

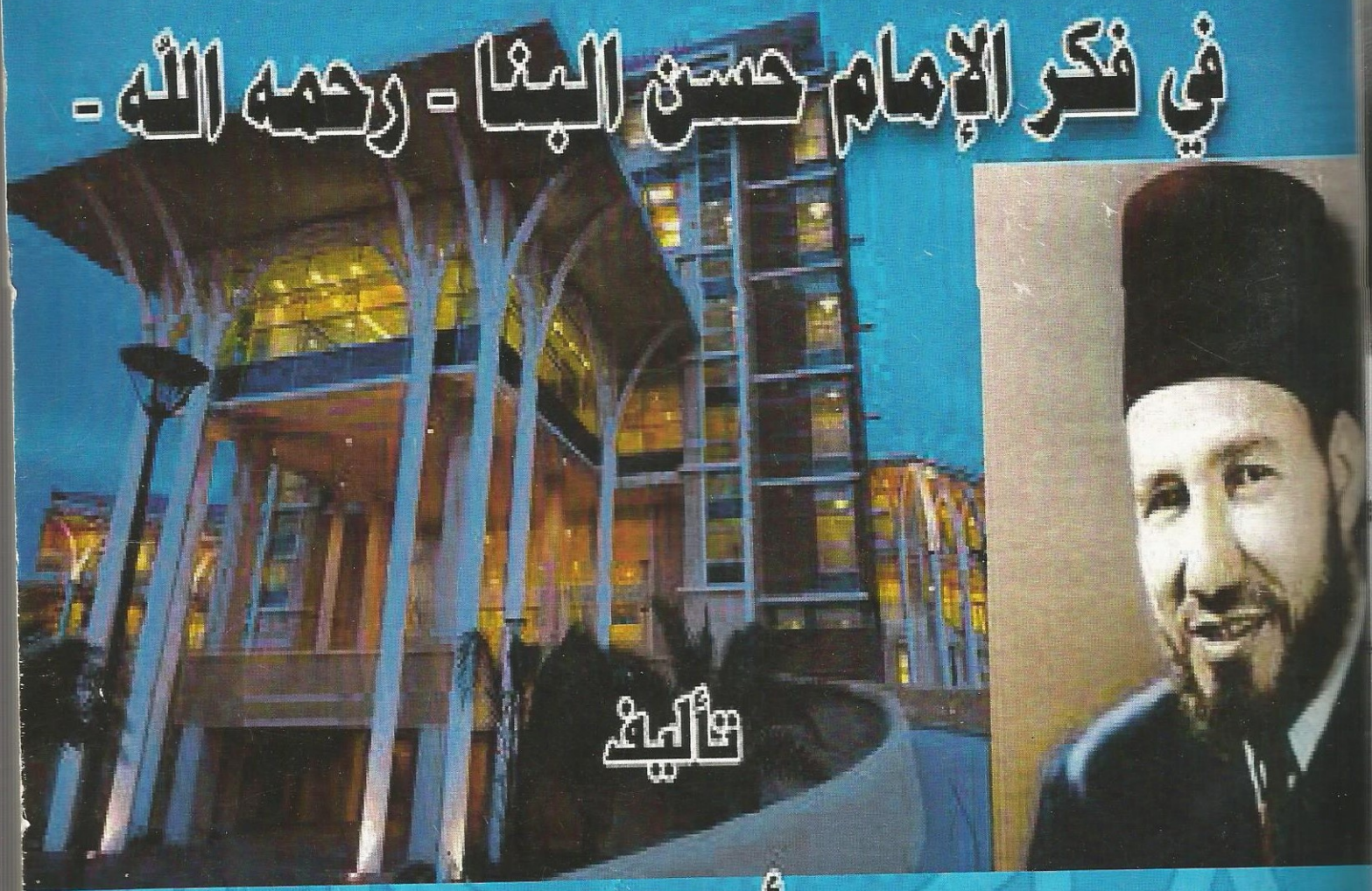

تأليف

د. رجب أبو مليح محمد

الأستاذ المشارك بكلية الشريعة جامعة الإنسانية الإسلامية العالمية

قدم (دار الأمان) ماليزيا

وكيل الجامعة لشئون الدراسات العليا والبحث العلمي

عضو الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين

مقاصد الشريعة الإسلامية

في فكر الإمام حسن البنا - رحمه الله -

تأليف

د. رجب أبو مليح محمد

الأستاذ المشارك بكلية الشريعة جامعة الإنسانية الإسلامية العالمية

قدم (دار الأمان) ماليزيا

وكيل الجامعة لشئون الدراسات العليا والبحث العلمي

عضو الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى
١٤٣٤هـ- ٢٠١٣ م

رقم الإيداع:

٧ ش أبو القاسم المهدي -الحي السابع -مدينة نصر -القاهرة
محمول/ ٠١٠٠١٤٥٠٣٧٥

من الدستور القرآني الخالد

يقول الله تعالى :

{مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً}[الأحزاب:٢٣].

من مشكاة النبوة

روى أبو داود بسنده عن أبي هريرة – رضي الله عنه – أن رسول الله ﷺ قال:(إن الله يبعث لهذه الأمة على

رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها) سنن أبي داود .

المقدمة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدمة

هل للإمام البنا . رحمه الله . دور واضح وملموس في علم المقاصد ؟ وإن كان له دور فلماذا لم يذكر ضمن علماء المقاصد كغيره من العلماء أمثال العلامة ابن عاشور مثلا وغيره من العلماء السابقين والتالين له ؟!

وهل كتب كتابا أو مقالة يتحدث فيها عن علم المقاصد حتى نعده من علماء المقاصد؟!

تزعم هذه الدراسة أن للإمام البنا . رحمه الله . دورا بارزا وملموسا، بل ومتميزا في هذا العلم، وعلى القارىء أن يتحلى بالصبر حتى يقف على ذلك بنفسه من خلال هذا الكتاب.

أما لماذا لم يذكر الإمام البنا ضمن علماء المقاصد على الرغم من الثورة الفكرية والفقهية حول علم المقاصد . خاصة في الثلاثين سنة الماضية . فهذا أمر يطول شرحه، وربما يحتاج لبحث خاص.

غير أني ألمحت إلي شيء من هذا في الفصل الثاني من هذه الدراسة، وحاصله أن حركية الرجل وعداء السلطان له، وتأسيسه جماعة ما زالت في خصومات سياسية حادة بين النظام إلى الآن أثرت عليه كعالم شرعي، وفقيه مقاصدي متميز.

إن كثيرا من المثقفين، وبعض المتخصصين ينظر إلى الإمام البنا على أنه زعيم سياسي أسس جماعة تعارض السلطان، وقتل بسبب ذلك، ولا ينظر إلى هذا الرجل على أنه في الأصل والتكوين عالم وفقيه، والسياسة جزء من مشروعه الفكري.

ونحن– كشرقيين وإن كنا مسلمين– في الغالب لا نفرق بين العالم كثروة

قومية يستفاد من أفكاره وعلومه ومشروعاته خاصة التي تفيد المجتمع في النواحي العلمية والثقافية والاقتصادية والاجتماعية وغيرها وبين خلافنا معه في الرأي حتى لو كانت مساحة الخلاف قليلة [1].

وما زالت مقولة (الحكمة ضالة المؤمن) ومقولة (نتعاون فيما اتفقنا عليه ويعذر بعضنا بعضا فيما اختلفنا فيه) مقولات نظرية في الغالب الأعم لم تفّعل على المستوى العملي[2].

وأحسب أن الإمام البنا وغيره من العلماء سواء في جانب العلوم النظرية الاجتماعية، أو في جانب العلوم العملية لو نشأ عند غيرنا من غير المسلمين لأحسنوا الإفادة منه على الرغم من خلافهم العقدي معه، لكنهم يطبقون هذه المقاولات تطبيقا عمليا حتى لو لم يسمعوها أو يعرفوها نظريا.

أما لماذا لم يكتب الإمام البنا . رسالة أو كتابا . يعرف فيه بعلم المقاصد فهذا كما لا يخفى على طالب علم – فضلا عن المتخصص – أن ثمة فرق واضح بين من يتحدث عن اللفظ أو المصطلح وبين من يعيش له وبه حتى لو لم يرد على لسانه.

---

(1) خذ مثلا على ذلك الإمام ابن حزم الظاهري . رحمه الله – يحتفي به الأسبان (الأندلسيون سابقا) على الرغم من عدائهم للإسلام، ونظرهم للمسلمين على أنهم كانوا يحتلون ديارهم، لكنهم يرون في الرجل وإن كان مسلما إضافة لحضارتهم على المستوى الإنساني فيفخرون به ويحتفلون حتى يوم الناس هذا!

(2) حدث نقاش بيني وبين أحد الأساتذة الماليزيين الذي تعلموا في الأزهر وعاشوا في مصر فترة طويلة في قضية من فروع الاقتصاد المعاصر، ولم يقنع أحدنا الآخر، ونسيت الموضوع تماما، لكن وجدت الرجل يكن لي عداء ربما لا يكنه لغير المسلمين من المحاربين حتى أنه لا يلقي علي سلاما ولا يرد سلاما، فلما سألت عن السبب قيل لي بسبب الناقش الذي حدث بينكما في يوم كذا !!، على الرغم من أنه كان نقاشا علميا هادئا عاديا ما تخيلت أنه يغير الصدور!.

فالصحابة . رضوان الله عليهم . لم يتحدثوا عن المقاصد، وكذلك فقهاء التابعين، والأئمـة الأربعـة وغيـرهم، ولا يـشك دارس فـي أن فهمهـم للمقاصـد، واسـتيعابهم لـه، وعملهم به كان يفوق ما نحن عليه الآن.

وقد قُدِمت أطروحات علمية عن الإمام مالك وابن تيمية وغيرهم ودورهم في علم المقاصد حتى لو لم يرد هذا اللفظ على ألسنتهم.

وقد قطع أستاذنا الدكتور محمد كمال إمام . متعه الله بالصحة والعافية – شوطا كبيرا في رصد ما كتب عن علم المقاصد منذ عصر التدوين إلى يوم الناس هذا، في موسوعة ماتعة نافعة . إن شاء الله . ربما تتجاوز الست مجلدات، وسيكون لهذا الجهد الطيب أثره في علم المقاصد في الفترة القادمة إن شاء الله .

وقد اطلعت على الأجزاء الأولى من هذه الموسوعة فلم أجد إشارة للإمام البنا ولعل أستاذنا معذور في ذلك فهو يرصد الواقع المكتوب، أولعله قد كتب في الأجزاء التالية التي لم أطلع عليها.

وأحسب أن الإمام حسن البنا . رحمه الله . يختلف عن غيره من العلماء الذين عاصروه أو جاءوا بعده أو قبله في أنه لم يقف بالفكرة عند حد التنظير والتأصيل النظري، لكنه خطا بها خطوات فساح نحو التطبيق العملي، صحيح أن أفكاره العملية لم يكتب الله لها النجاح والاستمرار إلى يومنا هذا، بخلاف أفكاره النظرية، ولهذا أسباب لا يمكننا الوقوف عندها الآن، لكنه يكفيه شرف السبق والتطبيق، ويبقى على أتباعه خاصة، والمسلمين عامة الإفادة من هذه المحاولات، والامتداد بها الامتداد المناسب في الواقع العملي.

فقد عاش الإمام البنا في فترة هامة من تاريخ أمتنا العربية والإسلامية، كانت الأمة فيها على مفترق طرق شتى بعد سقوط الخلافة الإسلامية سقوطا رسميا سنة١٩٢٤م وإن كانت سقطت سقوطا عمليا وفعليا قبل هذا بسنوات .

ومن هنا كانت الأمة الإسلامية بحاجة إلى من يرشدها ويذكرها بانتمائها المناسب، وبهويتها الإسلامية حتى لاتضل الطريق فتفقد الوعي والإدراك وتتفرق بها السبل.

وقد قام الإمام حسن البنا مع من سبقه من المصلحين كأمثال الإمام محمد عبده والأفغاني ورشيد رضا – رحمهم الله –بدور فاعل في تذكير الأمة بهويتها، والعودة بها إلى المنابع الصافية من القرآن الكريم والسنة والمطهرة.

يقول الإمام البنا : في رسالة هل نحن قوم عمليون : (وقد شاءت لنا الظروف أن ننشأ في هذا الجيل الذي تتزاحم الأمم فيه المناكب، وتتنازع البقاء أشد التنازع، وتكون الغلبة دائماً للقوي السابق ..

وشاءت لنا الظروف كذلك أن نواجه نتائج أغاليط الماضي ونتجرع مرارتها، وأن يكون رأب الصدع وجبر الكسر، وإنقاذ أنفسنا وأبنائنا، واسترداد عزتنا ومجدنا، وإحياء حضارتنا وتعاليم ديننا ..

وشاءت لن الظروف كذلك أن نخوض لجة عهد الانتقال الأهوج، حيث تلعب العواصف الفكرية والتيارات النفسية والأهواء الشخصية بالأفراد وبالأمم وبالحكومات وبالهيئات وبالعالم كله، وحيث يتبلبل الفكر وتضطرب النفس ويقف الربان في وسط اللجة يتلمس الطريق، ويتحسس السبيل وقد اشتبهت عليه الأعلام، وانطمست أمامه الصور، ووقف على رأس كل طريق داع يدعو إليه في ليل دامس معتكر وظلمات بعضها فوق بعض، حتى لا تجد كلمة تعبر بها عن نفسية الأمم في مثل هذا العهد أفضل من "الفوضى" ..

كذلك شاءت لنا ظروفنا أن نواجه كل ذلك وأن نعمل على إنقاذ الأمة من الخطر المحدق بها من كل ناحية .

وإن الأمة التي تحيط بها ظروف كظروفنا، وتنهض لمهمة كمهمتنا، وتواجه واجبات كتلك التي نواجهها، لا ينفعها أن تتسلى بالمسكنات أو تتعلل بالآمال والأماني. وإنما عليها أن تعد نفسها لكفاح طويل عنيف وصراع قوي شديد : بين الحق والباطل، وبين النافع والضار، وبين صاحب الحق وغاصبه، وسالك الطريق وناكبه، وبين المخلصين الغيورين والأدعياء المزيفين. وأن عليها أن تعلم أن الجهاد من الجهد، والجهد هو التعب والعناء، وليس مع الجهاد راحه حتى يضع النضال أوزاره وعند الصباح يحمد القوم السرى)[1].

غير أن البنا .رحمه الله .كما ذكرنا قبل قدم ملامح مشروع متكامل على المستوى النظري والمستوى العملي، وهو ما نحاول الاقتراب منه والتعرف عليه من خلال هذه الدراسة . والله من وراء القصد وهو الهادي إلى سواء السبيل.

د. رجب أبو مليح محمد

قدح (دار الأمان) – ماليزيا

فى ٢٧ من المحرم ١٤٣٢هـ/٢٠١٠م

(1) مجموعة الرسائل ٦٨- ٦٩.

الفصل الأول

حول تعريف المقاصد، وأهميتها، ومجالاتها، وأقسامها

حول تعريف المقاصد، وأهميتها، ومجالاتها، وأقسامها

المبحث الأول

المقاصد لغة واصطلاحًا

المقاصد لغة :

المقاصد أصلها من الفعل الثلاثي (ق ص د)، يقصد قصدًا، والمقصد: مصدر ميمي واسم المكان منه: مقصد. وهو يجمع على مقاصد، والقصد يجمع على قصود على خلاف فيه؛ ولهذه الكلمة عدة استعمالات – كما ذكرته معاجم اللغة– ويعنينا هنا المعنى الأصلي للكلمة، وهو :

الاعتزام، والاعتماد، والأمّ وطلب الشيء وإتيانه. جاء في المصباح المنير. تقول: "قصدت الشيء وله وإليه قصدًا، من باب ضرب: طلبته بعينه". وتقول: قصدت قصده: نحوت نحوه. جاء في صحيح البخاري: "فقصدت لعثمان حتى خرج من الصلاة". وهذا المعنى هو الأصل في هذه الكلمة[١].

المقاصد عند الفقهاء القدامى :

وفيما يلي تلمس لمفهوم المقاصد، من خلال تعبيرات بعض العلماء[٢].

١- قال الغزالي: "أما المصلحة فهي عبارة في الأصل عن جلب منفعة أو دفع مضرة. ولسنا نعني به ذلك، فإن جلب المنفعة ودفع المضرة مقاصد الخلق، وصلاح الخلق في تحصيل مقاصدهم. لكننا نعني بالمصلحة: المحافظة على مقصود الشرع. ومقصود الشرع من الخلق خمسة وهو أن يحفظ عليهم دينهم ونفسهم وعقلهم ونسلهم ومالهم، فكل ما يتضمن حفظ هذه الأصول الخمسة فهو

---

(1) ينظر المصباح المنير، لسان العرب مادة قصد

(2) ينظر مقاصد الشريعة عند ابن تيمية د. يوسف أحمد محمد البدري ص٤٦–٤٧، ط١ دار النفائس ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.

مصلحة وكل ما يفوت هذه الأصول فهو مفسدة ودفعها مصلحة "[1].

٢- قال العز بن عبد السلام: "من تتبع مقاصد الشرع في جلب المصالح ودرء المفاسد حصل له من مجموع ذلك اعتقاد أو عرفان بأن هذه المصلحة لا يجوز إهمالها وأن هذه المفسدة لا يجوز إهمالها وأن هذه المفسدة لا يجوز قربانها، وإن لم يكن فيها إجماع ولا نص ولا قياس خاص "[2].

٣- قال الشاطبي: "تكاليف الشريعة ترجع إلى حفظ مقاصدها في الخلق، وهذه المقاصد لا تعدو ثلاثة أقسام: أحدها أن تكون ضرورية، والثاني أن تكون حاجية، والثالث أن تكون تحسينية".

وقال: "إن الشارع قصد بالتشريع إقامة المصالح الأخروية والدنيوية "[3].

تعريف المقاصد عند المعاصرين :

عرف الشيخ محمد الطاهر بن عاشور مقاصد التشريع العامة بقوله: « هي المعاني والحكم الملحوظة للشارع في جميع أحوال التشريع أو معظمها، بحيث لا تختص ملاحظتها بالكون في نوع خاص من أحكام الشريعة، فيدخل في هذا أوصاف الشريعة وغاياتها العامة، والمعاني التي لا يخلو التشريع عن ملاحظتها.. ويدخل في هذا معاني من الحكم ليست ملحوظة في سائر أنواع الأحكام ولكنها ملحوظة في أنواع كثيرة منها»[4].

---

(1) المستصفى في علم الأصول لمحمد بن محمد الغزالي ص١٧٤ دار الكتب العلمية – بيروت.

(2) قواعد الأحكام في مصالح الآنام لعز الدين عبد العزيز بن عبد السلام ٢/ ١٨٩، دار الكتب العلمية.

(3) الموافقات للشاطبي ٢/ ٨- ١٠ طدار المعرفة . بيروت .

(4) مقاصد الشريعة الإسلامية للطاهر بن عاشور ص٤٩، ط. ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م دار سحنون، تونس، دار السلام مصر.

ويقول فضيلة العلامة الدكتور يوسف القرضاوي: وأما معنى مقاصد الشريعة فيراد بها: الغايات التي تهدف إليها النصوص من الأوامر والنواهي والإباحات، وتسعى الأحكام الجزئية إلى تحقيقها في حياة المكلفين أفرادا وأسرا وجماعات وأمة[١].

وعرفها الأستاذ علَّال الفاسي بقوله: المراد بمقاصد الشريعة: الغاية منها، والأسرار التي وضعها الشارع عند كل حكم من أحكامها[٢].

وعرفها الدكتور أحمد الريسوني بقوله: مقاصد الشريعة: هي الغايات التي وُضعت الشريعة لأجل تحقيقها لمصلحة العباد[٣].

وعرفها الدكتور نور الدين مختار الخادمي بقوله: المقاصد: هي المعاني الملحوظة في الأحكام الشرعية، والمترتبة عليها، سواء أكانت تلك المعاني حكماً جزئية أم مصالح كلية أم سمات إجمالية، وهي تتجمع ضمن هدف واحد هو تقرير عبودية الله ومصلحة الإنسان في الدارين[٤].

ويقول الدكتور عبد المجيد النجار: إن المقصود بمقاصد الشريعة الإسلامية يمكن أن يتحدد بأنه هو الغاية التي من أجلها وضعت تلك الشريعة في كلياتها وجزئياتها متحرية أن تجري حياة الإنسان المشرَّع له على ما فيه خيره وصلاحه[٥].

---

(1) دراسة في مقاصد الشريعة الإسلامية بين المقاصد الكلية والنصوص الجزئية د. يوسف القرضاوي ص٢٠، ط٣، دار الشروق ٢٠٠٨م.

(2) علال الفاسي: مقاصد الشريعة ومكارمها لعلال الفاسي، ص٥، دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٣م.

(3) نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي د. أحمد الريسوني ص٧ ط١، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م دار الكلمة مصر.

(4) الاجتهاد المقاصدي : حجيته، ضوابطه، مجالته د. نور الدين الخادمي ص٣٨ مكتبة الرشيد الرياض ط١ ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.

(5) مقاصد الشريعة بأبعاد جديدة د. عبد المجيد النجار ص١٦ ط٢ ٢٠٠٨م دار الغرب الإسلامي.

وعرفها أحد الباحثين تعريفا طريفا ظريفا، وهو التعريف بالضد، وبضدها تتميز الأشياء، وربط هذا الباحث بين هذه الفروق وبين طبيعة المباحث التي تضمنها علم أصول الفقه، وقد استعان في تحرير هذه الفروق بالتعريف بالضد على اعتبار أن المعاني بأضدادها تتضح، وهذه المعاني المشتركة هي:

أ – قصد بمعنى ضد الفعل (لغا)، باعتبار أن اللغو هو الخلو عن الفائدة وصرف الدلالة، فيكون المقصد هو عكس ذلك المتمثل في حصول الفائدة أو عقد الدلالة، واختص المقصد بهذا المعنى باسم المقصود، ومنه قولنا (المقصود بالكلام) أي مدلوله، فالمقصد بمعنى المقصود خاص بالمضمون الدلالي.

ب – قصد بمعنى ضد الفعل (سها)، باعتبار أن السهو هو فقد التوجه أو الوقوع في النسيان، فيكون المقصد هو عكس ذلك وهو حصول التوجه والخروج من النسيان، واختص المقصد بهذا المعنى باسم (القصد)، وهو بذلك مطابق للمضمون الشعوري.

ج– قصد بمعنى ضد الفعل (لها)، باعتبار أن اللهو هو الخلو عن الغرض الصحيح وفقد الباعث المشروع، فإن المقصد يكون عكس ذلك وهو حصول الغرض الصحيح وقيام الباعث المشروع، واختص المقصد بهذا المعنى باسم الحكمة، وهو بهذا المعنى مطابق للمضمون القيمي.

ولقد ربط هذا الباحث بين هذه المعاني المشتركة للفظ القصد وبين مضمون علم أصول الفقه في سياق إثباته للتداخل بين علم الأخلاق وعلم أصول الفقه[1].

---

(1) المدخل إلى علم مقاصد الشريعة من الأصول النصية إلى الإشكالات المعاصرة د. عبد القادر بن حرز الله، ص١٤، ط١ مكتبة الرشد ١٤٢٦ هـ/٢٠٠٥م، نقلا عن تجديد المنهج في تقويم التراث طه عبد الرحمن، ص٩٨، بيروت المركز الثقافي، ط٢ بدون تاريخ.

تعقيب على التعريفات السابقة :

ويلاحظ على معظم التعريفات السابقة أنها لا تحصر دائرة المقاصد في أحكام الشريعة العملية، وبالتالي تدخل العقيدة في دائرة المقاصد، فالمقاصد موجودة في كل الأحكام سواء أكانت عملية تتصل بأفعال المكلفين، أم عقدية تتصل بالإيمان بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقضاء والقدر.

وهذا أفضل من حصر المقاصد أو قصرها على الأحكام العملية، فالحكمة موجودة في كافة التكاليف الشرعية، فهي موجودة في العبادات، والمعاملات، والعاديات، والعقائد والأخلاق، سواء فطن إليها الإنسان أم لم يفطن.

ولعل هذا ما قصده الإمام البنا ـ رحمه الله ـ وهو يتحدث في الأصل الثالث من الأصول العشرين التي يفهم في ضوئها الإسلام حيث يقول: (وللإيمان الصادق والعبادة الصحيحة والمجاهدة نور وحلاوة يقذفهما الله في قلب من يشاء من عباده، ولكن الإلهام والخواطر والكشف والرؤى ليست من أدلة الأحكام الشرعية، ولا تعتبر إلا بشرط عدم اصطدامها بأحكام الدين ونصوصه) .

ويقول في الأصل الخامس : ورأي الإمام ونائبه فيما لا نص فيه، وفيما يحتمل وجوها عدة وفي المصالح المرسلة معمول به ما لم يصطدم بقاعدة شرعية، وقد يتغير بحسب الظروف والعرف والعادات، و الأصل في العبادات التعبد دون الالتفات إلى المعاني، وفي العاديات الالتفات إلى الأسرار و الحكم و المقاصد[1].

ومعنى ذلك أنه يرى أن ثمة مقصد في الإيمان يحصل به المؤمن على نور وحلاوة يقذفها الله في قلبه، ويرى أن العبادات لها مقاصد أيضا، لكنه لا يلتفت إليها

---

(1) مجموعة الرسائل للإمام حسن البنا ص٣٥٦ – ٣٥٧، دار النشر والتوزيع الإسلامية ١٤١٢هـ/٢٠٠٢م.

أثناء الأحكام العملية، فروح الصلاة الخشوع، والصيام يُشعر المسلم بحاجة الفقير، فلو أن المسلم لم يشعر بالخشوع في الصلاة، ولم يشعر بحاجة الفقير في الصيام فلن يسقط عنه التكليف بهما، ولكن عليه أن يجاهد نفسه حتى يصل إليهما، لكن هذا لا ينفي أن نبحث عن المقاصد في كل الأحكام الشرعية.

وقد يفهم بعض الناس من كلام الشيخ حسن البنا الذي نقله عن الإمام الشاطبي – رحمهما الله – أن العبادات ليست له مقاصد ولا حكم، وهذا فهم غير صحيح، فلا الشاطبي يقصد هذا ولا البنا أيضًا.

وقراءة كلام الشاطبي بنوع من التأمل يتبين منه أن الشاطبي يتحدث عن المكلف، فالمكلف يعبد الله تعالى سواء فطن إلى الحكمة من التشريع أم لم يصل إليها، لأنه ليس كل مكلف قادر على الوصول إلى حكمة التشريع، وبالتالي فالواجب هو الاتباع، لكن لا مانع من البحث في علل الأحكام سواء أكانت خاصة بالعقيدة أو العبادة أو المعاملات.

يقول سلطان العلماء العز بن عبد السلام – رحمه الله – : مقصود العبادات كلها التقرب إلى الله عز وجل، ويعني التقرب إلى الله عزو وجل التقرب من جوده وإحسانه المختصين بعباده المؤمنين، وأن يُعامل المتقرب إليه معاملة من تقرب إليه بالطاعة والتعظيم والخضوع والتفخيم، وإلا فالقرب من ذاته محال ؛ لأن القرب والبعد من صفات الأجسام .

ولقربه من خلقه معنيان :

أحدهما : قربه بالعلم والرؤية وشمول السلطان .

والثاني : القرب بالجود والإحسان .

والقرب الأول عام لجميع الأكوان، والثاني خاص بأهل الإيمان[١].

(يعتقد كثير من الناس أن التكاليف والأحكام الشرعية المندرجة في باب العبادات لا معنى لها ولا غرض منها سوى أداء حق الله تعالى بالتعبد له سبحانه، ثم ابتغاء ثواب الدار الآخرة، وحتى القائلون من العلماء بتعليل الشريعة على وجه الإجمال يذهب كثير منهم إلى أن قسم العبادات منها غير قابل للتعليل، أو أن التعليل فيه استثناء.

وهذا تصور غير سديد، ويحتاج إلى المراجعة والتدقيق.

فأولاً : ما تقدم من نصوص قرآنية وحديثية في تعليل بعثة الرسل وشرائعهم[٢] تعم وتشمل أحكام العادات والمعاملات والعبادات على حد سواء، كما تعم وتشمل مصالح الدنيا والآخرة على حد سواء، والحق أنه ليس في الآخرة مصلحة إلا وهي امتداد وثمرة لمصلحة تم إنجازها وتحقيقها في هذه الدنيا، وكذلك المفسدة فالقول بوجود مصالح أخروية أو مفاسد أخروية لم يكن لها أصل وبداية وأثر في هذه الدنيا، هو مجرد قصور في فهم مقاصد الشريعة وإدراك مراميها.

وثانًيا : لأن (جميع) التكاليف الشرعية التي سميت عبادات، قد جاءت في القرآن الكريم معللة في أصولها وجملتها تعليلات مصلحية دنيوية وأخروية من غير تفريق ولا استثناء)[٣].

---

(1) مقاصد العبادات لسلطان العلماء العز بن عبد السلام تحقيق عبد الرحيم أحمد قمحية، ص١١، طمطبعة اليمامة حم ص١٩٩٥.

(2) يراجع سورة النساء آية ١٦٥، الأنبياء ١٠٧.

(3) مدخل إلى مقاصد الشريعة الإسلامية د. أحمد الريسوني، ص٢٨– ٢٩، ط١، دار السلام ١٤٣١هـ/٢٠١٠م.

نحن مدعوون إلى معرفة مقاصد الشريعة الإسلامية وحكمها على حقيقتها قدر المستطاع دائما، ويجب ألا نتوقف عن البحث والنظر والتنقيب، ولكن يقينا ستبقى أمور كثيرة لا نحيط بها خبرا. عملية البحث والنظر هذه يتوارثها العلماء جيلا بعد جيل كل يدلي فيها بدلوه، وكل يضيف ما جد عنده ولكن دائما بالتدليل.

هذا يحيلنا على مسألة أخرى، هي هل الأصل في الأحكام التعبد أو التعليل ؟ ومعنى هذا أن التعبد موجود والتعليل موجود فهما موجودان معا، لكن هل الأصل في الأحكام هو التعبد أو هو التعليل ؟

عند جمهور الفقهاء والأصوليين . طبعا باستثناء الظاهرية والشيعة الإمامية خصوصا . أن الأصل العام هو التعليل، وأن التعبد إنما يصار إليه عند عدم القدرة على التعليل. وهذا الأصل يعول عليه أكثر ويعمل به أكثر فيما سوى العبادات التي يغلب عليها التعبد، وإن كان فيها تعليل كثير أيضا.

وحتى حينما يقول الفقهاء عن حكم ما أنه تعبدي، فهم جازمون أن له علة وحكمة لم نعلمها.

ومن جهة أخرى فحين نجد من يقول هذا تعبدي، نجد غيره من الفقهاء قد يعللون بما رجح عندهم من العلل المناسبة لثوابت الشرع.

وعموما فالفقهاء يتفاوتون في التعليل بين مكثر ومقل، ومن الفقهاء من لا يكادون يتركون شيئا بدون تعليل، سواء في العبادات أو في غيرها من أبواب الشريعة، منهم الجويني وابن القيم، والقرافي وابن عاشور، وقبلهم جميعا الشاسي، المعروف بالقفال الكبير، صاحب محاسن الشريعة[1].

(1) ينظر محاضرات في مقاصد الشريعة د. أحمد الريسوني، ص٣٩، ط١، دار السلام ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م.

وتعليل الأحكام أمر مختلف حوله بين الفقهاء، فكما ورد في شرح التلويح على التوضيح (اختلفوا في ذلك على أربعة مذاهب فقيل: الأصل عدم التعليل حتى يقوم دليل التعليل وقيل : الأصل التعليل بكل وصف صالح لإضافة الحكم إليه حتى يوجد مانع عن البعض وقيل الأصل التعليل بوصف لكن لابد من دليل يميزه من بين الأوصاف، ونسب ذلك إلى الشافعي رحمه الله تعالى وقد اشتهر فيما بين أصحابه أن الأصل في الأحكام هو التعبد دون التعليل . والمختار : أن الأصل في النصوص التعليل، وأنه لابد من دليل يميز الوصف الذي هو علة ومع ذلك لابد قبل التعليل والتمييز من دليل يدل على هذا النص الذي يراد استخراج علته معلل في الجملة؛ لأن الظاهر وهو أن الأصل في النصوص التعليل إنما يصلح للدفع دون الإلزام وفي المذهب الثالث لا حاجة إلى ذلك بل يكفي أن الأصل في النصوص التعليل)[1].

(لقد استقر في الثقافة الإسلامية مصطلح الشريعة على أن المقصود به هو الأوامر والنواهي الإلهية المتعلقة بالسلوك العملي من حياة الإنسان، وذلك في مقابل العقيدة التي هي الأوامر والنواهي المتعلقة بالإيمان تصديقاً قلبيا بحقائق الغيب كما جاء بها الدين وما يتفرع عنها من الحقائق. وبناء على ذلك فإن مصطلح مقاصد الشريعة ظل يتجه في بادئ الرأي إلى مقاصد الأحكام المتعلقة بالسلوك، دون تلك المتعلقة بالإيمان باعتبار أنها عقيدة وليست شريعة، وقد درجت كثير من الدراسات المقاصدية على هذا المفهوم للمقاصد، سواء من حيث التقرير النظري، أو من حيث ضرب الأمثلة بالأحكام الشرعية العملية.

إلا أنه في الحقيقة ينبغي أن يكون مصطلح مقاصد الشريعة متجهاً إلى كل ما هو أمر إلهي أو نهي، فذلك الأمر والنهي المتعلق بالإيمان هو أيضًا تشريع إلهي، وهو أيضًا وضع من أجل مقاصد يهدف إلى تحقيقها، فأمر الإنسان بأن يؤمن بالله

(1) شرح التلويح على التوضيح لمسعود بن عمر التفتازاني ج٢، ص١٢٩-١٣٣، مكتبة صبح، مصر.

وحده وأن يؤمن برسله، وأن يؤمن بالقدر والبعث لئن كان أمرًا بالإيمان بحقيقة موضوعية ثابتة، إلا أنه جاء يحقق للإنسان مصلحة في حياته الدنيا قبل حياته الأخرى، وهو ما يفيده مثل قوله تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]، إشارة إلى ما يحققه الإيمان بالله من مقصد الاطمئنان في الحياة النفسية قبل ما يحققه من نعيم في الحياة الأخروية؛ ولهذا السبب فإنه ينبغي على ما نرى أن يكون مصطلح مقاصد الشريعة شاملاً لمقاصد الدين عقيدة وشريعة، وإن كانت هذه المقاصد في الأحكام الشرعية العملية أبين، والحاجة إلى العلم بها أوكد لدوران الاجتهاد عليها، وأما العقائد فإن مجال الاجتهاد فيها مجال محدود ضيق(١).

وهذا كلام دقيق، وفهم عميق، يؤيده تعليل الأحكام في شريعتنا الغراء، فالله يدلل على وحدانيته بقوله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنبياء : ٢٢].

ويقول تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٢٩].

وقد ربط الله تعالى العبادات بمقاصد أخلاقية وسلوكية تهدف العبادات لتحقيقها، فالحكمة من الصيام تحقيق التقوى في قلوب المؤمنين، والصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، ومن نوى الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج، والزكاة تزكي الأنفس والمال وتطهره.

يقول الله تعالى في شأن الصلاة: ﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ [العنكبوت : ٤٥].

---

(1) مقاصد الشريعة بأبعاد جديدة د. عبد المجيد النجار، ص١٥.

ويقول في شأن الزكاة: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاَتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [التوبة : ١٠٣].

ويقول في شأن الصيام: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة : ١٨٣].

ويقول في شأن الحج: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللّهُ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ﴾ [البقرة :١٩٧].

ويوم أن غفل المسلمون عن هذه المقاصد الأخلاقية، والقيم السلوكية، واهتموا بحرفية العبادة حتى أصبحت مبنى بلا معنى، وجسد بلا روح، وحركات وسكنات لا ترفع من شان صاحبها في الدنيا، ولا تقدمه في الآخرة، أقول يوم أن فعل المسلمون هذا صار حالهم كما نرى، فما استفادوا من عباداتهم لدنياهم، وما انتفعوا بها لآخرتهم، وهانوا على أنفسهم فهانوا على الناس.

ومن يهن يسهل الهوان عليه فمـــا لـــجرح بميـــت إيـــلام

إن دراسة علوم الشريعة بكل فروعها بعيدا عن التربية الإيمانية، و القيم الأخلاقية والسلوكية يعد جناية على تراث هذه الأمة، فقد خرجت هذه الدراسة أجيالا مشوهة، لا ترفع للإسلام راية، ولا تعرف له غاية، وإن كان سلفنا الصالح فعلوا ذلك، فإنما فعلوه من أجل التعمق في هذه العلوم كلها، والتخصص فيها، وإعطائها حقها من البحث العلمي، وما أرادوا هذا الفصل الذي وصلنا إليه، حتى وصل بنا الحال إلى أن بعض الدارسين لعلوم الشريعة هم أكثر الناس تحايلا على شرع الله، وأبعد الناس عن الأخلاق الفاضلة، والقيم النبيلة، وصدق فيهم قول الله تعالى : ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا

وَلَـكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَث أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ * سَاءَ مَثَلاً الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِئَايَاتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُواْ يَظْلِمُونَ ﴾ [الأعراف :١٧٥-١٧٧].

ونحن لا نمانع تقسيم العلوم بهذا الشكل في قاعات الدرس، ولكن الذي نخشاه أن يتحول العلم بالشريعة . بعيدا عن الإيمان والأخلاق . إلى جفاف روحي يؤثر في عطاء الفقهاء وريادتهم للمجتمع، وفاقد الشيء لا يعطيه.

وإننا نهيب بمن يكتب الفقه أو يدرسه، ألا يغفل عن التعريف المقاصدي للمصطلح بجوار التعريف اللغوي والاصطلاحي، ونؤكد على أن التعريف المقاصدي هو مراد الله تعالى الذي يكون عليه الجزاء والعقاب، وهو الغاية التي من أجلها شرعت الأحكام التكليفية.

المبحث الثاني

أهمية العلم بمقاصد الشريعة

لمقاصد الشريعة فوائد لا تنكر، سواء على مستوى علماء الشريعة، أو علماء الفكر، أو علماء **التربية، أو علماء السياسة والاقتصاد، أو غيرهم، ويمكننا أن نشير إلى بعضها في الصفحات التالية:**

أولا : على مستوى الفهم والتطبيق :

لاشك أن لمقاصد الشريعة الإسلامية؛ سواء أكانت مقاصد عامة أو جزئية دور في فهم نصوص الشريعة الإسلامية وتطبيقها، فلا يخفى على دارس أن النصوص التي يتعامل معها المجتهد أربعة أنواع :

١- نصوص قطعية الدلالة قطعية الثبوت.

٢- نصوص قطعية الدلالة ظنية الثبوت.

٣- نصوص ظنية الدلالة قطعية الثبوت.

٤- نصوص ظنية الدلالة ظنية الثبوت.

ومقاصد الشريعة الإسلامية لها دور كبير في النصوص ظنية الدلالة، حيث ينضبط فهم هذه النصوص بأحكام الشريعة العامة، ومقاصدها الكلية والجزئية، وهذا ما يجعل الأولوية لتفسير على آخر من حيث مرعاة التفسير لهذه المقاصد.

وله دور أيضا في تطبيق النصوص قطعية الدلالة قطعية الثبوت، وهذا يظهر واضحا جليا من خلال تصرفات الخلفاء الراشدين ومن عاصرهم، وتبعهم من كبار الصحابة.

فظهر هذا في قتال المرتدين الذين لم يجاهروا بالردة في بداية الأمر، لكنهم منعوا الزكاة بحجة أن هذه الزكاة كانوا يدفعونها لرسول الله ﷺ، وبعد وفاته لا حق لأبي بكر في جمعها !!

كما ظهر في جمع القرآن، وكان واضحا في تصرفات عمر بن الخطاب (رضي الله عنه)، عندما اجتهد في سهم المؤلفة قلوبهم، ورأى أنه لا يمكن شرعا تطبيق حد السرقة في عام المجاعة، حيث الحاجة الشديدة التي تنزل منزلة الضرورة، واجتهد في عدم قسمة الأرض التي أخذها المسلمون من الفتوحات الإسلامية، واكتفى بتقسيم الأموال المنقولة فقط، وغير ذلك من تصرفات عمر التي بدت صادمة لبعض الناس في وقتها، ولكن بعد شيء من التأمل علم معاصروه، وتعلم من أتى بعده أن للرجل نظرة ثاقبة، وفهم عميق للنصوص وإنزالها منازلها الصحيحة وفق منظومة المقاصد الشرعية.

(إن للعلم بالمقاصد المبتغاة من القوانين والشرائع أهمية كبيرة لمن يهمهم أمرها بالتشريع أو بالتطبيق؛ ذلك لأن العلم بالمقصد من القانون أو الحكم الشرعي يفيد أيما إفادة في فهمه الفهم الصحيح أولاً، ثم في تطبيقه التطبيق الرشيد ثانيًا، بحيث يكون كل من الفهم والتطبيق مفضيًا إلى تحقيق الهدف المقصود الذي ابتغاه المشرع، وحينما يكون المقصد مجهولاً أو مختلطًا غير محرر فإن الفهم قد يفقد دليله الموجه وكذلك التطبيق، فإذا القانون أو الحكم الشرعي يخطئ أهدافه فلا يتحقق غرض المشرع منه، وهو أمر كثير الوقوع عند المتشرعين بالقوانين الوضعية وبالشرائع الدينية على حد سواء.

وتظهر أهمية العلم بالمقاصد للمجتهد في أحكام الشريعة في كل من مجالي فهم الأحكام وتنزيلها على الواقع. أما فيما يتعلق بالحاجة إلى المقاصد في الفهم، فإن تحصيل أحكام الشريعة من أدلتها يساعد عليه كثيرًا العلم بالمقاصد، وذلك من حيث

تكون تلك المقاصد المعلومة مرجحة لحكم على آخر عند النظر في النصوص الظنية الدلالة، كما تكون جد مفيدة في استخراج الأحكام بطريق القياس، إذ القياس إنما يعتمد على معرفة العلة كما هو معلوم، وليست العلة إ لا مقصدًا شرعيًا جزئيًا...، فالعلم بها مقصدًا يتوقف عليه استنباط الحكم الشرعي بالقياس)[١].

كما تفيد المقاصد الباحث والدارس (بالرجوع إليها عند فقدان النص في المسائل المستجدة فيرجع المجتهد إلى مقاصد الشريعة من خلال القياس والاستحسان والاستصلاح وغيرها من ضروب الأدلة التي تقوم على رعاية المقاصد، إذ النظرة الشمولية المنسجمة للشريعة وأحكامها لا تتحقق إلا لمن خبروا المقاصد وأدركوا كليات الشريعة وغايتها الكبرى، ثم نظروا في الأحكام من خلال ذلك، ومن فاته هذا المستوى، وأهمل هذا النوع من النظر وقع في التخبط والاضطراب، وجاء بالآراء والأقوال الشاذة المنافية لمقاصد الشارع، فالمقاصد ليست أداة للاجتهاد فحسب، لكنها أيضًا أداة لتوسيعه وتمكينه من استيعاب الحياة بكل تقلباتها وتشعباتها، **وفي هذا يقول الشاطبي رحمه الله:** (فالمجتهد إنما يتسع مجال اجتهاده بإجراء العلل والالتفات إليها، ولولا ذلك لم يستقم له إجراء الأحكام على وفق المصالح إلا بنص أو إجماع) فالنصوص إذا أخذت بظاهريتها وحرفيتها فقط ضاق نطاقها وقل عطاؤها، وإذا أخذت بعللها ومقاصدها كانت معينًا لا ينضب فينفتح باب القياس، وينفسح باب الاستصلاح وتجري الأحكام مجراها الطبيعي في تحقيق مقاصد الشارع بجلب المصالح ودرء المفاسد)، فالاتجاه المقصدي في الاجتهاد واستنباط الأحكام فرضته مقتضيات خلود الشريعة والامتداد إلى أحكامها وبسطها على جميع جوانب الحياة والتدليل على رعايتها لمصالح العباد)[٢].

---

(1) مقاصد الشريعة بأبعاد جديدة د. عبد المجيد النجار ص١٨-٢٠ .

(2) المدخل إلى علم مقاصد الشريعة، ص٢٣.

ثانيًا : قبول الآثار أو ردها :

وقبول الآثار وردها يعتمد على دراسة السند ودراسة المتن، أما دراسة السند فتعتمد على معرفة علم الرجال، ويغلب فيها الصنعة، والخبرة، أما دراسة المتن فتعتمد على معرفة المقاصد العامة للشريعة الإسلامية، وقد يكون السند صحيحا والمتن معلولا حيث إن مفهومه يتعارض مع الأصول العامة للشريعة الإسلامية ومقاصدها، فتحتاج إلى نوع من التدبر فإما أن تفهم في ضوء المقاصد بحيث لا تتعارض معها، وإما أن ترد حتى لو كان سندها صحيحا.

ولهذا ردت عائشة فهم بعض الصحابة لحديث النبي ﷺ (إن الميت ليعذب ببكاء أهله)[1] حيث إنه يتعارض مع قول الله تعالى ﴿**أَلاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى**﴾ **[النجم: ٣٨]**.

واحتدم النقاش حول تأويل هذا الحديث بين أهل الحديث وأهل الفقه وليس هذا مجال للتعرض له، لكن الشاهد أن مقاصد الشريعة تفيد الباحث والدارس في قبول الآثار وردها،حيث إن الاعتماد على السند وحده، والعمل بما يوجبه ظاهر النص دون فهم السياق، وفهم النص الجزئي في ضوء النصوص العامة يوقع في اللبس في أحايين كثيرة، ويظهر أحكام شريعتنا الغراء وكأنها متناقضة، يعارض بعضها بعضا.

ثالثا: تنزيل الأحكام على الواقع :

وتفيد المقاصد الدارس أو الباحث أيضا في تنزيل الأحكام على الواقع، وهذه مسألة هامة، حيث بات من المعلوم بالضرورة بين الباحثين والدارسين أن ثمة فرق بين الحكم والفتوى، وبسبب عدم التفريق بينهما ضلت أفهام وزلت أقدام، فالحكم يتميز بالاستقرار والثبات والعموم، والفتوى تكون لحالة بعينها مراعية الزمان والمكان

(1) صحيح البخاري كتاب الجنائز باب البكاء عند المريض ح١٠٣٤، ومسلم كتاب الجنائز باب الميت يعذب ببكاء أهله عليه، ح ٩٢٧.

والأحوال، وتتغير بتغير الأشخاص والزمان والمكان والأحوال، وآفة بعض المفتين لا تنتج عن جهله بالحكم الشرعي، وإنما سببها هو إنزال الحكم الشرعي على أفعال المكلفين، وقد حدث في العصر الأول عصر النبي ﷺ عندما أفتى بعض الصحابة رجلا قد شج في رأسه بالغسل بسبب الجنابة؛ فمات فقال لهم النبي ﷺ قتلوه قتلهم الله، وهذا فيما رواه أبوداود وغيره بسندهم عن رسول الله عن جابر قال: خرجنا في سفر فأصاب رجلا منا حجر فشجه في رأسه، ثم احتلم، فسأل أصحابه فقال: هل تجدون لي رخصة في التيمم؟ فقالوا: ما نجد لك رخصة وأنت تقدر على الماء. فاغتسل فمات، فلما قدمنا على النبي ﷺ أخبر بذلك فقال: قتلوه قتلهم الله، ألا سألوا إذ لم يعلموا، فإنما شفاء العي السؤال، إنما كان يكفيه أن يتيمم ويعصر أو يعصب على جرحه خرقة، ثم يمسح عليها ويغسل سائر جسده[1].

(وأما فيما يتعلق بالاجتهاد في تنزيل الأحكام على الواقع، فإن للعلم بالمقاصد دورًا كبيرًا فيه؛ وذلك لأن أيما حكم شرعي إنما يراد منه عند العمل به أن يحقق مقصده في الواقع، ولكن قد تعرض عوارض زمانية أو مكانية أو شخصية تجعل المقصد المبتغى من الحكم لا يحصل منه مقصده عند تطبيقه على حالة معينة من الحالات، وحينئذ فالمقصد حينما يكون معلومًا، ويكون معلومًا أيضًا أنه سوف لن يتحقق في الواقع عند تنزيل الحكم الذي شرع من أجله، فإن المجتهد قد يحكم بعدم التنزيل، ويلجأ إلى التأجيل إلى حين تتوفر الشروط التي تجعل المقصد متحققًا عند تطبيق الحكم، وذلك هو صنيع عمر بن الخطاب حينما أجل تطبيق حد السرقة عام المجاعة، فقد كان يعلم المقصد من هذا الحكم، ويعلم أنه سوف لن يتحقق في الواقع لو نزل حكم حد السرقة في ظروف المجاعة، فكان علمه ذلك مؤذنًا بتأجيل

(1) رواه أبوداود في كتاب الطهارة باب في المجروح يتيمم ح٣٣٦.

التنزيل)[1].

رابعًا : مآلات الأفعال :

وتظهر أهمية العلم بمقاصد الشريعة في النظر إلى المآلات، وهذا أمر في غاية الأهمية، فقد يكون الحكم الفقهي صحيحا من حيث الاستدلال، ولكن لو نظر إلى المآل يكون غير مناسبا، ولعل إفتاء ابن عباس (ﷺ) المستفتي الذي يسأل عن توبة قتل العمد يدلل على هذا، فرأي ابن عباس أن له توبة، ولكن في هذا الوقت الذي علم فيه ابن عباس أن الرجل يأخذ رخصة يستبيح به دم مسلم ففي هذه الحالة يحرم الإفتاء بهذا الرأي لما يؤول إليه فعل الرجل، فأفتاه بما يناسب حاله فقال ليس لقاتل العمد توبة.

فالفتوى هنا تتعارض مع مقصد الشريعة الإسلامية في حفظ النفس، وبالتالي لا يمكننا الإفتاء بها في هذا الموضوع، وتظل الفتوى صالحة لزمان ومكان وشخص آخر، لكنها لا تناسب هذا الشخص بأي حال من الأحوال.

واعتبار المآل أصل ثابت في الشريعة دلت عليها النصوص الكثيرة بالاستقراء التام، كما في قوله تعالى: ﴿ وَلاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالإِثْمِ ﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿ وَلا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾[3].

وما جاء عن النبي ﷺ حين أشير إليه بقتل من ظهر نفاقه قوله: "أخاف أن

---

(1) مقاصد الشريعة بأبعاد جديدة، ص٢٠.

(٢) البقرة، آية : ١٨٨.

(٣) الأنعام، آية : ١٠٨ .

يتحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه"[١].

وقوله: "لولا قومك حديث عهدهم بكفر لأسست البيت على قواعد إبراهيم"[٢].

يقول الإمام الشاطبي – رحمه الله– في أهمية اعتبار المآلات عند النظر والاجتهاد: "النظر في مآلات الأفعال معتبر مقصود شرعا كانت الأفعال موافقة أو مخالفه، وذلك أن المجتهد لا يحكم على فعل من الأفعال الصادرة عن المكلفين بالإقدام أو بالإحجام إلا بعد نظره إلى ما يؤول إليه ذلك الفعل؛ فقد يكون مشروعا لمصلحة قد تُستجلب أو لمفسدة قد تُدرأ، ولكن له مآل على خلاف ما قصد فيه، وقد يكون غير مشروع لمفسدة تنشأ عنه أو مصلحه تندفع به، ولكن له مآل على خلاف ذلك، فإذا أطلق القول في الأول بالمشروعية فربما أدى استجلاب المصلحة فيه إلى مفسدة تساوي المصلحة أو تزيد عليها؛ فيكون هذا مانعا من انطلاق القول بالمشروعية، وكذلك إذا أطلق القول في الثاني بعدم المشروعية ربما أدى استدفاع المفسدة إلى مفسدة مثلها أو تزيد؛ فلا يصح إطلاق القول بعدم المشروعية، وهو مجال للمجتهد صعب المورد، إلا أنه عذب المذاق، محمود الغب، جارٍ على مقاصد الشريعة"[٣].

والصحابة –رضوان الله عليهم– كانوا يفهمون مقصد الشارع، ويتصرفون وفقا

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب ما ينهى عن دعوة الجاهلية، وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب نصر الأخ ظالما أو مظلوما.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب من ترك بعض الاختيار مخافة أن يقصر فهم بعض الناس عنه فيقعوا في أشد منه

(3) البحر المحيط ٧/ ١٥٦، أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ٣١٠، الموافقات ٤/ ١٦٠ – ١٦١ وينظر أيضا ضوابط الفتيا في النوازل المعاصرة، للمؤلف بحث منشور في ندوة الإفتاء في قضايا النوازل وزارة الأوقاف والشئون الدينية . سلطنة عمان.

لهذا الفهم؛ فهذا أمير المؤمنين عمر (ﷺ) يترك تغريب الزاني البكر مع وروده في الحديث؛ حيث قضى –عليه الصلاة والسلام– بجلده مائة وتغريبه سنة؛ وذلك لما وجد أن التغريب قد يؤدي إلى مفسدة أكبر، وهى اللحاق بأرض العدو، وقال: " لا أغرب مسلما ".

وقال أمير المؤمنين علي (ﷺ): " كفى بالنفي فتنة ".

وأيضا فإن عمر بن عبد العزيز (ﷺ) لّما تولى الملك أّجل تطبيق بعض أحكام الشريعة، فلّما استعجله ابنه في ذلك أجابه بقوله: "أخاف أن أحمل الناس على الحق جملة فيدفعونه جملة، ويكون من ذا فتنة"(١).

وهذا الإمام ابن تيمية –رحمه الله– حين رأى صاحبا له يكلمه عن التتار يشربون الخمر، وأنه واجب عليه أن ينهاهم، فقال له: "إنما حرم الله الخمر لأنها تصد عن ذكر الله وعن الصلاة، وهؤلاء يصدهم الخمر عن قتل النفوس وسبي الذّرية وأخذ الأموال فدعهم"(٢).

خامسا: الترجيح بين الأدلة التي ظاهرها التعارض :

للعلماء طرق في الترجيح بين الأدلة التي ظاهرها التعارض، ومن أهم هذه الطرق النظر في المقاصد العامة للشريعة الإسلامية، فبها نستطيع دفع التعارض بين الأدلة بترجيح أحدها على الآخر (إن مقاصد الشريعة تعين المجتهد أو القاضي أو الفقيه على الترجيح بين وجوه الأدلة التي ظاهرها التعارض، فيرجع المجتهد فيما يرجع إليه لحسم هذا التعارض الظاهري إلى معاني مقاصد الشريعة، فالترجيح بالمقاصد من

(1) الموافقات ٤/ ١٦٠ – ١٦١.

(2) الفتاوى الكبرى ٤/٤٦٥، وينظر بحث الإفتاء في قضايا النوازل للمؤلف.

طرق الترجيح المعتمدة في أصول الفقه خاصة في الترجيح بين الأقيسة المتعارضة، وهو ما يمكن من انتقاء الآراء المناسبة لطبيعة العصر في الفقه الإسلامي، وبذلك يمكن تخليص الفقه من مظاهر الجمود والسلبية التي التصقت به في عصر الجمود مثل النظرة الجزئية والصورة الآلية المجردة البعيدة عن فقه الواقع، التي انتهت بالفقه إلى قواعد مجردة وقوالب بعيدة عن الارتباط بالغايات الأصلية[1].

سادسا: الانتقال بالمقاصد من التنظير للتطبيق :

يجب ألا يقف الانتفاع بمقاصد الشريعة عند حد التنظير بل لابد أن يتجاوزه إلى مجال الحياة، ليستفيد منه كافة أفراد المجتمع، بل تستفيد من هذا العلم الحكومات والجامعات والأحزاب السياسية، والجماعات التي تعمل في خدمة الإسلام، والمؤسسات التعليمية والتثقيفية وغيرها حتى نصل بهذا العلم إلى الأفراد أنفسهم.

فالدولة التي تنفق على كرة القدم ومحترفيها أضعاف أضعاف ما تنفقه على التعليم ورجاله دولة فاشلة من المنظور المقاصدي، أو تلك التي تنفق على الفن الهابط أضعاف أضعاف ما تنفقه على الصحة وحماية مواطنيها من الأمراض سواء في مجال الوقاية من الأمراض أو علاجها إن وقعت الإصابة بها، هذه الدولة التي تفعل هذا دولة تائهة لا يمكنها أن تتقدم في مجال الدنيا ولا مجال الدين.

وليست الدول والحكومات وحدها هي التي يمكنها الإفادة من علم المقاصد، بل

---

(1) المدخل إلى علم مقاصد الشريعة ... ص٢٤، وينظر أيضا مقاصد الشريعة الإسلامية لفضيلة العلامة محمد الطاهر بن عاشور، ص١٣– ١٦، والاجتهاد المقاصدي حجيته، ضوابطه، مجالاته د. نور الدين مختار الخادمي، ص٤٤، مكتبة الرشد، ط١، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م، قواعد المقاصد عند الإمام الشاطبي عرضا ودراسة وتحليلا د. عبد الرحمن إبراهيم الكيلاني، ص٦٢– ٦٤، ط٢، المعهد العالمي للفكر الإسلامي – دار الفكر بدمشق ١٤٢٦ هـ/٢٠٠٥م.

هذا واجب الأحزاب السياسية، والجماعات الدينية، والجمعيات المتنوعة، وشركات القطاع العام والقطاع الخاص بأنواعها أن تزن أعمالها، وتقّيمها وفق مفهوم المقاصد، ووفق سلم الأولويات التي تقدم الدين ثم النفس ثم العقل، ثم النسل أو العرض، ثم المال، وهذا يرتب ترتيبا آخر حسب الضرورات والحاجيات والتحسينيات.

وعلى الأفراد والأسر أن تقيم أعمالها ونفقاتها وفق سلم الأولويات الذي يبنى على المقاصد أيضا، فكثير منا من ينفق على الكماليات أضعاف ما ينفقه على الضروريات أو الحاجيات، وربما يأتي الدين في ذيل اهتماماته هذا إن كان يهتم به أصلا ...

فلابد من تبسيط هذا العلم وتربية الأفراد عليه، حتى يفهمه الأفراد، وتبنى عليه الأسر، وتقيم حياتها عليه، وبهذا ينصلح المجتمع كله، وينصلح بصلاح المجتمع الدول والحكومات.

لقد كثرت المؤتمرات في الفترة الماضية، وكتبت البحوث والمقالات، وأقيمت الندوات العلمية المتخصصة، وأنفقت عليها الملايين، وكل ذلك يحدث بعيدا عن مجال الحياة العام، ولم نستطع أن نستفيد من هذا العلم أو نفيد به غيرنا.

إن المسلمين . خاصة، والناس عامة . في أمس الحاجة إلى فهم هذا العلم والتربية عليه، والتصرف في كافة شئون حياتهم وفق هذا الترتيب المبهر، الذي غفلنا عنها وهو في متناول أيدينا وتحت أنظارنا ورحنا نتسول خططنا من الشرق والغرب حتى نستورد من يحل لنا مشكلاتنا الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، ولم نعد بشيء لأن فاقد الشيء لا يعطيه.

والغرب أو الشرق وإن كان قد قطع شوطا كبيرا في مجال التقدم العلمي والتكنلوجي، وقطع شوطا مماثلا أو أكثر في مجال الحريات العامة وحقوق الإنسان،

لكنه ما يزال يحبوا في مجال الأخلاق والقيم وفق سلم الأولويات الشرعية، فيعنى بحقوق الحيوان، وينتهك حقوق الإنسان خاصة خارج حدوده التي يعيش فيها، وينفق على الكلاب ما لا ينفقه على الجوعى والمرضى، ثم إنه أولا وأخيرا قد أغفل الدين تماما، ولأجل هذا هو يعيش في حيرة واضطراب وقلق نفسي وخوف من المستقبل، فهو يشقى بالحضارة والرقي والتقدم، مثل ما يشقى الأخرون بالتخلف والمرض والقهر.

وفى هذا المعنى كتب الأستاذ عمر عبيد حسنة في تقديمه لكتاب الاجتهاد المقاصدى: (إن اقتصار الاجتهاد المقاصدي على المجال الفقهي التشريعي فقط، واحتجابه في هذه الزاوية –على أهميتها– وامتدادها في عمق المجتمعات البشرية، يحمل الكثير من الخلل والمضاعفات، ويورث الكثير من التخلف والعجز والحياة العبثية في المجالات المتعددة، والضلال عن تحديد الأهداف، ومن ثم انعدام المسؤولية وغياب ذهنية المراجعة والنقد والتقويم.

صحيح قد يكون الاجتهاد المقاصدي في الفقه والتشريع، هو الموقع الأهم والأخص، لكن قد تكون المشكلة المطروحة التي نعاني منها تكمن في غياب العقل المقاصدي والتفكير المقاصدي والسلوك المقاصدي الهادف، الذي ينعكس على الأنشطة والمسالك البشرية في جميع حقولها الفكرية والمعرفية والسلوكية.

ذلك أن الأصل في العقل المقاصدي أن يكتشف الطاقات، ويضع لها الخطة والهندسة المناسبة، ويؤصل المنطلقات، ويحدد الأهداف المرحلية والاستراتيجية، ويضع البرامج، ويبتكر الوسائل، ويحدد المسؤوليات، ويبصّر بمواطن القصور والخلل، ويكتشف أسباب التقصير، ويدفع للمراجعة والتقويم واغتنام الطاقة، والتقاط الفرصة التاريخية، والإفادة من التجربة، ويُكسب العقل القدرة على التحليل والتعليل والاستنتاج والقياس، واستشراف المستقبل في ضوء رؤية الماضي، ويحمي من الإحباط والخلط

بين الإمكانيات والأمنيات ...[1].

وقد بسط د. الريسونى القول في هذا الموضع فكتب :

فائدة المقاصد لاتنحصر في الاجتهاد والمجتهدين، بل يمكن تحصليها لكل من تشبع بها أوتزود بنصيب منها، وتكون فائدته بقدر علمه وفهمه لمقاصد الشريعة، وبقدر اعتماده لها واعتماده عليها في فكره ونظره.

فالمقاصد بأسسها ومراميها،وبكلياتها ومع جزئياتها، وبأقسامها ومراتبها، وبمسالكها ووسائلها،تشكل منهجاً متميزاً للفكر والنظر، والتحليل والتقويم، والاستنتاج والتركيب.

وإذا كان الفكر الإسلامى القديم . متمثلاً بالدرجة الأولى في علم الكلام، وما تولد عنه من تشعبات وتأثيرات . قدغفل عن المقاصد مضموناً ومنهجاً ، فإن الفكر الإسلامى الحديث مدعو . حالاًواستقبالاً . للاستفاد من المقاصد، ومن المنهج المقاصدي، خاصة مع تزايد المؤلفات والدراسات التي تمهد هذا الطريق وتساعد على سلوكه.

وأول ما يستفيد الفكر والمفكرون من منهج المقاصد،هو أن يكون فكراً قاصداً ، يحدد مقصوده ،ويقدر جدوى مقصوده ،قبل أن يفتح قضاياه ويدخل في معاركه.

فتحديد المقصد، ومدى أولويته وملائمته ،ومدى جدواه ومشروعيته، هو الذي يحدد المضي أو عدمه، وهو الذي يحدد ما يجب التركيز عليه وما لا يستحق ذلك.

وهذا يقودنا إلى ما توفره المقاصد والثقافة المقاصدية من عقلية ترتب أولوية للمصالح والمفاسد ولكافة الشئون. وهو ما يفتقده أكثر الناس وكثير من المفكرين

---

(1) الاجتهاد المقاصدي، ص١٣.

والمنظرين فتجدهم يدافعون . مثلاً . عن الاقتصاد والتنمية الاقتصادية ويخربون البشر والتنمية البشرية ...[١].

وقد كتب الأستاذ أحمد محمد الراشد مبحثا هاما عن مراعاة المقاصد وأثرها في الدعوة والحركة ضمن كتابه عن أصول الإفتاء والاجتهاد التطبيقي في نظريات فقه الدعوة الإسلامية، حري بالدعاة في الحركات الإسلامية المعاصرة الرجوع إلى الكتاب كله، وخاصة ما كتبه عن تقريرات أصولية، وتحدث فيه عن القياس والاستصلاح، والمقاصد والقواعد الفقهية، وكيفية تفعيلها والإفادة منها في مجال الدعوة والحركة[٢].

(1) نحو تفعيل مقاصد الشريعة د. جمال الدين عطية ص٢٢٩- ٢٣٠ نقلا عن الفكر المقاصدي د. أحمد الريسوني، ص٩٩- ١٠٤.

(2) أصول الإفتاء والاجتهاد التطبيقي في نظريات فقه الدعوة الإسلامية ج١، ص١٣٥-٢٩٠، ط١، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م، دار المحراب فان كوفر . كندا - زيورخ . سويسرا .

المبحث الثالث

نشأة علم المقاصد وتطوره

لابد أن نميز هنا بين أمرين:

الأول : وجود علم المقاصد في عقول العلماء، وداخل النصوص الشرعية، ومراعاتها في النصوص الشرعية، وما صدر من فتاوى من الصحابة والتابعين، فالمقاصد بهذا المعنى . وجدت مع النصوص نفسها، فكثير من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية جاءت معللة.

الثاني : ظهور المصطلح وتطوره حتى صار علما مستقلا ومادة تدرس في الجامعات والمعاهد العلمية.

ونستطيع أن ندلل على وجود المقاصد في النصوص الشرعية بأدلة كثيرة من النصوص نفسها، نذكر منها: قول الله تعالى ﴿ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلاَ تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِّكَيْلاَ تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ مَا أَصَابَكُمْ وَاللّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [آل عمران: ١٥٣].

وقوله تعالى ﴿وَاللّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لاَ يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾ [النحل : ٧٠].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً ﴾ [الأحزاب: ٣٧].

وقوله تعالى: ﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ * لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا

آتاكم واللّه لا يحبّ كلّ مختال فخور﴾ [الحديد : ٢٢ -٢٣].

وقوله تعالى : ﴿ رُّسلاً مُّبَشِّرِينَ ومُنذِرِينَ لئلاّ يكون لِلنَّاسِ عَلَى اللّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وكَانَ اللّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [النساء: ١٦٥].

وقوله تعالى : ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللّهَ وآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ من رَّحْمَتِهِ ويَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ ويَغْفِرْ لَكُمْ واللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * لِئَلاَّ يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلاَّ يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللّهِ وأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللّهِ يُؤْتِيهِ من يَشَاءُ واللّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد :٢٨-٢٩].

وقوله تعالى : ﴿ ومِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وحَيْثُ ما كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ واخْشَوْنِي ولأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ ولَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [البقرة :١٥٠].

وقوله تعالى﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وإِنَّ اللّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ * الَّذِينَ أُخْرِجُوا من دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللّهُ ولَوْلاَ دَفْعُ اللّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وبِيَعٌ وصَلَوَاتٌ ومَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللّهِ كَثِيرًا ولَيَنصُرَنَّ اللّهُ من يَنصُرُهُ إِنَّ اللّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج : ٣٩-٤٠].

وقوله تعالى: ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ من قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا ومَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ولَقَدْ جَاءتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَلِكَ فِي الأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾ [المائدة : ٣٢].

فنجد في كل الأحكام السابقة .وغيرها الكثير .أنها معللة بعلل معقولة المعنى، فإن الإسلام يخاطب العقل والفطرة السليمة، وليس فيه شيء من الطالسم والخرافات.

كما نجد ذلك واضحا جليا في سنة النبي ﷺ القولية والعملية، منها على سبيل

المثال قول النبي ﷺ لمن أراد الخِطبة (انظر إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينكما)[١] فهنا يحثه على النظر حتى يعلم أن فيها من الصفات الخُلقية والخِلْقية ما يجعله يقدم على الزواج منها، فتدوم العشرة والمحبة بينهما، وإن كان بعض الناس في عصرنا يأخذ بظاهر النص فينظر بعينه ليرى جمالها، أو دمامتها، وطولها أوقصرها، وسمنها أو نحافتها، غير أننا نرى أن النظر هنا أعمق وأشمل من هذه النظرة القاصرة، حيث يرى أصلها وخلقها وثقافتها وصفاتها الحسية والمعنوية أيضا.

وقد تقدم أيضا قول النبي ﷺ حين أشير إليه بقتل من ظهر نفاقه قوله: " أخاف أن يتحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه "[٢].

وقوله: " لولا قومك حديث عهدهم بكفر لأسست البيت على قواعد إبراهيم"[٣].

وقد استمر هذا الأمر مع صحابة النبي ﷺ في حياته وبعد وفاته فكلهم كانوا يراعون مقاصد الشرع الكلية والجزئية فيما يصدر منهم من فتاوى وأحكام، وكانت المقاصد عندهم سليقة، كما كانت اللغة العربية سليقة قبل تأسيس علم النحو، وكما كان أصول الفقه حاضرا في أذهانهم قبل تدوينه.

وسار على خطاهم التابعون والفقهاء المجتهدون.

لكننا نستطيع أن نميز بين ثلاثة مراحل مر علم المقاصد بها وهي :

المرحلة الأولى: كان الفقهاء والأصوليون فيها يبحثون في مقاصد الشريعة بغير هذا الاسم في الغالب وإنما باسم علل الشريعة أو حكمة الشريعة أو أسرار الشريعة أو ما في معناها، وكان بحثهم في ذلك يرد أثناء بحثهم في مسائل أخرى بصفة متناثرة لا

(١) سنن الترمذي كتاب النكاح باب ما جاء في النظر إلى المخطوبة ح ١٠٨٧.
(٢) سبق تخريجه.
(٣) سبق تخريجه.

يتميز فيها عن غيره من المباحث، وامتدت هذه المرحلة ما يقارب أربعة قرون، وقد كانت بوادر ذلك البحث تتم في عهد الصحابة والتابعين إلى عهد بداية التأليف، في العلوم بصفة إشارات وتليمحات، واستخلاصات لحكمة الشريعة، وعلل أحكامها، فلما تقدم التأليف في العلوم تطور هذا البحث واندرج معظمه في علم أصول الفقه، فإذا مصطلحات علل الشريعة ومحاسن الشريعة وأسرار الشريعة تروج في مؤلفات هذا العلم وقد تفرد مؤلفات تخص بهذه العناوين، ولعل أبرز من فعل ذلك الحكيم الترمذي(القرن الثالث) وأبو منصور الماتريدي (ت ٣٣٣هـ) وأبوبكر الأبرهري (ت ٣٧٥هـ) وأبو بكر الباقلاني (ت ٤٠٣هـ).

المرحلة الثانية : شهد فيها البحث في المقاصد تطورًا تمثل في نشأة مباحث بهذا المصطلح ذات تميز عن غيرها من المباحث الأصولية وإن لم تكن مفردة في فصول خاصة بها أو مؤلفات مستقلة في شأنها. وفي هذه المرحلة ظهر التقسيم الثلاثي الشهير لمقاصد الشريعة بين مقاصد ضرورية ومقاصد حاجية ومقاصد تحسينية، ذلك التقسيم الذي أصبح العمود الفقري لعلم مقاصد الشريعة إلى اليوم، ومن أشهر أعلام هذه المرحلة إمام الحرمين الجويني (ت ٤٧٨ هـ) الذي يعتبر المؤسس الحقيقي لتميز البحوث المقاصدية عن سائر البحوث الأصولية وخاصة في كتاب البرهان، والإمام أبو حامد الغزالي (ت ٥٠٥ هـ) وخاصة في كتابيه شفاء العليل والمستصفى، والإمام فخر الدين الرازي (ت ٦٠٦ هـ) وخاصة في كتابه المحصول، والإمام سيف الدين الآمدي (ت ٦٣١ هـ) وخاصة في كتابه الإحكام.

المرحلة الثالثة: هي مرحلة أصبح فيها علم المقاصد يتجه إلى أن يكون فرعًا مستقلاً بذاته من فروع العلوم الشرعية متولدًا من علم أصول الفقه. وقد تم ذلك تدريجيًا بأن أصبح البحث في مقاصد الشريعة يتم ضمن أبواب بأكملها متميزة عن سائر أبواب أصول الفقه، ثم بأن أصبح يتم في مؤلفات مستقلة إيذانًا بكونه أصبح

علًما قائمًا بذاته قسيمًا لعلم أصول الفقه وليس قسمًا منه، ولعل هذه المرحلة ابتدأت بالإمام عز الدين بن عبد السلام (ت ٦٦٠هـ) في كتابه قواعد الأحكام في مصالح الأنام، فهو كتاب يكاد يكون متمحضا لمقاصد الشريعة، وعلى منواله نسج تلميذه شهاب الدين القرافي في كتابه الفروق ثم جاء الإمام ابن تيمية (ت ٧٢٨ هـ) فتوسع في بحوث المقاصد في مجمل مؤلفاته وإن لم يعلم له كتاب خاص في ذلك، وجاء بعده تلميذه ابن القيم (ت ٧٥١هـ) فزاد توسعا في تلك البحوث وخاصة في كتابه شفاء العليل وأعلام الموقعين.

فلما جاء أبو إسحاق الشاطبي (ت ٧٩٠ هـ) طور علم المقاصد تطويرا نوعيا حيث وضع أساسه كعلم مستقل، وذلك بأن خصص له الجزء الثاني كاملا من كتابه الذائع الصيت (الموافقات) وأصبح هذا الجزء كأنما هو كتاب خاص بعلم مقاصد الشريعة استقل به عن علم أصول الفقه، أو أوشك، ثم جاء بعد ذلك على تطاول من الزمن في العصر الحديث الإمام محمد الطاهر ابن عاشور (ت ١٩٧٣م) فدعى إلى إقامة علم المقاصد علما مستقلا قائما بذاته، وألف في ذلك كتابه الشهير مقاصد الشريعة الإسلامية، وعلى ذات النسق ألف الأستاذ علال الفاسي كتابه الشهير مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها، وقد أصبح اليوم علم المقاصد علما مستقلا يدرس في الجامعات مقررا قائما بذاته[١].

وقد قام أخيرا أستاذنا الدكتور محمد كمال إمام بعمل موسوعته عن المقاصد لتشمل ما كتب عن المقاصد من بداية عصر التدوين الفقهي حتى يومنا هذا، وهو عمل شاق وجاد يحتاج إلى دراسة خاصة.

---

(١) مقاصد الشريعة بأبعاد جديدة ص٢٢ – ٢٣، وينظر المدخل إلى علم مقاصد الشريعة، ص٢٥-٦٧.

المبحث الرابع

طرق معرفة المقاصد

تحدث العلماء قديما وحديثا حول الطرق التي يمكننا معرفة المقاصد بها، ويمكننا أن نختار ثلاثة نماذج، قديم وهو الإمام الشاطبي، وحديثين وهو العلامة ابن عاشور، والدكتور عبد المجيد النجار.

يذكر الدكتور أحمد الريسوني طرق معرفة المقاصد عند الإمام الشاطبي من خلال كتابه المقاصد فيقول :

١. فهم المقاصد وفق مقتضيات اللسان العربى :

يقول الشاطبي : (إن هذه الشريعة المباركة عربية لا مدخل فيها للألسن العجمية) وهو لايريد بهذا، التطرق إلى مسألة ما إذا كان في القرآن ألفاظ ذات أصول أعجمية أم لا، (إنما البحث المقصود هنا أن القرآن نزل بلسان العرب على الجملة، فطلب فهمه إنما يكون من هذا الطريق خاصة..، فمن أراد تفهمه، فمن جهة لسان العربي يفهم، ولا سبيل إلى تطلب فهمه من غير هذه الجهه. فهذا هو المقصود من المسألة).

٢. الأوامر والنواهى الشرعية بين التعليل والظاهرية :

هذه الكيفية من كيفات معرفة مقاصد الشارع هى امتداد لسابقها، وتطبيق لها؛ لأن الأمر والنهى موضوعان في الأصل اللغوي لإفادة الطلب؛ الأمر لطلب الفعل، والنهي لطلب الترك. فالآمر قاصد إلى حصول الفعل، والناهى قاصد إلى منع حصول الفعل.

٣- المقاصد الأصلية والمقاصد التبعية :

هذا التقسيم للمقاصد استعمله الشاطبي كثيراً في عدة مواضع من الموافقات وقد يستعمل اصطلاحاً آخر، مرادفا له، وهو القصد الأول والقصد الثاني.

ومضمن هذا التقسيم، أن للأحكام الشرعية مقاصد أساسية، تعتبر الغاية الأولى والعليا للحكم، ولها مقاصد ثانوية تابعة للأولى، ومكملة لها. (مثال ذلك، النكاح : فإنه مشروع للتناسل على القصد الأول، ويليه طلب السكن، والازدواج، والتعاون على المصالح الدنيوية والأخروية، من الاستمتاع بالحلال، والنظر إلى ما خلق الله من المحاسن في النساء، والتجمل بمال المرأة، أو قيامها عليه وعلى أولاده منها، أو من غيرها، أو أخواتها، والتحفظ من الوقوع في المحظور من شهوة الفرج، ونظرة العين، والازدياد من الشكر بمزيد النعم من الله على العبد، وما أشبه ذلك.

٤- سكوت الشارع :

ومعلوم أن الشارع قد يسكت عن أمور، وعن أحكام، لعدم توفر أسبابها ونوازلها، وهو ما فتح لأجله باب الاجتهاد والقياس..، فهذا ليس هو المقصود هنا.

وإنما المقصود هنا : سكوت الشارع عن إعطاء حكم، أو وضع تشريع، مع أن (موجبه المقتضى قائم، فلم يقرر فيه حكم، عند نزول النازلة، زائد على ما كان في ذلك الزمان، فهذا الضرب، والسكوت فيه كالنص على أن قصد الشارع أن لا يزاد فيه ولا ينقص، لأنه لما كان هذا المعنى الموجب لشرع الحكم العملي موجودا، ثم لم يشرع الحكم دلالة عليه، كان ذلك صريحا في أن الزائد على ما كان هنالك بدعة زائدة، ومخالفة لما قصده الشارع، إذا فهم من قصده: الوقوف عند ما حد هنالك، لا الزيادة عليه، ولا النقصان منه)....

٥- الاستقراء :

الشاطبي يربط بين الاستقراء والكشف عن المقاصد من خطوته الأولى في

كتاب (الموافقات) وذلك في خطبة الكتاب، وهو يشرح قصة هذا التأليف، حيث قال: (ولما بدا من مكنون السر ما بدا، ووفق الله الكريم لما شاء منه وهدى، لم أزل أقيد من أوابده، وأضم من شوارده تفاصيل وجملا، معتمدا على الاستقراءات الكلية، غير مقتصر على الأفراد الجزئية، ومبينا أصولها النقلية بأطراف من القضايا العقلية، حسبما أعطته الاستطاعة والمنة في بيان مقاصد الكتاب والسنة..)

و لما كانت مقاصد الكتاب والسنة كلها قائمة على أساس فكرة تعليل الشريعة وأحكامها. وأن خلاصة هذا التعليل تتمثل في كون الشريعة معلله، برعاية المصالح، فإن أول ما بدأ به الشاطبي استدلاله على هذا، هو الاستقراء: (والمعتمد أنما هو أنا استقرينا من الشريعة أنها وضعت لمصالح العباد)[1].

أما العلامة ابن عاشور ـ رحمه الله ـ فيذكر طرقا ثلاثة لمعرفة المقاصد فيقول:

الطريق الأول: وهو أعظمها استقراء للشريعة في تصرفاتها وهو على نوعين:

النوع الأول: أعظمهما استقراء الأحكام المعروفة عللها الآيل إلى استقراء تلك العلل المثبتة بطرق مسالك العلة فإن باستقراء العلل حصول العلم بمقاصد الشريعة بسهولة؛ لأننا إذا استقرينا عللا كثيرة متماثلة في كونها ضابطا لحكمة متحدة أمكن أن نستخلص منها حكمة واحدة فنجزم بأنها مقصد شرعي، كما يستنتج من استقراء الجزئيات تحصيل مفهوم كلي حسب قواعد المنطق....النوع الثاني من هذا الطريق : **استقراء أدلة أحكام اشتركت في علة بحيث يحصل لنا اليقين بأن تلك العلة مقصد مراد للشارع مثاله: النهي عن بيع الطعام قبل قبضه علته طلب رواج الطعام في الأسواق. والنهي عن بيع الطعام بالطعام نسيئة إذا حمل علي إطلاقه عند الجمهور**

(١) نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي د. أحمد الريسوني، ص٢٣٥ –٢٤٧ باختصار وتصرف.

علته أن لا يبقى الطعام في الذمة فيفوت رواجه. ..

الطريق الثاني : أدلة القرآن الواضحة الدلالة التي يضعف احتمال أن يكون المراد منها غير ما هو ظاهرها بحسب الاستعمال العربي بحيث لا يشك في المراد منها إلا من شاء أن يدخل علي نفسه شكا لا يعتد به، ألا ترى أنا نجزم بأن معنى : {كتب عليكم الصيام } {البقرة ١٨٣ } أن الله أوجبه؟ . ولو قال أحد إن ظاهر هذا اللفظ أن الصيام مكتوب في الورق لجاء خطأ من القول ....

الطريق الثالث: السنة المتواترة وهذا الطريق لايوجد له مثال إلاَّ في حالين:

الحال الأول: المتواتر المعنوي الحاصل من مشاهدة عموم الصحابة عملاً من النبي ﷺ فيحصل لهم علم بتشريع في ذلك يستوي فيه جميع المشاهدين، وإلي هذا الحال يرجع قسم المعلوم من الدين بالضرورة وقسم العمل الشرعي القريب من المعلوم ضرورة مثلمشروعية الصدقة الجارية المعبر عن بعضها بالحبُس.... وأمثلة هذا العمل في العبادات كثيرة، ككون خطبة العيدين بعد الصلاة.

الحال الثاني: تواتر عملي لآحاد الصحابة من تكرر مشاهدة أعمال رسول الله ﷺ بحيث يستخلص من مجموعها مقصدا شرعيا...[1].

أما النموذج الثالث . وهو الأستاذ الدكتور عبد المجيد النجار فيذكر أربعة مسالك لمعرفة المقاصد وهي :

أ- مسلك الأمر الإلهي:

فحينما يثبت أي حكم شرعي بطلب إلهي، فمعنى ذلك أن ذلك الطلب الذي ثبت به الحكم هو طلب وضع لذلك الحكم مقصدًا شرعيًا من أجله شرع، فيكون

(١) مقاصد الشريعة الإسلامية ١٧-٢٠ باختصار وتصرف، وينظر الاجتهاد المقاصدي، ص٤٥-٤٦.

الطلب إذن مقتضيًا للحكم، وذلك كطلب الترك للسرقة المتضمن لحكم تحريم السرقة، ومقتضيًا في ذات الوقت للمقصد الذي وضع من أجله ذلك الحكم وهو في هذا المثال مقصد حفظ المال ضرورة أن كل حكم إنما وضع لتحقيق مقصد شرعي، وقد يكون الطلب المتضمن للحكم متضمنًا للمقصد على وجه التعيين الصريح، وقد لا يكون كذلك، وفي كل الحالات فإن الطلب الإلهي يكون دومًا متضمنًا للمقصد الشرعي المبتغى من الحكم الذي يقتضيه.

ب- مسلك البيان النصي:

في نصوص القرآن والحديث بيانات تحدد المقاصد الشرعية، وهي بيانات لا تشمل كل المقاصد لا العامة ولا الخاصة والجزئية، كما أنها تتفاوت في دلالتها على المقاصد في درجة اليقين والظن، ولكنها مع ذلك تعتبر مسلكًا أصليًا في العلم بمقاصد الشريعة، إذ هي بالإضافة إلى كونها تحدد جملة واسعة من المقاصد الكلية والجزئية فإنها تمثل قاعدة متينة ترشد إلى الكيفية التي يتم بها تحديد المقاصد التي لم يشملها البيان النصي، وتكسب ملكة في تبين تلك المقاصد وتعيينها، فهي إذن تعتبر كالموجه المعين على تعيين المقاصد التي لم يرد فيها تعيين باعتبارها أنموذجًا يؤسس لجملة أصلية منها، وعلى هديها يمكن أن يستبين الباحث ما يطلب من المقاصد العامة والخاصة والجزئية.

وذلك في مثل قوله تعالى﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً﴾ [المائدة: ٣٢] في إفادته أن حكم القصاص مقصده درء المفاسد التي تترتب على القتل. ..

ج- مسلك الاستقراء :

ومن طرق الاستقراء أن يعمد الباحث إلى جملة من أحكام فيجد أن كلاً منها قد

تحدد مقصده بوجه من وجوه التحديد، فكان مقصدًا واحدًا، فيتبين بهذا الاستقراء أن ذلك المقصد هو مقصد شرعي لنوع الأحكام التي تندرج تحته تلك المفردات منها. ومثال ذلك ما جاء من نهي عن بيع الرطب بالتمر المجذوذ وهو المزابنة، وبيع الثمار قبل بدو صلاحها، وبيع ما في بطون الأنعام قبل وضعها، وبيع الإنسان ما ليس في ملكه كالسمك في البحر قبل صيده، فهذه الأحكام جميعًا تشترك في علة الجهالة في أحد العوضين، وهو ما يفضي إلى استخلاص مقصد منها يجمعها كلها وما هو في حكمها، وهو منع الغرر في البيع، وقد تحصل هذا المقصد بالاستقراء.

د- مسلك العمل النبوي :

إن الأفعال النبوية التبليغية يمكن أن تكون بذاتها أو بقرائن ظروفها وأحوالها مسلكًا يعرف منه المقصد الشرعي؛ وذلك لأن النبي ﷺ لما يداوم على إتيان فعل ما في مناسبات متعددة، وفي ظروف مختلفة، فإن تلك المداومة يتحصل منها للناظر فيها أن تلك الأفعال إنما كانت لتحقيق هدف من أجله وقعت وتكررت، وذلك هو المقصد الشرعي منها، فيعرف إذن من خلال ذات تلك الأفعال المتكررة ...[1].

المبحث الخامس

أقسام المقاصد

لمقاصد الشريعة أقسام كثيرة، ذكرها العلماء في القديم والحديث يمكننا إيجازها ثم تفصيلها على النحو التالي :

أولاً: باعتبار محل صدورها :

---

(١) مقاصد الشريعة بأبعاد جديدة ص٢٧- ٣٥، باختصار وتصرف، وينظر أيضا دراسة في فقه المقاصد الشريعة د. يوسف القرضاوي ٢٣- ٢٥.

أ- مقاصد الشارع.

ب- مقاصد المكلف.

ثانياً : باعتبار مدى شمولها لمجالات التشريع وأبوابه :

أ- المقاصد العامة (ويشترط فيها أن تكون ثابتة، ظاهرة، منضبطة).

ب- المقاصد الخاصة.

ج- المقاصد الجزئية.

ثالثاً: باعتبار مدى الحاجة إليها (آثارها في قوام أمر الأمة) :

أ- ضرورية.

ب- حاجية.

ج- تحسينية.

رابعاً: باعتبار تعلقها بعموم الأمة أو جماعتها أو أفرادها :

أ- المقاصد الكلية.

ب- المقاصد الجزئية.

خامساً: باعتبار مدى القطع بكون الشارع قاصداً إليها

أ- المقاصد القطعية.

ب- المقاصد الظنية.

ج- المقاصد الوهمية.

سادساً: من حيث مدى تحققها في نفسها أو نسبية

ثبوتها :

أ- المقاصد الحقيقية.

ب- المقاصد الاعتبارية.

ج- المقاصد العرفية العامة.

د- المقاصد العرفية الخاصة.

سابعاً: باعتبار علاقتها بحظ المكلف

أ- أصلية.

ب- تابعة[1].

فنجد العلامة ابن عاشور . رحمه الله . يقسمها على النحو التالي :

(تنقسم المصالح باعتبار آثارها في قوام أمر الأمة إلى ثلاثة أقسام : ضرورية، وحاجية وتحسينية.

وتنقسم المصالح باعتبار تعلقها بعموم الأمة، أو جماعاتها أو أفرادها إلى : كلية وجزئية، وتنقسم باعتبار تحقق الاحتياج إليها في قوام أمر الأمة، أو الأفراد إلى : قطعية، أو ظنية، أو وهمية.

فأما التقسيم الأول إلى : ضرورية وحاجية وتحسينية، فهذه ثلاثة أصناف.

فالمصالح الضرورية : هي التي تكون الأمة بمجموعها وآحادها في ضرورة إلى تحصيلها بحيث لا يستقيم النظام باختلالها، بحيث إذا انخرمت تؤول حالة الأمة إلى فساد وتلاشي.

---

(١) من محاضرات ألقاها أستاذنا فضيلة الشيخ عبد الخالق الشريف في دورة تدريبية للقسم الشرعي بموقع إسلام أون لا ين.

ولست أعني باختلال نظام الأمة هلاكها واضمحلالها، لأن هذا قد سلمت منه أعرق الأمم في الوثنية والهمجية، ولكني أعني بها أن تصير أحوال الأمة شبيه بأحوال الأنعام بحيث لا تكون على الحالة التي أرادها الشارع منها.

ولننتقل إلى صنف الحاجي وهو ما تحتاج الأمة إليه لاقتناء مصالحها وانتظام أمورها على وجه حسن، بحيث لولا مراعاتها لما فسد النظام، ولكنه كان على حالة غير منتظمة ؛ فلذلك كان لا يبلغ مبلغ الضروري . قال الشاطبي (هو ما يفتقر إليه من حيث التوسع ورفع الحرج فلو لم يراع دخل على المكلفين الحرج والمشقة، ولكنه لا يبلغ مبلغ الفساد المتوقع في المصالح العامة) اهـ.

والمصالح التحسينة هي عندي: ما كان بها كمال حال الأمة في نظامها حتى تعيش آمنة مطمئنة، ولها بهجة منظر المجتمع في مرأى بقية الأمم. حتى تكون الأمة الإسلامية مرغوبا في الاندماج فيها، أو في التقرب منها. فإن لمحاسن العادات مدخلا في ذلك سواء كانت عادات عامة كستر العورة، أم خاصة ببعض الأمم كخصال الفطرة، وإعفاء اللحية. والحاصل أنها مما تراعى فيها المدارك الراقية البشرية. قال الغزالي (هي التي تقع موقع التحسين والتيسير للمزايا ورعاية أحسن المناهج في العادات والمعاملات، مثاله سلب العبد أهلية الشهادة مع قبول فتواه وروايته؛ لأن العبد ضعيف المنزلة باستسخار المالك إياه فلا يليق لمنصبه التصدي للشهادة) أ. هـ...[1].

ثم يتحدث عن التقسيم الثاني للمصالح، أو المقاصد باعتبار تعلقها بعموم الأمة أو جماعتها وأفرادها إلى كلية وجزئية فيقول :

ولننتقل الآن إلي التقسيم الثاني للمصالح وذلك باعتبار تعلقها بعموم الأمة أو

---

(١) مقاصد الشريعة الإسلامية للإمام محمد الطاهر بن عاشور، ص٧٦-٨١ باختصار وتصرف.

جماعتها أو أفرادها، فتنقسم بهذا الاعتبار إلي كلية وجزئية. ويراد بالكلية في اصطلاحهم ما كان عائداً علي عموم الأمة عوداً متماثلاً ،وما كان عائداً علي جماعة عظيمة من الأمة أو قطر وبالجزئية ما عدا ذلك.

فالمصلحة العامة لجميع الأمة قليلة الأمثلة وهي مثل: حماية البيضة، وحفظ الجماعة من التفرق، وحفظ الدين من الزوال وحماية الحرمين حرم مكة وحرم المدينة من أن يقعا في أيدي غير المسلمين، وحفظ القرآن من التلاشي العام أو التغير العام بانقضاء حفاظه وتلف مصاحفه معاً ، وحفظ علم السنة من دخول الموضوعات، ونحوذلك مما صلاحه وفساده يتناول جميع الأمة وكل فرد منها، وبعض صور الضروري والحاجي مما يتعلق بجميع الأمة.

وأما المصلحة والمفسدة اللتان تعودان علي الجماعات العظيمة فهي الضروريات والحاجيات والتحسينيات المتعلقة بالأمصار والقبائل والأقطار علي حسب مبلغ حاجتها مثل: التشريعات القضائية لفصل النوازل، والعهود المنعقدة بين أمراء المسلمين وبين ملوك الأمم المخالفة في تأمين تجار المسلمين بأقطار غيرهم إذا دخلوها للتجارة، وتأمين البحار التي تحت سلطة غير المسلمين لتمكين المسلمين من مخرها آمنين إذا مروا بشطوط غيرالمسلمين، والعقود المنعقدة مع تجار غير المسلمين إذا دخلوا إلي مراسي الإسلام على عشر أثمان ما يبيعونه ببلاد المسلمين من السلع والطعام أو علي نصف العشر إذا جلبوا الطعام إلي الحرمين خاصة.

والمصلحة الجزئية الخاصة هي مصلحة الفرد أوالأفراد القليلة، وهي أنواع ومراتب، وقد تكلفت بحفظها أحكام الشريعة في المعاملات[1].

ثم يتحدث العلامة ابن عاشور . رحمه الله . عن تقسم المقاصد باعتبار تحقق

---

(١) مقاصد الشريعة الإسلامية للإمام محمد الطاهر بن عاشور، ص٨٤-٨٥ باختصار وتصرف.

الحاجة إلى جلبها، أو دفع المفسدة التي تحيق بها، وهي تنقسم إلى قطعية وظنية ووهمية، فيقول:

وأما التقسيم باعتبار تحقق الحاجة إلي جلبها أو دفع الفساد عن أن يحيق بها فتنقسم بذلك إلي قطعية،وظنية،ووهمية.

فالقطعية: هي التي دلت عليها أدله من قبيل النص الذي لا يحتمل تأويلاً ، نحو ﴿ولله عَلي اَلنَّاسِ حِجُ اَلبَيتِ مَنِ أستَطَاعَ إلَيهِ سَبِلاً ﴾{ال عمران:٩٧}وما تظافرت الأدلة الكثيرة عليها مما مستنده استقراء الشريعة مثل:الكليات الضرورية المتقدمة، أو ما دل العقل علىأن في تحصيله صلاحاً عظيماً أو في حصول ضده ضرٌّ عظيم علي الأمة، مثل قتال مانعي الزكاة في زمن أبي بكر (ﷺ) في الضروري.

وأما الظنية: فمنها ما اقتضي العقل ظنه، مثل اتخاذ كلاب الحراسة في الدور في الحضر في زمن الخوف في القيروان.

وأما الوهمية: فهي التي يتخيل فيها صلاح وخير، وهو عند التأمل ضر، إما لخفاء ضره مثل: تناول المخدرات من الأفيون والحشيشة والكوكايين والهروين، فإن الحاصل بها لمتناولها ملائم لنفوسهم، وليس هو بصلاح لهم، وإما لكون الصلاح مغموراً بفساد كما أنبأنا عنه قوله تعالي (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ....) البقرة : ٢١٩ ... [١]

تقسيم المقاصد إلى مقاصد حاصلة بالقصد أو المآل :

وللمصالح والمفاسد تقسيم آخر باعتبار كونها حاصلة من الأفعال بالقصد أو حاصلة بالمآل وهو تقسيم يسترعي حذق الفقهيه. فإن أصول المصالح والمفاسد قد لا

(١) مقاصد الشريعة الإسلامية للإمام محمد الطاهر بن عاشور، ص٨٥-٨٦ باختصار وتصرف.

تكاد تخفى على أهل العقول المستقيمة.فمقام الشرائع في اجتلاب صالحها ودرء فاسدها مقام سهل والأمتثال إليه فيها هين واتفاق علماء الشرائع في شأنها يسير.فأما دقائق المصالح والمفاسد وآثارها ووسائل تحصيلها وانخرامها فذاك المقام المرتبك، وفيه تتفاوت مدارك العقلاء اهتداء وغفلة.وقبولاً وإعراضاً ، فتطلع فيه الحيل والذرائع، وفيه التفطن للعلل وضده، وفيه ظهر تفاوت الشرائع وفازت شريعة الإسلام فيه بأنها الصالحة للعموم والدوام[1]

ويقسمها الدكتور عبد المجيد النجار إلى ما يلي:

١- المقاصد بحسب قوة الثبوت:

أ- المقاصد القطعية.

ب- المقاصد الظنية.

ج- المقاصد الوهمية.

٢- المقاصد بحسب المناط

أ- المقاصد الكلية.

ب- المقاصد النوعية.

ج- المقاصد الجزئية.

٣- المقاصد بحسب الشمول

أ- المقاصد العامة.

ب- المقاصد الخاصة.

٤- المقاصد بحسب الأصلية :

---

(١) مقاصد الشريعة الإسلامية للإمام محمد الطاهر بن عاشور، ص٨٦.

أ- مقاصد الأصول.

ب- مقاصد الوسائل.

٥- المقاصد بحسب قوة المصلحة :

أ- المقاصد الضرورية.

ب- المقاصد الحاجية.

ج- المقاصد التحسينية[١].

ولا نطيل على القاريء الكريم في هذه التقسيمات والتفريعات، ويمكنه الرجوع إليها في المراجع السابقة وغيرها.

(١) مقاصد الشريعة بأبعاد جديدة، ص٣٨-٤٨، باختصار وتصرف.

المبحث السادس

تجديد المقاصد أم تفعيلها

كثر الكلام في الفترة الأخيرة حول تجديد المقاصد وتفعيلها، فيرى بعض العلماء إضافة مقاصد أخرى مثل العدل، والمساواة والحرية، والحقوق الاجتماعية، والسياسية، والاقتصادية، وغير ذلك، ونستطيع أن نقف عند ثلاثة ممن كتبوا في تفعيل المقاصد، والزيادة عليها، وإعادة ترتيبها في الصفحات التالية:

الأول : الأستاذ الدكتور جمال الدين عطية في كتابه نحو تفعيل مقاصد الشريعة الإسلامية :

فقد ناقش الدكتور جمال الدين عطية فكرة ترتيب المقاصد فيما بينها، ثم ناقش عدد المقاصد وهل هي خمس أم أكثر من ذلك، وخلص بعد استعراض موضوع الترتيب إلى ما يلي:

١- ترتيب الكليات الخمس فيما بينها مختلف عليه بين العلماء.

٢- الغالبية من العلماء لم يبرروا الترتيب الذي اتبعوه.

٣- أن المبررات التي قيل بها لتقديم أو تأخير بعض الأصول، والاعتراضات بعضها مقبول وبعضها غير مقبول.

٤- ترتيب الغزالي ما زال هو الأساس لكل تعديل.

٥- أن أهمية الترتيب تظهر عند التعارض بين كليتين يقدم المتقدم في الترتيب ويضحى بالآخر.

٦- أن هناك قدرا مشتركا ينبغي الاتفاق عليه في حالة وجود نص يوضح الحكم عند التعارض كالنصوص الخاصة بالجهاد في تقديم الدين على النفس.

٧- أن رغبة الشاطبي في التوصل إلى أصول قطعية لا يمكن أن تكتمل دون

حل إشكالية الترتيب بين الكليات.

٨- أن مسألة ترتيب المقاصد لا تقتصر على المقاصد الكلية، بل تشمل المقاصد العالية كذلك .

٩- أن فكرة المنظومة الدائرية بديلا عن الترتيب التقليدي جديرة بالاهتمام[1].

ثم يناقش عدد المقاصد، و يقترح أن ننتقل من الكليات الخمس إلى المجالات الأربعة، وهذه المجالات الأربعة هي:

١- مجال الفرد.

٢- مجال الأسرة.

٣- مجال الأمة.

٤- مجال الإنسانية.

ثم يقسم مقاصد الشريعة فيما يخص الفرد إلى :

١- حفظ النفس.

٢- حفظ العقل.

٣- حفظ التدين.

٤- حفظ العرض.

٥- حفظ المال.

ويتحدث عن مقاصد الشريعة فيما يخص الأسرة (الأهل) إلى :

١- تنظيم العلاقة بين الجنسين.

٢- حفظ النسل (النوع).

٣- تحقيق السكن والمودة والرحمة.

---

(1) نحو تفعيل مقاصد الشريعة الإسلامية، ص٢٨-٤٨، باختصار وتصرف.

٤- حفظ النسب.

٥- حفظ التدين في الأسرة.

٦- تنظيم الجانب المؤسسي للأسرة.

٧- تنظيم الجانب المالي للأسرة.

ويتحدث عن مقاصد الشريعة فيما يخص الأمة، ويقسمها إلى :

١- التنظيم المؤسسي للأمة.

٢- حفظ الأمن .

٣- إقامة العدل.

٤- حفظ الدين والأخلاق.

٥- التعاون والتضامن والتكافل.

٦- نشر العلم وحفظ عقل الأمة.

٧- عمارة الأرض وحفظ ثروة الأمة.

ويتحدث عن مقاصد الشريعة فيما يخص الإنسانية فيقسمها إلى :

١- التعارف والتعاون والتكامل.

٢- تحقيق الخلافة العامة للإنسان.

٣- تحقيق السلام العالمي القائم على العدل.

٤- الحماية الدولية لحقوق الإنسان.

٥- نشر دعوة الإسلام[١].

وهذا التقسيم الذي بذل فيه صاحبه جهدا واجتهادا مقبولا ومأجورا إن شاء الله تعالى، وهو ينم عن عقلية واعية وفهم عميق، غير أن هذا التفريع وإن كان

---

(1) نحو تفعيل مقاصد الشريعة الإسلامية د. جمال الدين عطية، ص١٣٩-١٧٢.

يثري البحث في المقاصد غير أننا نرى أنه بنوع من الصبر والتأمل يمكننا إدراجه ضمن منظومة الشاطبي الخماسية، وهذا ليس تعبدا بما توصل إليه الشاطبي ومن جاء قبله أو بعده، ولكننا نرى أن هذا التقسيم يجمع بين السهولة والمرونة في آن واحد، فهل سهل على طلبة العلم والباحثين، وفي نفس الوقت مرن يستطيع أن يستوعب كل ما توصل إليه فضيلة الدكتور جمال عطية جزاه الله خيرا.

الثاني الأستاذ الدكتور عبد المجيد النجار :

المقصد الأول : حفظ قيمة الحياة الإنسانية، وقسمه إلى قسمين :

أولا: مقصد حفظ الدين: وقسمه إلى عدة مسالك:

أ - حفظ الدين بتوفير أسبابه ويشتمل على:

١- حفظ الدين بالتسير.

٢- حفظ الدين بالاجتهاد.

٣- حفظ الدين بالتبليغ.

٤- حفظ الدين بالسلطان.

ب - حفظ الدين بدفع العوائق ويشتمل على:

١- حفظ الدين بمدافعة الهوى.

٢- حفظ الدين بمدافعة الاستبداد الفكري.

٣- حفظ الدين بمدافعة التحريف.

٤- حفظ الدين بمدافعة الإرجاف.

٥- حفظ الدين بالجهاد.

ثانيا : مقصد حفظ إنسانية الإنسان وتشتمل على:

أ- حفظ الفطرة وله مسالك:

المسلك الأول: حفظ الفطرة من التبديل.

المسلك الثاني: حفظ الفطرة بالتوازن.

المسلك الثالث : حفظ الفطرة بالإشباع.

أ- حفظ الكرامة الإنسانية.

ب- حفظ غائية الحياة.

ج- حفظ الحرية الإنسانية.

المقصد الثاني : حفظ الذات الإنسانية ويشتمل على:

أولا : حفظ النفس وينقسم إلى قسمين :

١ - الحفظ المادي للنفس وله مسلكان:

أ- حفظ النفس بأسباب البقاء والقوة.

ب- حفظ النفس بدفع العوادي.

٢ - الحفظ المعنوي للنفس وله مسلكان :

أ- حفظ النفس بالتزكية.

ب- حفظ النفس بالأمن النفسي.

ثانيا: حفظ العقل ويشتمل على قسمين:

١ - الحفظ المادي للعقل.

٢- الحفظ المعنوي للعقل وله مسلكان :

أ- حفظ العقل بتحرير الفكر.

ب- حفظ العقل بالتعلم وينقسم إلى:

أولاً : حفظ العقل بالتعلم الاستيعابي

ثانيًا: حفظ العقل بالتعلم التفكري

ثالثاً: حفظ العقل بالتعلم المنهجي

المقصد الثالث : مقاصد الشريعة في حفظ المجتمع، وتنقسم إلى قسمين:

القسم الأول : مقصد حفظ النسل وله مسلكان:

أ- حفظ النسل بالإنجاب.

ب- حفظ النسل بحفظ النسب.

القسم الثاني: مقصد حفظ الكيان الاجتماعي :

١ - حفظ المؤسسية الاجتماعية، وله ثلاثة مسالك:

أ- الحفظ بثقافة المؤسسية.

ب- الحفظ بمؤسسة الأسرة.

ج- الحفظ بمؤسسة الدولة، وله طريقان:

أولاً : المجتمع هو مصدر السلطة.

ثانياً: الشورى آلية الدولة.

٢ - حفظ العلاقات الاجتماعية، وله ثلاثة مسالك:

أ- الحفظ برابطة الأخوة.

ب- الحفظ بميزان العدل.

ج- الحفظ بعلاقة التكافل.

المقصد الرابع: مقاصد الشريعة في حفظ المحيط المادي، وفيه قسمان:

القسم الأول: مقصد حفظ المال، وله مسالك:

١ – حفظ المال بالكسب والتنمية.

٢ – حفظ المال من التلف، وفيه ثلاثة أنواع:

أ– حفظ المال من التلف العبثي.

ب– حفظ المال من التلف المفسد.

ج– حفظ المال من التلف السرفي.

٣ – حفظ المال بحماية الملكية.

٤ – حفظ المال بحماية قيمته.

٥ – حفظ المال بالتداول والترويج.

القسم الثاني : مقصد حفظ البيئة، وفيه عدة مسالك :

١ – حفظ البيئة من التلف.

٢– حفظ البيئة من التلوث.

٣ – حفظ البيئة من فرط الاستهلاك.

٤ – حفظ البيئة بالتنمية[١].

وهذا تقسيم عبقري أيضا، بذل فيه صاحبه جهدا مشكورا مأجورا، وهو أقل تفريعا من تقسم الأستاذ الدكتور جمال الدين عطية، وسنعتمد عليه أثناء تناولنا للمقاصد في فكر الإمام البنا . رحمه الله . ولكن يمكننا أيضا إدخال بعض الأقسام تحت بعضها وإعاد ترتيبه، وإضافة بعض الأقسام عليه، وهو أيضا يمكن إدخاله ضمن المنظومة الخماسية للإمام الشاطبي . رحمه الله ..

أما الدكتور سيف عبد الفتاح، فيرى أن ترتيب الشاطبي (من حيث الترتيب ومن حيث العدد) ومن سبقه ومن تلاه من العلماء ما زال صالحا حتى وقتنا

(1) مقاصد الشريعة بأبعاد جديدة، ص٥٩–٢٣٠ .

الحالي لاستيعاب كافة الاقتراحات المطروحة الآن والمتخيلة في المستقبل، وقد قام بصناعة جدول وفق المقاصد عند الشاطبي يمكننا من قياس ٤٨٠ حالة عند التعارض وترتيبها وفق سلم الأولويات، ويمكن تفعيل هذا الجدول والبناء عليه حتى يصلح لقياس ١٤٤٠ حالة .

فيقول عند كلامه عن المصلحة :

(المصلحة هي المنفعة التي قصدها الشارع لعباده من حفظ دينهم ونفوسهم وعقولهم ونسلهم وأموالهم طبق ترتيب معين فيما بينها، ومراعاة الشريعة للمصالح أمر مقرر متفق عليه، "ويعبر عن المصالح والمفاسد بالخير والشر والنفع والضر، والحسنات والسيئات، لأن المصالح كلها خيور نافعات حسنات، والمفاسد بأسرها شرور مضرات سيئات، وقد غلب في القرآن استعمال الحسنات في المصالح، والسيئات في المفاسد، والمصلحة تفرض على المجتهد ضرورة الاستنارة بذلك لمعرفة الحكم الشرعي فيما لا نص فيه.

وبين المصلحة والصلاح والاستصلاح تعلق يؤكد اعتبار الترابط بينها جميعا ومفهوم السياسة عامة والسياسة الشرعية على وجه الخصوص.

وللمصلحة واعتبارها أدلة من الكتاب والسنة ومن القواعد الشرعية المجمع عليها.

ضوابط المصلحة: تشكل هذه الضوابط حدودا للفهم هي جوهر وظيفة (المنهاجية)، حيث ترتب أصولا ودعائم لمتطلب الصحة والصواب المنهجي، حيث إن ضبط المصلحة وارتباطها بقواعد عامة يجعل منها مدخلا مهما يشكل بالإضافة إلى مدخلي (الضرورة الشرعية) و(السياسية الشرعية)، أساسا لا غنى عنه في الدراسات الاجتماعية والإنسانية، والسياسية منها بوجه خاص.

وضبط مفهوم المصلحة يرتبط لزوما وتلازما بضابطين كليين في هذا المقام:

الأول : يرتبط بالمصدر، حيث يفترض فيه عدم معارضة المصلحة للكتاب والسنة والقياس الصحيح.

والثاني : يتعلق بالمقاصد الكلية من حيث اندراج المصلحة فيها وبيان مكانها في سلمها.

وخلاصة الأمر أنه يلزم للاعتداد بالمصلحة رجحان وقوعها مقصدا كليا من خلال وسيلة من الوسائل الثلاث لإحرازها (الضروريات والحاجيات والتحسينيات)، ثم تتدرج بعد ذلك درجة شمولها وسعة فائدتها، فعلى ضوء هذا الترتيب تصنف عند التعارض ويرجح البعض منها على الآخر.

ويبين الجدول التالي سلم المصالح والمفاسد وفق الرؤية الإسلامية

مراتب / مقاصد		الضروري												الحاجي												التحسيني											
		أصلي				مكمل								أصلي				مكمل								أصلي				مكمل							
		عام				خاص				عام				خاص				عام				خاص				عام				خاص				عام			
		شامل		جزئي		شامل		جزئي		شامل		جزئي		شامل		جزئي		شامل		جزئي		شامل		جزئي		شامل		جزئي		شامل		جزئي		شامل		جزئي	
		ض	ح	م	ح	م	ح	م	ح	م	ح	م	ح	م	ح	م	ح	م	ح	م	ح	م	ح	م	ح	م	ح	م	ح	م	ح	م	ح	م	ح	م	ح
حفظ الدين	مفسدة																																				
	مصلحة																																				
حفظ النفس	مفسدة																																				
	مصلحة																																				
حفظ العقل	مفسدة																																				
	مصلحة																																				
حفظ النسل	مفسدة																																				
	مصلحة																																				
حفظ المال	مفسدة																																				
	مصلحة																																				

ويشير الجدول السابق إلى ميزان المصالح والمفاسد، والإمكانيات المنهاجية لمقياس التصاعد في سلم المصالح، حيث يتضمن من خلال تحديد مقاصد الشرعية وبيان وسائلها وتدرجها، والتمييز بين توابعها من أصلي ومكمل لها، وتتبع أثرها ومآلها من حيث شمولها (شامل/جزئي)، ومن حيث عمومها (الجماعة– الفرد)، ومن حيث آثارها الحالة الناجزة، وآثارها المؤجلة التي يمكن بلوغها فيما بعد. كل ذلك يمكن أن يوصلنا إلى (٤٨٠) حالة قياسية، بحيث يمكن إدراك جزئيات الواقع والحادثات المتجددة وفق الوصف الشرعي السليم، والمقارنة والترجيح فيما بينها في حالة التعارض، بحيث يمكن الخروج بنتائج أكثر انضباطا، بفضل ضبط مفهوم المصلحة وكذلك المفسدة وماصدقاتهما، وضبط ميزان المصالح والمفاسد على أساس من قواعد مقررة ومنضبطة بدورها يمكن على أساسها الترجيح.

بل يمكن إذا اعتبرنا أن جلب المصلحة ودرء المفاسد يقترنان بمجالات ثلاث (العقيدة والفكر – والنظم والوسائل – والحركة والممارسة) وفق ترتيب معين فيما بينها أن يطور هذا المقياس بحيث يتضمن (١٤٤٠) حالة قياسية تعكس إمكانات هذا المقياس في تحقيق عملية الضبط بعيدا عن الأهواء والرغبات)[1].

ونستطيع بعد هذا العرض المبسوط أن نوجز القول في النقاط التالية:

أولاً : إن التقسيم الذي بدأه أبو حامد الغزالي . رحمه الله . وتبعه غيره، سواء بالزيادة أو النقصان ليس توقيفيا، ولكنه اجتهادي، يمكننا إعادة النظر فيه، إن كانت الحاجة داعية إلى هذا.

ثانيًا : من خلال ما ذكره الدكتور جمال الدين عطية في جعل المقاصد أربع مجالات، وأكثر من عشرين مقصدا، أو ما ذكره العلامة ابن عاشور . رحمه

(1) نحو تفعيل النموذج المقاصدي د. سيف الدين عبد الفتاح بحث مخطوط.

الله . وفضيلة الشيخ العلامة الدكتور يوسف القرضاوي وغيرهم كثير وهو جهد مشكور مأجور، غير أننا نرى أنه يمكن تسكينه وفق مقاصد الشريعة الخمسة، في ضوء الضروريات والحاجيات والتحسينيات، مع تفعيل هذه المصطلحات والمسميات .

ثالثًا : إن سادتنا العلماء عندما تحدثوا عن مقاصد الشريعة وضربوا أمثلة لكل مقصد كانوا يتحدثون عن عصورهم التي عاشوا فيها، ولامانع من تفعيل هذه المقاصد حتى تستوعب المشكلات الحالية والمستقبلية.

رابعًا : ما كتبه الدكتور عبد المجيد النجار حول تفعيل المقاصد، يستحق النظر والتقدير حيث لم يكثر من عدد المقاصد كما فعل الدكتور جمال الدين عطية، ولكنه كان يعتمد على التفعيل أكثر من اعتماده على زيادة العدد .

خامسًا : ما توصل إليه الدكتور سيف الدين عبد الفتاح سيكون هو الأصل لنا في تتبع المقاصد عند الإمام حسن البنا رحمه الله، حيث إنه لا يرى حاجة في الزيادة على ما صنعه الشاطبي وما سبقه من العلماء، ولكنه يعتمد على تفعيل المقصد، وما سوى ذلك يعد مجالا عاما في هذه المقاصد، ويمكن تسكينه وفق الجدول السابق، وسنأخذ من الدكتور عبد المجيد النجار تفعيله للمقاصد، والتوسع في فهمها .

سادسًا : مع تقديرنا لجهود العلماء المعاصرين غير إننا نرى عدم التوسع في العدد إلا في حالة الاحتياج، ونعتمد على تفعيل المقصد، والاستفادة منه في الواقع العملي أكثر من انشغالنا بالعدد.

الفصل الثاني

العناية بالمقاصد عند الإمام البنا بصفة عامة

العناية بالمقاصد عند الإمام البنا بصفة عامة

تمهيد :

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هل اعتنى الإمام البنا – رحمه الله – بالمقاصد وأولاها ما تستحق من الأهمية، حتى نكتب كتابا عنه يحمل هذا الاسم؟؟، وإن كان حدث هذا فلماذا لم يذكر بين العلماء الذين اهتموا بالمقاصد؟

وأبادر فأقول: إن الإمام البنا قد أولى المقاصد عناية فائقة، على الرغم من أنه لم يكتب كتابا يحمل هذا الاسم، كما فعل العلامة ابن عاشور ومن سبقه، ومن أتى بعده من العلماء، ولعل هذا من الأسباب التي جعلت من يؤرخ لعلم المقاصد لا يذكر الإمام البنا في عداد العلماء الذين اهتموا بعلم المقاصد، ولكن العبرة ليست بكتابة كتاب بحمل هذا الاسم، فابن تيمية لم يكتب كتابا بعنوان المقاصد، ومن قبله الأئمة الأربعة المجتهدون ؛ أبو حنيفة ومالك والشافعي وأحمد، ولا يستطيع أحد من العلماء أن يقول: إن هؤلاء الأئمة الكبار لم يعتنوا بالمقاصد، وكتبت رسائل علمية تبين مدى اهتمام هؤلاء الفقهاء بالمقاصد.

بل إن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا أعلم الناس بالمقاصد، ولم يكتب أحدهم كتابا عن المقاصد، وربما لم يرد لفظ المقاصد على ألسنتهم.

والسبب الثاني . من وجهة نظري . أن حركية الإمام، والصراع السياسي الذي خاضه . ضده وضد جماعته . النظام الملكي في عهده والجمهوري من بعده جعل الناس ينظرون إلى الإمام وكأنه زعيم سياسي فقط، وليس عالم وفقيه من الطراز النادر في العصر الحديث.

فالذي يقرأ ما كتبه فضيلة العلامة الدكتور يوسف القرضاوي، وما كتبه فضيلة الشيخ العلامة محمد الغزالي . رحمه الله . ثم يقرأ ما كتبه الإمام البنا . رحمه الله . يرى مدى تأثيره على هذين العلمين الكبيرين، وهم يصرحون بذلك في كثير من كتبهم، لكن لم يلتفت الباحثون إلى هذا التأثير على الرغم مما كتب عن

الإمام أنه عالم فقيه قبل أن يكون زعيما أو مرشدا لجماعة تدعو إلى شمولية الإسلام.

وغالبا ما يكون صوت السياسة والنضال السياسي هو الأعلى من غيره فظلم الرجل بهذا التصنيف، ولم يلتفت أحد من العلماء إلى أهمية دراسة الرجل من الناحية الشرعية باستثناء ما كتبه الشيخ الغزالي . رحمه الله . في دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين، وفضيلة الشيخ العلامة الدكتور يوسف القرضاوي أثناء شرحه لرسالة التعاليم، أو ما كتبه عن جماعة الإخوان المسلمين في كتابه الإخوان المسلمون سبعون عاما في الدعوة والتربية والجهاد .

السبب الثالث : سيطرة وهيمنة القوى الأمنية والعسكرية على البحث العلمي في كثير من الجامعات المصرية خاصة، والعربية عامة، وقد حاول بعض الزملاء أن يكتب رسائل علمية يتناول فيها الإمام وفكره أو فقهه، أو جماعة الإخوان المسلمين فكانت في الغالب الأعم تقابل بالرفض والصد، إلا ما ندر وهذا يتوقف على صبر الباحث وقوة المشرف ومدى اقتناعه بدراسة هذا الموضوع.

وحتى نكون منصفين فقد اهتم الإخوان بتراث الإمام البنا من حيث الجمع والترتيب فيما كتبه مجموعة من الباحثين تحت إشراف الأستاذ جمعة أمين عبد العزيز من جمع تراث البنا وتصنيفه فكتبوا عن الفتاوى والفقه والعقيدة والتفسير والحديث وغير ذلك، وهذا جهد مشكور مأجور من قام به، وساهم فيه، لكنه يحتاج إلى خطوات تكمل هذا الجهد وهو النظر إلى هذا التراث بعين النقد والتحليل حتى يظهر الرجل على حقيقته.

وقد كان يشاع في الماضي أن الإمام البنا لم يهتم بتأليف الكتب، لكنه اهتم بتربية الرجال الذين يؤلفون الكتب، وردد الناس هذه المقولة الظالمة . من وجهة نظري . حتى صدقها الإخوان وغير الإخوان، ولكن لما جمع تراث البنا . رحمه الله . وقد زاد عن خمسة عشر مجلدا في عمر لم يتجاوز الثلاثة والأربعين عاما (١٩٠٦ م –

١٩٤٩) يعلم أن الرجل اهتم بتأليف الكتب وتربية الرجال في آن واحد.

ويكفي للتدليل على ما أقول قراءة كتاب واحد فقط للإمام البنا لنرى كيف كان عمق الرجل الفقهي والمقاصدي، وهو مجموع الرسائل التي كتبها البنا . رحمه الله . لأتباعه خاصة وللمسلمين عامة، ليرى كيف كان يفكر الرجل .

وما نفعله في هذا الكتاب أحسب أنه خطوة سيكون لها ما بعدها إن شاء الله تعالى من أجل دراسة تراث الرجل دراسة فقهية أصولية مقاصدية، وأرى أن هذا التراث بحاجة إلى كتابات تقف عند ما كتبه الإمام في أصول الفقه، وكتابات تتحدث عن فقه وآداب الاختلاف.

وسأقوم هنا بعملية فك وإعادة تركيب ما كتبه الإمام في كتاب الرسائل فقط، وفق ما يراه العلماء المعاصرون من تفعيل وتطوير علم المقاصد، ولن أخرج عن هذا الكتاب إلا في حالات قليلة سأنبه عليها في حينها .

واختياري لمجموعة الرسائل ليس اختيارا عشوائيا، ولكن له أسباب عندي أهمها سببان:

الأول : أن هذا الكتاب من أقوى ما كتب الإمام البنا . رحمه الله . ويظهر فيه علم الرجل وعمقه وتجرده وإخلاصه، ولو حاول باحث جاد أو مجموعة من الباحثين إرجاع ما كتبه لأصوله من القرآن والسنة وكتب الفقهاء لاحتاجوا إلى عدة مجلدات لإنجاز هذا العمل الكبير.

الثاني : أن الإمام البنا . رحمه الله . في هذا الكتاب خاصة كان يتحدث عن رأي الإخوان وليس عن رأيه الخاص، صحيح أنه هو الذي ألفه، ولم أعثر في أدبيات الإخوان على ما يدل على أن الإمام كان يعرض ما يكتب على إخوانه حتى يخرج الكتاب باسم الجماعة، ولكن على أية حال فقد تلقاه الإخوان الذين عاصروا الإمام البنا والذين أتوا من بعدهم بالقبول، ويعتبرونه دستورا لجماعتهم، ومرجعا لحسم النزاع

والخلاف بينهم، حتى حفظه بعض شيوخهم حفظا لا يكاد يخطيء فيه!!

عناية الإمام البنا بالمقاصد بصفة عامة

أول ما يلفت أنظارنا إلى عناية الإمام البنا - رحمه الله - بعلم المقاصد كلامه عن الدعوات المنتشرة في زمانه مثل القومية، والوطنية وغير ذلك، والرجل هنا لم يقف موقف العداء المطلق لهذه الدعوات، ولا القبول المطلق كذلك، ولكنه ربطها بمقاصدها، وغايتها، ثم رتب الحكم عليها من خلال المقصد والغاية، فلم يفتتن ببريق هذه الدعوات وصوتها العالي في هذا الوقت، ولم يناصبها العداء، ولكنه أوضح موقفه منها وهذا الموقف مستمد من الشريعة الإسلامية في صورة القرآن الكريم والسنة القولية والعملية لرسول الله ﷺ.

المبحث الأول
موقف الإمام البنا من الدعوات المعاصرة

أولا : موقف الإمام البنا من الوطنية :

يقول الإمام البنا في رسالة (دعوتنا) :

(افتتن كثير من الناس بدعوة الوطنية تارة، والقومية تارة أخرى، وبخاصة في الشرق؛ حيث تشعر الشعوب الشرقية بإساءة الغرب إليها إساءة نالت من عزتها، وكرامتها، واستقلالها، وأخذت من مالها ومن دمها، وحيث تتألم هذه الشعوب من هذا النير الغربي الذي فرض عليها فرضا، فهي تحاول الخلاص منه بكل ما في وسعها من قوة ومنعة وجهاد وجلاد، فانطلقت ألسن الزعماء، وسالت أنهار الصحف، وكتب الكاتبون وخطب الخطباء وهتف الهاتفون باسم الوطنية وجلال القومية)[1].

ففي هذا النص يذكر الإمام البنا أسباب خروج هذه الدعوات، وهو يحسن الظن فيمن يقف وراء هذه الدعوات، ويرى أن سبب خروج هذه الدعوات، وسبب تعصب كل قوم لوطنيتهم، واعتزازهم ببلادهم هو الاستعمار الذي سامها صنوفا من القهر والاستعباد، وهي تحاول التخلص منه بكل ما أوتيت من قوة، ولذلك تعتز بقوميتها، وتتمسك بعرقها، ثم يعقب على هذا قيقول: (حسن ذلك وجميل، ولكن من غير الحسن وغير الجميل أنك تحاول إفهام الشعوب الشرقية . وهي مسلمة . أن ذلك في الإسلام بأوفى وأزكى وأسمى وأنبل مما هو في أفواه الغربيين وكتابات الأوروبيين، أبوا ذلك عليك ولجوا في تقليدهم يعمهون، وزعموا لك أن الإسلام من ناحية وهذه الفكرة من ناحية أخرى، وظن بعضهم أن ذلك مما يفرق وحدة الأمة ويضعف رابطة الشباب.

هذا الوهم الخاطئ كان خطرا على الشعوب الشرقية من كل الوجهات، وبهذا

---

(1) مجموعة الرسائل، ص١٩.

الوهم أحببت أن أعرض هنا إلى موقف الإخوان المسلمين، ودعوتهم من فكرة الوطنية، وذلك الموقف الذي ارتضوه لأنفسهم، والذي يريدون ويحاولون أن يرضاه الناس معهم)[1].

وهنا يرفض الإمام البنا تلك الوطنية التي تجعل المسلمين ينسون دينهم من أجل وطنيتهم، ويرشدهم أن الإسلام لا يعارض الاعتزاز بالوطنية ولا عشق الوطن، لكن بضوابط معينة، تعظم من شأن الوطنية، ولا تكون سببا في تمزق الأمة وتشرذمها.

ثم يقترب من المقاصد هنا فيكتب تحت عنوان (وطنية الحنين) فيقول:

(إن كان دعاة الوطنية يريدون بها حب هذه الأرض، وألفتها والحنين إليها والانعطاف حولها، فذلك أمر مركوز في فطر النفوس من جهة، مأمور به في الإسلام من جهة أخرى، وإن بلالا الذي ضحى بكل شيء في سبيل عقيدته، ودينه هو بلال الذي كان يهتف في دار الهجرة بالحنين إلى مكة في أبيات تسيل رقة وتقطر حلاوة:

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة بواد وحولي إذ خر وجليل
وهل أردن يوما مياه مجنة وهل يبدون لي شامة وطفيل

ولقد سمع رسول ﷺ وصف مكة من أصيل فجرى دمعه حنينا إليها وقال: (يا أصيل دع القلوب تقر)[2].

فهنا يصحح للوطنيين مفهومهم عن الوطنية، ويوجد مساحة كبيرة من الاتفاق بينه وبين الآخرين، فإن كانوا يقصدون بالوطنية وطنية الحنين، فهذا من الإسلام، وقد

(1) الرسائل، ص١٩.

(2) الرسائل، ص١٩-٢٠، ولم أعثر على الحديث.

أقره الرسول ﷺ وأحس به الصحابة الأوائل؛ لأن هذه فطرة فطر الله الناس عليها، أن يحبوا المكان الذي فيها نشأوا، فهو محمل بذكريات الماضي، وطموحات المستقبل.

ثم يسترسل في توضيح المعنى فيكتب تحت عنوان: (وطنية الحرية والعزة):

(وإن كانوا يريدون أن من الواجب العمل بكل جهد في تحرير الوطن من الغاصبين وتوفير استقلاله، وغرس مبادئ العزة والحرية في نفوس أبنائه، فنحن معهم في ذلك أيضا، وقد شدد الإسلام في ذلك أبلغ التشديد، فقال تبارك وتعالى: ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [المنافقون: ٨]، ويقول: ﴿ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً ﴾ [النساء:١٤١].

وإن كانوا يريدون بالوطنية تقوية الرابطة بين أفراد القطر الواحد، وإرشادهم إلى طريق استخدام هذه التقوية في مصالحهم، فذلك نوافقهم فيه أيضا ويراه الإسلام فريضة لازمة، فيقول نبيه ﷺ: (وكونوا عباد الله إخوانا)[1]، ويقول القرآن الكريم: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [آل عمران: ١١٨]

وإن كانوا يريدون بالوطنية فتح البلاد وسيادة الأرض فقد فرض ذلك الإسلام ووجه الفاتحين إلى أفضل استعمار وأبرك فتح، فذلك قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلا عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٩٣][2].

---

(1) صحيح البخاري كتاب الأدب باب باب ما ينهى عن التحاسد والتدابر وقوله تعالى { ومن شر حاسد إذا حسد }، ح٦٠٦٤، ومسلم كتاب البر والصلة والأدب باب تحريم التحاسد والتباغض والتدابر، ح ٢٥٥٩.

(2) الرسائل، ص٢٠.

ففي الفقرات السابقة يبين الإمام مظاهر الإيجابية في الوطنية، ويرى أن هذا كله دعا إليه الإسلام، وحث عليه، ولئن يفعل المسلم هذه الأفعال على أنها جزء من تعاليم دينه، وأوامر ربه، وواجبات دينية يثاب فاعلها، ويأثم تاركها أفضل بكثير من أن يفعلها على أساس وطني قد يخلص لها الإنسان تارة ويتنكر لها أخرى.

فالمسلم خاصة والإنسان عامة، لو اعتقد فكرة على أساس أنها دين يدين الله بها، ويتقرب إليه عن طريقها أفضل بكثير من أن يفعلها من باب الوطنية أو القومية.

ونحن نرى الإمام البنا يذكر من الإيجابيات في الوطنية ما لم يذكره أشد الناس تعصبا لها، ويدلل على ذلك كله من القرآن الكريم والسنة المطهرة في سهولة ويسر.

وهذا منهج سديد، وطريق في التفكير راشدة، لو سار عليه الدعاة والمفكرون، أن نذكر إيجابيات الفكرة قبل سلبياتها، وأن نبدأ في المتفق عليه قبل المختلف عليه، حتى تكون هناك مساحة مشتركة بيننا وبين الناس سواء كانوا مسلمين أو غير مسلمين.

ويمكننا من خلال النصوص السابق أن نستخرج أربع ميزات ذكرها الإمام للإفادة منها من خلال فكرة الوطنية وهي :

١- وطنية حب الأوطان والتعلق بها.

٢- وطنية العمل لتحرير الأوطان من كل غاصب محتل.

٣- الوطنية التي تعمل على تقوية روابط الأخوة.

٤- وطنية فتح البلاد وتطهيرها من الظلم والجبروت البشري.

الصور السلبية للوطنية :

ثم ينتقل الإمام ليعرض لنا صورا سلبية من صور الوطنية، فيكتب تحت عنوان :

وطنية الحزبية :

(وإن كانوا يريدون بالوطنية تقسيم الأمة إلى طوائف تتناحر وتتضاغن وتتراشق بالسباب، وتترامى بالتهم، ويكيد بعضها لبعض، وتتشيع لمناهج وضعية أملتها الأهواء، وشكلتها الغايات والأعراض، وفسرتها الأفهام وفق المصالح الشخصية، والعدو يستغل كل ذلك لمصلحته، ويزيد وقود هذه النار اشتعالا يفرقهم في الحق ويجمعهم على الباطل، ويحرم عليهم اتصال بعضهم ببعض وتعاون بعضهم مع بعض، ويحل لهم هذه الصلة به، والالتفاف حوله فلا يقصدون إلا داره ولا يجتمعون إلا زواره، فتلك وطنية زائفة لا خير فيها لدعاتها ولا للناس.

فها أنت ذا قد رأيت أننا مع دعاة الوطنية، بل مع غلاتهم في كل معانيها الصالحة التي تعود بالخير على البلاد والعباد، وقد رأيت مع هذا أن تلك الدعوى الوطنية الطويلة العريضة لم تخرج عن أنها جزء من تعاليم الإسلام)[1].

مفهوم الوطنية بين الإخوان ودعاة الوطنية :

وهنا يحرر موضوع النزاع، بعد أن يذكر أوجه الاتفاق، ليفرق بين نظرة الإخوان المسلمين، وهي نظرة نابعة من تعاليم الإسلام، ومرتكزة على أصوله، وبين نظر الوطنيين، فيكتب تحت عنوان (حدود وطنيتنا)، فيقول :

(أما وجه الخلاف بيننا وبينهم فهو أننا نعتبر حدود الوطنية بالعقيدة، وهم يعتبرونها بالتخوم الأرضية والحدود الجغرافية، فكل بقعة فيها مسلم يقول (لا إله إلا الله محمد رسول الله) وطن عندنا له حرمته وقداسته وحبه والإخلاص له والجهاد في سبيل خيره، وكل المسلمين في هذه الأقطار الجغرافية أهلنا وإخواننا نهتم لهم ونشعر بشعورهم ونحس بإحساسهم.

---

(1) الرسائل، ص٢٠-٢١.

ودعاة الوطنية فقط ليسوا كذلك، فلا يعنيهم إلا أمر تلك البقعة المحدودة الضيقة من رقعة الأرض، ويظهر ذلك الفارق العملي فيما إذا أرادت أمة من الأمم أن تقوى نفسها على حساب غيرها، فنحن لا نرضى ذلك على حساب أي قطر إسلامي، وإنما نطلب القوة لنا جميعا، ودعاة الوطنية المجردة لا يرون في ذلك بأسا، ومن هنا تتفكك الروابط وتضعف القوى ويضرب العدو بعضهم ببعض . (١)

ويسترسل الإمام . رحمه الله . تحت عنوان (غاية وطنيتنا) فيقول:

هذه واحدة. والثانية أن الوطنيين فقط، جل ما يقصدون إليه تخليص بلادهم فإذا ما عملوا لتقويتها بعد ذلك اهتموا بالنواحي المادية كما تفعل أوربا الآن، أما نحن فنعتقد أن المسلم في عنقه أمانة عليه أن يبذل نفسه ودمه وماله في سبيل أدائها تلك هداية البشر بنور الإسلام، ورفع عَلَمه خفاقا في كل ربوع الأرض، لا يبغي بذلك مالا ولا جاها وسلطاننا على أحد ولا استعبادا لشعب، وإنما يبغي وجه الله وحده، وإسعاد العالم بدينه وإعلاء كلمته، وذلك ما حدا بالسلف الصالحين رضوان الله عليهم إلى هذه الفتوح القدسية التي أدهشت الدنيا وأربت على كل ما عرف التاريخ من سرعة وعدل ونبل وفضل. (٢)

هل المفهوم الإسلامي للوطنية يمزق وحدة الأمة ؟

ثم يرد أخيرا على دعوى مفادها أن هذا المفهوم الشامل للقومية، وهي أنها ترتكز على الإسلام، وتتبع من داخله وتنضبط بضوابطه، هذا الفهم يمزق الأمة الواحدة، وخاصة إن كانت تضم بين جنباتها ديانات متعددة، كما يحدث في مصر مثلا فيها مسلمون ونصارى، أو غيرها من البلاد العربية والإسلامية التي تضم ديانات

(1) الرسائل، ص٢١.

(2) الرسائل، ص٢١.

وفرق متعددة، فيرد على هذا الزعم، ويبدد هذا الوهم فيقول تحت عنوان (وحدة).

(وأحب أن أنبهك إلى سقوط ذلك الزعم القائل إن الجري عن هذا المبدأ يمزق وحدة الأمة التي تتألف من عناصر دينية مختلفة، فإن الإسلام وهو دين الوحدة والمساواة كفل هذه الروابط بين الجميع ما داموا متعاونين على الخير، ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨].

فمن أين يأتي التفريق إذاً ؟

أفرأيت بعد كيف أننا متفقون مع أشد الناس غلوا في الوطنية في حب الخير للبلاد، والجهاد في سبيل تخليصها وخيرها وارتقائها، ونعمل ونؤيد كل من يسعى في ذلك بإخلاص، بل أحب أن تعلم أن مهمتهم إن كانت تنتهي بتحرير الوطن واسترداد مجده، فإن ذلك عند الإخوان المسلمين بعض الطريق فقط أو مرحلة منه واحدة ويبقى بعد ذلك أن يعملوا لترفع راية الوطن الإسلامي على كل بقاع الأرض ويخفق لواء المصحف في كل مكان.[1]

وضوح الرؤيا المقاصدية عند الإمام البنا :

كان من الممكن أن يذكر الإمام البنا موقفه من الوطنية وكفى، فيقول إنه مع الوطنية، أو ضدها، لكن الرجل ينظر بمفهوم المقاصد نظرة دارس واع، وفقيه مخضرم يعرف ما ترمي إليه هذه الدعوات، وما تؤول إليه في هذا الوقت المبكر، فلو كتب أحد العلماء في عصرنا الحاضر بعد ما يقرب من عشرة عقود على الدعوة إلى الوطنية لكان كلاما عاديا، حيث إن هذه الدعوة قد اختبرت من الناس، وعلم الناس ما مصير من تمسك بها ودعى إليها، ونظر إلى حال الأمة العربية وقد توالت عليها النكبات، وكثرت عليها المصائب، وهي تنتقل من سيء إلى أسوء، فخسرت رقعة كبيرة

(1) الرسائل، ص٢١-٢٢.

من أراضيها، وفقدت هيبتها وسلطانها على ما تسكنه، أقول لو تكلم أحد العلماء بمثل ما تكلم به البنا لكان شيئا عاديا، ومعقولا ومقبولا.

لكن تميز البنا هنا أنه نفذ إلى بواطن هذه الدعوات، وحللها، وبنا الحكم على المقصد، ثم جعل مساحة كبيرة من الاتفاق بينه وبين الآخرين، وحرر موطن النزاع، ودلل عليه بالأدلة القطعية من كتاب الله وسنة نبيه ﷺ.

ثانيًا : موقف الإمام البنا من القومية :

المعنى الإيجابي للقومية :

لم يفعل الإمام البنا التحليل العلمي الناضج مع الوطنية وحدها، ولكنه كرر هذا المنهج مع دعوات أخرى، وهذا يدلل على أنه منهج أصيل، وفهم راسخ عميق، وطريقة واحدة في التعامل مع الدعوات الجديدة .

فيقول الإمام البنا: والآن سأتحدث إليك عن موقفنا من مبدأ القومية:

ويكتب تحت عنوان (قومية المجد) فيقول:

(إن كان الذين يعتزون بمبدأ "القومية" يقصدون به أن الأخلاف يجب أن ينهجوا نهج الأسلاف في مراقي المجد والعظمة ومدارك النبوغ والهمة، وأن تكون لهم بهم في ذلك قدوة حسنة، وأن عظمة الأب مما يعتز به الابن ويجد لها الحماس والأريحية بدافع الصلة والوراثة، فهو مقصد حسن جميل نشجعه ونأخذ به، وهل عدتنا في إيقاظ همة الحاضرين إلا أن نحدوهم بأمجاد الماضين؟ ولعل الإشارة إلى هذا في قول رسول الله ﷺ : (الناس معادن خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا)[1]، فها أنت ذا ترى أن الإسلام لا يمنع من القومية بهذا المعنى الفاضل

(1) صحيح البخاري كتاب أحاديث الأنبياء باب قول الله تعالى {لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين } ح ٣٣٨٣، ومسلم كتاب فضائل الصحابة باب خيار الناس ح ٢٥٢٦.

النبيل)[١].

ويكتب تحت عنوان (قومية الأمة) فيقول :

(وإذا قصد بالقومية أن عشيرة الرجل وأمته أولى الناس بخيره وبره، وأحقهم بإحسانه وجهاده فهو حق كذلك، ومن ذا الذي لا يرى أولى الناس بجهوده قومه الذين نشأ فيهم ونما بينهم؟

لعمري لرهط المرء خير بقية عليه وإن عالوا به كل مركب

وإذا قصد بالقومية أننا جميعا مبتلون مطالبون بالعمل والجهاد، فعلى كل جماعة أن تحقق الغاية من جهتها حتى تلتقي إن شاء الله في ساحة النصر فنعم التقسيم هذا، ومن لنا بمن يحدو الأمم الشرقية كتائب كل في ميدانها حتى نلتقي جميعا في بحبوحة الحرية والخلاص ؟

كل هذا وأشباهه في معنى القومية جميل معجب لا يأباه الإسلام، وهو مقياسنا، بل ينفسح صدرنا له ونحض عليه[٢].

المعنى السلبي للقومية :

فهنا أيضا يحرر معنى القومية كما حرر معنى الوطنية، ويقف على المعاني الإيجابية، ويذكر نقاط الاتفاق بين الإسلاميين وبين القوميين، ثم يحرر موطن النزاع فيقول : تحت عنوان (القومية الجاهلية) فيقول:

(أما أن يراد بالقومية إحياء عادات جاهلية درست، وإقامة ذكريات بائدة خلت، وتعفية حضارة نافعة استقرت، والتحلل من عقدة الإسلام ورباطه بدعوى القومية

---

(1) الرسائل، ص٢٢.

(2) الرسائل، ص٢٢-٢٣.

والاعتزاز بالجنس، كما فعلت بعض الدول في المغالاة بتحطيم مظاهر الإسلام والعروبة، حتى الأسماء وحروف الكتابة وألفاظ اللغة، وإحياء ما اندرس من عادات جاهلية، فذلك في القومية معنى ذميم وخيم العاقبة وسيئ المغبة، يؤدي بالشرق إلى خسارة فادحة يضيع معها تراثه، وتنحط بها منزلته، ويفقد أخص مميزاته، وأقدس مظاهر شرفه ونبله، ولا يضر ذلك دين الله شيئا : ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم﴾ [محمد: ٣٨][1].

ويواصل الحديث حول موطن الخلاف بين القوميين والإسلاميين فيقول تحت عنوان (قومية العدوان):

(وأما أن يراد بالقومية الاعتزاز بالجنس إلى درجة تؤدي إلى انتقاص الأجناس الأخرى والعدوان عليها والتضحية بها في سبيل عزة أمة وبقائها، كما تنادي بذلك ألمانيا وإيطاليا مثلا، بل كما تدعي كل أمة تنادي بأنها فوق الجميع.فهذا معنى ذميم كذلك ليس من الإنسانية في شيء، ومعناه أن يتناحر الجنس البشري في سبيل وهم من الأوهام لا حقيقة له ولا خير فيه.) [2]

ثم يحرر موقف الإخوان المسلمين المستمد من الشريعة الإسلامية، والمعتمد عليها أيضا فيقول : تحت عنوان (دعامتان):

(الإخوان المسلمون لا يؤمنون بالقومية بهذه المعاني ولا بأشباهها ولا يقولون فرعونية وعربية وفينيقية وسورية ولا شيئا من هذه الألقاب والأسماء التي يتنابز بها الناس، ولكنهم يؤمنون بما قال رسول الله ﷺ الإنسان الكامل بل أكمل معلم علم الإنسان الخير: (إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء، الناس لآدم

(1) الرسائل، ص٢٣.

(2) الرسائل، ص٢٣.

وآدم من تراب، لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى)[١]. ما أروع هذا وأجمله وأعدله، الناس لآدم فهم في ذلك أكفاء، والناس يتفاضلون بالأعمال فواجبهم التنافس في الخير، دعامتان قويمتان لو بنيت عليهما الإنسانية لارتفعت بالبشر إلى علياء السموات، الناس لآدم؛ فهم إخوان، فعليهم أن يتعاونوا، وأن يسالم بعضهم بعضا، ويرحم بعضهم بعضا، ويدل بعضهم بعضا على الخير، والتفاضل بالأعمال. فعليهم أن يجتهدوا كل من ناحيته حتى ترقى الإنسانية، فهل رأيت سموا بالإنسانية أعلى من هذا السمو، أو تربية أفضل من هذه التربية؟)[٢]

الإخوان ليسوا ضد ما تحمله العروبة من ميزات :

ثم يعود مرة أخرى فيستدرك على ما قال حتى لا يفهم من كلامه أنه ضد ما تحمله العروبة، أو غيرها من ميزات، ولا خصائص، ولكنه ضد إلغاء الآخرين، والتعصب للقومية على حسابهم فيقول تحت عنوان (خواص العروبة):

(ولسنا مع هذا ننكر خواص الأمم ومميزاتها الخُلقية، فنحن نعلم أن لكل شعب مميزاته وقسطه من الفضيلة والخلق، ونعلم أن الشعوب في هذا تتفاوت وتتفاضل، ونعتقد أن العروبة لها من ذلك النصيب الأوفى والأوفر، ولكن ليس معنى هذا أن تتخذ الشعوب هذه المزايا ذريعة إلى العدوان، بل عليها أن تتخذ ذلك وسيلة إلى تحقيق المهمة السابقة التي كلفها كل شعب، تلك هي النهوض بالإنسانية، ولعلك لست واجدا في التاريخ من أدرك هذا المعنى من شعوب الأرض كما أدركته تلك الكتيبة

---

(1) رواه الترمذي بلفظ قريب من هذا الحديث في كتاب التفسير باب إن الله قد أذهب عنكم عبية الجاهلية ح ٣٢٧٠، وقال: هذا حديث غريب لا نعرفه من حديث عبد الله بن دينار، عن ابن عمر، إلا من هذا الوجه وعبد الله بن جعفر يضعف ضعفه يحيى بن معين، وغيره وعبد الله بن جعفر هو والد علي بن المديني قال: وفي الباب عن أبي هريرة وابن عباس.

(2) الرسائل، ص٢٣-٢٤.

العربية من صحابة رسول الله ﷺ)[1].

أرأيت فهما مقاصديا أعمق من هذا؟؟، إن الرجل هنا بمثابة القاضي المتمرس، والحاكم الواعي الذي ينظر لبواطن الأمور، ولا يقف عند ظواهرها، ويعطي كل ذي حقه حقه دون حيف ولا جور، يفعل هذا بأسلوب سهل، ومنطق بليغ، ولغة يفهمها الخاصة والعامة، فلم يكن من طبعه التقعر وادعاء الفصاحة، بل كما قال عن نفسه في موطن آخر (فقد أخذت على نفسي أن اكتب كما أتحدث، وأن أتناول موضوعي بهذا اللون من ألوان الكتابة في غير تكلف ولا عناء، وإنما أريد أن يفهمني الناس كما أنا ويصل كلامي إلى نفوسهم خاليا من التزويق والتقسيم[2].

المبحث الثاني

الفهم المقاصدي عند الإمام البنا

أولا : من دعائم الفهم المقاصدي: العبرة بالمسميات لا بالأسماء :

ولو تتبعنا ما كتبه الإمام البنا لوجدنا هذا أمرا واضحا غاية الوضوح، فهو لا يقف كثيرا عند الأسماء، بل يتجاوزها إلى المسميات، ولا يعول على الظاهر بل ينفذ إلى بواطن الأمور.

يقول عند رده على من يصف الإخوان بأنهم قوم سياسيون، ودعوتهم دعوة سياسية فيقول تحت عنوان : (نحن والسياسة).

ويقول قوم آخرون إن الإخوان المسلمين قوم سياسيون، ودعوتهم سياسية، ولهم

---

(1) الرسائل، ص٢٤.

(2) الرسائل، ص١٨.

من وراء ذلك مآرب أخرى . ولا ندري إلى متى تتقارض أمتنا التهم، وتتبادل الظنون وتتنابز بالألقاب، وتترك يقينا يؤيده الواقع في سبيل ظن توحيه الشكوك.

يا قومنا: إننا نناديكم والقرآن في يميننا والسنة في شمالنا، وعمل السلف الصالحين من أبناء هذه الأمة قدوتنا، وندعوكم إلى الإسلام وتعاليم الإسلام وأحكام الإسلام، فإن كان هذا من السياسة عندكم فهذه سياستنا، وإن كان من يدعوكم إلى هذه المبادئ سياسيا فنحن أعرق الناس والحمد لله في السياسة، وإن شئتم أن تسموا ذلك سياسة فقولوا ما شئتم فلن تضرنا الأسماء متى وضحت المسميات وانكشفت الغايات.

يا قومنا : لا تحجبكم الألفاظ عن الحقائق والأسماء عن الغايات، ولا الأعراض عن الجوهر، وإن للإسلام لسياسة في طيها سعادة الدنيا وصلاح الآخرة، وتلك هي سياستنا لا نبغي بها بديلا فسوسوا بها أنفسكم، واحملوا عليها غيركم تظفروا بالعزة الأخروية، ولتعلمن نبأه بعد حين[1].

ثانيا : من دعائم الفهم المقاصدي: التطبيق العملي لا التنظير القولي :

ثم يؤكد على المقاصد مرة أخرى أثناء حديثة لطلاب الإخوان المسلمين، ويتمنى أن يكف عن الكلام لحساب الأعمال فيقول (كلما وقفت هذا الموقف من جمهور يستمع، سألت الله أن يقرب اليوم الذي ندع فيه ميدان الكلام إلي ميدان العمل، وميدان وضع الخطط والمناهج إلي ميدان الإنفاذ والتحقيق، فقد طال الوقت الذي قضيناه خطباء متكلمين والزمن يطالبنا في إلحاح بالأعمال الجدية المنتجة، والدنيا كلها تأخذ بأسباب القوة والاستعداد، ونحن مازلنا بعد في دنيا الأقاويل والأحلام ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللهِ أَن تَقُولُوا مَا لاَ

(1) الرسائل، ص٣٧.

تَفْعَلُونَ ۝ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [الصف:٢-٤] (١)

الفرق بين التعصب الحزبي والعمل السياسي :

ثم يعود مرة أخرى للمقاصد فيفرق بين الحزبية والسياسة، ويعني بالحزبية هنا التعصب للحزب الذي ينتمي إليه الفرد على حساب المصالح العليا للوطن والأمة فيقول: (قلما تجد إنساناً يتحدث إليك عن السياسة والإسلام إلا وجدته يفصل بينهما فصلاً ، ويضع كل واحد من المعنيين في جانب، فهما عند الناس لا يلتقيان ولا يجتمعان، ومن هنا سميت هذه جمعية إسلامية لا سياسية، وذلك اجتماع ديني لا سياسة فيه، ورأيت في صدر قوانين الجمعيات الإسلامية ومناهجها (لا تتعرض الجمعية للشئون السياسية).

وقبل أن أعرض إلي هذه النظرة بتزكية أو تخطئة أحب أن الفت النظر إلى أمرين مهمين :

أولهما : الفارق بعيد بين الحزبية والسياسية، وقد يجتمعان وقد يفترقان، فقد يكون الرجل سياسيا بكل ما في الكلمة من معان وهو لا يتصل بحزب ولا يمت إليه، وقد يكون حزبياً ولايدري من أمر السياسة شيئاً ، وقد يجمع بينهما فيكون سياسياً حزبياً أو حزبياً سياسياً على حد سواء، وأنا حين أتكلم عن السياسة في هذه الكلمة فإنما أريد السياسة المطلقة، وهى النظر في شؤون الأمة الداخلية والخارجية غير مقيدة بالحز بية بحال .. هذا أمر.

والثاني : أن غير المسلمين حينما جهلوا هذا الإسلام، أو حينما أعياهم أمره، وثباته في نفوس أتباعه، ورسوخه في قلوب المؤمنين به، واستعداد كل مسلم لتفديته

(1) الرسائل، ص١٥٧.

بالنفس والمال، لم يحاولوا أن يجرحوا في نفوس المسلمين اسم الإسلام، ولا مظاهره وشكلياته، ولكنهم حاولوا أن يحصروا معناه في دائرة ضيقة تذهب بكل مافيه من نواح قوية عملية، وإن تركت للمسلمين بعد ذلك قشورا من الألقاب والأشكال والمظهريات لا تسمن ولا تغنى من جوع .... فأفهموا المسلمين أن الإسلام شئ والاجتماع شيء أخر، وأن الإسلام شيء والقانون شئ غيره، وأن الإسلام شئ ومسائل الاقتصاد لا تتصل به، وأن الإسلام شئ والثقافة العامة سواه، وأن الإسلام شئ يجب أن يكون بعيداً عن السياسة .

فحدثوني بربكم أيها الإخوان، إذا كان الإسلام شيئا غير السياسة وغير الاجتماع، وغير الاقتصاد، وغير الثقافة ... فما هو إذن ؟ ....

أهو هذه الركعات الخالية من القلب الحاضر..

أم هذه الألفاظ التي هي كما تقول رابعة العدوية :استغفار يحتاج إلى استغفار؟

ألهذا أيها الإخوان نزل القرآن نظاما كاملا محكما مفصلا : ﴿.... تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍوَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩].

هذا المعنى المتضائل لفكر الإسلام، وهذه الحدود الضيقة التي حُدد بها معنى الإسلام، هي التي حاول خصوم الإسلام أن يحصروا فيها المسلمين، وأن يضحكوا عليهم بأن يقولوا لهم بأن تركنا لكم حرية الدين، وأن الدستور ينص على أن دين الدولة الرسمي هو الإسلام(١).

فهنا نرى أن الإمام البنا يقف ضد القشور السطحية التي يراد من الناس التعلق بها على أساس أنها لب الدين وجوهره، بعد أن أبعدوا الإسلام عن السياسة والاقتصاد والثقافة والفكر، وكل ما ينهض بهذه الدنيا.

---

(1) الرسائل، ص١٥٧-١٥٨.

ويرفض أن يتحول الدين إلى تمتمات وكلمات نقولها في المساجد حتى إذا خرجنا من المسجد عاد كل منا إلى حاله، بعيدا عن ضوابط الشريعة التي ترسم للمسلم حياته وفق مراد الله تعالى.

كما لا ينخدع بشعارات الحرية الدينية إن كان المقصود من هذه الحرية أن يمارس المسلم العبادات فقط وفق ما يريد، ثم ينحى الإسلام عن حركة الحياة، وتسيير نظامها، ولذلك قامت دعوة الإخوان المسلمين على مبدأ شمولية الإسلام التي لا تقبل تفتيت الدين، أو تجزئته، أو تنحيته عن أي جانب من جوانب الحياة السياسة والاقتصادية والاجتماعية والثقافية وكل ما يتصل بالدنيا أو الدين .

وكل هذا الذي سبق وما سيأتي يؤكد على عناية الإمام البنا . رحمه الله . على المقاصد، وفهمه لها، ودعوة الناس إلى العودة إليها.

بين التعصب الحزبي والاختلاف في الرأي :

ثم يفرق في موضع آخر بين الحزبية والاختلاف في الرأي فيقول:

(وفرق أيها الإخوان بين الحزبية التي شعارها الخلاف والانقسام في الرأي والوجهة العامة وفي كل ما يتفرع منها ، وبين حرية الآراء التي يبيحها الإسلام ويحض عليها، وبين تمحيص الأمور وبحث الشؤون والاختلاف فيما يعرض تحريا للحق ، حتى إذا وضح نزل على حكمه الجميع سواء أكان ذلك اتباعا للأغلبية أو للإجماع ، فلا تظهر الأمة إلا مجتمعة ولا يرى القادة إلا متفقين.

أيها الإخوان لقد آن الأوان أن ترتفع الأصوات بالقضاء على نظام الحزبية في مصر ، وأن يستبدل به نظام تجتمع به الكلمة وتتوحد به جهود الأمة حول منهاج إسلامي صالح تتوافر على وضعه وإنفاذه القوى والجهود .

هذه نظرات يرى الإخوان المسلمون أن واجبهم الإسلامي أولا، والوطني ثانيا، والإنساني ثالثا، يفرض عليهم فرضا لا مناص منه أن يجهروا بها، وأن يعرضوها

على الناس في إيمان عميق وبرهان وثيق، معتقدين أن تحقيقها هو السبيل الوحيد لتدعيم النهضة على أفضل القواعد والأصول،﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٤](١).

فهنا الإمام لا يعارض الحزبية، التي مرادها تداول السلطة، والتنافس حول من يقوم بمصلحة الوطن، ورعاية الدنيا وحراسة الدين، لكنه كان يتكلم عن أحزاب متناحرة، كل يغلب مصالحه الخاصة على المصالح العامة، ولذلك كثيرا ما ردد أنه ضد الحزبية إن كانت بهذا الشكل، وكان يحلم بحزب يجمع كافة طوائف الشعب للتعاون والتناصح للمصالح العامة.

ثالثًا : شمولية الإسلام من مظاهر الفهم المقاصدي :

ثم يعود مرة أخرى للتركيز على المقاصد، وعدم الوقوف عند المظاهر فيقول في رسالة الإخوان المسلمون تحت راية القرآن الكريم :

(أيها الإخوان المسلمون أيها الناس أجمعون إن الله بعث لكم إماماً ، ووضع لكم نظاماً ،وفصل أحكاماً ،وأنزل كتاباً ،وأحل حلالاً ،وحرم حراماً ، وأرشدكم إلى ما فيه خيركم وسعادتكم، وهداكم سواء السبيل؛ فهل اتبعتم إمامه، واحترمتم نظامه، وأنفذتم أحكامه، وقدستم كتابه، وأحللتم حلاله، وحرمتم حرامه؟

كونوا صرحاء في الجواب، وسترون الحقيقة واضحة أمامكم، كل النظم التي تسيرون عليها في شؤونكم الحيوية نظم تقليدية بحتة لا تتصل بالإسلام، ولا تستمد منه ولا تعتمد عليه :

نظام الحكم الداخلي.

---

(1) الرسائل، ص١٦٩.

نظام العلاقات الدولية.

نظام القضاء.

نظام الدفاع والجندية.

نظام المال والاقتصاد للدولة والأفراد.

نظام الثقافة والتعليم.

بل نظام الأسرة والبيت.

بل نظام الفرد في سلوكه الخاص.

الروح العام الذي يهيمن على الحاكمين والمحكومين، ويشكل مظاهر الحياة على اختلافها، كل ذلك بعيد عن الإسلام وتعاليم الإسلام.

وماذا بقي بعد هذا ؟

هذه المساجد الشامخة القائمة التي يعمرها الفقراء والعاجزون، فيؤدون فيها ركعات خالية من معاني الروحانية والخشوع إلا من هَدى الله؟

هذه الأيلم التي تصام في العام فتكون موسماً للتعطل والتبطل والطعام والشراب، وقلما تتجدد فيها نفس أو تزكو بها روح..

﴿..إِلاَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ...﴾ [صّ: ٢٤].

هذه المظاهر الخادعة من المسابح والملابس، واللحى والمراسم، والطقوس والألفاظ والكلمات.

أهذا هو الإسلام الذي أراده الله أن يكون رحمته العظمى، ومنته الكبرى على العالمين ؟

أهذا هدي محمد ﷺ الذي أراد به أن يخرج الناس من الظلمات إلى النور؟

أهذا هو تشريع القرآن الذي عالج أدواء الأمم ومشكلات الشعوب، ووضع للإصلاح أدق القواعد وأرسخ الأصول؟[1].

فهنا نرى الإمام .رحمه الله .يرفض أن يحصر الإسلام في حدود العبادات، والصلوات التي لاترفع من شأن صاحبها، ولا توصله للخشوع، ولا تؤثر في سلوكه وحياته، أوتلك المظاهر من مسابح ولحى وغير ذلك ما دام هذا لا ينفذ إلى لب الدين وجوهر رسالته، وأنه رسالة الله تعالى للعالمين ليقودهم ويصلح بهم مناحي الحياة جميعا.

وهذا الذي نقلته من كتاب واحد من كتب الإمام البنا لا يمثل إلا الجزء اليسير، فهو على سبيل المثال لا الحصر، وسيرى القارىء الكريم من خلال الأمثلة التي سنذكرها للتدليل على ما قام به الإمام البنا في حفظ مقاصد الشريعة الخمسة ما يؤكد هذا بمشيئة الله تعالى.

رابعًا : كثرة التعريفات المقاصدية عند الإمام البنا ــ رحمه الله ــ :

اهتم الإمام البنا .رحمه الله بالتعريفات المقاصدية، حيث إنها أنسب للعمل الحركي والتنظيمي، وأقرب إلى الحكمة من التشريع، وأبعد عن التعريفات الحدية المنطقية، فهي على أهميتها وضرورتها خاصة في البحث العلمي لكنها في الغالب تكون جافة لا تنفذ إلى أعماق المسلم، ولا تتغلل في شعوره وحسه.

وقد اعتاد الباحثون والعلماء – القدامى منهم والمعاصرون – على بداية مؤلفاتهم بالتعريف اللغوي للموضوع الذي يتحدثون عنه، ثم يتبعونها بالمعنى

(1) الرسائل، ص١٨٨-١٨٩.

الاصطلاحي، وهذا أمر لا خلاف حوله ولاغبار عليه، حيث إن الحكم على الشيء فرع عن تصوره، لكن القليل منهم الذي يذكرون التعريف المقاصدي خاصة في أمور العبادة والعقيدة التي تحتاج من المسلم فهما عميقا وتطبيقا دقيقا.

ونستطيع أن نستدعي مثالين فقط من هذه التعريفات المقاصدية وهما تعريف الدين وتعريف الجهاد.

النموذج الأول : تعريف الدين :

يقول الإمام البنا في تعريف الدين: (الدين الذي يحيى الضمير، ويوقظ الشعور وينبه القلوب، ويترك مع كل نفس رقيباً لا يغفل، وحارساً لا يسهو، وشاهداً لا يجامل ولا يحابى ولا يضل ولا ينسى، يصاحبها في الغدوة والروحة والمجتمع والخلوة، ويراقبها في كل زمان، ويلاحظها في كل مكان، ويدفعها إلى الخيرات دفعاً ويدعها عن المآثم دعاً، ويجنبها طريق الذلل ويبصرها سبيل الخير والشر : ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾ [الزخرف:٨٠].

الدين : الذي يجمع أشتات الفضائل، ويلم أطراف المكارم، ويجعل لكل فضلة جزاء، ولكل مكرمة كفاءً ويدعو إلى تزكية النفوس والسمو بها وتطهير الأرواح وتصفيتها ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ، وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴾ [الشمس:٩-١٠].

الدين: الذي يدعو إلى التضحية في سبيل الحق، والفناء في إرشاد الخلق، ويضمن لمن فعل ذلك أجزل المثوبة، ويعد من سلك هذا النهج أحسن الجزاء، ويقدر الحسنة وإن صغرت ويزن السيئة وإن حقرت، ويبذل الفناء في الحق خلوداً والموت في الجهاد وجوداً

﴿ وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ [آل عمران:١٦٩].

﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ [الأنبياء:٤٧].

الدين: الذي يشترى من المرء هذه الأغراض الدنيوية، وتلك المظاهر المادية بسعادة تمتلئ بها نفسه، ويهنأ بها قلبه من فضل الله ورحمته ورضوانه ومحبته. ﴿ مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ ﴾ [النحل:٩٦].

الدين : الذي يجمع كل ذلك، ثم هو بعد يصافح الفطرة، ويمازج القلوب، ويخالط النفوس فيتحد بها وتتحد به، ويتخلل ذرات الأرواح، ويساير العقول فلا يشذ عنها ولا تنبو عنه .. يهش له الفلاح في حقله، ويفرح به الصانع في معمله، ويفهمه الصبي في مكتبه، ويجد لذته وحلاوته العالم في بحوثه، ويسمو بفكرته الفيلسوف في تأملاته .وهل رأيت على نفوس البشر أقوى سلطاناً من الدين ؟ وهل رأيت في تاريخ البشرية أعظم تأثيراً في حياة الأمم والشعوب منه وهل رأيت للفلاسفة والعلماء ما كان من التأثير البليغ للمرسلين والأنبياء ؟

لا وأبيك فإنما الدين قبس من روح الله السارية في ذرات هذه النفوس وفطرها يضئ ظلامها وتشرق بنوره ويأوي إليها فتهش له .فإذا تمكن منها كان كل شئ له فداء :

﴿ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ [التوبة:٢٤].

الدين : الذي يسمو بقدسيته وجلاله فوق كل نفس، ويعلو علي كل رأس، ويجل عن الاختلاق، ويتنزه عن التقليد والمحاكاة، فيوحد بذلك بين القلوب ويؤلف بين النفوس، ويقطع مادة النزاع، ويحسم أصول الخلاف، ويزيد ذلك ثباتاً وقوة

بتوجيه القلوب إلى الله وحده، وصرف النفوس عن الأغراض والمطامع والشهوات واللذائذ، والسمو بالمقاصد والأعمال إلى مراتب المخلصين الصادقين الذين يبتغون بعملهم وجه الله لا يرجون من ورائه جزاءولا شكوراً ، ﴿ شَرَعَ لَكُم مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى:١٣].

الدين : الذي يسمو بالوفاء إلى درجة الشهادة، ويعده فريضة يسأل بين يدي الله عنها، وفضيلة يتقرب إلى الله بها، ودليلاً على الرجولة الكاملة والعزيمة الصادقة، ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً ، لِّيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ ﴾ [الأحزاب:٢٣-٢٤].

الدين : مجتمع الفكر الصائبة ومعقد الآمال المتشعبة ورمز الأماني الفردية والاجتماعية والقومية والعالمية وذلك تعبير له تعبير ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [المنافقون:٨][(١)].

أرأيت تعريفا للدين يغوص في مقاصده، ويقف على حكمه وغاياته من هذا التعريف؟

وقد سن لنا الرسول ﷺ هذا التعريف، عندما عرف المسلم بأنه من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه[(٢)]، والمفلس من ياتي يوم القيامة بصيام وزكاة وحج ويأتي وقد شتم هذا وضرب هذا وأكل مال هذا[(٣)].

---

(١) مجموعة الرسائل، ص٧١- ٧٢.

(٢) البخاري كتاب الإيمان باب المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ح ١٠، ومسلم كتاب الإيمان باب المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ح ٤١.

(٣) مسلم كتاب البر والصلة والأدب باب تحريم الظلم ٢٥٨١.

وحبذا لو اهتم الفقهاء عند تعريفهم للمصطلحات الفقهية تعريفا لغويا واصطلاحيا أن يعرفوها تعريفا مقاصديا ـ ما أمكن ذلك ـ حتى لا يقف المسلمون عند حرفية العبادة فلا يتجاوزونها إلى روحها وغايتها، ولو قامت دراسة في هذا الشأن لربما قدمت شيئا مهما في مجال الدراسات الشرعية والفقهية.

ثم يعرف الإمام البنا ـ رحمه الله ـ الدين مرة أخرى تعريفا مقاصديا ولكنه موجز عندما يتحدث عن الإسلام في رسالة التعاليم حيث ذكر البند الأول من بنود ركن الفهم فيقول: (الإسلام نظام شامل يتناول مظاهر الحياة جميعا؛ فهو دولة ووطن، أو حكومة وأمة، وهو خلق وقوة، أو رحمة وعدالة، وهو ثقافة وقانون، أو علم وقضاء، وهو مادة وثروة، أو كسب وغنى، وهو جهاد ودعوة، أو جيش وفكرة، كما هو عقيدة صادقة وعبادة صحيحة سواء بسواء) [1].

النموذج الثاني : التعريف المقاصدي للجهاد في سبيل الله :

يقول الإمام البنا ـ رحمه الله ـ عند حديثه عن أنواع الجهاد بمفهومه الشامل الذي لا يقف عند معنى القتال فقط :

(من الجهاد في الإسلام أيها الحبيب: عاطفة حية قوية تفيض حناناً إلى عز الإسلام ومجده، وتهفو شوقاً إلى سلطانه وقوته، وتبكي حزناً على ما وصل إليه المسلمون من ضعف وما وقعوا فيه من مهانة، وتشتعل ألماً على هذا الحال الذي لا يرضي الله ولا يرضي محمداً عليه الصلاة والسلام ولا يرضي نفساً مسلمة وقلباً مؤمناً . و(من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم) كما ورد في الحديث الصحيح.

لمثل هذا يذوب القلب من كمد إن كان في القلب إسلام وإيمان

(1) مجموعة الرسائل، ص٣٥٦.

ومن الجهاد في سبيل الله أيها الحبيب: أن يحملك هذا الهم الدائم والجوى اللاحق علي التفكير الجدي في طريق النجاح وتلمس سبيل الخلاص وقضاء وقت طويل في فكرة عميقة تمحص بها سبل العمل وتتلمس فيها أوجه الحيل لعلك تجد لأمتك منفذا أو تصادف منقذاً، ونية المرء خير من عمله والله يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

ومن الجهاد في سبيل الله أيها الحبيب : أن تنزل عن بعض وقتك وبعض مالك وبعض مطالب نفسك لخير الإسلام وبني المسلمين .فإن كنت قائداً ففي مطالب القيادة تنفق، وإن كنت تابعاً ففي مساعدة الداعين تفعل، وفي كل خير، وكلا وعد الله الحسني، والله تبارك وتعالى يقول: ﴿ مَا كَانَ لأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِنَ الأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللهِ وَلا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلا نَصَبٌ وَلا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلا يَطَأُونَ مَوْطِئاً يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلاً إِلا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ، وَلا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً وَلا يَقْطَعُونَ وَادِياً إِلا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [التوبة:١٢٠-١٢١].

ومن الجهاد في سبيل الله أيها الحبيب : أن تأمر بالمعروف وأن تنهي عن المنكر، وأن تنصح لله ورسوله ولكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم، وأن تدعوا إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنه وما ترك قوم التناصح إلا ذلوا وما أهملوا التآمر بالمعروف والتناهي عن المنكر إلا خذلوا، ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ، كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ [المائدة:٧٨-٧٩].

ومن الجهاد في سبيل الله أيها الحبيب :أن تتنكر لمن تنكر لدينه وأن تقاطع من عادى الله ورسوله فلا يكون بينك وبينه صله ولا معامله ولا مؤاكله ولا مشاربه

وفي الحديث : (إن أول ما دخل النقص على بني إسرائيل أنه كان الرجل يلقى الرجل فيقول: يا هذا اتق الله ودع ما تصنع فإنه لا يحل لك ثم يلقاه من الغد وهو علي حاله فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده فلما فعلو ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض)[١].

ومن الجهاد في سبيل الله أيها الحبيب : أن تكون جندياً لله تقف له نفسك ومالك لا تبقي علي ذلك من شئ . فإذا هدد مجد الإسلام وديست كرامة الإسلام ودوى نفير النهضه لاستعادة مجد الإسلام كنت أول مجيب للنداء وأول متقدم للجهاد، ﴿إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ [التوبة:١١١]، وفي الحديث: (من مات ولم يغز ولم يحدث به نفسه مات علي شعبة من النفاق)[٢].

وبذلك يتحقق ما يريد الله من نشر الإسلام حتى يعم الأرض جميعاً .

ومن الجهاد في سبيل الله أيها الحبيب: أن تعمل علي إقامة ميزان العدل وإصلاح شئون الخلق وانصاف المظلوم والضرب علي يد الظالم مهما كان مركزه وسلطانه .

وفي الحديث عن أبي سعيد الخدري (رضي الله عنه) عن النبي ﷺ قال : (أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان أو أمير جائر)[٣].

وعن جابر (رضي الله عنه) : قال رسول الله ﷺ : (سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب

---

(١) سنن أبي داوود كتاب الملاحم باب الأمر والنهي ح : ٤٣٣٦، وقال عنه الألباني إنه ضعيف.
(٢) صحيح مسلم : كتاب الإمارة : باب ذم من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بالغزو ح: ١٩١٠، والنسائي: كتاب كتاب الجهاد : باب من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بالغزو ح: ٣٠٩٧، وأبو داوود كتاب الجهاد باب كراهية ترك الغزو ح: ٢٥٠٢.
(٣) سنن النسائي كتاب البيعة باب فضل من تكلم بالحق عند إمام جائر ح: ٤٢٠٩.

ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله) [1]

ومن الجهاد في سبيل الله تبارك وتعالى: إن لم توفق إلى شئ من ذلك كله : أن تحب المجاهدين من كل قلبك وتنصح لهم بمحض رأيك وقد كتب الله لك بذلك الأجر وأخلاك من التبعة . ولا تكن غير ذلك فيطبع الله على قلبك ويؤاخذك أشد المؤاخذة : ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضَى وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ، وَلا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَناً أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة:٩١-٩٣][2].

أرأيت هذا الفهم الشامل الواعي لمفهوم الجهاد، وهو يتسلل إلى النفس في سهولة ويسر، ثم يدلل على كل نوع من أنواع الجهاد حتى يترك النفس مطمئنة والعقل مقتنعا ؟!.

فهنا يعدد الإمام أنواعا من الجهاد، تبدأ من مجرد العاطفة القوية التي تستقر في القلب، وتسيطر على العقل، وتؤثر في الخلق والسلوك.

ثم لا يقف المسلم عند حد التفكير والعاطفة المجردة، بل يدفعه هذا كله للتفكير العملي في نصرة الإسلام والمسلمين بالمال والوقت والجهد.

ثم يتحرك خطوة أخرى إلى الأمام أو يصعد درجة أعلى فيأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وهو نوع من أنواع الجهاد في سبيل الله.

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك كتاب الهجرة باب: من قام إلى إمام جائر للحق فقتله فهو سيد الشهداء ح: ٤٩٣٦ .

(٢) مجموعة الرسائل، ص٨١- ٨٣.

وتتبعها خطوة أخرى على سلم الولاء والبراء فيوالي كل من والى الله ورسوله ويعادي من يعاديهم.

ويظل المسلم يرقى ويصعد حتى يوقف ماله ونفسه وكل ما يملك نصرة لدين الله تعالى؛ حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله.

ثم لا يصرفه جهاد العدو في الخارج عن جهاد الظلمة والمتجبرين والمتسلطين على رقاب الناس حتى لو كانوا من بني جلدتنا وحملوا أسماء المسلمين.

فإن عجز المسلم عن ذلك كله فلا أقل من أن يحب المجاهدين ويدعو لهم، وينصح لهم وذلك أضعف الإيمان.

وهنا أيضا نجد الإمام البنا . رحمه الله . يؤكد على فكرة المقاصد، كما فعل في أول هذا الفصل عند تعريفه للدين، يفعل ذلك مرة أخرى عند الحديث عن أنواع الجهاد في سبيل الله، ويكرر ذلك في مواطن كثيرة عند حديثه عن القرآن الكريم والصلاة والزكاة والحج وغير ذلك، مما يدل على أن الفكرة كانت واضحة في عقله وتفكيره، كما هي واضحة في سلوكه وتخطيطه.

ولم يقف الإمام البنا . رحمه الله . عند تعريف الدين والجهاد بل امتد هذا الفهم ليشمل مصطلحات أخرى مثل القرآن والعبادة وغيرها، وسيرى القارئ من خلال هذه الدراسة هذه الأمثلة واضحة ومتكررة.

الفصل الثالث

حفظ الدين عند الإمام البنا

حفظ الدين عند الإمام البنا

تمهيد :حفظ الدين بين اللغة والاصطلاح والمقاصد :

من معاني الدين لغة: العادة والسيرة والحساب والطاعة والملة . وقد وردت هذه الكلمة في القرآن الكريم بمعان متعددة منها:

١- التوحيد : كما في قوله تعالى : ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللهِ الإِسْلامُ....﴾ [آل عمران: ١٩].

٢- الحساب : كقوله تعالى : ﴿الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾ [المطففين: ١١].

٣- الحكم : كقوله تعالى : ﴿... كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ المَلِكِ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللهُ ...﴾ [يوسف: ٧٦].

٤- الملة : كقوله تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللهِ شَهِيدًا﴾ [الفتح: ٢٨]وكقوله تعالى : ﴿... وَذَلِكَ دِينُ القَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥].

يعني الملة المستقيمة.

واصطلاحا : يطلق الدين على الشرع، كما يطلق على ملة كل نبي . وقد يخص بملة الإسلام، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللهِ الإِسْلامُ....﴾ [آل عمران: ١٩](١).

يقول الدكتور عبد المجيد النجار في تعريف الدين :

إذا كان الدين في اللغة يعني الطاعة من دان يدين أي أطاع، فإنه أصبح يطلق اصطلاحًا على معنى مخصوص من الطاعة، وهو طاعة إله يتخذه المطيع معبودًا يؤمن به ويعبر عن طاعته بشعائر من الأقوال والأفعال يعتقد أنه يطلبها

(1)الموسوعة الفقهية، ٢٦٥/٤، باختصار وتصرف.

منه. وفي الثقافة الإسلامية أصبح لفظ الدين يطلق على الدين الإسلامي بمقتضى التعبير على سبيل الغلبة، فقد جاء في القرآن الكريم: ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللهِ الإِسْلامُ﴾ [آل عمران: ١٩]، وإن كان لفظ الإسلام نفسه يطلق على كل دين جاء به نبي حق، وإنما أصبح هو بدوره يطلق على الدين الذي جاء به محمد ﷺ على سبيل الغلبة في الاستعمال....[١].

والدين بمعنى التدين هو في المفهوم الإسلامي يتصف بالشمول، كما يتصف به الدين بمعنى المعتقدات والفروض، فهو على خلاف سائر الأديان يشمل الإيمان بكل ما جاء به محمد ﷺ على أنه حق في ذاته، وعلى أنه حق في كونه قد جاء به من عند ربه، ما تعلق من ذلك بعالم الغيب كالإيمان بوجود الله والملائكة واليوم الآخر، وما تعلق بعالم الشهادة كالإيمان بالصلاة والزكاة وكرامة الإنسان وطلب العلم. ويشمل العمل السلوكي كل ما هو مطلوب العمل به فعلا لما هو مأمور به، وتركا لما هو منهي عنه.

ويشمل التدين في بعده السلوكي ما يتعلق بسلوك الإنسان مع نفسه بإعطائها حقوقها والحفاظ عليها من التهلكة، وبسلوكه مع أسرته ومجتمعه الذي يعيش فيه، وسلوكه مع الدولة التي تحكمه، وسلوكه مع مطلق الإنسان الذي يختلط به، وسلوكه مع البيئة الطبيعية التي يتحرك فيها، ثم سلوكه مع ربه الذي خلقه، وذلك كله سواء نظرنا إلى الإنسان على أنه فرد، أو نظرنا إليه على أنه هيئة اجتماعية، فسلوكه بهذا الاعتبار وذاك هو مناط للتدين، وذلك على معنى أن الإنسان مطلوب منه أن يجري سلوكه على مقتضى ما هو مطلوب من قبل الله تعالى فعلا أو تركا[٢].

ويقول العلامة ابن عاشور ــ رحمه الله ــ:"حفظ الدين معناه حفظ دين كل

(1) مقاصد الشريعة بأبعاد جديدة، ص٦٣.

(2) مقاصد الشريعة بأبعاد جديدة، ص٦٣-٦٤.

أحد من المسلمين أن يدخل عليه ما يفسد اعتقاده وعمله اللاحق بالدين، وحفظ الدين بالنسبة لعموم الأمة هو دفع كل ما من شأنه أن ينقض أصول الدين القطعية. ويدخل في ذلك حماية البيضة، والذب عن الحوزة الإسلامية بإبقاء وسائل تلقي الدين من الأمة حاضرها وآتيها" [١].

ويشير الإمام البنا ــ رحمه الله ــ إلى تعريف الدين تعريفا مقاصديا، لا يقصد التعريف اللغوي ولا التعريف الاصطلاحي، لكنه يعرف الدين تعريفا مقاصديا، تعريفا يهتم بالجوهر لا المظهر.

ويقول الإمام البنا ــ رحمه الله ــ في رسالة هل نحن قوم عمليون ؟ عند حديثه عن وسائل الإخوان المسلمين للوصول إلى الهدف :

(قد علمت أيها القارئ الكريم أن الإخوان المسلمين يقصدون أول ما يقصدون إلى تربية النفوس وتجديد الأرواح وتقوية الأخلاق وتنمية الرجولة الصحيحة في نفوس الأمة، وقد يعتقدون أن ذلك هو الأساس الأول الذي تبنى عليه نهضات الأمم والشعوب .

وقد استعرضوا وسائل ذلك، وطرائق الوصول إليه فلم يجدوا فيها أقرب ولا أجدى من الفكرة الدينية، والاستمساك بأهداب الدين[٢].

ولأن هذا المصطلح ــ أقصد الدين والتدين ــ صار ملتبسا عند كثير من المسلمين في عهد الإمام البنا وإلى يومنا هذا، فبعضهم يرى الدين أذكارا وتسبيحات، وأدعية وتمتمات لا تعدو الشفاة، ولا تؤثر في الأخلاق والسلوك، وبعضهم يرى الدين لحية وجلبابا ومسواكا، وبعضهم يقصر الدين ويحصره في

---

(1) مقاصد الشريعة الإسلامية لابن عاشور، ص٧٨.

(٢) مجموعة الرسائل، ص٧١.

جدران المساجد لا يبرحها... إلى آخر هذه التصورات، أقول من أجل هذا عرف الإمام البنا الدين الذي يقصده تعريفا مقاصديا، لم يعرفه لغة أواصطلاحا كعادة الباحثين والعلماء؛ لأن التعريف اللغوي أو الاصطلاحي ليس هو مقصود الإمام البنا هنا بل هو يقصد المعنى المقاصدي الذي يريد أن يتربى عليه المسلمون بصفة عامة، وأتباعه بصفة خاصة، وقد ذكرنا هذا التعريف في الفصل السابق فلا حاجة لإعادته كاملا هنا.

يقول الإمام البنا في تعريف الدين: (الدين الذي يحيى الضمير، ويوقظ الشعور وينبه القلوب، ويترك مع كل نفس رقيباً لا يغفل، وحارساً لا يسهو، وشاهداً لا يجامل ولا يحابى ولا يضل ولا ينسى، يصاحبها في الغدوة والروحة والمجتمع والخلوة، ويراقبها في كل زمان، ويلاحظها في كل مكان، ويدفعها إلى الخيرات دفعاً ويدعها عن المآثم دعاً، ويجنبها طريق الذلل ويبصرها سبيل الخير والشر : ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ (الزخرف:٨٠) [1].

ويقول الدكتور سيف الدين عبد الفتاح :

إن حفظ الدين شامل لمجالات الحفظ الأخروي، وإن الحفظ المعتبر هو الذي يراعي أحكام الدين وقواعده ومناهجه، إنه تأسيس البنيان العقيدي باعتباره العروة الوثقى التي لا تنفصم، وأن أي محاولة لفصمها أو فكها ليس إلا خروجا على جوهر الحفظ ومناطه.

إن حفظ الدين، هو حفظ البيضة "بيضة الدين" والقيام على حماية الدين من كل ما يؤدي إلى تشويهه أو إغفاله أو تهميشه، وهو حفظ يقترن بأصول "حفظ

(١) مجموعة الرسائل، ص ٧١- ٧٢، ويراجع تعريف الدين في الفصل الثاني من هذه الدراسة.

الدعوة إليه" بالوسائل والأشكال والمجالات المختلفة الموصلة لمقصد الدعوة إلى سبيل الله، إنها عناصر وظيفة حضارية تستند إلى إطار من الوظيفة العقدية، وفي كل الأحوال فهي تعني بعناصر الوظيفة المعنوية للأمة، هذا هو حفظ الدين كما نفهمه، إطار ممتد وحاكم يشمل أشكال ومجالات الحفظ، خاصة عمليات التأسيس والتأصيل منها، (الوظيفة ــ الدعوة ــ الجهادية) بغرض تحويل الممكن إلى إمكان وتمكين، عمليات مهمة وفق قواعد وأصول قيمية منضبطة تعني بحقيقة التأسيس أنه "لا إكراه في الدين" حفظ الدين في إطار يشمل الحركة من الفرد إلى الجماعة إلى الأمة، ومن الذات إلى الغير، حتى مع اختلاف الأديان، ..

حفظ الدين: يشتمل على كل الوسائل والأدوات المؤدية إلى عمارته من عبادة ومعاملة وعلاقة، فبين عمارة المساجد وعمارة الأرض تعلق، في إطار اختصاص هذه الأمة بجعل الأرض مسجدا، وفق أصول عمارتها وطهارتها وتزكيتها وفي سياق يتأسس على عقيدة التوحيد وما تولده من قيم المخلوقين ضمن تعاملات وعلاقات وتفاعلات[1].

وقد صاغ الشاعر الطبيب النابغة الأستاذ الدكتور حسان حتحوت ــ رحمه الله ــ هذا المعنى في محاضرة ماتعة بعنوان جراح وأفراح، تكلم فيها عن الوعي والتعليم والتدين.

فقال عن المعتزلين للناس المعتكفين على العبادة بمعناها الضيق، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا :

ورب معتزل للناس معتكف يظن أن اعتزال الناس إسلام

(1) نحو تفعيل مقاصد الشريعة الإسلامية بحث مخطوط.

هم في بحار من الأوراد قد غرقوا وبالمسابح والتسبيح قد هاموا
والله ما عرفوا الإسلام أو عرفوا أمر الإله ولو صلوا ولو صاموا
الدين يا قوم فرض ثم نافلة والدين يا قوم ميدان وصمصام
والدين حرب على الأشرار يشعلها والمسلم الحق سباق ومقدام

حفظ الدين في فكر الإمام حسن البنا ـ رحمه الله ـ :

قد سبق أن أشرنا إجمالا إلى ما كتبه الأستاذ الدكتور عبد المجيد النجار حول مسالك حفظ الدين، وهو ما سنعتمده هنا للكشف عن عناية الإمام البنا ـرحمه الله ـ بالمقاصد، من خلال ما كتبه الإمام في الرسائل .

فقد قسم حفظ الدين إلى قسمين رئيسين:

أولاً : حفظ الدين بتوفير أسبابه، ويشتمل على:

١- حفظ الدين بالتيسير.

٢- حفظ الدين بالاجتهاد.

٣- حفظ الدين بالتبليغ.

٤- حفظ الدين بالسلطان.

٥- ويمكننا أن نضيف أيضا حفظ الدين بالفهم الصحيح.

ثانيًا : حفظ الدين بدفع العوائق، ويشتمل على :

١- حفظ الدين بمدافعة الهوى.

٢- حفظ الدين بمدافعة الاستبداد الفكري.

٣- حفظ الدين بمدافعة التحريف.

٤- حفظ الدين بمدافعة الإرجاف.

٥- حفظ الدين بالجهاد.

أما ما ذكره من حفظ إنسانية الإنسان، وما تشعب منها كحفظ الفطرة الإنسانية، وحفظ الكرامة الإنسانية، وحفظ غائية الحياة، وحفظ الحرية الإنسانية، فكل ذلك أرى أنه يلحق بحفظ النفس، حيث إنها تشتمل على الحفظ المادي والحفظ المعنوي.

وسنفرد لكل مسلك من المسالك السابقة سواء الخاصة بحفظ توفير الأسباب أو حفظ دفع العوائق مبحثا خاصا نتتبع فيه أهمية هذا المسلك، ثم نرى عناية الإمام البنا به.

المبحث الأول
حفظ الدين بالتيسير

قبل أن نعرض لعناية الإمام البنا ــ رحمه الله ــ بالتيسير نحب أن نقدم بين يديه بهذه الضوابط التي يحتاجها كل دارس لعلوم الشريعة الإسلامية، وكل داع إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة(١).

أولاً: من سمات الشريعة الإسلامية وخصائصها العامة أنها شريعة سمحة ميسرة، وقد تواترت الأدلة من القرآن والسنة على هذه الصفة.

يقول الله تعالى : ﴿ يُرِيدُ اللّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُواْ الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ اللّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [البقرة : ١٨٥].

ويقول تعالى : ﴿ مَا يُرِيدُ اللّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَـكِن يُرِيدُ لِيُطَهَّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [المائدة : ٦].

ويقول تعالى ﴿ ... وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾ [المؤمنون ٧٨].

ويقول سبحانه:﴿يُرِيدُ اللُه أن يُخَفِّفَ عَنْكم وخُلِقَ الإنسَانُ ضَعِيفًا ﴾ [النساء:٢٨].

ويقول الرسول الكريم ﷺ: "خَيرُ دينِكم أَيْسرُه"(٢)، ويقول ﷺ " أحب الأديان

(1) ينظر الاختلاط بين الجنسين بين أدلة المنع وشروط الجواز، بحث تحت الطبع للمؤلف.
(2) رواه أحمد والبخاري في الأدب المفرد، والطبراني عن محجن بن الأدرع، والطبراني أيضًا عن عمران بن حصين، والطبراني في الأوسط، وابن عدي والضياء عن أنس "صحيح الجامع الصغير: ٣٣٠٩.

إلى الله الحنيفية السَّمْحة"[١].

وتقول عائشة: ما خُيِّرَ رسول الله ﷺ بين أمرين، إلاَّ أَخَذ أيسرهما ما لم يكن إثمًا، فإذا كان إثمًا كان أبعد الناس عنه[٢].

ويقول ﷺ "إن الله يُحبُّ أن تُؤتَى رُخَصُه، كما يَكره أن تُؤْتَى معصيته"[٣].

روى جابر بن عبد الله قال: كان رسول الله ﷺ في سفر، فرأى زحامًا ورجلاً قد ظُلِّل عليه، فقال: "ما هذا؟" فقالوا: صائم، فقال: "ليس من البِرِّ الصيام في السَّفَر"[٤].

وبعث النبي ﷺ أبا موسى ومعاذ إلى اليمن وأوصاهما بقوله: "يَسِّرَا ولا تُعَسِّرَا وبَشِّرَا ولا تُنفِّرَا، وتطاوعَا "[٥].

ورَوَى عنه أنس أنه قال ﷺ: "يَسِّرُوا ولا تُعَسِّرُوا، وبَشِّرُوا ولا تُنَفِّرُوا"[٦].

وروى مسلم من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص قال وقف رسول الله في حجة الوداع بمنى للناس يسألونه فجاء رجل فقال يا رسول الله لم أشعر فحلقت قبل أن أذبح؟ فقال اذبح ولا حرج ثم جاءه رجل آخر فقال يا رسول الله لم أشعر فنحرت قبل أن أرمي؟ فقال ارم ولا حرج، قال فما سئل رسول الله عن شيء قدم

---

(1) رواه أحمد والبخاري في الأدب المفرد والطبراني عن ابن، عباس، المصدر السابق، ص١٦٠.

(2) مُتَّفَقٌ عليه، كما في اللؤلؤ والمرجان، ١٥٠٢.

(3) رواه أحمد وابن حبَّان والبيهقي في الشُّعَب عن ابن عمر، صحيح الجامع الصغير، ١٨٨٦.

(4) مُتَّفَقٌ عليه، اللؤلؤ والمرجان، ٦٨١.

(5) مُتَّفَقٌ عليه، عن أبي بردة، المصدر نفسه، ١١٣٠.

(6) مُتَّفَقٌ عليه، المصدر نفسه، ١١٣١.

ولا أخر إلا قال افعل ولا حرج[١].

ويقول سفيان الثوري ــ رحمه الله ــ(إنما العلم رخصة من ثقة، فإن التشدد يجيده كل أحد)[٢].

ومن القواعد الفقهية التي تؤكد على تيسير الشريعة الإسلامية قاعدة : المشقة تجلب التيسير، والأصل في الأشياء الإباحة، والضرورات تبيح المحظورات، وغير ذلك من القواعد الفرعية التي تؤكد على يسر الإسلام.

ثانيًا : أن تحريم الحلال كتحليل الحرام سواء بسواء، فقد يظن بعض الناس أن تحريم الحلال يدل على صلابة في الدين، أو قوة في الاعتقاد، أو يجوز من باب الاحتياط، وسد الذرائع وغير ذلك، وكل هذا غير صحيح ما لم يكن منضبطا بضوابط الشرع، فلسنا أغير من الله تعالى على الحرمات، ولسنا أحرص على ديننا من رسول الله ﷺ.

والله سبحانه يقول في كتابه الكريم ﴿ وَلاَ تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَـذَا حَلاَلٌ وَهَـذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ ﴾ [النحل: ١١٦].

ثالثًا : أن المتتبع للأحكام الفقهية في عهد النبوة والخلفاء الراشدين والتابعين وهم خير القرون، وصفوة الصفوة، وأقرب الناس بنزول التشريع، وأكثر الناس فهما لمقاصد الشرع، وأعقل الناس بقواعد وأصول التشريع يجد أن الحياة عندهم سهلة لينة، بسيطة غير معقدة، لكنها من السهل الذي امتنع علينا وعلى كثير من

---

(1) البخاري كتاب الحج باب الذبح قبل الحلق ح:١٧٢١، ح١٧٣٥، مسلم كتاب الحج باب من حلق قبل النحر أو نحر قبل الرمي ح:١٣٠٦.

(2) المجموع شرح المهذب للنووي، ج١، ص٨٠ مطبعة الأميرية.

الناس، بعد أن ضخمنا ما حقه التصغير، وصغرنا ما شأنه التكبير، وقدمنا النوافل والسنن على الفرائض والواجبات، واحتكمنا إلى العرف وتركنا الشرع، فضيقنا واسعا، وانشغلنا بالصغائر والجزئيات عن الكبائر والكليات.

رابعًا : أن الأصل في العادات والمعاملات واللباس والزينة والأطعمة الحل ولا يجوز الإفتاء بالحرمة في هذه المسألة إلا اعتمادا على دليل قطعي الثبوت قطعي الدلالة.

وهذا يؤكد صلاحية الشريعة الإسلامية لكل زمان ومكان، ويؤكد مرونتها واستيعابها لكل المستجدات، وأنها تتميز بالثبات في الأصول والمقاصد والغايات، وبالتطور في الفروع والوسائل.

إن التضييق علي الناس وتحريم ما لم يحرمه الله بحجة سد الذرائع والاحتياط والأخذ بالعزيمة يوقع الناس في أحد أمرين كلاهما أكثر ضررا من الآخر، فإما أن يعمد المسلم إلى الحيل فيركبها ليستحل ما حرم الله، أو اليأس والجرأة على الحرام، ولسنا أغير على شرع الله من الله ورسوله ﷺ ولقد فطن الإمام ابن تيمية لهذا الأمر عند حديثه عن الشروط وأثرها على العقود فقال ــ رحمه الله ــ : (إذا حرمنا العقود والشروط بين الناس في معاملاتهم العادية بغير دليل شرعي كنا محرِّمين ما لم يحرمه الله، بخلاف العقود التي تتضمن شرع دين لم يأذن به الله؛ فإن الله حرم من الدين ما لم يأذن به؛ فلا تشرع عبادة إلا بشرع الله، ولا تحرم عادة إلا بتحريم الله، والعقود والمعاملات من العادات التي يفعلها المسلم والكافر، وإن كان فيهما قربة من وجه آخر؛ فليست من العبادات التي يفتقر فيها إلى شرع كالعتق والصدقة)[1].

(1) القواعد النورانية، ص٢٠١.

يقول العلامة ابن عاشور ــ رحمه الله ــ عند حديثه عن السماحة واليسر في الإسلام :

السماحة سهولة المعاملة في اعتدال، فهي وسط بين التضييق والتساهل، وهي راجعة إلى معنى الاعتدال والعدل والتوسط، ذلك المعنى الذي نــوه بــه أســاطين حكمائنا الذين عنوا بتوصيف أحوال النفوس والعقول فاضــلها ودنئيهــا، وانتــساب بعضها من بعض . فقد اتفقوا على أن قوام الصفات الفاضــلة هــو الاعتــدال، أي التوسط بين طرفي الإفراط والتفريط؛ لأن ذينك الطرفين يدعو إليهما الهوى الــذي حذرنا الله منه في مواضع كثيرة ...

فالتوسط بين طرفي الإفراط والتفريط هو منبع الكمالات، وقد قال الله تعــالى فــي وصــف هــذه الأمــة، أو وصــف صــدرها : ﴿ وَكَــذَلِكَ جَعَلْنَــاكُمْ أُمَّــةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣]، وروى أبو سعيد الخدري عن رسول الله في معنى الآية أن الوسط هو العدل، أي بين طرفي الإفراط والتفريط، وبذلك جزم المحققون في تفسير هذه الآية.

فالسماحة السهولة المحمودة فيما يظن الناس فيه التشدد، ومعنى أنها محمودة أنها لا تفضي إلى ضر أو مفسدة[١].

وليس معنى أن الإسلام دين يسر أنه لا مــشقة فيــه علــى الإطــلاق، وإلا لضاعت التكاليف، ولكنها مشقة محتملة.

جاء في قواعد الأحكام في مصالح الأنام :

المشاق ضربان : أحدهما مشقة لا تنفك العبادة عنها كمشقة الوضوء والغسل في شدة السبرات (أي البرد الشديد)، وكمشقة إقامة الصلاة في الحــر والبــرد، ولا

(1) مقاصد الشريعة الإسلامية للطاهر بن عاشور، ٥٨-٦٠.

سيما صلاة الفجر، وكمشقة الصوم في شدة الحر وطول النهار، وكمشقة الحج التي لا انفكاك عنها غالبا، وكمشقة الاجتهاد في طلب العلم والرحلة فيه، وكذلك المشقة في رجم الزناة، وإقامة الحدود على الجناة، ولا سيما في حق الآباء والأمهات والبنين والبنات، فإن في ذلك مشقة عظيمة على مقيم هذه العقوبات بما يجده من الرقة والمرحمة بها للسراق والزناة والجناة من الأجانب والأقارب البنين والبنات، ولمثل هذا قال – تعالى – : ﴿.... وَلاَ تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ المُؤْمِنِينَ﴾ [النور:٢].

وقال عليه الصلاة والسلام : (لو أن فاطمة بنت محمد ﷺ سرقت لقطعت يدها)، وهو ﷺ أولى بتحمل هذه المشاق من غيره ؛ لأن الله – سبحانه وتعالى – وصفه في كتابه العزيز بأنه بالمؤمنين رءوف رحيم، فهذه المشاق كلها لا أثر لها في إسقاط العبادات والطاعات ولا في تخفيفها؛ لأنها لو أثرت لفاتت مصالح العبادات والطاعات في جميع الأوقات أو في غالب الأوقات، ولفات ما رتب عليها من المثوبات الباقيات ما دامت الأرض والسموات .

الضرب الثاني : مشقة تنفك عنها العبادات غالبًا، وهي أنواع :

النوع الأول : مشقة عظيمة فادحة كمشقة الخوف على النفوس والأطراف ومنافع الأطراف فهذه مشقة موجبة للتخفيف والترخيص ؛ لأن حفظ المهج والأطراف لإقامة مصالح الدارين أولى من تعريضها للفوات في عبادة أو عبادات ثم تفوت أمثالها.

النوع الثاني : مشقة خفيفة كأدنى وجع في إصبع أو أدنى صداع أو سوء مزاج خفيف، فهذا لافتة إليه ولا تعريج عليه ؛ لأن تحصيل مصالح العبادة أولى من دفع مثل هذه المشقة التي لا يؤبه لها .

النوع الثالث : مشاق واقعة بين هاتين المشقتين مختلفة في الخفة والشدة فما دنا منها من المشقة العليا أوجب التخفيف، وما دنا منها من المشقة الدنيا لم يوجب التخفيف إلا عند أهل الظاهر، كالحمى الخفيفة ووجع الضرس اليسير وما وقع بين هاتين الرتبتين مختلف فيه، ومنهم من يلحقه بالعليا، ومنهم من يلحقه بالدنيا، فكلما قارب العليا كان أولى بالتخفيف، وكلما قارب الدنيا كان أولى بعدم التخفيف(١).

وبعد هذه المقدمة نرى ما كتبه الإمام البنا في شأن التيسير:

وأول ما نجده من مظاهر التيسير عند الإمام البنا ــ رحمه الله ــ أنه اعترف بالمخالفين، وهذا يعطي نوعا من التيسير، فهو لم يخرج المخالفين من الإسلام، بل يستبعد أن يجتمع الناس على رأي واحد في الفروع، حيث إن طبيعة الدين تأبى هذا، نظرا لأسباب متنوعة ومتعددة يوجزها الإمام البنا في رسالة دعوتنا فيقول:

ونحن مع هذا نعتقد أن الخلاف في فروع الدين أمر لا بد منه ضرورة، ولا يمكن أن نتحد في هذه الفروع والآراء والمذاهب لأسباب عدة :

١- منها اختلاف العقول في قوة الاستنباط أو ضعفه، وإدراك الدلائل والجهل بها والغوص على أعماق المعاني، وارتباط الحقائق بعضها ببعض، والدين آيات وأحاديث ونصوص يفسرها العقل والرأي في حدود اللغة وقوانينها، والناس في ذلك جد متفاوتين فلا بد من خلاف.

٢- ومنها سعة العلم وضيقه، وإن هذا بلغه ما لم يبلغ ذاك والآخر شأنه كذلك، وقد قال مالك لأبي جعفر: إن أصحاب رسول الله ﷺ تفرقوا في الأمصار وعند كل قوم علم، فإذا حملتهم على رأي واحد تكون فتنة.

٣- ومنها اختلاف البيئات حتى أن التطبيق ليختلف باختلاف كل بيئة، وإنك لترى

(1) قواعد الأحكام في مصالح الآنام لابن عبد السلام، ٢/٩-١١، دار الكتب العلمية.

الإمام الشافعي (ﷺ) يفتي بالقديم في العراق ويفتي بالجديد في مصر، وهو في كليهما آخذ بما استبان له وما اتضح عنده لا يعدو أن يتحرى الحق في كليهما.

٤- ومنها اختلاف الاطمئنان القلبي إلى الرواية عند التلقين لها، فبينما نجد هذا الراوي ثقة عند هذا الإمام تطمئن إليه نفسه وتطيب بالأخذ به، تراه مجروحا عند غيره لما علم عن حاله.

٥- ومنها اختلاف تقدير الدلالات فهذا يعتبر عمل الناس مقدما على خبر الآحاد مثلا، وذاك لا يقول معه به، وهكذا[1].

وهذا الذي ذكره الإمام البنا عن أسباب الاختلاف هو ما ذكره الفقهاء القدامى والمحدثين عن أسباب الخلاف، وإن كان بعضهم أوجز في هذه الأسباب، وبعضهم أطال.

جاء في كتاب أنوار البروق في أنواع الفروق :

أسباب الاختلاف في تأدية هذه الأحكام من الأصناف اللفظية ستة:

١- أحدها تردد الألفاظ بين هذه الأصناف الأربعة، أي كون اللفظ عاما يراد به الخاص أو خاصا يراد به العام، أو عاما يراد به العام، أو خاصا يراد به الخاص، أو يكون له دليل الخطاب أو لا يكون له .

٢- والثاني الاشتراك الحاصل إما في اللفظ المفرد كالقرء يطلق على الأطهار والحيض، والأمر يحمل على الوجوب أو الندب، والنهي يحمل على التحريم أو الكراهة. وأما في اللفظ المركب مثل قوله تعالى: ﴿ **إِلاَّ الَّذِينَ**

(1) مجموعة الرسائل، ص ٢٥- ٢٦.

تَابُوا..﴾ [النور: ٥] يحتمل أن يعود على الفاسق فقط، أو عليه وعلى الشاهد معا فتكون التوبة رافعة للفسق ومجيزة لشهادة القاذف.

٣- والثالث: اختلاف الإعراب.

٤- والرابع: تردد اللفظ بين حمله على الحقيقة أو على نوع من أنواع المجاز التي هي إما الحذف وإما الزيادة وإما التأخير وإما التقديم وإما تردده على الحقيقة أو الاستعارة.

٥- والخامس: إطلاق اللفظ تارة وتقييده تارة مثل إطلاق الرقبة في العتق تارة وتقييدها بالإيمان تارة.

٦- والسادس التعارض في الشيئين في جميع أصناف الألفاظ التي يتلقى منها الشرع الأحكام بعضها مع بعض ومن كون هذه الصيغة الخاصة للعموم ونحو ذلك[1].

وجاء في الموسوعة الفقهية : من أسباب الخلاف الراجع إلى الدليل :

١- الإجمال في الألفاظ واحتمالها للتأويلات.

٢- دوران الدليل بين الاستقلال بالحكم وعدمه.

٣- دورانه بين العموم والخصوص، نحو ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ..﴾ [البقرة: ٢٥٦].

٤- اختلف فيه هل هو عام أو خاص بأهل الكتاب الذين قبلوا الجزية.

٥- اختلاف القراءات بالنسبة إلى القرآن العظيم، واختلاف الرواية بالنسبة إلى الحديث النبوي.

٦- دعوى النسخ وعدمه.

---

(1) أنوار البروق في أنواع الفروق لأحمد بن أدريس القرافي ٧/١، باختصار وتصرف ط. عالم الكتب، الموسوعة الفقهية ٢٩٧/٢.

٧- عدم اطلاع الفقيه على الحديث الوارد أو نسيانه له.

ومن العسر بمكان حصر الأسباب التي من هذا النوع، فكل قاعدة أصولية مختلف فيها ينشأ عنها اختلاف في الفروع المبنية عليها(١).

وبعد أن يذكر أسباب الخلاف يؤكد على أن الإجماع على أمر فرعي متعذر، فيقول تحت عنوان :الإجماع على أمر فرعي متعذر.

كل هذه أسباب جعلتنا نعتقد أن الإجماع على أمر واحد في فروع الدين مطلب مستحيل، بل هو يتنافى مع طبيعة الدين، وإنما يريد الله لهذا الدين أن يبقى ويخلد ويساير العصور، ويماشي الأزمان، وهو لهذا سهل مرن هين، لين، لا جمود فيه ولا تشديد(٢).

الاعتذار للمخالف نوع من أنواع التيسير :

ويستطرد الإمام فيقول : نعتقد هذا فنلتمس العذر لمن يخالفوننا في بعض الفرعيات، ونرى أن هذا الخلاف لا يكون أبدا حائلا دون ارتباط القلوب وتبادل الحب والتعاون على الخير، وأن يشملنا وإياهم معنى الإسلام السابغ بأفضل حدوده، وأوسع مشتملاته، ألسنا مسلمين وهم كذلك؟ وألسنا نحب أن ننزل على حكم اطمئنان نفوسنا وهم يحبون ذلك؟ وألسنا مطالبين بأن نحب لإخواننا ما نحب لأنفسنا؟ ففيم الخلاف إذن؟ ولماذا لا يكون رأينا مجالا للنظر عندهم كرأيهم عندنا؟ ولماذا لا نتفاهم في جو الصفاء والحب إذا كان هناك ما يدعو إلى التفاهم؟

هؤلاء أصحاب رسول الله ﷺ كان يخالف بعضهم بعضا في الإفتاء فهل أوقع ذلك اختلافا بينهم في القلوب؟ وهل فرق وحدتهم أو فرق رابطتهم؟ اللهم لا وما

(1) الموسوعة الفقهية، ٢٩٧/٢.

(2) مجموعة الرسائل، ص٢٦.

حديث صلاة العصر في قريظة ببعيد.

وإذا كان هؤلاء قد اختلفوا وهم أقرب الناس عهدا بالنبوة وأعرفهم بقرائن الأحكام، فما بالنا نتناحر في خلافات تافهة لا خطر لها؟ وإذا كان الأئمة وهم أعلم الناس بكتاب الله وسنة رسوله قد اختلف بعضهم مع بعض وناظر بعضهم بعضا، فلم لا يسعنا ما وسعهم؟ وإذا كان الخلاف قد وقع في أشهر المسائل الفرعية وأوضحها كالأذان الذي ينادى به خمس مرات في اليوم الواحد، ووردت به النصوص والآثار، فما بالك في دقائق المسائل التي مرجعها إلى الرأي والاستنباط؟

وثم أمر آخر جدير بالنظر، إن الناس كانوا إذا اختلفوا رجعوا إلى (الخليفة) وشرطه الإمامة، فيقضي بينهم ويرفع حكمه الخلاف، أما الآن فأين الخليفة؟ وإذا كان الأمر كذلك فأولى بالمسلمين أن يبحثوا عن القاضي، ثم يعرضوا قضيتهم عليه، فإن اختلافهم من غير مرجع لا يردهم إلا إلى خلاف آخر.

يعلم الإخوان المسلمون كل هذه الحيثيات، فهم لهذا أوسع الناس صدرا مع مخالفيهم، ويرون أن مع كل قوم علما، وفي كل دعوة حقا وباطلا، فهم يتحرون الحق ويأخذون به، ويحاولون في هوادة ورفق إقناع المخالفين بوجهة نظرهم. فإن اقتنعوا فذاك، وإن لم يقتنعوا فإخوان في الدين، نسأل الله لنا ولهم الهداية.

ذلك منهاج الإخوان المسلمين أمام مخالفيهم في المسائل الفرعية في دين الله يمكن أن أجمله لك في أن الإخوان يجيزون الخلاف، ويكرهون التعصب للرأي، ويحاولون الوصول إلى الحق، ويحملون الناس على ذلك بألطف وسائل اللين والحب[1].

ثم يؤكد على هذا المعنى في رسالة المؤتمر الخامس حيث يتكلم عن خصائص دعوة الإخوان فيقول ومن هذه الخصائص:

---

(1) مجموعة الرسائل، ص٢٥- ٢٧ باختصار.

البعد عن مواطن الخلاف :

فأما البعد عن مواطن الخلاف الفقهي فلأن الإخوان يعتقدون أن الخلاف في الفرعيات أمر ضروري لابد منه، إذ إن أصول الإسلام آيات وأحاديث وأعمال تختلف في فهمها وتصورها العقول والأفهام، لهذا كان الخلاف واقعاً بين الصحابة أنفسهم ومازال كذلك، وسيظل إلى يوم القيامة، وما أحكم الإمام مالك (رضي الله عنه) حين قال لأبي جعفر وقد أراد أن يحمل الناس على الموطأ: "إن أصحاب رسول الله ﷺ تفرقوا في الأمصار وعند كل قوم علم، فإذا حملتهم على رأي واحد تكون فتنة"، وليس العيب في الخلاف ولكن العيب في التعصب للرأي والحجر على عقول الناس وآرائهم، هذه النظرة إلى الأمور الخلافية جمعت القلوب المتفرقة على الفكرة الواحدة، وحسب الناس أن يجتمعوا على ما يصير به المسلم مسلماً كما قال زيد (رضي الله عنه) وكانت هذه النظرة ضرورية لجماعة تريد أن تنشر فكرة في بلد لم تهدأ بعد فيه ثائرة الخلاف على أمور لا معنى للجدل ولا للخلاف فيها[1].

وأحسب أننا لسنا في حاجة إلى أن ندلل على عمق الفهم الذي كان يتمتع به الإمام ــ رحمه الله ــ ولو رجعنا إلى ما كُتب عن أسباب الخلاف، ونشأته، وآدابه وضوابطه لوجدنا مئات الصفحات كتبت في هذا الموضوع الهام وعاها الإمام وفهمها وصاغها صياغة سهلة تفيد المتخصص وغيره .

فالإمام البنا هنا يؤكد على حقيقة ثابتة يعلمها كل من له صلة بالعلم، وهي عدم الإنكار في المختلف فيه، وعلى الرغم من ذلك تغيب عنا بعضنا أو معظمنا هذه الحقية عند التطبيق العملي، فننكر في أشياء كثيرة مختلف فيها، بل قد ينكر بعضنا على الآخر والحق معه، تعصبا لما يراه أنه حق.

---

(1) مجموعة الرسائل، ص١٢٤.

ذكر السيوطي في الأشباه والنظائر قاعدة : " لا ينكر المختلف فيه ولكن ينكر المجتمع عليه " . وقال إنه يستثنى منها صور ينكر فيها المختلف فيه : إحداها: أن يكون ذلك المذهب بعيد المأخذ . ومن ثم وجب الحد على المرتهن بوطء الأمة المرهونة ولم ينظر للخلاف الشاذ في ذلك.

الثانية : أن يترافع فيه لحاكم، فيحكم بعقيدته . إذ لا يجوز للحاكم أن يحكم بخلاف معتقده.

الثالثة : أن يكون للمنكر فيه حق، كالزوج المسلم يمنع زوجته الذمية من شرب الخمر بالرغم من وجود خلاف في حقه بمنعها وعدمه(١).

قال الزركشي: الإنكار من المنكر إنما يكون فيما اجتمع عليه، فأما المختلف فيه فلا إنكار فيه ؛ لأن كل مجتهد مصيب، أو المصيب واحد ولا نعلمه، ولم يزل الخلاف بين السلف في الفروع، ولا ينكر أحد على غيره أمرا مجتهدا فيه، وإنما ينكرون ما خالف نصا، أو إجماعا قطعيا أو قياسا جليا، وهذا إذا كان الفاعل لا يرى تحريمه، فإن كان يراه فالأصح الإنكار(٢).

وسئل الإمام ابن تيمية ــ رحمه الله ــ عن الصلاة خلف المرازقة(٣). وعن بدعتهم فأجاب: يجوز للرجل أن يصلي الصلوات الخمس والجمعة وغير ذلك خلف من لم يعلم منه بدعة ولا فسقا باتفاق الأئمة الأربعة وغيرهم من أئمة المسلمين وليس من شرط الائتمام أن يعلم المأموم اعتقاد إمامه ولا أن يمتحنه فيقول ماذا

---

(1) الأشباه والنظائر للسيوطي، ١٥٨/١، ط. الكتب العلمية.
(2) المنثور للزركشي، ١٢٧/٢–١٢٨، ط. الشؤن الإسلامية بالكويت.
(3) هم جماعات ينتسبون إلى الشيخ " عثمان بن مرزوق "، ويقولون : أشياء مخالفة لما كان عليه ... وذلك مثل قولهم : ولا نقول قطعًا ونقول نشهد أن محمد رسول الله ولا نقطع ونقول: السماء فوقنا ولا نقطع ويروون أثرًا عليٍّ وبعضهم يرفعه أنه قال : لا تقل قطعًا وهذا من الكذب المفترى باتفاق أهل العلم ولم يكن شيخهم يقول هذا بل هذه بدعة أحدثها بعض أصحابه بعد موته، ينظر فتاوى ابن تيمية ١٨٥/٢.

تعتقد ؟ ... فإن الصحابة كانوا يصلون الجمعة والجماعة خلف الأئمة الفجار ولا يعيدون كما كان ابن عمر يصلي خلف الحجاج وابن مسعود وغيره يصلون خلف الوليد بن عقبة وكان يشرب الخمر حتى أنه صلى بهم مرة الصبح أربعا ثم قال أزيدكم؟ فقال ابن مسعود ما زلنا معك منذ اليوم في زيادة ولهذا رفعوه إلى عثمان...[1].

ويقول في رسالة دعوتنا في طور جديد، وهو يتكلم عن عناية الإسلام بالفرد والأسرة والمجتمع: (والإسلام يحيط بكل ذلك لا يسلك سبيل العنت، ولا يحمل الناس علي ما يؤدي إلى الحرج، ولكن يريد بالناس اليسر، ولا يريد بهم العسر، ويضع القواعد الكلية ويدع الفرعيات الجزئية، ويرسم طرائق التطبيق، ويكل للأزمان والعصور بعد ذلك أن تعمل عملها وهو لذلك شريعة كل زمان ومكان، وهو لذلك يفرض نشر الدعوة حتى تشمل الناس أجمعين ويتحقق قوله تعالي:(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ) (الأنبياء:١٠٧) [2]

ويقول في رسالة مشكلاتنا في ضوء النظام الإسلامي : (ومن هنا فرق الفقهاء في النظرة التشريعية بين ما هو من قواعد أحكام المعاملات وشؤون الحياة الاجتماعية، فأفسح للنظر والاجتهاد في الثانية ما ليس في الأولى حتى لا يكون على الناس في ذلك حرج ولا مشقة (يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ) (البقرة:١٨٥) . وتحدث للناس أقضية بقدر ما أحدثوا من الفجور[3].

الإمام البنا لم يلزم أتباعه بمذهب فقهي بعينه:

(1) مجموع فتاوى ابن تيمية، ٣٥٢/٢٣، ط. الرياض.

(2) مجموعة الرسائل، ص٢٣٧.

(3) مجموعة الرسائل، ص٣٠٤- ٣٠٥.

وأمر آخر ــ في غاية الأهمية ــ جعل الإمام البنا ممن يعنون بحفظ الدين بالتيسير أنه لم يلزم اتباعه مذهبا فقهيا معينا، ففيهم الشافعي والمالكي والحنفي والحنبلي، وهذا يؤدي إلى تعاون أفراد الجماعة في يسر، ثم يجعل الجماعة بما تضم من علماء من كافة المذاهب الفقهية المعتبرة تعيش حالة من الثراء الفقهي من ناحية، كما تعيش في حالة تعاون وتآلف بين المنتسبين إلى كافة المذاهب الفقهية المعتبرة من ناحية أخرى.

ولو اختار الإمام لأتباعه مذهبا فقهيا واحدا لخسرت الجماعة كثيرا من أتباعها، ولتعصب المنتسبون إلى الجماعة إلى مذهب الجماعة الفقهي على حساب المذاهب الأخرى فدافعوا عن رأي المذهب الذي ينتسبون إليه بالحق والباطل.

ففي الأصول العشرين التي تعتبر دستورا وميثاقا للمنتمين إلى جماعة الإخوان ــ خاصة، أو للمسلمين عامة كما كتب فضيلة العلامة المرحوم الشيخ محمد الغزالي في كتابه دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين، حيث شرح فيه الأصول العشرين نجد هذه البنود التي تؤكد على السماحة واليسر:

فيقول في البند السادس من بنود الفهم: (وكل أحد يؤخذ من كلامه ويترك إلا المعصوم ﷺ، وكل ما جاء عن السلف رضوان الله عليهم موافقا للكتاب والسنة قبلناه، وإلا فكتاب الله وسنة رسوله أولى بالإتباع، ولكنا لا نعرض للأشخاص ــ فيما اختلف فيه ــ بطعن أو تجريح، ونكلهم إلى نياتهم وقد أفضوا إلى ما قدموا.

ففي هذا البند ينفي العصمة عن أي أحد من الفقهاء والعلماء كائنا من كان، فالمعصوم هو من عصمه الله سبحانه وتعالى، ولم يعصم إلا الأنبياء والرسل عليهم السلام، وما عداهم فيصيب ويخطىء، ثم جعل ميزان القبول والرد هو كتاب الله وسنة نبيه وليس قول أحد من البشر، ثم أكد على احترام وتقدير المخالف أيا كان خطؤه من وجهة نظر الآخر، ويكل الناس إلى نياتهم

ثم يقرر في البند السابع من أصول الفهم: (ولكل مسلم لم يبلغ درجة النظر في أدلة الأحكام الفرعية أن يتبع إماما من أئمة الدين، ويحسن به مع هذا الاتباع أن يجتهد ما استطاع في تعرف أدلته، وأن يتقبل كل إرشاد مصحوب بالدليل متى صح عنده صلاح من أرشده وكفايته، وأن يستكمل نقصه العلمي إن كان من أهل العلم حتى يبلغ درجة النظر)[1].

فهنا يقول لكل مسلم لم يبلغ درجة النظر...، وهو هنا دقيق غاية الدقة، فلم يقل على كل مسلم لم يبلغ درجة النظر...، حتى لا يفهم أنه يوجب هذا على كل المسلمين خاصة من ينتسبون إلى جماعة الإخوان المسلمين، فهو يرى هذا من المندوبات أو المستحبات.

وهنا لم يختر لأتباعه خاصة، ولا لأحد من المسلمين عامة إماما بعينه، كأن يكون حنفيا أو مالكيا أو شافعيا أو حنبليا، ولكن ترك ذلك لكل مسلم يقلد ما تستريح له نفسه، وما يناسب مكانه وزمانه (أن يتبع إماما من أئمة الدين).

ثم يرتقي بعقلية المنتسب إلى التعرف على أدلة الإمام الذي يتبعه: (ويحسن به مع هذا الاتباع أن يجتهد ما استطاع في تعرف أدلته)، وهذه درجة أعلى من المقلد العادي الذي يتبع إمامه دون البحث في أدلته، ثم يرشده إلى اتباع الدليل لا الشخص، وأخيرا يشير إشارة سريعة لمن يصح الأخذ عنه أو تقليده، وهو ما تتوافر فيه الكفاءة العلمية، والصلاح والتقوى (وأن يتقبل كل إرشاد مصحوب بالدليل متى صح عنده صلاح من أرشده وكفايته)

ثم يرتقي به خطوة أخرى حيث يحثه على أن يكون من أهل النظر والترجيح بين العلماء، أو من أهل الاجتهاد.

---

(1) مجموعة الرسائل، ص٣٥٧.

(وأن يستكمل نقصه العلمي إن كان من أهل العلم حتى يبلغ درجة النظر).

ويعود الإمام ليؤكد في الأصل الثامن على أن الخلاف في الفروع لا يكون سببا للفرقة أو التفرق، ولا الخصومة والعداوة فيقول: (والخلاف الفقهي في الفروع لا يكون سببا للتفرق في الدين، ولا يؤدي إلى خصومة ولا بغضاء ولكل مجتهد أجره، ولا مانع من التحقيق العلمي النزيه في مسائل الخلاف في ظل الحب في الله والتعاون على الوصول إلى الحقيقة، من غير أن يجر ذلك إلى المراء المذموم والتعصب)[١].

ثم يقطع كل أسباب الفرقة أيا كانت أسبابها، سواء كانت تاريخية تتعلق بما حدث بين الصحابة من الاختلاف والتقاتل، أو واقعية ناتجة عن كثرة التفريعات والخوض فيما لا فائدة منه لعموم الناس فيقول: (وكل مسألة لا ينبني عليها عمل فالخوض فيها من التكلف الذي نهينا عنه شرعا، ومن ذلك كثرة التفريعات للأحكام التي لم تقع، والخوض في معاني الآيات القرآنية الكريمة التي لم يصل إليها العلم بعد، والكلام في المفاضلة بين الأصحاب رضوان الله عليهم وما شجر بينهم من خلاف، ولكل منهم فضل صحبته وجزاء نيته وفي التأول مندوحة)[٢].

ويقول الإمام في الأصل الثاني عشر، عند حديثه عن البدعة: (والبدعة الإضافية والتَّركية والالتزام في العبادات المطلقة خلاف فقهي، لكل فيه رأيه، ولا بأس بتمحيص الحقيقة بالدليل والبرهان)[٣].

ولطالما تقاتل الناس بسبب التوسع في موضوع البدع، وعدم فهمها الفهم الصحيح، حتى تنافروا وتدابروا، ودبت بينهم العداوات، فسفه بعضهم بعضا، بل

(1) مجموعة الرسائل، ص٣٥٧.
(2) مجموعة الرسائل، ص٣٥٧.
(3) مجموعة الرسائل، ص٣٥٨.

وصل الأمر إلى اتهام النيات، والتفتيش عما في الضمائر والقلوب، ولما رأى عوام الناس هذا السلوك من بعض من ينتسبون إلى العلم حدثت لهم جفوة وبعد عن الدين، فما أفقه الإمام عندما طوى المسألة في كلمة (**خلاف فقهي،لكل فيه رأيه**)،حتى يفرغ المسلمون لقضايهم الحقيقية، ومعاركهم الجادة، بدلا من إتعاب الخيل في الباطل والحرث في البحر.

ثم يؤكد على هذا المعنى مرة أخرى في الأصل الخامس عشر حيث يقول: (والدعاء إذا قرن بالتوسل إلى الله تعالى بأحد من خلقه خلاف فرعي في كيفية الدعاء وليس من مسائل العقيدة)[1].

وهنا يطوي مساحة كبرى من الخلاف أيضا، زلت فيها أقدام وزاغت فيها أفهام حيث كفر بعض المنتسبين إلى العلم طوائف من المسلمين بسب التوسل الذي لم يفرقوا بينه وبين الاستغاثة بالمخلوقين والشرك بالله تعالى، وتجلت عبقرية الإمام هنا مرتين :

المرة الأولى: أنه خرج المسألة من باب العقائد إلى باب الفقه، وبالتالي قطع الطريق على المكفرين للناس بغير الحق، فالفقه فيه خطأ وصواب، وحلال وحرام، وليس فيه كفر أو خروج من الإسلام.

المرة الثانية: أنه جعل المسألة خلافا بين الفقهاء، وبالتالي لا يجوز الإنكار على المختلف فيه، ففي منتهى اليسر والسهولة عالج هذه المسالة الخطيرة.

يقول الإمام ابن تيمية في الفتاوى الكبرى: في التوسل بالنبي ﷺ هل يجوز أم لا ؟

الجواب : الحمد لله . أما التوسل بالإيمان به ومحبته وطاعته والصلاة

(1) مجموعة الرسائل، ص٣٥٨.

والسلام عليه وبدعائه وشفاعته ونحو ذلك، مما هو من أفعاله، وأفعال العباد المأمور بها في حقه، فهو مشروع باتفاق المسلمين، وكان الصحابة رضي الله عنهم يتوسلون به في حياته، وتوسلوا بعد موته بالعباس عمه كما كانوا يتوسلون به . وأما قول القائل: اللهم إني أتوسل إليك به، فللعلماء فيه قولان، كما لهم في الحلف به قولان، وجمهور الأئمة: كمالك، والشافعي، وأبي حنيفة على أنه لا يسوغ الحلف به، كما لا يسوغ الحلف بغيره من الأنبياء والملائكة، ولا تنعقد اليمين بذلك باتفاق العلماء . وهذا إحدى الروايتين عن أحمد، والرواية الأخرى تنعقد اليمين به خاصة دون غيره، ولذلك قال أحمد في منسكه الذي كتبه للمروزي صاحبه إنه يتوسل بالنبي ﷺ في دعائه، ولكن غير أحمد قال: إن هذا إقسام على الله به، ولا يقسم على الله بمخلوق، وأحمد في إحدى الروايتين قد جوز القسم به، فلذلك جوز التوسل به، ولكن الرواية الأخرى عنه هي قول جمهور العلماء أنه لا يقسم به، فلا يقسم على الله به كسائر الملائكة والأنبياء، فإنا لا نعلم أحدا من السلف والأئمة قال إنه يقسم على الله، كما لم يقولوا إنه يقسم بهم مطلقا . ولهذا أفتى أبو محمد بن عبد السلام أنه لا يقسم على الله بأحد من الملائكة والأنبياء وغيرهم، لكن ذكر له أنه روي عن النبي ﷺ حديث في الإقسام به، فقال : إن صح الحديث كان خاصا به، والحديث المذكور لا يدل على الإقسام به، وقد قال النبي ﷺ : (من كان حالفا فليحلف بالله وإلا فليصمت)[١] . وقال: (من حلف بغير الله فقد أشرك)[٢]. والدعاء عبادة، والعبادة مبناها على التوقيف والاتباع، لا على الهوى والابتداع، والله أعلم[٣].

---

(1) صحيح البخاري كتاب الشهادات باب كيف يستحلف، ح:٢٦٧٩.

(2) رواه الترمذي وقال قال حديث حسن سنن الترمذي: كتاب الأيمان والنذور عن رسول الله باب كراهية الحلف بغير الله، ح:١٥٣٥.

(3) الفتاوى الكبرى لابن تيمية، ٤٢٢/٢-٤٢٣، دار الكتب العلمية.

ثم يختم هذه الأصول بالتركيز على أمر هام، وهو قضية التكفير، حيث يجعل لها ضوابطها، حتى لا نستحل الدماء والأموال والأعراض باسم الإسلام، فنكون أول من يصرف الناس عنه، ونكون سببا في ضياعه، والأصل أننا نعمل على حفظه، فيقول في الأصل العشرين:

(ولا نكفر مسلما أقر بالشهادتين، وعمل بمقتضاهما وأدى الفرائض ــ برأي أو بمعصية ــ إلا إن أقر بكلمة الكفر، أو أنكر معلوما من الدين بالضرورة، أو كذب صريح القرآن، أو فسره على وجه لا تحتمله أساليب اللغة العربية بحال، أو عمل عملا لا يحتمل تأويلا غير الكفر)[1].

والأصل بقاء المسلم على إسلامه حتى يقوم الدليل على خلاف ذلك، لما ثبت عن النبي ﷺ أنه قال : (من صلى صلاتنا، واستقبل قبلتنا، وأكل ذبيحتنا فهو المسلم، له ما لنا وعليه ما علينا)[2] ويجب قبل تكفير أي مسلم النظر والتفحص فيما صدر منه من قول أو فعل، فليس كل قول أو فعل فاسد يعتبر مكفرا.

ويجب كذلك على الناس اجتناب هذا الأمر والفرار منه وتركه لعلمائهم لخطره العظيم، فعن ابن عمر (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله ﷺ : (إذا قال الرجل لأخيه يا كافر فقد باء به أحدهما، فإن كان كما قال، وإلا رجعت عليه)[3].

وعن أبي ذر (رضي الله عنه) أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : (من دعا رجلا بالكفر، أو قال : عدو الله، وليس كذلك إلا حار عليه)[4].

---

(1) مجموعة الرسائل، ص٣٥٩.

(2) صحيح البخاري: كتاب الصلاة باب فضل استقبال القبلة، ح: ٣٩١.

(3) صحيح البخاري كتاب الأدب باب من كفر أخاه بغير تأويل فهو كما قال ح::٦١٠٤.

(4) الموسوعة الفقهية الكويتية ١٣/ ٢٢٩ بتصرف. والحديث رواه مسلم كتاب الإيمان باب بيان حال إيمان من رغب عن أبيه، وهو يعلم ح: ٦١ .

التحرز من التكفير :

ولا ينبغي أن يكفر مسلم أمكن حمل كلامه على محمل حسن، أو كان في كفره خلاف ولو كان رواية ضعيفة . ما يشك في أنه كفر لا يحكم به، فإن المسلم لا يخرجه من الإيمان إلا جحود ما أدخله فيه، إذ الإسلام الثابت لا يزول بالشك مع أن الإسلام يعلو، فإن كان في المسألة وجوه توجب التكفير ووجه واحد يمنعه فعلى المفتي أن يميل إلى الوجه الذي يمنع التكفير ؛ لعظم خطره وتحسينا للظن بالمسلم، ولأن الكفر نهاية في العقوبة فيستدعي نهاية في الجناية، ومع الشك والاحتمال لا نهاية[1].

(1) الموسوعة الفقهية الكويتية ٢٢٩/١٣؛ وينظر أيضًا رد المحتار على الدر المختار ٢٨٩/٣، ط. إحياء التراث، حاشية الدسوقي على الشرح الكبير ٣٠١/٤؛ مغني المحتاج شرح منهاج الطالبين ١٣٤/٤، ويراجع ما كتبه فضيلة العلامة الدكتور يوسف القرضاوي في كتاب الفتاوى المعاصرة وغيره عن خطورة التكفير وأسبابه وضوابطه.

المبحث الثاني
حفظ الدين عن طريق الاجتهاد

الاجتهاد في اللغة بذل الوسع والطاقة في طلب أمر ليبلغ مجهوده ويصل إلى نهايته. ولا يخرج استعمال الفقهاء عن هذا المعنى اللغوي.

أما الأصوليون فيعرفونه بأنه بذل الطاقة من الفقيه في تحصيل حكم شرعي ظني، فلا اجتهاد فيما علم من الدين بالضرورة، كوجوب الصلوات، وكونها خمسا.

ومن هذا يعلم أن معرفة الحكم الشرعي من دليله القطعي لا تسمى اجتهادا[١].

وأما الاجتهاد : فهو بذل المجهود فيما يقصده المجتهد (و) يتحراه، إلا أنه قد اختص في العرف بأحكام الحوادث التي ليس لله تعالى عليها دليل قائم يوصل إلى العلم بالمطلوب منها، لأن ما كان لله عز وجل (عليه) دليل قائم، لا يسمى الاستدلال في طلبه اجتهادا[٢].

أو هو بذل الفقيه وسعه في استنباط الأحكام العملية من أدلتها التفصيلية. ويعرف بعض العلماء الاجتهاد في اصطلاح الأصوليين: بأنه استفراغ الجهد وبذل غاية الوسع، إما في استنباط الأحكام الشرعية أو في تطبيقها[٣].

والاجتهاد هو الذي يحفظ للدين مرونته وصلاحيته لكل زمان ومكان، وبغير الاجتهاد يتوقف الإبداع، ويجمد الدين، ويصبح شيئا تاريخيا لا يمت للواقع ولا للمستقبل بسبب.

---

(1) الموسوعة الفقهية وزارة الأوقاف الكويتية، ٣١٦/١.

(2) الفصول في الأصول لأبي بكر بن علي الرازي (الجصاص)، ١١/٤، ط. وزارة الأوقاف الكويتية.

(3) أصول الفقه للإمام أبي زهرة، ص٣٥٦، دار الفكر بدون تاريخ.

والإمام البنا اهتم بمسألة الاجتهاد، كوسيلة من وسائل حفظ الدين، ومن خلال تتبع ما كتبه نجد الإمام البنا يعيب على طائفة من الناس ابتعدوا عن كتاب الله، وهو المصدر الأول من مصادر الاستنباط والاجتهاد ورضوا بالملخصات والتعليقات (وأما استنباط الأحكام منه فقد وقع الناس في جهالة بكتاب الله تجعل بينهم وبين ذلك حجاباً كثيفاً وسداً منيعاً، مما اضطرهم إلى القناعة بالملخصات والرضا بالتعليقات وقصر هممهم عن السمو إلى ما هو أرقي من ذلك من الغايات) [1].

ثم يتحدث الإمام عن سعة التشريع الإسلامي، فيقول:

(كما أن تعاليم الإسلام وسياسته ليس فيها معنى رجعي أبداً، بل هي علي أدق قواعد التشريع الصالح، وقد اعترف التشريع لكثير منها ــ وسيكشف الزمن للناس علي جلاله ما لم يعرفوا ــ بأنها قد سبقته في دقة الأحكام وتصوير الأمور وسعة النظر، وشهد بذلك كثير من غير المسلمين كما ورد كثيراً في كلام "الميسو لامبير" وأضرابه، وأكدت ذلك مؤتمرات التشريع الدولية علي أن الإسلام قد وضع من القواعد الكلية ما يترك للمسلم باباً واسعاً في الانتفاع بكل تشريع نافع مفيد لا يتعارض مع أصول الإسلام ومقاصده، وأثاب علي الاجتهاد بشروطه، وقرر قاعدة المصالح المرسلة، واعتبر العرف، واحترم رأي الإمام . كل هذه القواعد تجعل التشريع الإسلامي في الذروة السامية بين الشرائع والقوانين والأحكام.

هذه معان أحب أيها السادة أن تذيع بيننا وأن نذيعها في الناس، فإن كثيرين لازالوا يفهمون من معنى النظام الإسلامي ما لا يتفق بحال مع الحقيقة، وهم لهذا ينفرون منه ويحاربون الدعوة إليه، ولو فقهوه علي وجهه لرجعوا به ولكانوا من أوائل أنصاره وأشدهم تحمساً له وأعلاهم صوتاً في الدعوة إليه) [2].

---

(1) مجموعة الرسائل، ص٨٦.

(2) مجموعة الرسائل، ص١٦٥.

ثم يتحدث الإمام في رسالة مشكلاتنا في ضوء النظام الإسلامي، عند رده على الاعتراضات التي يعترض بها بعض الناس على الرجوع إلى الإسلام، واستلهام الحلول منه لكافة مشكلاتنا، فيقول: (وقد يقال : إن هذا جمود ورجوع بالعالم إلى الوراء ألف عام أو تزيد، فكيف يعقل أننا نطبق اليوم نظما جاءت لأمة عاشت قبلنا بأربعة عشر جيلا في أرض غير أرضنا وعلى لون من الحياة غير ألوان حياتنا ؟! وأين سنة التطور وقوانين التقدم والارتقاء ؟

ونقول لهؤلاء كذلك إنكم أيضا لم تفهموا طبيعة الإسلام الحنيف الذي جاء للناس فكرة سامية تحدد الأهداف العليا، وتضع القواعد الأساسية، وتتناول المسائل الكلية، ولا تتورط في الجزئيات، وتدع بعد ذلك للحوادث الاجتماعية والتطورات الحيوية أن تفعل فعلها وتتسع لها جميعا ولا تصطدم بشيء منها .

وهذا تاريخ التشريع الإسلامي يحدثنا أن ابن عمر رضى الله عنه كان يفتى في الموسم في القضية من القضايا برأي، ثم تعرض عليه في الموسم التالي من العام القابل فيفتى برأي آخر . .فيقال له في ذلك، فيقول: ذاك على ما علمنا وهذا على ما نعلم أو كلام هذا نحوه.

كما يحدثنا أن الشافعي رضى الله عنه وضع بالعراق مذهبه القديم، فلما تمصر وضع مذهبه الجديد نزولا على حكم البيئة، وتمشيا مع مظاهر الحياة الجديدة من غير أن يخل ذلك بسلامة التطبيق على مقتضى القواعد الأساسية الكلية الأولى ... وأصبحنا نسمع : " قال الشافعي في القديم . وقال الشافعي في الجديد " ونرى تغير رأى الرجل الواحد في القضية بحسب الزمان تارة – كما فعل ابن عمر – وبحسب المكان تارة أخرى – كما فعل الشافعي – أو بحسبهما معا كما سمعنا أن عمر رضى الله عنه أمر بعدم القطع في السرقة عام المجاعة، وجاءه رجل يشكو سرقة خدمه فأحضرهم فأقروا وذكروا أن سبب ذلك أنه لا يقوم بكفايتهم من طعام

وملبس ... الخ . فتركهم عمر قائلا : (إذا سرق خدمك مرة ثانية قطعت يدك أنت) واعتبرها شبهة تدرأ الحد، ولاحظ الظروف والملابسات ..)[1].

ثم يزيد الأمر وضوحا في رسالة التعاليم فيقول في الأصل الثاني من الأصول العشرين : **(والقرآن الكريم والسنة المطهرة مرجع كل مسلم في تعرف** أحكام الإسلام، ويفهم القرآن طبقا لقواعد اللغة العربية من غير تكلف ولا تعسف، ويرجع في فهم السنة المطهرة إلى رجال الحديث الثقات)[2].

ويقول في الأصل السادس : (وكل أحد يؤخذ من كلامه ويترك إلا المعصوم ﷺ، وكل ما جاء عن السلف رضوان الله عليهم موافقا للكتاب والسنة قبلناه، وإلا فكتاب الله وسنة رسوله أولى بالإتباع، ولكنا لا نعرض للأشخاص ــ فيما اختلف فيه ــ بطعن أو تجريح، ونكلهم إلى نياتهم وقد أفضوا إلى ما قدموا)[3].

ويقول في الأصل السابع ــ وقد تقدم في المبحث السابق ــ : (**ولكل مسلم** لم يبلغ درجة النظر في أدلة الأحكام الفرعية أن يتبع إماما من أئمة الدين، ويحسن به مع هذا الإتباع أن يجتهد ما استطاع في تعرف أدلته، وأن يتقبل كل إرشاد مصحوب بالدليل متى صح عنده صلاح من أرشده وكفايته، وأن يستكمل نقصه العلمي إن كان من أهل العلم حتى يبلغ درجة النظر)[4].

وهذا الذي ذكره الإمام البنا في سطور محدودة، وكلمات معدودة يحتاج إلى صفحات وصفحات، لشرحه وتوضيحه، وكيفة الإفادة منه، لكنه ــ رحمه الله ــ أوجز خلاصته في السطور السابقة.

---

(1) مجموعة الرسائل، ص٣٠٥.

(2) مجموعة الرسائل، ص٣٥٦.

(3) مجموعة الرسائل، ص٣٥٦.

(4) مجموعة الرسائل، ص٣٥٧.

فقضية التقليد من القضايا الهامة في باب الاجتهاد، وقد اختلف الفقهاء حول التقليد في الأحكام الشرعية العملية على رأيين :

الأول : جواز التقليد فيها وهو رأي جمهور الأصوليين، قالوا: لأن المجتهد فيها إما مصيب وإما مخطئ مثاب غير آثم، فجاز التقليد فيها، بل وجب على العامي ذلك ؛ لأنه مكلف بالعمل بأحكام الشريعة، وقد يكون في الأدلة عليها خفاء يحوج إلى النظر والاجتهاد، وتكليف العوام رتبة الاجتهاد يؤدي إلى انقطاع الحرث والنسل، وتعطيل الحرف والصنائع، فيؤدي إلى الخراب، ولأن الصحابة رضي الله عنهم كان يفتي بعضهم بعضا، ويفتون غيرهم، ولا يأمرونهم بنيل درجة الاجتهاد . وقد أمر الله تعالى بسؤال العلماء في قوله تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٧]

الثاني : إن التقليد محرم لا يجوز. قال بذلك ابن عبد البر، وابن القيم، والشوكاني، وغيرهم . واحتجوا بأن الله تعالى ذم التقليد بقوله: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللهِ ...﴾ [التوبة: ٣١].

وقوله: ﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلاْ﴾ [الأحزاب: ٦٧]، ونحو ذلك من الآيات، وإن الأئمة قد نهوا عن تقليدهم، قال أبو حنيفة وأبو يوسف: لا يحل لأحد أن يقول بقولنا حتى يعلم من أين قلناه . وقال المزني في أول مختصره : اختصرت هذا من علم الشافعي، ومن معنى قوله مع إعلامه نهيه عن تقليده وتقليد غيره لينظر فيه لدينه ويحتاط لنفسه وقال أحمد : لا تقلدني، ولا تقلد مالكا ولا الثوري، ولا الأوزاعي، وخذ من حيث أخذوا.

وفي بعض كلام ابن القيم أن التقليد الذي يرى امتناعه هو (اتخاذ أقوال رجل بعينه بمنزلة نصوص الشارع لا يلتفت إلى قول سواه، بل لا إلى نصوص الشارع، إلا إذا وافقت نصوص قوله . قال فهذا هو التقليد الذي أجمعت الأمة على

أنه محرم في دين الله، ولم يظهر في الأمة إلا بعد انقراض القرون الفاضلة) أثبت ابن القيم والشوكاني فوق التقليد مرتبة أقل من الاجتهاد، هي مرتبة الاتباع، وحقيقتها الأخذ بقول الغير مع معرفة دليله، على حد ما ورد في قول أبي حنيفة وأبي يوسف (لا يحل لأحد أن يقول مقالتنا حتى يعلم من أين قلنا).

غير أن التقليد يجوز عند الضرورة. ومن ذلك إذا لم يظفر العالم بنص من الكتاب أوالسنة، ولم يجد إلا قول من هو أعلم منه، فيقلده . أما التقليد المحرم فهو أن يكون العالم متمكنا من معرفة الحق بدليله، ثم مع ذلك يعدل إلى التقليد، فهو كمن يعدل إلى الميتة مع قدرته على المذكى.

والتقليد إنما هو لمن لم يكن قادرا على الاجتهاد، أو كان قادرا عليه لكن لم يجد الوقت لذلك، فهي حال ضرورة كما قال ابن القيم . وقد أفتى الإمام أحمد بقول الشافعي، وقال : إذا سئلت عن مسألة لم أعرف فيها خبرا أفتيت فيها بقول الشافعي، لأنه إمام عالم من قريش[1].

ثم يقول في الواجبات العملية التي يجب على كل فرد أن يؤديها حتى يكون لبنة قوية في البناء : (أيها الأخ الصادق:

إن إيمانك بهذه البيعة يوجب عليك أداء هذه الواجبات حتى تكون لبنة قوية في البناء :

فيقول في الواجب الأول والثاني :

١- أن يكون لك ورد يومي من كتاب الله لا يقل عن جزء، واجتهد ألا تختم في

(1) الموسوعة الفقهية الكويتية١٣/١٦٣؛ وينظر أيضًا: أعلام الموقعين ٢/١٨٦-١٨٧، ط، دار الكتب العلمية؛ (إرشاد الفحول للشوكاني ص٢٦٧ط مصطفى الحلبي)، ومختصر المزني المطبوع مع الأم للشافعي ٢/١، ط. بولاق.

أكثر من شهر، ولا في أقل من ثلاثة أيام.

٢- أن تحسن تلاوة القرآن والاستماع إليه والتدبر في معانيه، وأن تدرس السير المطهرة وتاريخ السلف بقدر ما يتسع له وقتك، وأقل ما يكفي في ذلك كتاب (حماة الإسلام)، وإن تكثر من القراءة في حديث رسول الله ﷺ، وأن تحفظ أربعين حديثا على الأقل ولتكن الأربعين النووية، وأن تدرس رسالة في أصول العقائد ورسالة في فروع الفقه[١].

وهذه خطوات وإن كانت أولية لكنها على الطريق الاجتهاد، ثم يرتقي بأتباعه درجة على طريق الاجتهاد فيقول في الواجب الرابع عشر:

١٤- أن تجيد القراءة والكتابة، وأن تكثر من المطالعة في رسائل الإخوان وجرائدهم، ومجلاتهم ونحوها، وأن تكون لنفسك مكتبة خاصة مهما كانت صغيرة، وأن تتبحر في علمك وفنك إن كنت من أهل الاختصاص، وأن تلم بالشؤون الإسلامية العامة إلماما يمكنك من تصورها والحكم عليها حكما يتفق مع مقتضيات الفكرة[٢].

وبعد هذه النقول التي ذكرها الإمام ــ رحمه الله ــ يرى كل من يطالع كتاباته، وتنوعها أنه كان قد قطع شوطا كبيرا في تعلم الفقه الشرعي، وتعليمه إلى الناس، وإن نظرة على الأصول العشرين وما حوته من ضوابط فقهية وأصولية، يوقن أن الإمام ــ رحمه الله ــ قد وصل إليها بعد قراءة عشرات الكتب من كتب التراث في شتى أنواعها، ولم يكتف الإمام بالعلم الشرعي أو العلم بقواعد اللغة العربية، التي امتلك ناصيتها، فلانت له وسهلت، فلا يكاد يلحن في قول، بل كان

(1) مجموعة الرسائل، ص٣٦٥.
(2) مجموعة الرسائل، ص٣٦٦.

مثقفا في كافة الشئون السياسية، والاقتصادية والاجتماعية، ولعل من يطالع مذكرات الدعوة والداعية، بالإضافة للرسائل، وما أصدره من فتاوى وبحوث فقهية، ورسالة في العقائد، وأخرى في مصلح الحديث، يرى أنه كان مشروع مجتهد عملاق لو طال به العمر، أو تفرغ من العمل الحركي والدعوي، إلى الكتابة الفقهية الخالصة.

لكن على أية حال، فقد قدر الله له الخير ووضع ضوابط عامة للفهم أثرت في كثير من المجتهدين المعاصرين سواء أكانوا من أفراد جماعة الإخوان المسلمين أو من غيرهم.

المبحث الثالث
حفظ الدين عن طريق التبليغ

من أهم ما يميز دعوة الإخوان المسلمين ومؤسسها الإمام حسن البنا أنه أنشأ هذه الجماعة لتبليغ دين الله ــ عز وجل ــ بشموله وعمومه لمناحي الحياة جميعا، وقد بذل الإمام ما بذل وواصل تلامذته من بعده الكفاح من أجل حفظ الدين عن طريق تبليغه للناس بشكل عملي أولا، يظهر في سلوكهم وتصرفاتهم، ويظهر في أخلاقهم وتعاملاتهم.

والأمر بالمعروف في اصطلاح الفقهاء: هو الأمر باتباع محمد صلى الله عليه وسلم ودينه الذي جاء به من عند الله، وأصل المعروف : كل ما كان معروفا فعله جميلا غير مستقبح عند أهل الإيمان، ولا يستنكرون فعله .

أما النهي عن المنكر في الاصطلاح : فالنهي عن المنكر في الاصطلاح : طلب الكف عن فعل ما ليس فيه رضا الله تعالى[١].

حكم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر :

اتفق الأئمة على مشروعية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وحكى الإمام النووي وابن حزم الإجماع على وجوبه، وتطابقت آيات الكتاب وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم وإجماع المسلمين على أنه من النصيحة التي هي الدين.

قال الإمام الغزالي : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أصل الدين،

---

(1) الموسوعة الفقهية الكويتية ٢٤٨/٦؛ وينظر أيضا النهاية لابن الأثير مادة : " عرف "؛ التعريفات للجرجاني، ص٥٤، ط. دار الكتاب العربي؛ والمصباح المنير مادة (عرف) و(أمر)؛ إتحاف السادة المتقين شرح إحياء علوم الدين، ٣/٧، ط. الفكر.

وأساس رسالة المرسلين، ولو طوي بساطه، وأهمل علمه وعمله، لتعطلت النبوة واضمحلت الديانة، وعمت الفوضى، وهلك العباد.

إلا أنهم اختلفوا بعد ذلك في حكمه، هل هو فرض عين، أو فرض كفاية، أو نافلة ؟ أو يأخذ حكم المأمور به والمنهي عنه، أو يكون تابعا لقاعدة جلب المصالح ودرء المفاسد . على أربعة مذاهب :

المذهب الأول : أنه فرض كفاية : وهو مذهب جمهور أهل السنة، وبه قال الضحاك من أئمة التابعين والطبري وأحمد بن حنبل.

المذهب الثاني: أنه فرض عين في مواضع :

أ- إذا كان المنكر في موضع لا يعلم به إلا هو، وكان متمكنا من إزالته.

ب- من يرى المنكر من زوجته أو ولده، أو يرى الإخلال بشيء من الواجبات.

ج- والي الحسبة، فإنه يتعين عليه، لاختصاصه بهذا الفرض.

المذهب الثالث : إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر نافلة، وهو مذهب الحسن البصري وابن شبرمة .

المذهب الرابع : التفصيل، وقد اختلفوا على ثلاثة أقوال :

القول الأول : إن الأمر والنهي يكون واجبا في الواجب فعله أو في الواجب تركه، ومندوبا في المندوب فعله أو في المندوب تركه هكذا، وهو رأي جلال الدين البلقيني والأذرعي من الشافعية .

القول الثاني : فرق أبو علي الجبائي من المعتزلة بين الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقال : إن الأمر بالواجب واجب، وبالنافلة نافلة، وأما المنكر

فكله من باب واحد، ويجب النهي عن جميعه .

القول الثالث : لابن تيمية وابن القيم وعز الدين بن عبد السلام، قالوا : إن مقصود النهي عن المنكر أن يزول ويخلفه ضده، أو يقل وإن لم يزل بجملته، أو يخلفه ما هو مثله، أو يخلفه ما هو شر منه، والأولان مشروعان، والثالث موضع اجتهاد، والرابع محرم[1].

وضوح الدعوة في فكر الإمام البنا :

ففي رسالة دعوتنا يقول الإمام البنا تحت عنوان : مصارحة: (نحب أن نصارح الناس بغايتنا، وأن نجلي أمامهم منهجنا، وأن نوجه إليهم دعوتنا، في غير لبس ولا غموض، أضوأ من الشمس وأوضح من فلق الصبح وأبين من غرة النهار.

ويواصل حديثه تحت عنوان براءة : (ونحب مع هذا أن يعلم قومنا – وكل المسلمين قومنا – أن دعوة الإخوان المسلمين دعوة بريئة نزيهة، قد تسامت في نزاهتها حتى جاوزت المطامع الشخصية، واحتقرت المنافع المادية، وخلفت وراءها الأهواء والأغراض، ومضت قدما في الطريق التي رسمها الحق تبارك وتعالى للداعين إليه :

﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [يوسف: ١٠٨].

فلسنا نسأل الناس شيئا، ولا نقتضيهم مالا ولا نطالبهم بأجر، ولا نستزيد بهم

---

(1) الموسوعة الفقهية الكويتية ٢٤٩/٦؛ وينظر أيضًا: شرح صحيح مسلم للنووي ٢٢/٢-٢٣، ط. دار إحياء التراث العربي؛ إحياء علوم الدين٢ /٣٠٦، ط. دار المعرفة بيروت، والزواجر عن إقتراف الكبائر، ١٦٤/٢، ط. مصطفي الحلبي.

وجاهة، ولا نريد منهم جزاء ولا شكورا، إن أجرنا في ذلك إلا على الذي فطرنا.

دعوة الناس بالحب :

وتحت عنوان : عاطفة يقول: (ونحب أن يعلم قومنا أنهم أحب إلينا من أنفسنا، وأنه حبيب إلى هذه النفوس أن تذهب فداء لعزتهم إن كان فيها الفداء، وأن تزهق ثمنا لمجدهم وكرامتهم ودينهم وآمالهم إن كان فيها الغناء، وما أوقفنا هذا الموقف منهم إلا هذه العاطفة التي استبدت بقلوبنا وملكت علينا مشاعرنا، فأقضت مضاجعنا، وأسالت مدامعنا، وإنه لعزيز علينا جد عزيز أن نرى ما يحيط بقومنا ثم نستسلم للذل أو نرضى بالهوان أو نستكين لليأس، فنحن نعمل للناس في سبيل الله أكثر مما نعمل لأنفسنا، فنحن لكم لا لغيركم أيها الأحباب، ولن نكون عليكم في يوم من الأيام).

ويُرجع الفضل في ذلك كله لله فيقول تحت عنوان : لله الفضل والمنة :

(ولسنا نمتن بشيء ولا نرى لأنفسنا في ذلك فضلا، وإنما نعتقد قول الله تعالى : ﴿ بَلِ اللهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [الحجرات:١٧].

وكم نتمنى – لو تنفع المنى – أن تتفتح هذه القلوب على مرأى ومسمع من أمتنا، فينظر إخواننا هل يرون فيها إلا حب الخير لهم والإشفاق عليهم والتفاني في صالحهم ؟

وهل يجدون إلا ألما مضنيا من هذا الحال التي وصلنا إليها ؟ ولكن حسبنا أن الله يعلم ذلك كله، وهو وحده الكفيل بالتأييد الموفق للتسديد، بيده أزمة القلوب ومفاتيحها، من يهد الله فلا مضل له ومن يضلل الله فلا هادي له وهو حسبنا ونعم الوكيل . أليس الله بكاف عبده؟)[1].

---

(1) مجموعة الرسائل، ص١٣-١٤، بتصرف يسير.

وهنا نجد أنفسنا أمام داعية من طراز فريد، فهو لا يدعو الناس من منطلق الزهو والخيلاء، ولا من منطلق الاستعلاء على المدعو، بل يدعوهم ــ كما تعلم من منهج القرآن والسنة ــ من منطق الخوف والحب (وكم نتمنى – لو تنفع المنى – أن تتفتح هذه القلوب على مرأى ومسمع من أمتنا، فينظر إخواننا هل يرون فيها إلا حب الخير لهم والإشفاق عليهم والتفاني في صالحهم ؟، وهل يجدون إلا ألما مضنيا من هذا الحال التي وصلنا إليها ؟).

(ونحب أن يعلم قومنا أنهم أحب إلينا من أنفسنا، وأنه حبيب إلى هذه النفوس أن تذهب فداء لعزتهم إن كان فيها الفداء...).

فكثير من الدعاة يدعو الناس وكأن يده العليا ويدهم السفلى، وكأنه يناديهم من الجنة، وهم في الدرك الأسفل من النار، فيبالغ في التقريع والسخرية والاستهزاء بهم، وتبلغ القسوة عنده مداها، ويحسب أنه يحسن صنعا، أو أن هذا أمارة على قوة إيمانه، وصلابته في الحق، فينفّر الناس من الدعوة دون أن يدري، ويصد عن سبيل الله دون أن يقصد.

لكن الإمام هنا ــ رحمه الله ــ كلماته تقطر حبا، وشفقة، وخوفا على المدعو، لأنه يعلم أن هذا هو رأس ماله، وهو تجارته الذي يبتغي بها خيري الدنيا والآخرة.

حقا لقد اتخذ الرسول قدوته، حيث خاطبه الله متعجبا من رحمته وشفقته فقال: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وقال تعالى: ﴿ لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ

عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: ١٢٨]

ما أحوجنا إلى هذه النوعية من الدعاة، التي تقدم التيسير على التعسير، والترغيب على الترهيب، والتأليف على التعنيف، تخاطب الناس في ود وحب، وشفقة ورحمة، لأن الداعية يوقن أن رأس ماله في دعوة الناس، فيكون أرفق بهم من آبائهم وعشريتهم.

ليت الدعاة من الإخوان وغيرهم يتعلمون من الإمام البنا ــ رحمه الله ــ كيف تكون الدعوة إلى الله !!

الإيمان بالدعوة يلزمه العمل :

ويتحدث في نفس الرسالة : مقسما الناس وموقفهم من الدعوة إلى أصناف أربع فيذكر منهم المؤمن بهذه الدعوة فيقول:(إما شخص آمن بدعوتنا وصدق بقولنا وأعجب بمبادئنا، ورأى فيها خيرا اطمأنت إليه نفسه، وسكن له فؤاده، فهذا ندعوه أن يبادر بالانضمام إلينا والعمل معنا حتى يكثر به عدد المجاهدين، ويعلو بصوته صوت الداعين، ولا معنى لإيمان لا يتبعه عمل، ولا فائدة في عقيدة لا تدفع صاحبها إلى تحقيقها والتضحية في سبيلها، وكذلك كان السابقون الأولون ممن شرح الله صدورهم لهدايته فاتبعوا أنبياءه وآمنوا برسالاته وجاهدوا فيه حق جهاده، ولهؤلاء من الله أجزل الأجر وأن يكون لهم مثل ثواب من اتبعوهم لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا)[1].

ثم يتحدث في نفس الرسالة عن الفرق بين الإخوان المسلمين وعامة الناس من غير الدعاة فيقول: (والفرق بيننا وبين قومنا بعد اتفاقنا في الإيمان بهذا المبدأ أنه عندهم إيمان مخدر نائم في نفوسهم لا يريدون أن ينزلوا على حكمه ولا أن

(1) مجموعة الرسائل، ص١٤.

يعملوا بمقتضاه، علي حين أنه إيمان ملتهب مشتعل قوي يقظ في نفوس الإخوان المسلمين . ظاهرة نفسية عجيبة نلمسها ويلمسها غيرنا في نفوسنا نحن الشرقيين أن نؤمن بالفكرة إيمانا يخيل للناس حين نتحدث إليهم عنها أنها ستحملنا علي نسف الجبال وبذل النفس والمال واحتمال المصاعب ومقارعة الخطوب حتى ننتصر بها أو تنتصر بنا، حتى إذا هدأت ثائرة الكلام وانفض نظام الجمع نسي كل إيمانه وغفل عن فكرته، فهو لا يفكر في العمل لها ولا يحدث نفسه بأن يجاهد أضعف الجهاد في سبيلها، بل إنه قد يبالغ في هذه الغفلة وهذا النسيان حتى يعمل علي ضدها وهو يشعر أو لا يشعر ؟ أو لست تضحك عجباً حين تري رجلاً من رجال الفكر والعمل والثقافة في ساعتين اثنتين متجاورتين من ساعات النهار ملحداً مع الملحدين وعابداً مع العابدين !.

هذا الخور أو النسيان أو الغفلة أو النوم أو قل ما شئت هو الذي جعلنا نحاول أن نوقظ (مبدأنا) وهو هو المبدأ المسلم به من قومنا في نفوس هؤلاء القوم المحبوبين) [١]

وسائل الدعوة بين الأمس واليوم :

ويتحدث في نفس الرسالة أيضا عن دعاة اليوم ودعاة الأمس، ووسائل الدعوة الآن واختلافها عن وسائلها في الماضي فيقول: (والدعاة اليوم غيرهم بالأمس فهم مثقفون مجهزون مدربون أخصائيون – ولا سيما في البلاد الغربية – حيث تختص بكل فكرة كتيبة مدربة توضح غامضها وتكشف عن محاسنها وتبتكر لها وسائل النشر وطرائق الدعاية، وتتلمس لها في نفوس الناس أيسر السبل وأهونها وأقربها إلي الاقتناع والاتباع .

ووسائل الدعاية الآن غيرها بالأمس كذلك، فقد كانت دعاية الأمس كلمة تلقى

(1) مجموعة الرسائل، ص١٦-١٧.

في خطبة أو اجتماع أو كلمة تكتب في رسالة أو خطاب، أما الآن فنشرات ومجلات وجرائد ورسالات ومسارح وخيالات وحاك ومذياع، وقد ذلل ذلك كله سبل الوصول إلى قلوب الناس جميعهم، نساء ورجالا في بيوتهم ومتاجرهم ومصانعهم ومزارعهم.

لهذا كان من واجب أهل الدعوة أن يحسنوا تلك الوسائل جميعا حتى يأتي عملهم بثمرته المطلوبة)[1].

رابطة العقيدة ورابطة الإنسانية :

ثم ينتقل فيقسم الناس إلى قسمين قسم تربطنا بهم رابطة العقيدة والإيمان بالله، وأخرين تربطنا بهم رابطة الإنسانية والدعوة، فهؤلاء نسالمهم ما سالمونا (أما إذ عرفت هذا فاعلم – أيدك الله – أن الإخوان المسلمين يرون الناس بالنسبة إليهم قسمين:

١- قسم اعتقد ما اعتقدوه من دين الله وكتابه وآمن ببعثة رسوله وما جاء به، وهؤلاء تربطنا بهم أقدس الروابط، رابطة العقيدة وهي عندنا أقدس من رابطة الدم ورابطة الأرض، فهؤلاء هم قومنا الأقربون الذين نحنّ إليهم ونعمل في سبيلهم ونذود عن حماهم ونفتديهم بالنفس والمال، في أي أرض كانوا ومن أية سلالة انحدروا.

٢- وقوم ليسوا كذلك ولم نرتبط معهم بعد بهذا الرباط فهؤلاء نسالمهم ما سالمونا ونحب لهم الخير ما كفوا عدوانهم عنا، ونعتقد أن بيننا وبينهم رابطة هي رابطة الدعوة، علينا أن ندعوهم إلى ما نحن عليه لأنه خير الإنسانية كلها، وأن نسلك إلى نجاح هذه الدعوة ما حدد لها الدين نفسه من سبل ووسائل، فمن اعتدى

(1) مجموعة الرسائل، ص١٧.

علينا منهم رددنا عدوانه بأفضل ما يرد به عدوان المعتدين.

أما إذا أردت ذلك من كتاب الله فاسمع :

١- ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات: ١٠].

٢- ﴿ لا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ *، إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ ﴾ [الممتحنة: ٨-٩].

ولعلي أكون بذلك قد كشفت لك عن هذه الناحية من دعوتنا بما لا يدعها في نفسك ملتبسة أو غامضة، لعلك بعد ذلك عرفت إلى أي قبيل ينتسب الإخوان المسلمون)[1].

وهذا فهم راق، وفقه عميق، حيث لا ينظر إلى غير المسلمين على أنهم فئة واحدة فيفرق بين من يحاربونا ومن يسالمونا، ثم انظر إلى الأدب الجم والفكر الراقي حينما يقول (فمن اعتدى علينا منهم رددنا عدوانه بأفضل ما يرد به عدوان المعتدين !!).

وسنعود إلى هذه الفقرة في مبحث حفظ الدين عن طريق الجهاد، فنرجىء الحديث فيها إلى موضعه.

أسباب حفظ الدين عن طريق الدعوة :

ثم يذكر في رسالة إلى أي شيء ندعو الناس أسباب حفظ الدين عن طريق الدعوة والتبليغ فيقول : (إن تكوين الأمم، وتربية الشعوب، وتحقيق الآمال،

(1) مجموعة الرسائل، ص٢٤-٢٥، بتصرف يسير.

ومناصرة المبادئ: تحتاج من الأمة التي تحاول هذا أو الفئة التي تدعو إليه على الأقل إلى "قوة نفسية عظيمة" تتمثل في عدة أمور:

١- إرادة قوية لا يتطرق إليها ضعف.

٢- ووفاء ثابت لا يعدو عليه تلون ولا غدر.

٣- وتضحية عزيزة لا يحول دونها طمع ولا بخل.

٤- ومعرفة بالمبدأ وإيمان به وتقدير له يعصم من الخطأ فيه والانحراف عنه والمساومة عليه، والخديعة بغيره.

على هذه الأركان الأولية التي هي من خصوص النفوس وحدها، وعلى هذه القوة الروحية الهائلة، تبنى المبادئ وتتربى الأمم الناهضة، وتتكون الشعوب الفتية، وتتجدد الحياة فيمن حرموا الحياة زمناً طويلاً.

وكل شعب فقد هذه الصفات الأربعة، أو على الأقل فقدها قواده ودعاة الإصلاح فيه، فهو شعب عابث مسكين، لا يصل إلى خير، ولا يحقق أملاً، وحسبه أن يعيش في جو من الأحلام والظنون والأوهام: ﴿ إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً﴾ [يونس:٣٦] (١)

ثم يعود في رسالة بين الأمس واليوم فيتحدث عن الوسائل التي توصل إلى الأهداف، فيقول : (إن الخطب والأقوال، والمكاتبات والدروس والمحاضرات، وتشخيص الداء، ووصف الدواء، كل ذلك وحده لا يجدي نفعاً، ولا يحقق غاية، ولا يصل بالداعين إلى هدف من الأهداف؛ ولكن للدعوات وسائل لا بد من الأخذ بها والعمل لها . والوسائل العامة للدعوات لا تتغير ولا تتبدل ولا تعدو هذه الأمور

(1) مجموعة الرسائل، ص٤٥، بتصرف يسير.

الثلاثة :

١- الإيمان العميق .

٢- التكوين الدقيق .

٣- العمل المتواصل .

وتلك هي وسائلكم العامة أيها الإخوان فآمنوا بفكرتكم وتجمعوا حولها واعملوا لها واثبتوا عليها)[1].

وفي نفس الرسالة يوصي الإخوان ويذكرهم برسالتهم فيقول: (أيها الإخوان : أنتم لستم جمعية خيرية، ولا حزباً سياسياً، ولا هيئة موضعية لأغراض محدودة المقاصد . ولكنكم روح جديد يسري في قلب هذه الأمة فيحييه بالقرآن، ونور جديد يشرق فيسدد ظلام المادة بمعرفة الله، وصوت داو يعلو مردداً دعوة الرسول ﷺ ومن الحق الذي لا غلو فيه أن تشعروا أنكم تحملون هذا العبء بعد أن تخلي عنه الناس .

إذا قيل إلام تدعون ؟ ... فقولوا ندعو إلي الإسلام الذي جاء به محمد ﷺ والحكومة جزء منه والحرية فريضة من فرائضه، فإن قيل لكم هذه سياسة ! فقولوا هذا هو الإسلام ونحن لا نعرف هذه الأقسام .

وإن قيل لكم أنتم دعاة ثورة، فقولوا نحن دعاة حق وسلام نعتقده ونعتز به، فإن ثرتم علينا ووقفتم في طريق دعوتنا فقد أذن الله أن ندفع عن أنفسنا وكنتم الثائرين الظالمين . وإن قيل لكم إنكم تستعينون بالأشخاص والهيئات فقولوا : ﴿ ... آمَنَّا بِاللهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴾ [غافر: ٨٤]، فإن لجّوا في

(1) مجموعة الرسائل، ص١٠٨.

عدوانهم فقولوا : ﴿... سَلامٌ عَلَيْكُمْ لاَ نَبْتَغِي الجَاهِلِينَ ﴾ [القصص: ٥٥][1].

ثم يصف حاله وحال إخوانه من شفقتهم على قومهم، وحرصهم على دعوتهم، فيقول في رسالة المؤتمر الخامس: (وكان عهد وكان موثق أن يعمل كل منا لهذه الغاية، حتى يتحول العرف العام في الأمة إلى وجهة إسلامية صالحة.

ليس يعلم أحد إلا الله كم من الليالي كنا نقضيها نستعرض حال الأمة، وما وصلت إليه في مختلف مظاهر حياتها، ونحلل العلل والأدواء، ونفكر في العلاج وحسم الداء. ويفيض بنا التأثر لما وصلنا إليه إلى حد البكاء، وكم كنا نعجب إذ نرى أنفسنا في مثل هذه المشغلة النفسانية العنيفة والخليون هاجعون يتسكعون بين المقاهي ويترددون على أندية الفساد والإتلاف، فإذا سألت أحدهم عما يحمله على هذه الجلسة الفارغة المملة قال لك: أقتل الوقت، وما دري هذه المسكين أن من يقتل وقته إنما يقتل نفسه، فإنما الوقت هو الحياة .

كنا نعجب لهؤلاء الناس وكثير منهم من المثقفين، ومن هم أولى منا بحمل هذا العبء، ثم يقول بعضنا لبعض : أليس هذا داء من أدواء الأمة ولعله أخطرها، ألاّ تفكر في مرضها وألاّ تعمل لعلاج نفسها.

ولهذا وأمثاله نعمل ولإصلاح هذا الفساد، وقفنا أنفسنا فنتعزى ونحمد الله على أن جعلنا من الداعين إليه العاملين لدينه)[2].

ثم يشرح الإمام التدرج في الخطوات، وعدم القفز على النتائج فيقول: (وأما التدرج والاعتماد على التربية ووضوح الخطوات في طريق الإخوان المسلمين، فذلك أنهم اعتقدوا أن كل دعوة لابد لها من مراحل ثلاث:

(1) مجموعة الرسائل، ص١١٠.
(2) مجموعة الرسائل، ص١١٧.

١- مرحلة الدعاية والتعريف والتبشير بالفكرة وإيصالها إلى الجماهير من طبقات الشعب.

٢- ثم مرحلة التكوين وتخير الأنصار وإعداد الجنود وتعبئة الصفوف من بين هؤلاء المدعوين.

٣- ثم بعد ذلك كله مرحلة التنفيذ والعمل والإنتاج، وكثيراً ما تسير هذه المراحل الثلاث جنباً إلى جنب نظراً لوحدة الدعوة وقوة الارتباط بينها جميعاً، فالداعي يدعو، وهو في الوقت نفسه يتخير ويربي، وهو في الوقت عينه يعمل وينفذ كذلك.

ولكن لاشك في أن الغاية الأخيرة أو النتيجة الكاملة لا تظهر إلا بعد عموم الدعاية وكثرة الأنصار، ومتانة التكوين) [١]

ثم يذكر نموذجا من نماذج الدعاة ــ وأحسبه يتحدث عن نفسه ــ فيقول : (قليل من الناس من يعرف أن الداعية من دعاة الإخوان قد يخرج من عمله المصلحي في عصر الخميس، فإذا هو في العشاء بالمنيا يحاضر الناس، وإذا هو في صلاة الجمعة يخطب بمنفلوط، وإذا هو في العصر يحاضر بأسيوط، وبعد العشاء يحاضر بسوهاج، ثم يعود أدراجه هادئ النفس مطمئن القلب يحمد الله على ما وفقه إليه ولا يشعر به إلا الذين استمعوه.

هذا مجهود لو قام به غير الإخوان لملأ الدنيا صياحا ودعاية، ولكن الإخوان ــ لما قدمت ــ يؤثرون ألا يراهم الناس إلا عاملين، فمن أقنعه العمل فبها، ومن لم يؤثر فيه العمل فلن يرشده القول .

قد يقضي الأخ شهرا أو شهرين بعيدا عن أهله وبيته وزوجه وولده يدعو إلى

---

(1) مجموعة الرسائل، ص١٢٥-١٢٦، بتصرف يسير.

الله، هو في الليل محاضر وفي النهار مسافر، يوما بحزوى ويوما بالعقيق، فيلقي أكثر من ستين محاضرة من شرق القطر إلى غربه، وقد تضم الحفلات التي يحاضر فيها الآلاف من مختلف الطبقات، ثم هو بعد ذلك يوصي ألا يكون محل دعاية أو إعلان) [1].

وفي رسالته إلى الشباب يوضح الإمام عوامل نجاح الدعوات، وكل ذلك عوامل لنجاح الدعوة التي بها يحفظ الدين، فيقول: (إنما تنجح الفكرة إذا قوي الإيمان بها، وتوفر الإخلاص في سبيلها، وازدادت الحماسة لها، ووجد الاستعداد الذي يحمل على التضحية والعمل لتحقيقها . وتكاد تكون هذه الأركان الأربعة : الإيمان، والإخلاص، والحماسة، والعمل من خصائص الشباب. لأن أساس الإيمان القلب الذكي، وأساس الإخلاص الفؤاد النقي، وأساس الحماسة الشعور القوي، وأساس العمل العزم الفتي، وهذه كلها لا تكون إلا للشباب. ومن هنا كان الشباب قديما وحديثا في كل أمة عماد نهضتها، وفي كل نهضة سر قوتها، وفي كل فكرة حامل رايتها: ﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدىً ﴾ [الكهف:١٣].

ومن هنا كثرت واجباتكم، ومن هنا عظمت تبعاتكم، ومن هنا تضاعفت حقوق أمتكم عليكم، ومن هنا ثقلت الأمانة في أعناقكم. ومن هنا وجب عليكم أن تفكروا طويلا، وأن تعملوا كثيرا، وأن تحددوا موقفكم، وأن تتقدموا للإنقاذ، وأن تعطوا الأمة حقها كاملا من هذا الشباب)[2].

ويذكر في نفس الرسالة واجب الإخوان في ظل الكوارث التي تتابعت على الأمة، وعمل خصومها في طمس هويتها، وتشويه تعاليمها فيقول: (و لقد أتى على الإسلام والمسلمين حين من الدهر توالت فيه الحوادث وتتابعت الكوارث، وعمل

(1) مجموعة الرسائل، ص١٢٩-١٣٠.

(2) مجموعة الرسائل، ص١٧٣.

خصوم الإسلام على إطفاء روائه، وإخفاء بهائه، وتضليل أبنائه، وتعطيل حدوده، وإضعاف جنوده، وتحريف تعاليمه وأحكامه تارة بالنقص منها، وأخرى بالزيادة فيها، وثالثة بتأويلها على غير وجهها، وساعدهم على ذلك ضياع سلطة الإسلام السياسية وتمزيق إمبراطوريته العالمية وتسريح جيوشه المحمدية ووقوع أممه في قبضة أهل الكفر مستذلين مستعمرين.

فأول واجباتنا نحن الإخوان أن نبين للناس حدود هذا الإسلام واضحة كاملة بينة لا زيادة فيها ولا نقص بها ولا لبس معها، وذلك هو الجزء النظري من فكرتنا، وأن نطالبهم بتحقيقها ونحملهم على إنفاذها ونأخذهم بالعمل بها، وذلك هو الجزء العملي لي هذه الفكرة)[1].

ثم يعود في رسالة المؤتمر السادس ليؤكد على وسائل الدعوة، وإنها لاتعدو أن تكون بالحكمة والموعظة الحسنة دون استعمال للقوة إلا إذا اضطر إليها اضطرارا فيقول : (أما وسائلنا العامة :

١- فالإقناع ونشر الدعوة بكل وسائل النشر حتى يفقهها الرأي العام ويناصرها عن عقيدة وإيمان.

٢- ثم استخلاص العناصر الطيبة لتكون هي الدعائم الثابتة لفكرة الإصلاح.

٣- ثم النضال الدستوري حتى يرتفع صوت هذه الدعوة في الأندية الرسمية وتناصرها وتنحاز إليها القوة التنفيذية، وعلى هذا الأساس سيتقدم مرشحو الإخوان المسلمين حين يجيء الوقت المناسب إلى الأمة ليمثلوها في الهيئات النيابية، ونحن واثقون بعون الله من النجاح مادمنا نبتغي بذلك وجه الله ﴿ وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج:٤٠].

---

(1) مجموعة الرسائل، ص١٧٥.

أما سوي ذلك من الوسائل فلن نلجأ إليه إلا مكـــرهين، ولـــن نـــستخدمه إلا مضطرين، وسنكون حينئذ صرحاء شرفاء، لا نحجم عن إعلان موقفنا واضـــحاً لا لبس فيه ولا غموض معه، ونحن علي استعداد تام لتحمل نتائج عملنا أياً كانـــت، لا نلقي التبعة علي غيرنا، ولا نتمسح بسوانا، ونحن نعلم أن ما عند الله خير وأبقـــي، وأن الفناء في الحق هو عين البقاء، وأنه لا دعوة بغير جهـــاد، ولا جهـــاد بغيـــر اضطهاد، وعندئذ تدنو ساعة النصر ويحين وقت الفوز، ويتحقق قول الملك الحـــق المبين : ﴿ حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَـــنْ نَشَاءُ وَلا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ [يوسف:١١٠][1].

ثم يذكر في رسالة اجتماع رؤساء المناطق ومراكز الجهاد مقاصـــد الـــدعوة ووسائلها العامة فيقول : (وظهرت دعوتكم أيها الإخوان في ثنايـــا هـــذه الـــسحب المتراكمة جميعاً، فلمعت كما يلمع البرق الوامض، ثم أنارت كمـــا تنيـــر الـــشمس المشرقة، تبعث في القوم النور والحياة واليقظة بعد طـــول نـــوم وخمـــود، فكانـــت أغراضكم وأهدافكم هي أغراض الإسلام الحنيف ومقاصده.

١- تصحيح فهم المسلمين لدينهم وشرح دعوت القرآن الكريم شـــرحا وضـــحا، وعرضها عرضا كريما يوافق روح العصر، ويكشف عما فيها مـــن روعـــة وجمال، ويرد عنها الأباطيل والشبهات.

٢- ثم جمع المسلمين عمليا على مبادئ كتابهم الكريم بتجديد أثره البالغ القوى في النفوس.

٣- ثم خدمة المجتمعات وتنقيتها بمحاربة الجهل والمـــرض والفقـــر والرذيلـــة، وتشجيع البر والنفع العام في آية صورة .

---

(1) مجموعة الرسائل، ص٢١٢، بتصرف يسير.

٤- ولن يستشعر أحد العزة والكرامة ويتذوق طعم الحياة الكريمة إلا إذا شبع بطنه واستغني عن غيره، وتوفرت له ضروريات حياته، وإلي ذلك نظر الإسلام فلم يهمل المعاني الاقتصادية ولم يتغافل عن الإصلاح المالي، بل إنه وضع لذلك أفضل القواعد التي تنمي وحدة الأمة أفراداً وجماعات، وترفع مستوي المعيشة وتقرب بين الطبقات، وتؤمن الجميع أنفسهم وذراريهم وأولادهم، وتضمن لهم العدالة الاجتماعية الصحيحة، وتوفر الفرص المتكافئة للجميع علي السواء)[1].

وكانت رسالة (نحو النور) مثالا واضحا على اهتمام الإمام بدعوته، وتوصيلها لصفوة المجتمع، وأصحاب القرار، فهو لم يكتف بدعوة عامة الشعب، لكنه توجه بهذه الرسالة إلى الملك فاروق، وإلى مصطفى النحاس باشا، رئيس الحكومة وقتها، وإلى ملوك وأمراء وحكام بلدان العالم الإسلامي، كما بعث بها كذلك إلى عدد عظيم من كبار البارزين في هذه البلدان .

وهذا له دلالات مهمة، وما يهمنا ذكره الآن أن الإمام ــ رحمه الله ــ خرج بهذه الدعوة من المحلية إلى العالمية، ومن عموم الناس إلى أصحاب القرار وصفوة المجتمع.

وهذه الرسالة لا يمكننا الاقتباس منها إلا مقدمتها فقط، حيث إنها كلها صالحة للاستدلال على دعوة الإمام للملوك والرؤساء وذوي السلطان إلى العمل على حفظ الدين، وسيكون لنا معها تفصيل آخر أثناء الحديث عن حفظ الدين بالسلطان، وغير ذلك من مقاصد الشريعة الإسلامية، حيث تناول الإمام فيها رأيه في إصلاح الحكومة والتعليم والصحة والاقتصاد وغير ذلك.

---

(1) مجموعة الرسائل، ص٢٤٩.

يقول الإمام في مقدمة هذه الرسالة : (حضرة صاحب ...

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ..

وبعد، فإنما حملنا على التقدم بهذه الرسالة إلى مقامكم الرفيع رغبة أكيدة في توجيه الأمة التي استرعاكم الله أمرها، ووكل إليكم شأنها في عهدها الجديد، توجيها صالحا يقيمها على أفضل المسالك، ويرسم لها خير المناهج، ويقيها التزلزل والاضطراب، ويجنبها التجارب المؤلمة الطويلة.

ولسنا نبغي من وراء ذلك شيئا إلا أن نكون قد أدينا الواجب وتقدمنا بالنصيحة ... وثواب الله خير وأبقى .

يا صاحب ...

إن الله وكل إليكم أمر هذه الأمة، وجعل مصالحها وشؤونها وحاضرها ومستقبلها أمانة لديكم ووديعة عندكم، وأنتم مسؤولون عن ذلك كله بين يدي الله تبارك وتعالى، ولئن كان الجيل الحاضر عدتكم، فإن الجيل الآتي من غرسكم، وما أعظمها أمانة وأكبرها تبعة أن يسأل الرجل عن أمة : (كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته)[1].

وقديما قال الإمام العادل عمر بن الخطاب (ﷺ) : (لو عثرت بغلة بالعراق لرأيتني مسؤولا عنها بين يدي الله تبارك وتعالى لِم لَم أسوّ لها الطريق؟) .

وصوّر الإمام عمر بن الخطاب عظم التبعة في جملة فقال : (لوددت أن أخرج منها كفافا لا لي ولا علي)...[2].

---

(1) البخاري في كتاب النكاح بَاب ﴿ قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا ﴾، ح: ٥١٨٨، ومسلم كتاب الإمارة باب فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر، ح:١٨٩٢.

(2) مجموعة الرسائل، ص٢٧٢-٢٧٣.

وهنا يقتفي الإمام البنا ــ رحمه الله ــ آثار النبي ﷺ حيث أرسل بالرسائل المتتالية للملوك والحكام بصرف النظر عن قبول أو رفض هذه الدعوة، فهو مكلف بالتبليغ وعلى الله الهداية .

وأثناء الحديث عن أركان البيعة يتحدث في ركن الطاعة عن مراحل الدعوة فيذكر منها المرحلة الأولى وهي: (التعريف : بنشر الفكرة العامة بين الناس، ونظام الدعوة في هذه المرحلة نظام الجمعيات الإدارية، ومهمتها العمل للخير العام ووسيلتها الوعظ والإرشاد تارة وإقامة المنشآت النافعة تارة أخرى، إلى غير ذلك من الوسائل العملية، وكل شعب الإخوان القائمة الآن تمثل هذه المرحلة من حياة الدعوة، وينظمها القانون الأساسي، وتشرحها وسائل الإخوان وجريدتهم، والدعوة في هذه المرحلة عامة.

ويتصل بالجماعة فيها كل من أراد من الناس متى رغب المساهمة في أعمالها ووعد بالمحافظة على مبادئها، وليست الطاعة التامة لازمة في هذه المرحلة بقدر ما يلزم فيها احترام النظم والمبادئ العامة للجماعة) [١].

ثم يتحدث في الواجبات العملية في الواجب الثامن والثلاثين فيقول : (أن تعمل على نشر دعوتك في كل مكان وأن تحيط القيادة علما بكل ظروفك ولا تقدم على عمل يؤثر فيها جوهريا إلا بإذن، وأن تكون دائم الاتصال الروحي والعملي بها، وأن تعتبر نفسك دائما جنديا في الثكنة تنتظر الأوامر) [٢].

وبعد هذه النقول من كتاب واحد من كتب الإمام، وبعد مطالعة تاريخ الرجل الدعوي، وتاريخه الحركي أحسب أن القارىء معي في أن هذا الرجل ــ رحمه ــ

(1) مجموعة الرسائل، ص٣٦٩.
(2) مجموعة الرسائل، ص٣٦٢.

قد بذل جهدا كبيرا، وقدم أشياء ملموسه من أجل حفظ الدين عن طريق الدعوة إليه، وتعريف الناس به.

المبحث الرابع
حفظ الدين عن طريق السلطان

يقول الإمام علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) : " لا بد للناس من إمارة برة كانت أو فاجرة، فقيل : يا أمير المؤمنين هذه البرة قد عرفناها فما بال الفاجرة ؟ فقال يقام بها الحدود، وتأمن بها السبل، ويجاهد بها العدو، ويقسم بها الفيء "(١).

ويقول الإمام ابن تيمية ــ رحمه الله ــ : (يجب ان يعرف أن ولاية أمر الناس من أعظم واجبات الدين بل لا قيام للدين ولا للدنيا إلا بها، فإن بني آدم لا تتم مصلحتهم إلا بالاجتماع لحاجة بعضهم إلى بعض ولا بد لهم عند الاجتماع من رأس حتى قال النبي ﷺ : " إذا خرج ثلاثة في سفر فليؤمروا أحدهم " رواه أبو داود من حديث أبي سعيد وأبي هريرة، وروى الإمام أحمد في المسند عن عبد الله بن عمر أن النبي ﷺ قال : " لا يحل لثلاثة يكونون بفلاة من الأرض إلا أمروا عليهم أحدهم " فأوجب ﷺ تأمير الواحد في الاجتماع القليل العارض في السفر تنبيهاً بذلك على سائر أنواع الاجتماع، ولأن الله تعالى أوجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ولا يتم ذلك إلا بقوة وإمارة وكذلك سائر ما أوجبه من الجهاد والعدل وإقامة الحج والجمع والأعياد ونصر المظلوم وإقامة الحدود لا تتم إلا بالقوة والإمارة ولهذا روي :" إن السلطان ظل الله في الأرض" ويقال: " ستون سنة من إمام جائر أصلح من ليلة واحدة بلا سلطان ". والتجربة تبين ذلك ولهذا كان السلف – كالفضيل بن عياض وأحمد بن حنبل – وغيرهما يقولون " لو كان لنا دعوة مجابة لدعونا بها للسلطان "(٢).

والأدلة على نصب الإمام كثيرة ليس هنا مجال للتوسع فيها، ويكفي أنها

---

(1) السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، لابن تيمية، ص٨٧، مكتبة ابن تيمية.
(2) السابق، ص٢١٧.

إجماع لدى كافة مذاهب أهل السنة وغيرهم .

جاء في كتاب الإنصاف من فروع الفقه الحنبلي (نصب الإمام : فرض كفاية . قال في الفروع : فرض كفاية على الأصح . فمن ثبتت إمامته بإجماع، أو بنص، أو باجتهاد، أو بنص من قبله عليه . وبخبر متعين لها : حرم قتاله) [1]

أجمعت الأمة على وجوب عقد الإمامة، وعلى أن الأمة يجب عليها الانقياد لإمام عادل، يقيم فيهم أحكام الله، ويسوسهم بأحكام الشريعة التي أتى بها رسول الله ﷺ ولم يخرج عن هذا الإجماع من يعتد بخلافه . واستدلوا لذلك، بإجماع الصحابة والتابعين، وقد ثبت أن الصحابة رضي الله عنهم، بمجرد أن بلغهم نبأ وفاة رسول الله ﷺ بادروا إلى عقد اجتماع في سقيفة بني ساعدة، واشترك في الاجتماع كبار الصحابة، وتركوا أهم الأمور لديهم في تجهيز رسول الله ﷺ وتشييع جثمانه الشريف، وتداولوا في أمر خلافته . وهم، وإن اختلفوا في بادئ الأمر حول الشخص الذي ينبغي أن يبايع، أو على الصفات التي ينبغي أن تتوفر فيمن يختارونه، فإنهم لم يختلفوا في وجوب نصب إمام للمسلمين، ولم يقل أحد مطلقا إنه لا حاجة إلى ذلك، وبايعوا أبا بكر (رضي الله عنه)، ووافق بقية الصحابة الذين لم يكونوا حاضرين في السقيفة، وبقيت هذه السنة في كل العصور، فكان ذلك إجماعا على وجوب نصب الإمام . وهذا الوجوب وجوب كفاية، كالجهاد ونحوه، فإذا قام بها من هو أهل لها سقط الحرج عن الكافة، وإن لم يقم بها أحد، أثم من الأمة فريقان :

أ- أهل الاختيار وهم : أهل الحل والعقد من العلماء ووجوه الناس، حتى يختاروا إماما للأمة.

(1) الإنصاف لعلي بن سليمان بن أحمد المرداوي، ٣١٠/١٠، دار إحياء التراث.

ب- أهل الإمامة وهم : من تتوفر فيهم شروط الإمامة، إلى أن ينصب أحدهم إماما[1].

من أجل ذلك وغيره لابد للدين من سلطان يحفظه ويرعاه، وبغير هذا السلطان، لا يمكننا حفظ الدين حفظا تاما، قد يستطيع المسلم في بعض الأوقات أو الأماكن التي تخلو من سلطان للمسلمين أن يمارس بعض العبادات والشعائر الخاصة، لكنه لا يستطيع أن يقيم نظاما إسلاميا بغير سلطان للمسلمين.

وقد فطن أصحاب النبي ﷺ إلى هذه الحقيقة، فلم يناموا ليلة واحدة بعد وفاة النبي ﷺ بغير سلطان، وتركوا علي بن أبي طالب ينشغل بتجهيز النبي ﷺ وانشغلوا بولاية خليفة عليهم، فبه يحفظ الدين.

دور السلطان في المحافظة على الفرائض :

والإمام البنا لم يغفل هذه الحقيقة، بل أكد على هذه الحقيقة في أكثر من مكان فيقول في رسالة هل نحن قوم عمليون ؟ (والزكاة مهمة من مهمات الحاكم : عليه القيام بجمعها، وتنظيم تحصيلها والإشراف على إنفاقها في مصارفها التي جعل الله لها. ولو أن الحكومات الإسلامية عنيت بشأن الزكاة لكانت لها مورداً حلالاً طيباً يغنيها عن الضرائب الجائرة والمكوس الظالمة ولأحيت بذلك فريضة ضائعة وركناً مهملا من أركان الإسلام . فأما إذا نسيت الحكومات الإسلامية واجبها حيال الزكاة جمعاً وإعطاءً، فإن على الأفراد أن يقوموا بإحياء هذه الشعيرة وإعادة هذه الفريضة وإخراج حق الله لعيال الله، فمن قصر في ذلك فإثمه على نفسه وجريرته على عنقه وجزاؤه أليم عند ربه .

---

(1) الموسوعة الفقهية الكويتية، ٢١٦/٦؛ وينظر أيضًا: جواهر الإكليل شرح مختصر خليل، ٢٥١/١، ط. دار الفكر، مغني المحتاج شرح منهاج الطالبين، ١٢٩/٤، ط. دار الفكر، الأحكام السلطانية للماوردي، ص٧، ط. دار الكتب العلمية.

وها أنت ترى أن أفراد المسلمين تغافلوا عن حق الله في أموالهم ولم يخرجوا نصيب الفقراء من إيرادهم، مما قطع العلائق، وأكثر الجرائم، ولوث النفوس وزاد أحقادها وأضغانها.

رأى الإخوان المسلمون ذلك فأرادوا أن يكونوا الرعيل الأول يضربون للناس المثل عملياً في إحياء هذا الركن، ويبدءون بأنفسهم فيخرجون زكاة أموالهم طيبة بها نفوسهم، فإذا نجحوا في ذلك كانوا حجة على المقصرين ودليلاً للراغبين ودعاة للقاعدين)[1].

ثم يذكر في رسالة بين الأمس واليوم، تحت عنوان : دعوتنا دعوة البعث والإنقاذ مذكرا بالأهدف الرئيسة عند الإخوان المسلمين فيقول : (ولكن اذكروا دائما أن لكم هدفين أساسيين :

١ – أن يتحرر الوطن الإسلامي من كل سلطان أجنبي وذلك حق طبيعي لكل إنسان، لا ينكره إلا ظالم جائر أو مستبد قاهر.

٢ – أن تقوم في هذا الوطن الحر دولة إسلامية حرة تعمل بأحكام الإسلام وتطبق نظامه الاجتماعي وتعلن مبادئه القويمة وتبلغ دعوته الحكيمة الناس، وما لم تقم هذه الدولة فإن المسلمين جميعاً آثمون مسؤولون بين يدي الله العلي الكبير عن تقصيرهم في إقامتها وقعودهم عن إيجادهم .

ومن العقوق للإنسانية في هذه الظروف الحائرة أن تقوم فيها دولة تهتف بالمبادئ الظالمة وتنادي بالدعوات الغاشمة ولا يكون في الناس من يعمل لتقوم دولة الحق والعدالة والسلام.

نريد تحقيق هذين الهدفين في وادي النيل وفي بلاد العروبة وفي كل أرض

(1) مجموعة الرسائل، ص٧٨.

أسعدها الله بعقيدة الإسلام : دين وجنسية وعقيدة توحد بين جميع المسلمين[١].

استعمال الإخوان القوة لحفظ الدين :

ثم يجيب في رسالة المؤتمر الخامس عن تساؤل طرحه الناس وقتها عن موقف الإخوان من القوة والثورة، وتغيير الأنظمة عن طريق الثورات، واستعمال القوة فيقول: (ويتساءل كثير من الناس: هل في عزم الإخوان المسلمين أن يستخدموا القوة في تحقيق أغراضهم والوصول إلى غايتهم ؟ وهل يفكر الإخوان المسلمين في إعداد ثورة عامة على النظام السياسي أو النظام الاجتماعي في مصر؟

ولا أريد أن أدع هؤلاء المتسائلين في حيرة، بل إني أنتهز هذه الفرصة فأكشف اللثام عن الجواب السافر لهذا في وضوح وفي جلاء، فليسمع من يشاء .

أما القوة فشعار الإسلام في كل نظمه وتشريعاته، فالقرآن الكريم ينادي في وضوح وجلاء: ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ [الأنفال:٦٠].

والنبي يقول (المؤمن القوي خير من المؤمن الضعيف)[٢]، بل إن القوة شعار الإسلام حتى في الدعاء وهو مظهر الخشوع والمسكنة، واسمع ما كان يدعو به النبي في خاصة نفسه ويعلمه أصحابه ويناجي به ربه : (اللّهُمّ إِنّي أَعوذُ بِكَ مِنَ الْهَمّ وَالْحَزَنِ، وَأَعوذُ بِكَ مِنَ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ، وَأعوذُ بِكَ مِنَ الْجُبْنِ والْبُخْلِ وَأَعوذُ بِكَ مِنْ غَلَبَةِ الدّيْنِ وَقَهْرِ الرّجَال)، ألا ترى في هذه الأدعية أنه قد استعاذ بالله من كل مظهر من مظاهر الضعف : ضعف الإرادة بالهم والحزن، وضعف الإنتاج بالعجز والكسل، وضعف الجيب والمال بالجبن والبخل، وضعف العزة والكرامة

(1) مجموعة الرسائل، ص١٠٧.

(2) مسلم في كتاب القدر باب : في الأمر بالقوة، وترك العجز، والاستعانة بالله، وتفويض المقادير لله، ح:٢٦٦٤.

بالدين والقهر ؟ .. فماذا تريد من إنسان يتبع هذا الدين إلا أن يكون قويا في كل شيء، شعاره القوة في كل شيء ؟.. فالإخوان المسلمون لابد أن يكونوا أقوياء، ولابد أن يعملوا في قوة .

ولكن الإخوان المسلمين أعمق فكرا، وأبعد نظرا من أن تستهويهم سطحية الأعمال والفكر، فلا يغوصوا في أعماقها، ولا يزنوا نتائجها وما يقصد منها وما يراد بها، فهم يعلمون أن أول درجة من درجات القوة قوة العقيدة والإيمان، ثم يلي ذلك قوة الوحدة والارتباط، ثم بعدهما قوة الساعد والسلاح، ولا يصح أن توصف جماعة بالقوة حتى تتوفر لها هذه المعاني جميعا، وأنها إذا استخدمت قوة الساعد والسلاح وهي مفككة الأوصال مضطربة النظام أو ضعيفة العقيدة خامدة الإيمان فسيكون مصيرها الفناء والهلاك.

هذه نظرة، ونظرة أخرى : هل أوصى الإسلام ــ والقوة شعاره ــ باستخدام القوة في كل الظروف والأحوال ؟ أم حدد لذلك حدودا واشترط شروطا، ووجه القوة توجيها محدودا ؟

ونظرة ثالثة : هل تكون القوة أول علاج أم أن آخر الدواء الكي ؟ وهل من الواجب أن يوازن الإنسان بين نتائج استخدام القوة النافعة ونتائجها الضارة وما يحيط بهذا الاستخدام من ظروف ؟ أم من واجبه أن يستخدم القوة وليكن بعد ذلك ما يكون ؟

هذه نظرات يلقيها الإخوان المسلمون على أسلوب استخدام القوة قبل أن يقدموا عليه، والثورة أعنف مظاهر القوة، فنظر الإخوان المسلمون إليها أدق وأعمق، وبخاصة في وطن كمصر جرب حظه من الثورات فلم يجن من ورائها إلا ما تعلمون.

وبعد كل هذه النظرات والتقديرات أقول لهـؤلاء المتـسائلين : إن الإخـوان المسلمين سيستخدمون القوة العملية حيث لا يجدي غيرها، وحيث يثقون أنهـم قـد استكملوا عدة الإيمان والوحدة، وهم حين يستخدمون هذه القوة سـيكونون شـرفاء صرحاء وسينذرون أولاً، وينتظرون بعد ذلك ثـم يقـدمون فـي كرامـة وعـزة، ويحتملون كل نتائج موقفهم هذا بكل رضاء وارتياح.

وأما الثورة فلا يفكر الإخوان المـسلمون فيهـا، ولا يعتمـدون عليهـا، ولا يؤمنون بنفعها ونتائجها، وإن كانوا يصارحون كل حكومة في مصر بأن الحـال إذا دامت علي هذا المنوال ولم يفكر أولو الأمر في إصلاح عاجل وعلاج سريع لهـذه المشاكل، فسيؤدي ذلك حتما إلي ثورة ليست من عمل الإخوان المـسلمين ولا مـن دعوتهم، ولكن من ضغط الظروف ومقتضيات الأحوال، وإهمال مرافق الإصـلاح، وليست هذه المشاكل التي تتعقد بمرور الزمن ويستفحل أمرهـا بمـضي الأيـام إلا نذيراً من هذه النذر، فليسرع المنقذون بالأعمال)[1].

الإخوان المسلمون والسعي للحكم من أجل حفظ الدين :

ثم يجيب الإمام عن سؤال آخر في نفس السياق، وهذا السؤال يسأل عن سعي الإخوان المسلمين للحكم فيقول: (ويتساءل فريق آخر من الناس : هل في منهـاج الإخوان المسلمين أن يكونوا حكومة وأن يطالبوا بالحكم ؟ وما وسيلتهم إلى ذلك ؟

ولا أدع هؤلاء المتسائلين أيضاً في حيرة، ولا نبخل عليهم بالجواب.

فالإخوان المسلمون يسيرون في جميع خطواتهم وآمالهم وأعمالهم علي هدي الإسلام الحنيف كما فهموه، وكما أبانوا عن فهمهم هذا في أول هذه الكلمة . وهـذا الإسلام الذي يؤمن به الإخوان المسلمون يجعل الحكومة ركنا من أركانه، ويعتمـد

(1) مجموعة الرسائل، ص١٣٤-١٣٦.

علي التنفيذ كما يعتمد علي الإرشاد، وقديماً قال الخليفة الثالث (ﷺ) : (إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن) . وقد جعل النبي ﷺ الحكم عروة من عري الإسلام. والحكم معدود في كتبنا الفقهية من العقائد والأصول، لا من الفقهيات والفروع، فالإسلام حكم وتنفيذ، كما هو تشريع وتعليم، كما هو قانون وقضاء، لا ينفك واحد منها عن الآخر . والمصلح الإسلامي إن رضي لنفسه أن يكون فقيهاً مرشداً يقرر الأحكام ويرتل التعاليم ويسرد الفروع والأصول، وترك أهل التنفيذ يشرعون للأمة ما لم يأذن به الله ويحملونها بقوة التنفيذ علي مخالفة أوامره، فإن النتيجة الطبيعية أن صوت هذا المصلح سيكون صرخة في واد ونفخة في رماد كما يقولون .

قد يكون مفهوما أن يقنع المصلحون الإسلاميون برتبة الوعظ والإرشاد إذا وجدوا من أهل التنفيذ إصغاء لأوامر الله وتنفيذا لأحكامه وإيصالا لآياته ولأحاديث نبيه، وأما الحال كما نرى : التشريع الإسلامي في واد والتشريع الفعلي في واد آخر، فإن قعود المصلحين الإسلاميين عن المطالبة بالحكم جريمة إسلامية لا يكفرها إلا النهوض واستخلاص قوة التنفيذ من أيدي الذين لا يدينون بأحكام الإسلام الحنيف.

هذا كلام واضح لم نأت به من عند أنفسنا، ولكننا نقرر به أحكام الإسلام الحنيف وعلى هذا فالإخوان المسلمون لا يطلبون الحكم لأنفسهم، فإن وجدوا من الأمة من يستعد لحمل العبء، وأداء هذه الأمانة والحكم بمنهاج إسلامي قرآني فهم جنوده وأنصاره وأعوانه، وإن لم يجدوا فالحكم من منهاجهم وسيعملون لاستخلاصه من أيدي كل حكومة لا تنفذ أوامر الله.

وعلى هذا فالإخوان المسلمون أعقل وأحزم من أن يتقدموا لمهمة الحكم ونفوس الأمة على هذا الحال، فلابد من فترة تنتشر فيها مبادئ الإخوان وتسود،

ويتعلم فيها الشعب كيف يؤثر المصلحة العامة على المصلحة الخاصة) [1].

السعي لإقامة الخلافة من أجل حفظ الدين :

ثم يؤكد الإمام هذا المعنى أثناء حديثه عن الخلافة الإسلامية فيقول: (ولعل من تمام هذا البحث أن أعرض لموقف الإخوان المسلمين من الخلافة وما يتصل بها، وبيان ذلك أن الإخوان يعتقدون أن الخلافة رمز الوحدة الإسلامية، ومظهر الارتباط بين أمم الإسلام، وإنها شعيرة إسلامية يجب على المسلمين التفكر في أمرها والاهتمام بشأنها، والخليفة مناط كثير من الأحكام في دين الله، ولهذا قدم الصحابة رضوان الله عليهم النظر في شأنها على النظر في تجهيز النبي ودفنه، حتى فرغوا إلى تلك المهمة واطمأنوا إلى إنجازها.

و الأحاديث التي وردت في وجوب نصب الإمام، وبيان أحكام الإمامة وتفصيل ما يتعلق بها، لا تدع مجالا للشك في أن من واجب المسلمين أن يهتموا بالتفكير في أمر خلافتهم منذ حورت عن منهاجها ثم ألغيت بتاتا إلى الآن.

والإخوان المسلمون لهذا يجعلون فكرة الخلافة والعمل لإعادتها في رأس مناهجهم، وهم مع هذا يعتقدون أن ذلك يحتاج إلى كثير من التمهيدات التي لابد منها، وأن الخطوة المباشرة لإعادة الخلافة لابد أن تسبقها خطوات :

١- لا بد من تعاون تام ثقافي واجتماعي واقتصادي بين الشعوب الإسلامية كلها.

٢- يلي ذلك تكوين الأحلاف والمعاهدات، وعقد المجامع والمؤتمرات بين هذه البلاد، وإن المؤتمر البرلماني الإسلامي لقضية فلسطين ودعوة وفود الممالك الإسلامية إلى لندن للمناداة بحقوق العرب في الأرض المباركة لظاهرتان طيبتان وخطوتان واسعتان في هذا السبيل .

---

(1) مجموعة الرسائل، ص١٣٦-١٣٧.

٣- ثم يلي ذلك تكوين عصبة الأمم الإسلامية، حتى إذا تم ذلك للمسلمين نتج عنه الاجتماع على (الإمام) الذي هو واسطة العقد، ومجتمع الشمل، ومهوى الأفئدة، وظل الله في الأرض)[1].

وهنا يبدو واضحا أن الإمام البنا على الرغم من معرفته بأهمية الخلافة وحرصه على قيامها غير أنه لا يسبق سنن الله الغلابة في هذا الكون، فهو يرى أن الأمة الإسلامية في هذا الوقت غير مؤهلة للقيام بهذا العبء، والنهوض بهذه المسئولية التي لا بد أن يسبقها خطوات على سبيل الوحدة والترابط والتعاون والتناصر، وكل ذلك لم يكن موجودا في عهده ــ كما هو الحال الآن ــ، فيظل رجوع الخلافة الإسلامية حلما جميلا يروادنا لكن لا صلة له بالواقع المرير الذي تحياه أمتنا على المستوى العربي والإسلامي.

وهكذا يجب أن يكون الداعية أو المصلح ينظر بعين على المستقبل، وعين أخرى على الواقع، فهو يستشرف المستقبل، ويضع الآمال والطموحات، لكنه أيضا يضع الخطط لتجاوز هذا الواقع المرير إلى المستقبل الذي يطمح إليه .

حفظ الدين عن طريق سيادة الأمة وأستاذية العالم :

ويزيد الإمام الأمر وضوحا وبيانا حيث يؤكد على حفظ الدين عن طريق سيادة الأمة وأستاذية العالم فكتب تحت عنوان السياسة الخارجية في مؤتمر طلبة الإخوان المسلمين يقول: (فإن أريد بالسياسة معناها الخارجي، وهو المحافظة علي استقلال الأمة وحريتها، وإشعارها كرامتها وعزتها، والسير بها إلي الأهداف المجيدة التي تحتل بها مكانتها بين الأمم ومنزلتها الكريمة في الشعوب والدول، وتخليصها من استبداد غيرها بها وتدخله في شؤونها، مع تحديد الصلة بينها وبين

(1) مجموعة الرسائل، ص١٤٤-١٤٥، باختصار وتصرف.

سواها تحديداً يفصل حقوقها جميعاً، ويوجه الدول كلها إلي السلام العالمي العام وهو ما يسمونه (القانون الدولي) .. فإن الإسلام قد عني بذلك كل العناية وأفتى فيه بوضوح وجلاء، وألزم المسلمين أن يأخذوا بهذه الأحكام في السلم والحرب علي السواء، ومن قصر في ذلك وأهمله فقد جهل الإسلام أو خرج عليه.

قرر الإسلام سيادة الأمة الإسلامية وأستاذيتها للأمم في آيات كثيرة من القرآن ومنها قوله تعالى: ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ ﴾ [آل عمران:١١٠]، وقوله تعالى:﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً ﴾ [البقرة:١٤٣]، وقوله تعالى:﴿ وَلِلهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [المنافقون:٨]، وأكد قوامتها وأرشدها إلي طريق صيانتها وإلي ضرر تدخل غيرها في شؤونها بمثل قوله تعالى :﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ، هَا أَنْتُمْ أُولاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلا يُحِبُّونَكُمْ ﴾ [آل عمران:١١٨-١١٩]، وأشار إلي مضار الاستعمار وسوء أثره في الشعوب فقال تبارك وتعالى :﴿ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ [النمل:٣٤].

ثم أوجب علي الأمة المحافظة علي هذه السيادة، وأمرها باستعداد العدة واستكمال القوة، حتى يسير الحق محفوظاً بجلال السلطة كما هو مشرق بأنوار الهداية(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ) (لأنفال:٦٠)، ولم يغفل التحذير من صورة النصر ونشوة الاعتزاز وما تجلبه من مجانبة للعدالة وهضم للحقوق، فحذر المسلمين العدوان علي أية حال في قوله تعالى :﴿ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلا تَعْدِلُوا ﴾ [المائدة:٨]، مع قوله تعالى ﴿ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ

وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾ [الحج:٤١][1].

الحكومة المسلمة التي تحفظ الدين :

ثم يعود الإمام مرة أخرى ليؤكد على أهمية وجود الحكومة المسلمة التي تحفظ الدين، فيقول في رسالته إلى الشباب، عندما يتحدث عن منهاج الإخوان المسلمين ومراحله السبعة التي تبدأ بالفرد المسلم، والبيت المسلم، والشعب المسلم، والحكومة المسلمة، والوطن المسلم، والخلافة الإسلامية، والسيادة على العالم، فيقول: (ونريد بعد ذلك الحكومة المسلمة التي تقود هذا الشعب إلى المسجد، وتحمل به الناس على هدى الإسلام من بعد كما حملتهم على ذلك بأصحاب رسول الله ﷺ أبي بكر وعمر من قبل . ونحن لهذا لا نعترف بأي نظام حكومي لا يرتكز على أساس الإسلام ولا يستمد منه، ولا نعترف بهذه الأحزاب السياسية، ولا بهذه الأشكال التقليدية التي أرغمنا أهل الكفر وأعداء الإسلام على الحكم بها والعمل عليها، وسنعمل على إحياء نظام الحكم الإسلامي بكل مظاهره، وتكوين الحكومة الإسلامية على أساس هذا النظام.

ونريد بعد ذلك أن تعود راية الله خافقة عالية على تلك البقاع التي سعدت بالإسلام حينا من الدهر ودوى فيها صوت المؤذن بالتكبير والتهليل، ثم أراد لها نكد الطالع أن ينحسر عنها ضياؤه فتعود إلى الكفر بعد الإسلام . فالأندلس وصقلية والبلقان وجنوب إيطاليا وجزائر بحر الروم، كلها مستعمرات إسلامية يجب أن تعود إلى أحضان الإسلام، ويجب أن يعود البحر الأبيض والبحر الأحمر بحيرتين إسلاميتين كما كانتا من قبل، ولئن كان السنيور موسوليني يرى من حقه أن يعيد الإمبراطورية الرومانية، وما تكونت هذه الإمبراطورية المزعومة قديما إلا على أساس المطامع والأهواء، فإن من حقنا أن نعيد مجد الإمبراطورية الإسلامية التي

(1) مجموعة الرسائل، ص١٦٢-١٦٣.

قامت على العدالة والإنصاف ونشر النور والهداية ببن الناس)[1].

وفي رسالة الإخوان المسلمين تحت راية القرآن يؤكد المعنى السابق، وهو دور الحكومة المسلمة في حفظ الدين فيقول تحت عنوان مهمتنا : (ما مهمتنا إذاً نحن الإخوان المسلمين؟).

أما إجمالا : فهي أن نقف في وجه هذه الموجة الطاغية من مدنية المادة، وحضارات المتع والشهوات، التي جرفت الشعوب الإسلامية، فأبعدتها عن زعامة النبي وهداية القرآن، وحرمت العالم من أنوار هديها، وأخرت تقدمه مئات السنين، حتى تنحسر عن أرضنا ويبرأ من بلائها قومنا، ولسنا واقفين عند هذا الحد بل سنلاحقها في أرضها، وسنغزوها في عقر دارها، حتى يهتف العالم كله باسم النبي، وتوقن الدنيا كلها بتعاليم القرآن، وينتشر ظل الإسلام الوارف على الأرض، وحينئذ يتحقق للمسلم ما ينشده، فلا تكون فتنة ويكون الدين كله لله و﴿ ... للهِ الأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ [الروم:٥].

هذه مهمتنا نحن الإخوان المسلمين إجمالا.

وأما في بعض تفاصيلها : فهي أن يكون في مصر أولا – بحكم أنها في المقدمة من دول الإسلام وشعوبه – ثم في غيرها كذلك :

- نظام داخلي للحكم يتحقق به قول الله تبارك وتعالى : ﴿ وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللهُ إِلَيْكَ ﴾ [المائدة:٤٩].
- ونظام للعلاقات الدولية يتحقق به قول القرآن الكريم : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ

(1) مجموعة الرسائل، ص١٧٧-١٧٨.

أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً ﴾ [البقرة:١٤٣].

- ونظام عملي للقضاء يستمد من الآية الكريمة : ﴿ فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً ﴾ [النساء:٦٥].
- ونظام للدفاع والجندية يحقق مرمى النفير العام : ﴿ انْفِرُوا خِفَافاً وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ ﴾ [التوبة:٤١].
- ونظام اقتصادي استقلالي للثروة والمال والدولة والأفراد أساسه قول الله تعالى:﴿ وَلا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللهُ لَكُمْ قِيَاماً ﴾ [النساء:٥].
- ونظام للثقافة والتعليم يقضي على الجهالة والظلام، ويطابق جلال الوحي في أول آية من كتاب الله :﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ [العلق:١].
- ونظام الأسرة والبيت ينشئ الصبي المسلم والفتاة المسلمة والرجل المسلم ويحقق قوله تعالى : ﴿ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ﴾ [التحريم:٦].
- ونظام للفرد في سلوكه الخاص يحقق الفلاح المقصود بقوله تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴾ [الشمس:٩ ﴾.
- وروح عام يهيمن على كل فرد في الأمة من حاكم أو محكوم قوامه قول الله تعالى : ﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ ﴾ [القصص:٧٧].

نحن نريد :

- الفرد المسلم.

- والبيت المسلم.
- والشعب المسلم.
- والحكومة المسلمة.
- والدولة التي تقود الدول الإسلامية، وتضم شتات المسلمين، وتستعيد مجدهم، وترد عليهم أرضهم المفقودة وأوطانهم المسلوبة وبلادهم المغصوبة، ثم تحمل علم الجهاد ولواء الدعوة إلى الله، حتى تُسعد العالم بتعاليم الإسلام)[1].

لو كانت لنا حكومة !!

وتحت هذا العنوان كتب الإمام يقول متمنيا أن تكون لنا حكومة تحفظ الدين، وتحافظ على المتدينين أسوة بكل الأفكار في العالم سواء كانت صحيحة أو سقيمة **يقول :** (لو كانت لنا حكومة إسلامية صحيحة الإسلام، صادقة الإيمان، مستقلة التفكير والتنفيذ، تعلم حق العلم عظمة الكنز الذي بين يديها، وجلال النظام الإسلامي الذي ورثته، وتؤمن بأن فيه شفاء شعبها، وهداية الناس جميعا ... لكان لنا أن نطلب إليها أن تدعم الدنيا باسم الإسلام، وأن تطالب غيرها من الدول بالبحث والنظر فيه، وأن تسوقها سوقا إليه بالدعوات المتكررة والإقناع والدليل والبعثات المتتالية، وبغير ذلك من وسائل الدعوة والإبلاغ، ولاكتسبت مركزا روحيا وسياسيا وعمليا بين غيرها من الحكومات، ولاستطاعت أن تجدد حيوية الشعب، وتدفع به نحو المجد والنور، وتثير في نفسه الحماسة والجد والعمل .

عجيب أن تجد الشيوعية دولة تهتف بها، وتدعو إليها، وتنفق في سبيلها، وتحمل الناس عليها، وأن تجد الفاشية والنازية أمما تقدسها، وتجاهد لها، وتعتز

---

(1) مجموعة الرسائل، ص١٩١-١٩٢.

باتباعها، وتخضع كل النظم الحيوية لتعاليمها، وأن تجد المذاهب الاجتماعية والسياسية المختلفة أنصارا أقوياء، يقفون عليها أرواحهم وعقولهم وأفكارهم وأقلامهم وأموالهم وصحفهم وجهودهم، ويحيون ويموتون لها.

ولا نجد حكومة إسلامية تقوم بواجب الدعوة إلى الإسلام، الذي جمع محاسن هذه النظم جميعا وطرح مساوئها، وتقدمه لغيرها من الشعوب كنظام عالمي فيه الحل الصحيح الواضح المريح لكل مشكلات البشرية، مع أن الإسلام جعل الدعوة فريضة لازمة، وأوجبها على المسلمين شعوبا وجماعات قبل أن تخلق هذه النظم، وقبل أن يعرف فيها نظام الدعايات :

﴿ وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران:١٠٤].

ولكن أنّى لحكامنا هذا، وهم جميعا قد تربوا في أحضان الأجانب، ودانوا بفكرتهم، على آثارهم يهرعون، وفي مرضاتهم يتنافسون ؟ ولعلنا لا نكون مبالغين إذا قلنا إن الفكرة الاستقلالية في تصريف الشؤون والأعمال لم تخطر ببالهم، فضلا عن أن تكون منهاج عملهم.

لقد تقدمنا بهذه الأمنية إلى كثير من الحاكمين في مصر، وكان طبيعيا ألا يكون لهذه الدعوة أثر عملي، فإن قوما فقدوا الإسلام في أنفسهم وبيوتهم وشؤونهم الخاصة والعامة لأعجز من أن يفيضوه على غيرهم، ويتقدموا بدعوة سواهم إليه، وفاقد الشيء لا يعطيه.

ليست هذه مهمتهم أيها الإخوان، فقد أثبتت التجارب عجزهم المطلق عن أدائها، ولكنها مهمة هذا النشء الجديد، فأحسنوا دعوته، وجدوا في تكوينه، وعلموه استقلال النفس والقلب، واستقلال الفكر والعقل، واستقلال الجهاد والعمل، وامـلأوا

روحه الوثابة بجلال الإسلام وروعة القرآن، وجنّدوه تحت لـواء محمـد ورايتـه، وسترون منه في القريب الحاكم المسلم الذي يجاهد نفسه ويسعد غيره)[١].

موقف الإخوان من السياسة :

ثم يرد على من ينكر على الإخوان مشاركاتهم السياسية فيقول: (وقـد يقـول بعض الناس: وما للإخوان والبرلمان والإخوان جماعة دينية وهذه سـبيل الهيئـات السياسية ؟ أليس هذا يؤيد ما يقول الناس من أن الإخوان المسلمين قوم سياسيون لا يقفون عند حد الدعوة للإسلام كما يدعون؟

وأقول لهذا القائل في صراحة ووضوح : أيها الأخ .. أمـا أنـا سياسـيون حزبيون نناصر حزبا ونناهض آخر فلسنا كذلك ولن نكونه، ولا يـستطيع أحـد أن يأتي على هذا بدليل أو شبه دليل.

وأما أننا سياسيون بمعنى أننا نهتم بشئون أمتنا، ونعتقد أن القوة التنفيذية جزء من تعاليم الإسلام تدخل في نطاقه وتندرج تحت أحكامـه، وأن الحريـة الـسياسية والعزة القومية ركن من أركانه وفريضة من فرائضه، وأننا نعمل جاهدين لاستكمال الحرية ولإصلاح الأداة التنفيذية فنحن كذلك، ونعتقد أننا لم نأت فيه بـشيء جديـد، فهذا المعروف عن كل مسلم درس الإسلام دراسة صحيحة، ونحن لا نعلم دعوتنـا ولا نتصور معنى لوجودنا إلا تحقيق هذه الأهداف. ولم نخرج بذلك قيد شعرة عـن الدعوة إلى الإسلام، والإسلام لا يكتفي من المسلم بالوعظ والإرشاد ولكنه يحـدوه دائما إلى الكفاح والجهاد (وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ) العنكبوت:٦٩)[٢].

رسالة نحو النور إلى الملوك والحكام :

---

(1) مجموعة الرسائل، ص١٩٦-١٩٧.

(2) مجموعة الرسائل، ص٢١٣.

ثم يكتب رسالته (نحو النور) إلى ملوك وحكام العرب والمسلمين، وذوي السلطان والنفوذ المالي أو الإعلامي في العالم العربي والإسلامي، والرسالة غاية في النضج الشرعي والسياسي، فهي ليست موعظة سطحية، ولا خطبة أدبية ولكنها رسالة يقتدي فيها الإمام بالنبي ﷺ حيث يرسل بالرسائل إلى ملوك وعظماء العالم يدعوهم فيها إلى الإسلام.

طبق الإمام البنا شعار (الرسول قدوتنا) تطبيقا عمليا، فبعث بهذه الرسالة يصف فيها الداء ويضع له الدواء الناجع النافع الذي يعتمد على فهم الواقع من جهة، والعمق في أحكام الشريعة الغراء من جهة أخرى.

لقد كان الرجل صادقا عندما قالها صريحة واضحة : (**الإسلام نظام شامل** يتناول مظاهر الحياة جميعا فهو دولة ووطن أو حكومة وأمة، وهو خلق وقوة أو رحمة وعدالة، وهو ثقافة وقانون أو علم وقضاء، وهو مادة وثروة أو كسب وغنى، وهو جهاد ودعوة أو جيش وفكرة، كما هو عقيدة صادقة وعبادة صحيحة سواء بسواء)[1].

فها هو يؤكد هذا المعنى فيبعث بهذه الرسالة ويوقف كلا عند مسئوليته، ليقيم عليهم الحجة حجة التبليغ أمام الله تعالى فيقول: (إن الله وكل إليكم أمر هذه الأمة، وجعل مصالحها وشؤونها وحاضرها ومستقبلها أمانة لديكم ووديعة عندكم، وأنتم مسؤولون عن ذلك كله بين يدي الله تبارك وتعالى، ولئن كان الجيل الحاضر عدتكم، فإن الجيل الآتي من غرسكم، وما أعظمها أمانة وأكبرها تبعة أن يسأل الرجل عن أمة : (كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته) .

وقديما قال الإمام العادل عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) : (لو عثرت بغلة بالعراق

(1) مجموعة الرسائل، ص٣٥٦.

لرأيتني مسؤولا عنها بين يدي الله تبارك وتعالى لِم لَم أسوّ لها الطريق؟) .

وصوّر الإمام عمر بن الخطاب عظم التبعة في جملة فقال : (لوددت أن أخرج منها كفافا لا لي ولا علي) [١].

ثم يضع مقدمات عامة بين يدي هذه الرسالة يتحدث فيها، أن الأمة الآن على مفترق الطرق، وأن أخطر العهود في حياة الأمم هي حال الانتقال من حال إلى حال، ثم يذكر مزايا التوجه الإسلامي، أو حتمية الحل الإسلامي على حد تعبير شيخنا العلامة الدكتور يوسف القرضاوي.

وسنكتفي بمقتطفات من هذه الرسالة القيمة، لكن هذا لا يغني عن مراجعة القارىء لها كاملة ليقف بنفسه، على عبقرية الإمام، وحرصه على حفظ الدين عن طريق السلطان.

عهد الانتقال :

(إن أخطر العهود في حياة الأمم وأولاها بتدقيق النظر عهد الانتقال من حال إلى حال، إذ توضع مناهج العهد الجديد وترسم خططه وقواعده التي يراد تنشئة الأمة عليها والتزامها إياها، فإذا كانت هذه الخطط والقواعد والمناهج واضحة صالحة قويمة فبشر هذه الأمة بحياة طويلة مديدة وأعمال جليلة مجيدة، وبشر قادتها إلى هذا الفوز، وأدلتها في هذا الخير، بعظيم الأجر وخلود الذكر وإنصاف التاريخ وحسن الأحدوثة .

ولقد كانت المهمة ذات شطرين :

أولهما : تخليص الأمة من قيودها السياسية حتى تنال حريتها، ويرجع إليها ما فقدت من استقلالها وسيادتها.

---

(1) مجموعة الرسائل، ص٢٧٣.

ثانيهما : بناؤها من جديد لتسلك طريقها بين الأمم، وتنافس غيرها في درجات الكمال الاجتماعي) [1].

ويذكر مزايا التوجه الإسلامي فيقول :

وإننا إذا سلكنا بالأمة هذا المسلك استطعنا أن نحصل على فوائد كثيرة؛ منها أن المنهاج الإسلامي قد جرب من قبل وشهد التاريخ بصلاحيته، وأخرج للناس أمة من أقوى الأمم وأفضلها وأرحمها وأبرها وأبركها على الإنسانية جميعاً؛ وله من قدسيته واستقراره في نفوس الناس ما يسهل على الجميع تناوله وفقهه والاستجابة له والسير عليه متى وجهوا إليه، فضلا عن الاعتزاز بالقومية والإشادة بالوطنية الخالصة. إذ أننا نبني حياتنا على قواعدنا وأصولنا ولا نأخذ عن غيرنا. وفي ذلك أفضل معاني الاستقلال الاجتماعي والحيوي بعد الاستقلال السياسي.

وفي السير على هذا المنهاج تقوية للوحدة العربية أولاً، ثم للوحدة الإسلامية ثانياً، فيمدنا العالم الإسلامي كله بروحه وشعوره وعطفه وتأييده، ويرى فينا إخوة ينجدهم وينجدونه ويمدهم ويمدونه، وفي ذلك ربح أدبي كبير لا يزهد فيه عاقل.

وهذا المنهاج تام شامل، كفيل بتقرير أفضل النظم للحياة العامة في الأمة عملية وروحية. وهذه هي الميزة التي يمتاز بها الإسلام، فهو يضع نظم الحياة للأمم على أساسين مهمين: أخذ الصالح وتجنب الضار)[2].

ثم يذكر أن الإسلام قادر على إمداد الأمة بما تحتاج إليه في كافة شئونها فيقول تحت عنوان: الإسلام كفيل بإمداد الأمة :

(ليس في الدنيا نظام يمد الأمة الناهضة بما تحتاج إليه من نظم وقواعد

---

(1) مجموعة الرسائل، ص٢٧٤.

(2) مجموعة الرسائل، ص٢٧٤-٢٧٥.

وعواطف ومشاعر كما يمد الإسلام بذلك كله أممه الناهضة، ولقد امتلأ القرآن الكريم بتصوير هذه الناحية خاصة، وضرب الأمثال فيها بالإجمال تارة وبالتفصيل تارة أخرى، وعالج هذه النواحي علاجا دقيقا واضحا، لا تأخذ به أمة حتى تصل إلى ما تريد)[١].

ويذكر الأمثلة على ذلك تحت العنواين التالية :

أ- الإسلام والأمل.

ب- الإسلام والعزة القومية.

ج- الإسلام والقوة الجندية.

د- الإسلام والصحة العامة.

ه- الإسلام والعلم.

و- الإسلام والخلق.

ز- الإسلام والاقتصاد.

ح- نظم الإسلام العامة[٢].

ثم يذكر موقف الإسلام من الأقليات والأجانب، وأنه يحافظ على هذه الحقوق، ويراعي واجبه نحوهم بأفضل مما يكون في أي تشريع وضعي آخر.

ويتحدث عن موقف الإسلام من العلاقة مع الغرب، وأنه دين يحمي العهود والمواثيق، ولا يعتدي على أحد في الغرب، ولا في الشرق إلا إن كان معتديا ظالما.

ويؤكد أن مفهوم الإسلام لرجال الدين غير مفهوم الكنيسة لرجال الدين [٣].

---

(1) مجموعة الرسائل، ص٢٧٦.

(2) مجموعة الرسائل، ص٢٧٧-٢٨٤.

(3) مجموعة الرسائل، ص٢٨٥-٢٨٧.

ثم يذكر بعض خطوات الإصلاح العملي في النواحي التالية :

أولا : في الناحية السياسية والقضائية والإدارية

ثانيا : في الناحية الاجتماعية والعلمية

ثالثا : في الناحية الاقتصادية[1].

وسنذكر هنا فقط ما يخص الناحية السياسية والقضائية والإدارية ودورها في حفظ الدين حيث يذكر الإمام البنا دور الحاكم أو السلطان هنا في هذه النقاط، فيقول:

١- القضاء على الحزبية وتوجيه قوى الأمة السياسية في وجهة واحدة وصفّ واحد .

٢- إصلاح القانون حتى يتفق مع التشريع الإسلامي في كل فروعه .

٣- تقوية الجيش والإكثار من فرق الشباب وإلهاب حماستها على أسس من الجهاد الإسلامي.

٤- تقوية الروابط بين الأقطار الإسلامية جميعا، وبخاصة العربية منها تمهيدا للتفكير الجدي العملي في شأن الخلافة الضائعة.

٥- بث الروح الإسلامي في دواوين الحكومة بحيث يشعر الموظفون جميعا بأنهم مطالبون بتعاليم الإسلام .

٦- مراقبة سلوك الموظفين الشخصي وعدم الفصل بين الناحية الشخصية والناحية العملية.

---

(1) مجموعة الرسائل، ص٢٩٠-٢٩٤.

٧- تقديم مواعيد العمل في الدواوين صيفا وشتاء حتى يعين ذلك على الفـرائض ويقضي على السهر الكثير .

٨- القضاء على الرشوة والمحسوبية والاعتماد على الكفاية والمسوغات القانونية فقط.

٩- أن توزن كل أعمال الحكومة بميزان الأحكام والتعاليم الإسلامية، فتكون نظم الحفلات والدعوات والاجتماعات الرسمية والسجون والمستشفيات بحيـث لا تصطدم بتعاليم الإسلام، وتكون الدوريات في الأعمال على تقسيم لا يتضارب مع أوقات الصلاة.

١٠- استخدام الأزهريين في الوظائف العسكرية والإدارية وتدريبهم[١].

ونؤكد مرة أخرى على أن الرسالة بحاجة إلى قراءة واعيـة مدققـة، بـل لا أكون مبالغا إن قلت إنها تكفي لدراسة مستقلة، وسنقتبس منها في الصفحات القادمة ما يناسب المقام.

ويخصص الإمام البنا رسالة كاملة يتحدث فيها عن نظام الحكم في الإسلام، وهذا يؤكد على أن فكرة الحكومة ودورها في حفظ الدين واضح، ومستمر معه في كل ما يكتب.

فيقول تحت عنوان الحكومة في الإسلام : (يفترض الإسلام الحنيف الحكومة قاعدة من قواعد النظام الاجتماعي الذي جاء به للناس، فهو لا يقـر الفوضـى، ولا يدع الجماعة المسلمة بغير إمام، ولقد قال الرسول ﷺ لبعض أصحابه: (إذا نزلـت ببلد وليس فيه سلطان فارحل عنه)[٢]، كما قال في حديث آخر لبعض أصحابه كذلك

(1) مجموعة الرسائل، ص٢٩٠-٢٩١.
(2) لم أعثر عليه.

: (إذا كنتم ثلاثة فأمروا عليكم رجلا)[1].

فمن ظن أن الدين – أو بعبارة أدق الإسلام – لا يعرض للسياسة، أو أن السياسة ليست من مباحثه، فقد ظلم نفسه، وظلم علمه بهذا الإسلام ولا أقول ظلم الإسلام فإن الإسلام شريعة الله لا يأتيها الباطل من بين يده ولا من خلفه .. وجميل قول الإمام الغزالي رضى الله عنه : (اعلم أن الشريعة أصل، والملك حارس، وما لا أصل له فمهدوم وما لا حارس له فضائع) فلا تقوم الدولة الإسلامية إلا على أساس الدعوة، حتى تكون دولة رسالة لا تشكيل إدارة، ولا حكومة مادة جامدة صماء لا روح فيها، كما لا تقوم الدعوة إلا في حماية تحفظها وتنشرها وتبلغها وتقويها)[2].

وأخيرا يذكر في ركن العمل من أركان البيعة، أن مراتب العمل المطلوبة من الأخ الصادق فيذكر في المرتبة الخامسة : (وإصلاح الحكومة حتى تكون إسلامية بحق، وبذلك تؤدي مهمتها كخادم للأمة وأجير عندها وعامل على مصلحتها، والحكومة إسلامية ما كان أعضاؤها مسلمين مؤدين لفرائض الإسلام غير متجاهرين بعصيان، وكانت منفذة لأحكام الإسلام وتعاليمه .

ولا بأس أن نستعين بغير المسلمين عند الضرورة في غير مناصب الولاية العامة، ولا عبرة بالشكل الذي تتخذه ولا بالنوع، مادام موافقا للقواعد العامة في نظام الحكم الإسلامي.

ومن صفاتها : الشعور بالتبعة، والشفقة، على الرعية، والعدالة بين الناس، والعفة عن المال العام، والاقتصاد فيه .

---

(1) سنن أبي داوود كتاب الجهاد باب: في القوم يسافرون يؤمرون أحدهم، ح:٢٦٠٨.

(2) مجموعة الرسائل، ص٣١٧.

ومن واجباتها : صيانة الأمن، وإنفاذ القانون، ونشر التعليم، وإعداد القوة، وحفظ الصحة، ورعاية المنافع العامة، وتنمية الثروة، وحراسة المال، وتقوية الأخلاق، ونشر الدعوة .

ومن حقها – متى أدت واجبها – : الولاء والطاعة، والمساعدة بالنفس والأموال .

فإذا قصرت : فالنصح والإرشاد، ثم الخلع والإبعاد، ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق)[1].

وبعد ... فلعل القارىء الكريم قد أُرهق من هذه السياحة الطويلة فيما كتبه الإمام بشأن الحكومة، والحق أنني أضطررت إلى ترك أمثلة كثيرة في هذا الشأن حتى لا أشق على القارىء، وأحسب أنها جولة ممتعة، وإن كانت مرهقة في ما كتب الإمام ــ رحمه الله ــ في شأن حفظ الدين عن طريق السلطان، وعلى القارئ أن يستكمل الرحلة في كتاب الرسائل من أوله إلى آخره، ثم يعرج على كتابات الإمام الأخرى في المذكرات، والمقالات حتى يقف بنفسه، على أهمية هذا الجانب في فكر الإمام.

(1) مجموعة الرسائل، ص٣٦٠-٣٦١.

المبحث الخامس
حفظ الدين عن طريق الفهم الصحيح

من المعالم الواضحة عند الإمام البنا قضية الفهم، فقد أولاها عناية فائقة، وأحسب أنها السبب الرئيس في صمود الجماعة واستمراريتها على الرغم من العواصف التي مرت بها، وقد نشأت جماعات وأحزاب ثم انتهت أو حدث فيها كثير من الانشقاقات، ثم انتهت جميعا أو معظمها، وجماعة الإخوان المسلمين صامدة تستعصي على هذه الانشقاقات التي تؤثر عليها تأثيرا قويا، حتى الآن، وعلم الغيب عند الله تعالى.

فقضية الفهم لها دور مهم في توحيد الرؤية، ووضوح الرسالة، وتحديد الوسائل والغايات.

والذي نعنى به هنا مدى أهمية الفهم في حفظ الدين، وقد تحدث شيخنا العلامة محمد الغزالي ــ رحمه الله ــ عن الأصول العشرين التي وضعها الإمام لضبط ركن الفهم، وسماها دستور الوحدة الثقافية عند المسلمين، وشرح معظمها شيخنا العلامة فضيلة الدكتور يوسف القرضاوي ــ أمد الله في عمره ــ ونسأل الله أن يعينه على إتمامها جميعا.

وسنعرض في الصفحات القادمة، ماذا بذل الإمام في ترسيخ معاني للفهم في عقول المنتسبين إلى دعوة الإخوان المسلمين خاصة، وعقول المسلمين عامة.

فيقول الإمام في رسالة دعوتنا عند حديثه عن الفهم الصحيح لمعنى الإسلام
(اسمع يا أخي : دعوتنا دعوة أجمع ما توصف به أنها (إسلامية) ولهذه الكلمة معنى واسع غير ذلك المعنى الضيق الذي يفهمه الناس، فإنا نعتقد أن الإسلام معنى شامل ينتظم شؤون الحياة جميعا، ويفتي في كل شأن منها ويضع له نظاما محكما دقيقا، ولا يقف مكتوفا أمام المشكلات الحيوية والنظم التي لا بد منها لإصلاح

الناس. فهم بعض الناس خطأ أن الإسلام مقصور على ضروب من العبادات أو أوضاع من الروحانية، وحصروا أنفسهم وأفهامهم في هذه الدوائر الضيقة من دوائر الفهم المحصور.

ولكنا نفهم الإسلام على غير هذا الوجه فهما فسيحا واسعا ينتظم شؤون الدنيا والآخرة، ولسنا ندعي هذا ادعاء أو نتوسع فيه من أنفسنا، وإنما هو ما فهمناه من كتاب الله وسيرة المسلمين الأولين، فإن شاء القارئ أن يفهم دعوة الإخوان بشيء أوسع من كلمة إسلامية فليمسك بمصحفه وليجرد نفسه من الهوى والغاية ثم يتفهم ما عليه القرآن فسيرى في ذلك دعوة الإخوان.

أجل : دعوتنا إسلامية، بكل ما تحتمل الكلمة من معان، فافهم فيها ما شئت بعد ذلك وأنت في فهمك هذا مقيد بكتاب الله وسنة رسوله وسيرة السلف الصالحين من المسلمين، فأما كتاب الله فهو أساس الإسلام ودعامته، وأما سنة نبيه فهي مبينة الكتاب وشارحته، وأما سيرة السلف الصالح فهم رضوان الله عليهم منفذو أوامره والآخذون بتعاليمه، وهم المثل العملية والصورة الماثلة لهذه الأوامر والتعاليم)[1].

وهنا تبدو قضية شمول الإسلام واضحة من بداية الكتاب، وسنجد أن الإمام في كل مرة يزيدها عمقا وتأصيلا.

وفي رسالة إلى أي شيء ندعو الناس يوضح للناس دعوة الإخوان المسلمين، ويوضح لهم مرجعية هذا الفهم، وأن المقياس هو القرآن الكريم فيقول : (وأنا أريد في هذه الكلمة أن أكشف للناس عن دعوة الإخوان المسلمين وغايتها ومقاصدها وأساليبها، ووسائلها في صراحة ووضوح وفي بيان وجلاء، وأحب أولا أن أحدد المقياس الذي نقيس به هذا التوضيح، وسأجتهد في أن يكون القول سهلا

(1) مجموعة الرسائل، ص١٨.

ميسورا لا يتعذر فهمه على قارئ يحب أن يستفيد، وأظن أن أحدا من الأمة الإسلامية جميعا لا يخالفني في أن يكون هذا المقياس هو كتاب الله نستقي من فيضه ونستمد من بحره ونرجع إلى حكمه.

يا قومنا :

إن القرآن الكريم كتاب جامع جمع الله فيه أصول العقائد وأسس المصالح الاجتماعية، وكليات الشرائع الدنيوية، فيه أوامر وفيه نواه، فهل عمل المسلمون بما في القرآن فاعتقدوا وأيقنوا بما ذكر الله من المعتقدات، وفهموا ما أوضح لهم من الغايات؟ وهل طبقوا شرائعه الاجتماعية والحيوية على تصرفاتهم في شؤون حياتهم ؟ إن انتهينا من بحثنا أنهم كذلك فقد وصلنا معا إلى الغاية، وإن تكشف البحث عن بعدهم عن طريق القرآن وإهمالهم لتعاليمه وأوامره فاعلم أن مهمتنا أن نعود بأنفسنا وبمن تبعنا إلى هذا السبيل)[1].

المقاصد الحقيقة والمقاصد المتوهمة :

(ثم يفرق الإمام البنا بين المقاصد الحقيقية والمقاصد المتوهمة، وهذا أمر في غاية الأهمية، فإن بعض الذين كتبوا في المقاصد خلطوا بين مقاصد الشريعة وبين مقاصدهم الشخصية، وأرادوا أن يلصقوا بالمقاصد الحقيقة النابعة من الشريعة الإسلامية، والمعتمدة علي أصولها، مقاصد متوهمة لا تمت للشريعة بصلة، ولا تنتسب إليها بسبب فيقول عند الحديث عن غايات القرآن الكريم فيقول :(إن القرآن حدد غايات الحياة، ومقاصد الناس فيها فبين أن قوما غايتهم من الحياة الأكل والمتعة، فقال تبارك وتعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوىً لَهُمْ ﴾ [محمد:١٢].

وبين أن قوما مهمتهم في الحياة الزينة والعرض الزائل فقال تبارك وتعالى:

---

(1) مجموعة الرسائل، ص٣٣-٣٤.

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاء وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴾ [آل عمران:١٤].

وبين أن قوما آخرين شأنهم في الحياة إيقاد الفتن وإحياء الشرور، أولئك الذين قال الله فيهم: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ، وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللهُ لاَ يُحِبُّ الفَسَادَ﴾ (البقرة:٢٠٤-٢٠٥).

تلك مقاصد من مقاصد الناس في الحياة نزه الله المؤمنين عنها، وبرأهم منها وكلفهم مهمة أرقى، وألقى على عاتقهم واجبا أسمى ذلك الواجب هو: هداية الناس إلى الحق، وإرشاد الناس جميعا إلى الخير، وإنارة العالم كله بشمس الإسلام فذلك قوله تبارك وتعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ، وَجَاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللهِ هُوَ مَوْلاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾ [الحج:٧٧-٧٨].

ومعنى هذا أن القرآن الكريم يقيم المسلمين أوصياء على البشرية القاصرة، ويعطيهم حق الهيمنة والسيادة على الدنيا لخدمة هذه الوصاية النبيلة وإذا فذلك من شأننا لا من شأن الغرب ولمدنية الإسلام لا لمدنية المادة.

وصاية المسلم تضحية لا استفادة :

ثم بين الله تبارك وتعالى أن المؤمن في سبيل هذه الغاية قد باع لله نفسه وماله فليس له فيها شيء وإنما هي وقف على نجاح هذه الدعوة وإيصالها إلى قلوب

الناس وذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ ﴾ [التوبة:١١١].

ومن ذلك نرى المسلم يجعل دنياه وقفا على دعوته ليكسب آخرته جزاء تضحيته)[١].

ثم يتسائل أين المسلمون من هذه الغاية فيقول: (فبربك عزيزي : هل فهم المسلمون من كتاب ربهم هذا المعنى فسمت نفوسهم، ورقت أرواحهم، وتحرروا من رق المادة وتطهروا من لذة الشهوات والأهواء، وترفعوا عن سفاسف الأمور ودنايا المقاصد، ووجهوا وجوههم للذي فطر السموات والأرض حنفاء يعلون كلمة الله ويجاهدون في سبيله، وينشرون دينه ويذودون عن حياض شريعته، أم هؤلاء أسرى الشهوات وعبيد الأهواء والمطامع، كل همهم لقمة لينة ومركب فاره وحلة جميلة ونومة مريحة وامرأة وضيئة ومظهر كاذب ولقب أجوف :

رضوا بالأماني وابتلوا بحظوظهم وخاضوا بحار الجد دعوى فما ابتلوا

وصدق رسول الله ﷺ : (تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس عبد القطيفة)[٢].

فهم مقاصد القرآن الكريم لحفظ الدين :

ثم يعود الإمام البنا مرة أخرى إلى القرآن ليبن مقاصده في حفظ الدين، فالعبرة في القرآن الكريم ليست في كثرة الحفظ والترديد غير الواعي لأسراره

(1) مجموعة الرسائل، ص٣٤-٣٥.

(2) مجموعة الرسائل، ص٣٥؛ والحديث رواه البخاري في كتاب الرقاق، باب ما يتقي من فتنة المال وقول الله تعالى ﴿ أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ ح: ٦٤٣٥.

وحكمه، ولكن القرآن نزل وفيه رسالة واضحة المعالم ليطبقها المسلمون فيسعدوا في الدنيا والآخرة فيقول: (ما رأيت ضائعاً أشبه بمحتفظ به، ولا مهملاً أشبه بمعني بشأنه من القرآن الكريم في أمتنا هذه : أنزل الله القرآن الكريم كتاباً محكماً ونظاماً شاملاً وقواماً لأمر الدين والدنيا، (لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ) (فصلت:٤٢) .

وأعتقد أن أهم الأغراض التي تجب علي الأمة الإسلامية حيال القرآن الكريم ثلاثة مقاصد :

أولها : الإكثار من تلاوته، والتعبد بقراءته، والتقرب إلى الله تبارك وتعالى به.

وثانيها: جعله مصدراً لأحكام الدين وشرائعه، منه تؤخذ وتستنبط وتستقي وتتعلم.

وثالثها: جعله أساساً لأحكام الدنيا منه تستمد وعلي مواده الحكيمة تطبق.

تلك أهم المقاصد والأغراض التي أنزل الله لها كتابه وأرسل به نبيه وتركه فينا من بعده واعظاً مذكراً وحكماً عدلاً وقسطاساً مستقيماً)[1].

فهم منهج وخطوات النهضة :

ثم ينظر الإمام في التاريخ بطوله وعرضه، طوله الزمني حيث الحضارات التي نشأت قبل الحضارة الإسلامية وبعدها، وعرضه الجغرافي حيث قامت النهضة الأوربية في فرنسا وإيطالية وروسيا وتركيا، ويقارن بين ذلك وبين ما يفعله المسلمون الآن ليصل إلى أن ما يفعلونه لايمكن أن يوصل إلى نهضة حقيقية، وذلك بسبب غياب الفهم للوسائل والغايات من جهة، الأمر الثاني انقطاع الصلة بين السابق والاحق، فلا يستفاد من خبرة السابقين، ولكن يبدأ كل مصلح الطريق من أوله، ثم يأتي الذي بعده فيصنع مثل ما صنع.

(1) مجموعة الرسائل، ص٨٤-٨٥.

يقول الإمام البنا ــ رحمه الله ــ : (وأنت إذا رجعت بذاكرتك إلى تاريخ الفرق الإسلامية، وإلي الأدوار التي سبقت، وقارنت قيام الدولة العباسية في الشرق، ثم إلى نهضة الدول الحديثة الأوربية من فرنسا وإيطاليا وروسيا وتركيا ــ سواء في الدور الأول وهو دور تكوين الوحدات وتأسيس الحكومات، أو في هذا الدور وهو دور تكوين المبادىء ومناصرة النظريات ــ لرأيت ذلك يخضع إلى مناهج معروفة الخطوات تؤدى إلى النتيجة الحتمية التي تعمل لها الأمة.

أعتقد يا عزيزي أن كل انقلاب تاريخى وكل نهضة في أمة تسير طبق هذا القانون .. حتى النهضات الدينية التي يرأسها الأنبياء والمرسلون صلوات الله عليهم، إلا أن هذه النهضات يرسم منهاجها الحق تبارك وتعالى، ويهدى الرسول ومن ورائه قومه ويرشدهم إلى خطوات المنهج خطوة خطوة، كل خطوة في وقتها المناسب، ويؤيدهم في كل ذلك بنصره .. فتكون النهضة موفقه لا محالة، ﴿ كَتَبَ اللهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة:٢١]، ومن أين يأتي الخطأ إذا كان واضع المنهج العليم الخبير ومنفذه معصوم من الزلل محفوظ من الخطأ مؤيد بالتوفيق والنصر ــ ومن هنا كانت النبوات رحمةً للعالمين ــ ؟.

كان ذلك في النهضات الموفقة، فهل سارت نهضتنا وفق هذا القانون الكوني والسنة الاجتماعية ..؟

ذلك ما أشك فيه كثيراً، فإني ألاحظ أن خلق التسرع المركوز في طباعنا، وسرعة التأثر وهياج العواطف الذي يبدو فينا واضحاً، وغيرهما من أسباب اجتماعية وغير اجتماعيه .. جعلت نهضتنا فورات عاطفية تشتد وتقوى بقوة المؤثر الوقتي وشدته ثم تخمد وتزول كأن لم يكن شيء . ولئن كانت الغاية التي نعمل لها جميعاً واضحة معروفة للكثيرين فأنا واثق من أمرين يلازمان هذه المعرفة :

الأمر الأول : أن الوسائل غير معروفة ولا محددة، وقد تكون متعاكسة يخبط

بعضها بعضاً ونحن لا نشعر.

والأمر الثاني : أن الصلة منقطعة تماماً بين السابق اللاحق .. يصل السابق إلى نصف الطريق فإذا جاء اللاحق لم يتبعه لانقطاع الصلة بينهم، فيبدأ طريقاً جديداً قد يصل فيه إلى مقدار ما وصل سابقه، وقد يقصر عنه، وقد يسبق قليلاً، ولكنه على كل حال لا يصل بالأمانة إلى النهاية لأن أعمار الأفراد قصيرة بالنسبة لأعمار النهضات والشعوب.

ونحن نتصور أن الواحد يستطيع أن يحقق للأمة كل ما تبتغي، وهي فكرة خيالية وخدعة نفسية عاطفية يجب أن تزول من نفس كل عامل حتى ينتفع بها عمل سلفه)[1].

فهم عوامل التحلل في كيان الدولة الإسلامية :

في رسالة بين الأمس واليوم يرصد الإمام البنا عوامل التحلل في كيان الدولة الإسلامية، بعد أن تحدث عن الدولة الإسلامية الأولى وأسباب قوتها. فيقول: (ومع هذه القوة البالغة والسلطان الواسع فإن عوامل التحلل قد أخذت تتسلل إلى كيان هذه الأمة القرآنية، وتعظم وتنتشر وتقوى شيئا فشيئا حتى مزقت هذا الكيان وقضت على الدولة الإسلامية المركزية في القرن السادس الهجري بأيدي التتار، وفي القرن الرابع عشر الهجري مرة ثانية، وتركت وراءها في كلتا المرتين أمما مبعثرة، ودويلات صغيرة تتوق إلى الوحدة وتتوثب للنهوض.

وكان أهم هذه العوامل :

أ- الخلافات السياسية والعصبية وتنازع الرياسة والجاه... .

ب- الخلافات الدينية والمذهبية والانصراف عن الدين كعقائد وأعمال إلى ألفاظ

(1) مجموعة الرسائل، ص٨٩-٩٠.

ومصطلحات ميتة لا روح فيها ولا حياة، وإهمال كتاب الله وسنة الرسول ﷺ، والجمود والتعصب للآراء والأقوال، والولع بالجدل والمناظرات والمراء، وكل ذلك مما حذر منه الإسلام ونهى عنه أشد النهي، حتى قال الرسول : (ما ضل قوم بعدي على هدى إلا أوتوا الجدل)[١].

ج- الانغماس في ألوان الترف والنعيم، والإقبال على المتعة والشهوات، حتى أثر عن حكام المسلمين في كثير من العصور ما لم يؤثر عن غيرهم.

د- انتقال السلطة والرياسة إلى غير العرب، من الفرس تارة، والديلم تارة أخرى، والمماليك والأتراك وغيرهم ممن لم يتذوقوا طعم الإسلام الصحيح، ولم تشرق قلوبهم بأنوار القرآن لصعوبة إدراكهم لمعانيه.

ه- إهمال العلوم العملية والمعارف الكونية، وصرف الأوقات وتضييع الجهود في فلسفات نظرية عقيمة وعلوم خيالية سقيمة.

و- غرور الحكام بسلطانهم، والانخداع بقوتهم، وإهمال النظر في التطور الاجتماعي للأمم من غيرهم، حتى سبقتهم في الاستعداد والأهبة، وأخذتهم على غرة.

ز- الانخداع بدسائس المتملقين من خصومهم، والإعجاب بأعمالهم ومظاهر حياتهم، والاندفاع في تقليدهم فيما يضر ولا ينفع، مع النهي الشديد عن التشبه بهم والأمر الصريح بمخالفتهم والمحافظة على مقومات الأمة الإسلامية والتحذير من مغبة هذا التقليد ...)[٢].

ثم يتحدث الإمام ــ رحمه الله ــ بعد ذلك عن طبيعة ومظاهر الصراع السياسي، والاجتماعي، والاقتصادي، ويذكر أن دعوته جاءت للبعث والإنقاذ، وبعد

---

(1) رواه الترمذي، كتاب تفسير القرآن عن رسول الله ﷺ باب: ومن سورة الزخرف ح:٣٢٥٣.
(2) مجموعة الرسائل، ص٩٦-٩٨ باختصار .

أن يبين ثقل التبعة، وعظم الأمانة، يذكر الأهداف العامة والخاصة للخروج من هذا الواقع التعس إلى مستقبل أفضل[1].

ثم يعود الإمام ــ رحمه الله ــ في رسالة المؤتمر الخامس ليؤكد على شمول الإسلام، وأن دعوته جاءت لإحياء هذا الشمول في قلوب وعقول المسلمين فيقول : (وتستطيع أن تقول ولا حرج عليك، إن الإخوان المسلمين :

١- **دعوة سلفية :** لأنهم يدعون إلى العودة بالإسلام إلى معينه الصافي من كتاب الله وسنة رسوله.

٢- **وطريقة سنية :** لأنهم يحملون أنفسهم علي العمل بالسنة المطهرة في كل شيء، وبخاصة في العقائد والعبادات ما وجدوا إلى ذلك سبيلا.

٣- **وحقيقة صوفية :** لأنهم يعلمون أن أساس الخير طهارة النفس، ونقاء القلب، والمواظبة علي العمل، والإعراض عن الخلق، والحب في الله، والارتباط على الخير.

٤- **وهيئة سياسية :** لأنهم يطالبون بإصلاح الحكم في الداخل وتعديل النظر في صلة الأمة الإسلامية بغيرها من الأمم في الخارج، وتربية الشعب علي العزة والكرامة والحرص علي قوميته إلي أبعد حد.

٥- **وجماعة رياضية :** لأنهم يعنون بجسومهم، ويعلمون أن المؤمن القوي خير من المؤمن الضعيف، وأن النبي ﷺ يقول : (إن لبدنك عليك حقاً)[2] وإن تكاليف الإسلام كلها لا يمكن أن تؤدي كاملة صحيحة إلا بالجسم القوي، فالصلاة والصوم والحج والزكاة لا بد لها من جسم يحتمل أعباء الكسب

---

(1) مجموعة الرسائل، ص٩٨-١١١.

(2) صحيح ابن خزيمة كتاب الصيام باب صيام التطوع، ح:٣٦٣٨، بلفظ لجسدك عليك حقا.

والعمل والكفاح في طلب الرزق، ولأنهم تبعاً لذلك يعنون بتشكيلاتهم وفـرقهم الرياضية عناية تضارع وربما فاقت كثيراً من الأندية المتخصصة بالرياضـة البدنية وحدها .

٦- **ورابطة علمية ثقافية :** لأن الإسلام يجعل طلب العلم فريضة علي كل مـسلم ومسلمة، ولأن أندية الإخوان هي في الواقع مدارس للتعليم والتثقيف ومعاهـد لتربية الجسم والعقل والروح .

٧- **وشركة اقتصادية:** لأن الإسلام يعني بتدبير المال وكسبه من وجهه وهو الذي يقول نبيه ﷺ : (نعم المال الصالح للرجل الصالح)[١] ويقول: (من أمسى كـالاً من عمل يده أمسى مغفوراً له)[٢]، (إن الله يحب المؤمن المحترف)[٣].

٨- **وفكرة اجتماعية :** لأنهم يعنون بأدواء المجتمع الإسلامي ويحاولون الوصول إلى طرق علاجها وشفاء الأمة منها .

وهكذا نري أن شمول معني الإسلام قد أكسب فكرتنا شـمولاً لكـل منـاحي الإصلاح، ووجه نشاط الإخوان إلي كل هذه النواحي، وهم في الوقت الذي يتجه فيه غيرهم إلي ناحية واحدة دون غيرها يتجهون إليها جميعـاً ويعلمـون أن الإسـلام يطالبهم بها جميعًا[٤].

ثم يعود الإمام ــ رحمه الله ــ ليؤكد على شمولية الإسلام، وينفي مـا أراده خصوم الإسلام من حصره في زاوية ضيقة، وتقييده في أمور ثانوية، فيقول : (أنا

---

(1) رواه الإمام أحمد في مسند الشاميين حديث عمرو بن العاص عن النبي ﷺ، ح:١٧٣٠٨.
(2) الطبراني في المعجم الأوسط، ح:٧٥٢٠.
(3) الطبراني في المعجم الأوسط، ح:٨٩٣٤.
(4) مجموعة الرسائل، ص١٢٢-١٢٣.

أعلن أيها الإخوان من فوق هذا المنبر بكل صراحة ووضوح وقوة، أن الإسلام شئ غير هذا المعنى الذي أراد خصومه، والأعداء من أبنائه أن يحصروه فيه ويقيدوه به، وأن الإسلام عقيدة وعبادة، ووطن وجنسية، وسماحة وقوه، وخلق ومادة، وثقافة وقانون، وأن المسلم مطالب بحكم إسلامه أن يعنى بكل شؤون أمته، ومن لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم(١).

واعتقد أن أسلافنا رضوان الله عليه ما فهموا للإسلام معنى غير هذا، فبه كانوا يحكمون، وله كانوا يجاهدون، وعلى قواعده كانوا يتعلمون، وفى حدوده كانوا يسيرون في كل شان من شؤون الحياة الدنيا العملية قبل شؤون الآخرة الروحية، ورحم الله الخليفة الأول إذ يقول : (لو ضاع مني عقال بعير لوجدته في كتاب الله).

بعد هذا التحديد العام لمعنى الإسلام الشامل ولمعنى السياسة المجردة عن الحزبية، أستطيع أن أجهر في صراحة بأن المسلم لن يتم إسلامه إلا إذا كان سياسيا، بعيد النظر في شؤون أمته، مهتما بها غيورا عليها . وأستطيع كذلك أن أقول أن هذا التحديد والتجريد أمر لا يقره الإسلام، وأن على كل جمعية إسلامية أن تضع في رأس برنامجها الاهتمام بشؤون أمتها السياسية، وإلا كانت تحتاج هي نفسها إلى أن تفهم معنى الإسلام)(٢).

الفهم نعمة من نعم الله :

ثم يذكّر الإخوان بفضل الله عليهم، ومنته أن هداهم لهذا الفهم الصحيح للإسلام، دين الوسط فيقول في رسالة المؤتمر السادس: (واذكروا جيداً أيها الإخوان .. أن الله قد من عليكم، ففهمتم الإسلام فهماً نقياً صافياً، سهلاً شاملاً، كافياً ووافياً، يساير العصور ويفي بحاجات الأمم، ويجلب السعادة للناس، بعيداً عن جمود

(1) الطبراني في المعجم الأوسط، ٧٤٧٣.
(2) مجموعة الرسائل، ص١٥٩.

الجامدين، وتحلل الإباحيين، وتعقيد المتفلسفين، لا غلو فيه ولا تفريط، مستمداً من كتاب الله وسنة رسوله وسيرة السلف الصالحين استمداداً منطقياً منصفاً، بقلب المؤمن الصادق، وعقل الرياضي الدقيق، وعرفتموه علي وجهه : عقيدة وعبادة، ووطن وجنس، وخلق ومادة، وسماحة وقوة، وثقافة وقانون . واعتقدتموه علي حقيقته : دين ودولة، وحكومة وأمة، ومصحف وسيف، وخلافة من الله للمسلمين في أمم الأرض أجمعين : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً ﴾ [البقرة:١٤٣](١).

فهم الرسالة والدور المطلوب :

ثم يعود في رسالة دعوتنا في طور جديد ليؤكد على فهم الرسالة ودور المسلم في تحقيقها فيقول : (إن النبي ﷺ قذف في قلوب صحابته بهذه المشاعر الثلاثة فأشرقت بها وانطبعت عليها :

أ- قذف في قلوبهم أن ما جاء به هو الحق وما عداه الباطل وأن رسالته خير الرسالات، ونهجه أفضل المناهج، وشريعته أكمل النظم التي تتحقق بها سعادة الناس أجمعين، وتلا عليهم من كتاب الله ما يزيد هذا المعني ثباتاً في النفس وتمسكاً في القلب.

ب- وقذف في قلوبهم أنهم ما داموا أهل الحق وما داموا حملة رسالة النور وغيرهم يتخبط في الظلام، وما دام بين يديهم هدي السماء لإرشاد الأرض فهم إذن يجب أن يكونوا أساتذة الناس وأن يقعدوا من غيرهم مقعد الأستاذ من تلميذه : يحنوا عليه ويرشده ويقومه ويسدده ويقوده إلى الخير ويهديه سواء السبيل.

---

(1) مجموعة الرسائل، ص٢٠٢.

ج- وقذف في قلوبهم أنهم ما داموا كذلك مؤمنين بهذا الحق معتزين بانتسابهم إليه، فإن الله معهم يعينهم ويرشدهم وينصرهم ويؤيدهم ويمدهم إذا تخلى عنهم الناس، ويدفع عنهم إذا أعوزهم النصير وهو معهم أينما كانوا . وإذا لم ينهض معهم جند الأرض تنزل عليهم المدد من جند السماء وأخذوا يقرءون هذه المعاني السامية واضحة في كتاب الله...)[1].

فهم عقبات الطريق وسيلة من وسائل حفظ الدين :

ثم يذكر الإمام البنا ــ رحمه الله ــ لأتباعة عقبات الطريق، ولا يشغله الإقبال الشديد على دعوته، والتفاف الناس حوله عن طبيعة الطريق التي استخلصها الإمام من طول التاريخ وعرضه، منذ أن خلق الله الخليقة إلى يوم الناس هذا، وأن ثمة تدافع بين الديانات، وتدافع بين الفكر بعضها مع بعض، وأن الدعاة إلى الله تعالى لم ينج أحد منهم من الإيذاء فيقول:

(أحب أن أصارحكم أن دعوتكم لا زالت مجهولة عند كثير من الناس، ويوم يعرفونها ويدركون مراميها ستلقى منهم خصومه شديدة وعداوة قاسية، وستجدون أمامكم كثيراً من المشقات وسيعترضكم كثير من العقبات، وفي هذا الوقت وحده تكونون قد بدأتم تسلكون سبيل أصحاب الدعوات. أما الآن فلا زلتم مجهولين تمهدون للدعوة وتستعدون لما تتطلبه من كفاح وجهاد . سيقف جهل الشعب بحقيقة الإسلام عقبة في طريقكم، وستجدون من أهل التدين ومن العلماء الرسميين من يستغرب فهمكم للإسلام وينكر عليكم جهادكم في سبيله، وسيحقد عليكم الرؤساء والزعماء وذوو الجاه والسلطان، وستقف في وجهكم كل الحكومات علي السواء، وستحاول كل حكومة أن تحد من نشاطكم وأن تضع العراقيل في طريقكم .

(1) مجموعة الرسائل، ص٢٣٣-٢٣٤.

وسيتذرع الغاصبون بكل طرق لمناهضتكم وإطفاء نور دعوتكم، وسيستعينون في ذلك بالحكومات الضعيفة والأيدي الممتدة إليهم بالسؤال وإليكم بالإساءة والعدوان . وسيثير الجميع حول دعوتكم غبار الشبهات وظلم الاتهامات، وسيحاولون أن يلصقوا بها كل نقيصة، وأن يظهروها للناس في أبشع صورة، معتمدين علي قوتهم وسلطانهم، ومعتدين بأموالهم ونفوذهم : ﴿ يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللهُ إِلا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ [التوبة:٣٢]. وستدخلون بذلك ولا شك في دور التجربة والامتحان، فتسجنون وتعتقلون، وتتقلون وتشردون، وتصادر مصالحكم وتعطل أعمالكم وتفتش بيوتكم، وقد يطول بكم مدي هذا الامتحان : ﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت:٢]. ولكن الله وعدكم من بعد ذلك كله نصرة المجاهدين ومثوبة العاملين المحسنين ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ..... فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴾ [الصف:١٠-١٤].

فهل أنتم مصرون علي أن تكونوا أنصار الله ؟[١].

ولا عجب من هذا الفهم فقد قرأ صاحبه السيرة النبوية، وقصص الأنبياء قراءة واعية متدبره، ليعيد إلى أذهاننا ما قاله ورقة بن نوفل لرسول الله ﷺ، في بداية دعوته، فقد تنبأ الرجل بإيذاء النبي ﷺ وإخراجه من دياره ووطنه، قياسا على ما فهمه من سير الأنبياء والمصلحين من قبله.

الفهم أول أركان البيعة :

ثم نصل مع الإمام إلى ركن الفهم وكما قدمنا أن الإمام وضع هذا الركن من أركان البيعة، التي لا يتم قبول الفرد فيها إلا بعد فهمها، وتعهده بأن يسير عليها، ويجاهد نفسه في الالتزام بها، وسماها (الأركان)، وعبر بهذا اللفظ وهو يقصد،

(١) مجموعة الرسائل، ص ١٠٨.

فركن الشيء ما لا يتم الشيء إلا به، ومعنى هذا أن تفريط الفرد، وتعمد تضييع أي ركن من الأركان يعتبر هدما لهذه الدعوة في نفسه وقلبه وفكره.

وقد وضع الإمام الفهم أول هذه الأركان حتي يكون بمثابة الدستور الذي يحكم به على بقيتها، ولم يكن الإمام مبتدعا في هذا الشأن، فقد جاء القرآن بالعلم والفهم قبل الإيمان، إذ إن الفرد لو آمن بغير علم، وبغير فهم فلا يأمن أن يضل ويترك الإسلام كلية بسبب عدم الفهم يقول الله تعالى: ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ ﴾ [سورة محمد:١٩].

وقد ترجم أئمة الحديث الكبار مثل البخاري ــ رحمه الله، فقال : باب العلم قبل العمل.

ثم تجلت عبقرية الإمام ــ رحمه الله ــ حيث حد هذا الفهم بأصول تمنع من الزيغ فيه، والخلط بينه وبين غيره، وحبذا لو اجتمع العاملون في الحقل الإسلامي لدراسة هذه الأصول، والوقوف على تأصيلها الشرعي من القرآن والسنة، فإذا ارتضوها كانت هي بمثابة ميثاق شرف يجتمعون عليه جميعا، ويفكرون في تفعيله على أرض الواقع.

وقد يكون لكل منهم خصوصياته، وأولوياته التي يهتم بها، لكن عليهم أن يتعاونوا فيما اتفقوا عليه، ويعذر بعضهم بعضا فيما اختلفوا فيه، كما قال الإمام رشيد رضا ــ رحمه الله ــ وكان كثيرا ما يرددها الإمام البنا ــ رحمه الله ــ.

وسنذكر هذا الركن بأصوله العشرين، ونترك القارىء الكريم ليتدبر الجهد المبذول في هذه الأصول من حيث الصناعة الفقهية المنضبطه، والفهم الدعوي والحركي العميق، والإلمام ودراسة الواقع دراسة دقيقة.

وقد حاولت وضع عنواين جانبية تعين على فهم هــذه الأصــول العــشرين، وتبرز علاقتها بمقاصد الشريعة عامة، ومقصد حفظ الدين خاصة، كما قمت بإعادة ترتيبها، وجمع كل أصل أو مجموعة أصول مع ما يماثلها من الأصــول الأخــرى واحتفظت بالرقم حسب الترتيب الذي ذكره الإمام ــ رحمه الله .

يقول الإمام البنا ــ رحمه الله ــ (إنما أريد بالفهم :

أن توقن بأن فكرتنا إسلامية صميمة، وأن تفهم الإسلام كما نفهمه، في حدود هذه الأصول العشرين الموجزة كل الإيجاز :

فهم شمولية الإسلام :

١- الإسلام نظام شامل يتناول مظاهر الحياة جميعا، فهو دولة ووطن أو حكومــة وأمة، وهو خلق وقوة أو رحمة وعدالة، وهو ثقافة وقانون أو علم وقــضاء، وهو مادة وثروة أو كسب وغنى، وهو جهاد ودعوة أو جيش وفكرة، كما هو عقيدة صادقة وعبادة صحيحة سواء بسواء.

فهم مصادر التشريع المتفق عليها والمختلف حولها :

٢ – والقرآن الكريم والسنة المطهرة مرجع كل مسلم في تعرف أحكــام الإســلام، ويفهم القرآن طبقا لقواعد اللغة العربية من غير تكلف ولا تعسف، ويرجع في فهم السنة المطهرة إلى رجال الحديث الثقات.

٣ – وللإيمان الصادق والعبادة الصحيحة والمجاهدة نور وحلاوة يقــذفهما الله فــي قلب من يشاء من عباده، ولكن الإلهام والخواطر والكشف والرؤى ليست من أدلة الأحكام الشرعية، ولا تعتبر إلا بشرط عدم اصــطدامها بأحكــام الــدين ونصوصه.

٥ – ورأي الإمام ونائبه فيما لا نص فيه، وفيما يحتمل وجوها عدة وفي المــصالح

المرسلة معمول به ما لم يصطدم بقاعدة شرعية، وقد يتغير بحسب الظروف والعرف والعادات، والأصل في العبادات التعبد دون الالتفات إلى المعاني، وفي العاديات الالتفات إلى الأسرار والحكم والمقاصد .

٦ – وكل أحد يؤخذ من كلامه ويترك إلا المعصوم ﷺ، وكل ما جاء عن السلف رضوان الله عليهم موافقا للكتاب والسنة قبلناه، وإلا فكتاب الله وسنة رسوله أولى بالإتباع، ولكنا لا نعرض للأشخاص ــ فيما اختلف فيه ــ بطعن أو تجريح، ونكلهم إلى نياتهم وقد أفضوا إلى ما قدموا .

١٦ – والعرف الخاطئ لا يغير حقائق الألفاظ الشرعية، بل يجب التأكد من حدود المعاني المقصود بها، والوقوف عندها، كما يجب الاحتراز من الخداع اللفظي في كل نواحي الدنيا والدين، فالعبرة بالمسميات لا بالأسماء .

محاربة البدع والخرافات

٤ – والتمائم والرقي والودع والرمل والمعرفة والكهانة وادعاء معرفة الغيب، وكل ما كان من هذا الباب منكر تجب محاربته إلا ما كان آية من قرآن أو رقية مأثورة .

أهمية الاجتهاد ودوره في حفظ الدين :

٧ – ولكل مسلم لم يبلغ درجة النظر في أدلة الأحكام الفرعية أن يتبع إماما من أئمة الدين، ويحسن به مع هذا الإتباع أن يجتهد ما استطاع في تعرف أدلته، وأن يتقبل كل إرشاد مصحوب بالدليل متى صح عنده صلاح من أرشده وكفايته، وأن يستكمل نقصه العلمي إن كان من أهل العلم حتى يبلغ درجة النظر .

١٨ – والإسلام يحرر العقل، ويحث على النظر في الكون، ويرفع قدر العلم

والعلماء، ويرحب بالصالح والنافع من كل شيء، والحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق الناس بها .

١٩ – وقد يتناول كل من النظر الشرعي والنظر العقلي ما لا يدخل في دائرة الآخر، ولكنهما لن يختلفا في القطعي، فلن تصطدم حقيقة علمية صحيحة بقاعدة شرعية ثابتة، ويؤول الظني منهما ليتفق مع القطعي، فإن كانا ظنيين فالنظر الشرعي أولى بالإتباع حتى يثبت العقلي أو ينهار .

فهم طبيعة الخلاف وآدابه :

٨ – والخلاف الفقهي في الفروع لا يكون سببا للتفرق في الدين، ولا يؤدي إلى خصومة ولا بغضاء ولكل مجتهد أجره، ولا مانع من التحقيق العلمي النزيه في مسائل الخلاف في ظل الحب في الله والتعاون على الوصول إلى الحقيقة، من غير أن يجر ذلك إلى المراء المذموم والتعصب .

٩ – وكل مسألة لا ينبني عليها عمل فالخوض فيها من التكلف الذي نهينا عنه شرعا، ومن ذلك كثرة التفريعات للأحكام التي لم تقع، والخوض في معاني الآيات القرآنية الكريمة التي لم يصل إليها العلم بعد، والكلام في المفاضلة بين الأصحاب رضوان الله عليهم وما شجر بينهم من خلاف، ولكل منهم فضل صحبته وجزاء نيته وفي التأول مندوحة .

١٥ – والدعاء إذا قرن بالتوسل إلى الله تعالى بأحد من خلقه خلاف فرعي في كيفية الدعاء وليس من مسائل العقيدة .

فهم عقيدة السلف الصالح، وما يتعلق بها

١٠ – ومعرفة الله تبارك وتعالى وتوحيده وتنزيهه أسمى عقائد الإسلام، وآيات الصفات وأحاديثها الصحيحة وما يليق بذلك من التشابه، نؤمن بها كما جاءت

من غير تأويل ولا تعطيل، ولا نتعرض لما جاء فيها من خلاف بين العلماء، ويسعنا ما وسع رسول الله ﷺ وأصحابه (وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا) (آل عمران:٧).

١٧ – والعقيدة أساس العمل، وعمل القلب أهم من عمل الجارحة، وتحصيل الكمال في كليهما مطلوب شرعاً، وإن اختلفت مرتبتا الطلب .

١٣ – ومحبة الصالحين واحترامهم والثناء عليهم بما عرف من طيب أعمالهم قربة إلى الله تبارك وتعالى، والأولياء هم المذكورون في قوله تعالى (الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ)، والكرامة ثابتة بشرائطها الشرعية، مع اعتقاد أنهم رضوان الله عليهم لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا في حياتهم أو بعد مماتهم فضلا عن أن يهبوا شيئا من ذلك لغيرهم.

١٤ – وزيارة القبور أيا كانت سنة مشروعة بالكيفية المأثورة، ولكن الاستعانة بالمقبورين أيا كانوا ونداؤهم لذلك، وطلب قضاء الحاجات منهم عن قرب أو بعد، والنذر لهم وتشيد القبور وسترها وأضاءتها والتمسح بها والحلف بغير الله وما يلحق بذلك من المبتدعات كبائر تجب محاربتها، ولا نتأول لهذه الأعمال سدا للذريعة.

مفهوم البدعة في الإسلام وأهمية تحرير المصطلح في الحفظ السلبي والإيجابي للدين :

١١ – وكل بدعة في دين الله لا أصل لها ــ استحسنها الناس بأهوائهم سواء بالزيادة فيه أو بالنقص منه ــ ضلالة تجب محاربتها والقضاء عليها بأفضل الوسائل التي لا تؤدي إلى ما هو شر منها .

١٢ – والبدعة الإضافية والتَّركية والالتزام في العبادات المطلقة خلاف فقهي، لكل

فيه رأيه، ولا بأس بتمحيص الحقيقة بالدليل والبرهان .

خطورة التكفير وأثره السلبي على حفظ الدين :

٢٠ – ولا نكفر مسلما أقر بالشهادتين وعمل بمقتضاهما وأدى الفرائض ــ برأي أو بمعصية ــ إلا إن أقر بكلمة الكفر، أو أنكر معلوما من الدين بالضرورة، أو كذب صريح القرآن، أو فسره على وجه لا تحتمله أساليب اللغة العربية بحال، أو عمل عملا لا يحتمل تأويلا غير الكفر .

وإذا علم الأخ المسلم دينه في هذه الأصول، فقد عرف معنى هتافه دائما (القرآن دستورنا والرسول قدوتنا)[1].

وكما قلنا من قبل إن هذه الأصول تتبع أهميتها من أنها اختصرت علوما كثيرة، وكتبا عديدة، وتميزت بهذا الاختصار والدقة، التي جعلت عالما كالغزالي ــ رحمه الله ــ يكتب عنها كتابه الماتع: (دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين)، وجعلت فضيلة الشيخ العلامة الدكتور يوسف القرضاوي يكتب كتبا كاملة في عدد من الأصول العشرين، فكتب عن الشمول كتابا، وعن المرجعية العليا للإسلام كتابا، وعن السياسة الشرعية كتابا ....وهكذا

ولكن الأهمية الأكبر لهذه الأصول تتبع من أن الإمام البنا لم يكتب هذه الرسالة (رسالة التعاليم) كموعظة تسمع، أو مقالة تقرأ فحسب، لكنه جعلها تعليمات وأوامر للتنفيذ، ومن هنا تكون الأهمية فكثير من العلماء كتبوا، ولم تخرج كتاباتهم إلى حيز التطبيق العملي، لكن الإمام ــ رحمه الله ــ طبق ما استطاع تطبيقه بشكل عملي، ثم ترك لأتباعه أن يكملوا البناء بعده.

يقول الإمام البنا في تقديمه لهذه الرسالة (فهذه رسالتي إلى الإخوان

(1) مجموعة الرسائل، ص٣٥٦–٣٥٩.

المجاهدين من الإخوان المسلمين الذين آمنوا بسمو دعوتهم، وقدسية فكرتهم، وعزموا صادقين على أن يعيشوا بها، أو يموتوا في سبيلها، إلى هؤلاء الإخوان فقط أوجه هذه الكلمات، وهي ليست دروساً تحفظ، ولكنها تعليمات تنفذ، فإلى العمل أيها الإخوان الصادقون: ﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [التوبة:١٠٥]، ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام:١٥٣].

أما غير هؤلاء.. فلهم دروس ومحاضرات، وكتب ومقالات، ومظاهر وإداريات، ولكل وجهة هو موليها فاستبقوا الخيرات، وكلا وعد الله الحسنى)[1].

ولولا التآمر على هذه الدعوة، ــ وأسباب أخرى لا يسع المقام لذكرها الآن ــ لامتدت أفكار الإمام العملية حتى وقتنا هذا، ولكانت للإخوان المسلمين دولة أو مجموعة من الدول تنافس أكبر الدول العالمية من حيث التقدم في المجالات السياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية وغير ذلك، لكن لله في خلقه وفي تدبيره حكم لا نعلمها، الله يعلمها، والعبرة عند الله ببذل الجهد، والأخذ بالأسباب، وترك النتائج على الله عز وجل، وهو أعلم حيث يجعل رسالته.

ونكرر مرة أخرى أنه على الرغم مما كُتب عن الأصول العشرين حتى الآن لم تأخذ حقها لا من ناحية التنظير والتأصيل، ولا من ناحية التطبيق العملي، ولعل الله يعين العلماء العاملين على إعطاء هذه الأصول حقها من التأصيل والتطبيق.

ولو أردنا الرجوع إلى مراجع الفقه الأصيلة لمراجعة ما كتبه الإمام البنا ــ رحمه الله ــ لاتسع البحث، وما استطعنا أن نوفيه حقه، لكننا سنأخذ بعض

(1) مجموعة الرسائل، ص٣٥٥.

القضايا على سبيل المثال لا الحصر، نوجز فيها آراء الفقهاء، ومن هذه القضايا قضية البدعة التي ذكرها الإمام في الأصلين الحادي عشر والثاني عشر :

البدعة لغة : من بدع الشيء يبدعه بدعا، وابتدعه : إذا أنشأه وبدأه.

وفي لسان العرب: المبتدع الذي يأتي أمرا على شبه لم يكن، بل ابتدأه هو[1].

أما في الاصطلاح : فقد تعددت تعريفات البدعة وتنوعت ؛ لاختلاف أنظار العلماء في مفهومها ومدلولها.

فمنهم من وسع مدلولها، حتى أطلقها على كل مستحدث من الأشياء، ومنهم من ضيق ما تدل عليه، فتقلص بذلك ما يندرج تحتها من الأحكام.

وسنوجز هذا في اتجاهين :

الاتجاه الأول :

أطلق أصحاب الاتجاه الأول البدعة على كل حادث لم يوجد في الكتاب والسنة، سواء أكان في العبادات أم العادات، وسواء أكان مذموما أم غير مذموم. ومن القائلين بهذا الإمام الشافعي، ومن أتباعه العز بن عبد السلام، والنووي، وأبوشامة. ومن المالكية : القرافي، والزرقاني. ومن الحنفية : ابن عابدين. ومن الحنابلة : ابن الجوزي. ومن الظاهرية : ابن حزم.

ويتمثل هذا الاتجاه في تعريف العز بن عبد السلام للبدعة وهو : أنها فعل ما لم يعهد في عهد رسول الله ﷺ. وهي منقسمة إلى بدعة واجبة، وبدعة محرمة، وبدعة مندوبة، وبدعة مكروهة، وبدعة مباحة.

الاتجاه الثاني :

---

(1) مجموعة الرسائل، ص٣٥٥.

اتجه فريق من العلماء إلى ذم البدعة، وقرروا أن البدعة كلها ضلالة، سواء في العادات أو العبادات . ومن القائلين بهذا الإمام مالك والشاطبي والطرطوشي. ومن الحنفية : الإمام الشمني، والعيني. ومن الشافعية : البيهقي، وابن حجر العسقلاني، وابن حجر الهيتمي. ومن الحنابلة : ابن رجب، وابن تيمية.

وأوضح تعريف يمثل هذا الاتجاه هو تعريف الشاطبي، حيث عرف البدعة بتعريفين :

الأول أنها : طريقة في الدين مخترعة، تضاهي الشرعية، يقصد بالسلوك عليها المبالغة في التعبد لله سبحانه . وهذا التعريف لم يدخل العادات في البدعة، بل خصها بالعبادات، بخلاف الاختراع في أمور الدنيا .

الثاني أنها : طريقة في الدين مخترعة تضاهي الشريعة يقصد بالسلوك عليها ما يقصد بالطريقة الشرعية.

وبهذا التعريف تدخل العادات في البدع إذا ضاهت الطريقة الشرعية، كالناذر للصيام قائما لا يقعد متعرضا للشمس لا يستظل، والاقتصار في المأكل والملبس على صنف دون صنف من غير علة[1].

ونحن نلاحظ هنا أن الإمام البنا – رحمه الله – لم يتجاوز ما كتبه الفقهاء القدامى والمحدثين بشأن البدعة، ففي الأصل الحادي عشر يحدد مفهوم البدعة،

(1) الموسوعة الفقهية ٨/ ٢١-٢٢، وينظر أيضًا؛ قواعد الأحكام في مصالح الأنام، ٢٠٤/٢، ط. الكتب العلمية، الحاوي في الفتاوى للسيوطي ٢٢٥/١، ط. دار الفكر؛ أنوار البروق في أنواء الفروق ٢٠٢/٤ ط. عالم الكتب؛ الإعتصام للشاطبي ٣٠٦/٢-٣٠٧، ط. دار الحديث؛ العقود الدرية ٢٥٦/١ ط. دار المعرفة؛ جواهر الإكليل شرح مختصر خليل ١١٢/١، ط. دار الفكر؛ عمدة القاري شرح صحيح البخاري ٣٧/٢٥، ط. دار إحياء التراث العربي، فتح الباري لابن حجر٦٣/٣، ط. المكتبة السلفية.

وأنها في دين الله، وهذا يعني أنه لا يتوسع في مفهوم البدعة، بل يقصرها على البدعة في الدين.

وفي الأصل الثاني عشر يوضح أن الذين توسعوا في مفهوم البدعة وجعلوها عامة فرقوا بين البدعة المحمودة والبدعة المذمومة، فكان الخلاف شكلي بين العلماء.

وكنا نود أن نتتبع ما ورد في رسائل التعاليم وغيرها من نظرات فقهية لنقف على فقه الإمام البنا – رحمه الله–، وصلته العميقة بكتب التراث وآراء الفقهاء القدامى والمحدثين، لكن هذا الأمر يطول، وسيخرج الدراسة عن أهدافها ولعل الله يهيء من يقوم بهذا الدور إن شاء الله .

ونختم هذا المبحث بفهم الإمام البنا للعقيدة، إذ بها ينصلح شأن الإنسان كله، ورسالة العقائدة التي كتبها الإمام البنا ــ على الرغم من صغر حجمها ــ غير أنها مفيدة، رجعت بعلم التوحيد إلى أصوله الأولى، وجاءت خالية من منطق اليونان، وفلسفة الأغريق، بل جاءت سهلة يفهمها العامة، ويستفيد منها الخاصة.

فيبدأ الإمام ــ رحمه الله ــ رسالة العقائد بمقدمات أربع :

١– تعريف العقائد:

العقائد : هي الأمور التي يجب أن يصدق بها قلبك، وتطمئن إليها نفسك، وتكون يقينا عندك، لا يمازجه ريب، ولا يخالطه شك.

٢– درجات الاعتقاد :

والناس في قوة العقيدة وضعفها أقسام كثيرة، بحسب وضوح الأدلة، وتمكنها من نفوس كل قسم.

٣– تقدير الإسلام للعقل :

أساس العقائد الإسلامية -ككل الأحكام الشرعية -كتاب الله تعالى وسنة رسوله.

ويجب أن تعلم، مع ذلك، أن كل هذه العقائد يؤيدها العقل، ويثبتها النظر الصحيح، ولهذا شرف الله تعالى العقل بالخطاب، وجعله مناط التكليف، وندبه إلى البحث والنظر والتفكير.

٤- أقسام العقائد الإسلامية :

العقائد الإسلامية تنقسم إلى أربعة أقسام رئيسة، تحت كل قسم منها فروع عدة: **القسم الأول : الإلهيات**

وتبحث فيما يتعلق بالإله سبحانه وتعالى من حيث صفاته وأسمائه وأفعاله، ويلحق بها ما يستلزمه اعتقاده من العبد لمولاه.

القسم الثاني : النبوات :

وتبحث في كل ما يتعلق بالأنبياء، صلوات الله وسلامه عليهم، من حيث صفاتهم وعصمتهم ومهمتهم والحاجة إلى رسالتهم، ويلحق بهذا القسم ما يتعلق بالأولياء رضوان الله عليهم، والمعجزة والكرامة، الكتب السماوية.

القسم الثالث : الروحانيات :

وتبحث فيما يتعلق بالعالم غير المادي: كالملائكة عليهم السلام، والجن، والروح.

القسم الرابع : السمعيات :

فيما يتعلق بالحياة البرزخية، والحياة الأخروية : كأحوال القبر، وعلامات القيامة، والبعث، والموقف، والحساب، والجزاء[1].

ثم يفرد كل قسم من الأقسام ببحث مستقل، وهو في كل مباحث الرسالة

(1) مجموعة الرسائل، ص٣٧٩-٣٨٢.

يخاطب العقل والقلب والوجدان معا.

إن بعض كتابات العقيدة تشعر الإنسان بقسوة في القلب، وبعضها يقع فيه تطاول على مقام الله ــ سبحانه وتعالى ــ وذلك بسبب المنطق الأرسطي، والجدل فى التفكير والمناقشة والمناظرة، وليس كل المسلمين يفهمون ذلك.

لقد سار على طريقة الإمام البنا فضيلة الشيخ الغزالي في عقيدة المسلم، والشيخ سيد سابق في تبسيط العقائد، وكلاهما من تلامذته ــ رحمها الله جميعا ــ، كما سار عليها فضيلة الشيخ العلامة الدكتور يوسف القرضاوي تلميذه الفذ العبقري في حقيقة التوحيد، والإخلاص ووجود الله، وهي رسائل أو كتب صغيرة الحجم لكنها كثيرة الفائدة، عظيمة النفع.

وليت كُتّاب التوحيد يقتفون هذه الخطى، حتى يكون علم التوحيد من الوسائل التي تحفظ هذا الدين، وتحبب الناس فيه، ولا تكون سببا في الصد عن دين الله، وإبعاد الناس عنه، والإنسان عدو ما يجهل، وسأكتفي ببعض النصوص السريعة هنا لأدلل على عمق الإمام البنا، وسهولته ويسره في الحديث عن التوحيد .

يتحدث عن درجات الناس في الاعتقاد فيقول: (والناس في قوة العقيدة وضعفها أقسام كثيرة، بحسب وضوح الأدلة، وتمكنها من نفوس كل قسم، ولنوضح لك هذا المقام بضرب الآتي :

لو أن رجلا سمع بوجود بلد لم يره، كاليمن مثلا، من رجل آخر غير معروف بالكذب، فإنه يصدق بوجود هذا البلد ويعتقده، فإذا سمع هذا الخبر من عدة رجال زاد به ثقة، وإن كان لا يمنعه ذلك من أن يشك في اعتقاده إذا عرضت له الشبهات، فإذا رأى صورته الفوتوغرافية زاد اعتقاده بوجوبه، وأصبح الشك متعسرا عليه أمام قوة هذا الدليل، فإذا سافر وبدت له أعلامه وبشائره زاد إيقانه

وزال شكه، فإذا نزله ورآه رأي العين، لم يعد هناك مجال للريبة، ورسخت في نفسه هذه العقيدة رسوخا قويا حتى يكون من المستحيل رجوعه عنها ولو أجمع الناس على خلافها، فإذا سار في طرقه وشوارعه، ودرس شؤونه وأحواله ازداد به خبرة ومعرفة، وكان ذلك أمرا موضحا لاعتقاده زائدا عليه) [1].

وعندما يتحدث عن تقدير الإسلام للعقل يقول : (أساس العقائد الإسلامية – ككل الأحكام الشرعية – كتاب الله تعالى وسنة رسوله.

ويجب أن تعلم، مع ذلك، أن كل هذه العقائد يؤيدها العقل، ويثبتها النظر الصحيح، ولهذا شرف الله تعالى العقل بالخطاب، وجعله مناط التكليف، وندبه إلى البحث والنظر والتفكير، قال تعالى : ﴿ قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ ﴾ [يونس:١٠١].

ومن هنا تعلم أن الإسلام لم يحجر على الأفكار ولم يحبس العقول، وإن أرشدها إلى التزام حدها، وعرفها قلة علمها، وندبها إلى الاستزادة من معارفها، فقال تعالى : ﴿ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاّ قَلِيلاً ﴾ [الاسراء:٨٥]، وقال تعالى ﴿ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً ﴾ [طه:١١٤][2].

وبعد أن يتحدث عن تأويل آيات الصفات بين الخلف والسلف، ويناقش أدلة كل فريق في حيدة وموضوعية، يعقب على هذه المسألة التي قامت من أجلها حروب كلامية، وفسّق بعض العلماء بعضهم، بل ربما أخرجه من الملة، يعقب إليها بما تستحقه حقا فيقول:

(وخلاصة هذا البحث أن السلف والخلف قد اتفقا على أن المراد غير الظاهر

---

(1) مجموعة الرسائل، ص٣٧٩.

(2) مجموعة الرسائل، ص٣٨٠-٣٨١.

المتعارف بين الخلق، وهو تأويل في الجملة، واتفقا كذلك على أن كل تأويل يصطدم بالأصول الشرعية غير جائز، فانحصر الخلاف في تأويل الألفاظ بما يجوز في الشرع، وهو هين كما ترى، وأمر لجأ إليه بعض السلف أنفسهم، وأهم ما يجب أن تتوجه إليه همم المسلمين الآن توحيد الصفوف، وجمع الكلمة ما استطعنا إلى ذلك سبيلا، والله حسبنا ونعم الوكيل)[1].

(1) مجموعة الرسائل، ص٤١٨.

المبحث السادس
حفظ الدين عن طريق الجهاد في سبيل الله

تمهيد في معنى الجهاد وفضله :

الجهاد ذروة سنام الإسلام، فبه يحفظ العرض والأرض، وتصان المقدسات أن تدنس والحرمات أن تنتهك، وقد ثار جدل واسع في هذا العصر الحديث حول هذا المصطلح، واختلفت الرؤى حول هذا الركن الركين من أركان الإسلام، فيري بعض الناس أن القتال هدف في حد ذاته، وأن المسلمين مسلطون على أعدائهم بأمر من الله تعالى، ولا خيار أمام الناس ــ كل الناس ــ سوى الدخول في الإسلام طوعا أو كرها، أو القتل، ولو حدثت معاهدات أو مواثيق بين المسلمين وبين غيرهم فلا بد أن تكون مؤقتة حتى يسترد المسلمون عافيتهم ويستعيدوا قوتهم ثم ينبذوا هذه المواثيق وتلك العهود ليقتلوا هؤلاء المشركين أو يدخلوهم في الإسلام !!

ويرى البعض الأخر أن الجهاد شر كله فهو ميتم الأطفال، ومرمل النساء، ومدمر البلاد والعباد، ولا بد للمسلمين من التعايش مع أعدائهم والقبول بالأمر الواقع أيا كان فهو بلا شك أفضل من القتل أو القتال، وأن الأمور كلها تحل بالتفاوض حتى لو دخل الأعداء أرضنا واعتدوا على أعراضنا وتسلطوا على أموالنا ودمائنا فلا مناص من اللجوء إلى المجتمع الدُولي والتقاضي أمام المحاكم الدُولية حتى تعيد إلينا حقوقنا وتطرد الأعداء من أرضنا ؟؟!

واختلط عند الناس معنى الجهاد بالقتال، وأصبح الناس يستعملون كلا المصطلحين مكان الآخر دون تفريق بينهم، وأصبح الجهاد مقصورا على القتال فمن لم يستطع القتال سقط عنه الجهاد، وهذا خلط كبير يؤدي إلى تضييع فرص كثيرة على المسلمين كان من الممكن استثمارها لو اتسع معنى الجهاد عندنا كما كان عند سلفنا الصالح منذ عهد النبي ﷺ وصحبه الكرام ومن تبعهم بإحسان.

كذلك غاب عن كثير من المسلمين الأهداف التي شرع من أجلها الجهاد، والآداب التي يجب على المسلمين أن يتحلوا بها أثناء أداء هذا الواجب فلا يعرفون من الجهاد إلا القتل وسفك الدماء وسبي النساء وغير ذلك.

ونشأ جدل واسع حول الجهاد مع الأمير وهل إذنه لا زم في كل أنواع الجهاد؟ وهل يشترط عدله وأمانته حتى يجاهد المسلمون تحت رايته ؟

وثار جدل أيضا حول جهاد المرأة هل هو واجب عليها كالرجل أم أنها تفعل هذا من باب التطوع إن أرادت، وهل يشترط إذن الوالدين في الجهاد أم لا ؟

وهذه أسئلة مشروعة لعلنا نوفق في الإجابة عنها أو معظمها من خلال تتبعنا لفقه الجهاد عند الإمام البنا ــ رحمه الله ــ وأثر هذا الجهاد في حفظ الدين، وهو ما يعنينا في هذا البحث.

الجهاد في اللغة: مصدر جاهد يجاهد جهادا ومجاهدة :

وهي مشتقة من مادة: جهد يجهد جَهدا: تقول: جَهَد الرجل في كذا: أي جد وبالغ. وجهد الرجل دابته: أي حمل عليها في السير فوق طاقتها، كما في معجم ألفاظ القرآن الكريم.

والمصدر: الجَهد ــ بفتح الجيم ــ والضم لغة فيه. وجمهور العلماء على التفريق بين لغتي الفتح والضم. فالجَهد ــ بفتح الجيم ــ الغاية. يقال: اجهد في هذا الأمر جَهْدك. أي ابلغ غايتك.

والجُهد ــ بضم الجيم ــ الوسع والطاقة. تقول: هذا جهدي أي وسعي وطاقتي.

وجاهد مجاهدة وجهادا: بذل وسعه في المدافعة والمغالبة، فهو مجاهد، وهم

مجاهدون.

وأكثر ما ورد الجهاد في القرآن: ورد يراد به: بذل الوسع في نشر الدعوة الإسلامية والدفاع عنها[1].

وقال العلامة الراغب الأصفهاني في (مفردات القرآن) :

الجَهد والجُهد: الطاقة والمشقة. وقيل: الجهد ــ بالفتح ــ المشقة، والجُهد: الوسع.

والاجتهاد: أخذ النفس ببذل الطاقة وتحمل المشقة. يقال: جهدت رأيي وأجهدته: أتعبته بالفكر.

والجهاد والمجاهدة: استفراغ الوسع في مدافعة العدو.

والجهاد ثلاث أضراب :

ــ مجاهدة العدو الظاهر.

ــ ومجاهدة الشيطان.

ــ ومجاهدة النفس.

وتدخل ثلاثتها في قوله تعالى: ﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ ﴾ [الحج: ٧٨] ﴿ وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ﴾ [التوبة: ٤١] ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ ﴾ [الأنفال: ٧٧].

---

(١) معجم ألفاظ القرآن الكريم؛ عمل مجمع اللغة العربية (٢٢٦/١)، طبع الهيئة المصرية للكتاب.

والمجاهدة تكون باليد واللسان. قال ﷺ: " جاهدوا الكفار بأيديكم وألسنتكم "[١].

ويعرف الإمام ابن تيمية الجهاد بمعناه الواسع الشامل فيقول : والجهاد: هو بذل الوسع وهو القدرة في حصول محبوب الحق ودفع ما يكرهه الحق، فإذا ترك العبد ما يقدر عليه من الجهاد كان دليلا على ضعف محبة الله ورسوله في قلبه، ومعلوم أن المحبوبات لا تنال غالبا إلا باحتمال المكروهات، سواء كانت محبة صالحة أو فاسدة، فالمحبون للمال والرئاسة والصور لا ينالون مطالبهم إلا بضرر يلحقهم في الدنيا مع ما يصيبهم من الضرر في الدنيا والآخرة، فالمحب لله ورسوله إذا لم يحتمل ما يرى ذو الرأي من المحبين لغير الله مما يحتملون في حصول محبوبهم دل ذلك على ضعف محبتهم لله إذا كان ما يسلكه أولئك هو الطريق الذي يشير به العقل، ومن المعلوم أن المؤمن أشد حبا لله[٢].

ومن الفقهاء من يعرف الجهاد بمعناه الضيق، وهو المرادف للقتال فيقول: والجهاد: قتال مسلم كافر غير ذي عهد بعد دعوته للإسلام وإبائه، إعلاء لكلمة الله[٣].

الجهاد في القرآن الكريم :

لقد حفل القرآن الكريم بالآيات التي تحث علي الجهاد في سبيل الله وترغب فيه وتشرح أحكامه وآدابه وتحذر من التقاعس عنه.

---

(١) رواه النسائي بلفظ "جاهدوا المشركين بأموالكم وأيديكم وألسنتكم" في الجهاد باب وجوب الجهاد، وأبو داود كتاب الجهاد باب ترك الغزو، ح٢٥٠٤.

(٢) الفتاوى الكبرى، ١٨٨/٥.

(٣) الموسوعة الفقهية ١٢٥/١٦؛ وينظر أيضًا : شرح فتح القدير على الهداية ٢٧٧/٤، ط. الأميرية – بولاق؛ الفتاوى الهندية ١٨٨/٢، ط. دار الفكر؛ شرح مختصر خليل للخرشي١٠٨/٣، ط. دار صادر، جواهر الإكليل شرح مختصر خليل ٢٥٠/١، ط. دار الفكر؛ حاشية الشرقاوي على تحفة الطلاب ٣٩١/٣، ط. مصطفى الحلبي.

يقول الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ *إِلاَّ تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً وَيَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلاَ تَضُرُّوهُ شَيْئاً وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [التوبة: ٣٨-٣٩].

ويقول تعالى : ﴿ إِنَّ اللّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللّهِ فَاستَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [التوبة: ١١١].

ويقول تعالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّواْ شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢١٦].

ويقول تعالى : ﴿ فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَيُقْتَلْ أَو يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً * وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَـذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيّاً وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيراً * الَّذِينَ آمَنُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُواْ أَوْلِيَاء الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً ﴾ [النساء:١٧٤-١٧٦].

ويقول تعالى : ﴿ لاَّ يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلاًّ وَعَدَ اللّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً ﴾ [النساء: ٩٥].

وأمر المسلمين بأن يعدوا ما استطاعوا من القوة للدفاع عن عقيدتهم وأرضهم وأعراضهم فقال تعالى : ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ ﴾ [الأنفال ٦٠].

وغير ذلك الكثير من آيات القرآن الكريم التي تتحدث عن أحكام الجهاد في سبيل الله تعالى.

الجهاد في السنة المطهرة :

اعتنت السنة المطهرة بأمر الجهاد كما عني به القرآن الكريم وأتت الأحاديث النبوية المشرفة تؤصل لموضوع الجهاد وتضع أحكامه وآدابه وتبين أسسه وضوابطه وقد روى البخاري بسنده عن عبد الله بن مسعود (ﷺ) قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم، قلت: يا رسول الله، أي العمل أفضل؟ قال: (الصلاة على ميقاتها). قلت: ثم أي؟ قال: (ثم بر الوالدين). قلت: ثم أي؟ قال: (الجهاد في سبيل الله). فسكت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولو استزدته لزادني[١].

وروى عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا هجرة بعد الفتح، ولكن جهاد ونية، وإذا استنفرتم فانفروا)[٢].

وروى أن أبا هريرة (ﷺ) قال:جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: دلني على عمل يعدل الجهاد، قال: (لا أجده). قال: (هل تستطيع إذا خرج المجاهد أن تدخل مسجدك، فتقوم ولا تفتر، وتصوم ولا تفطر). قال: ومن يستطيع

(1) البخاري كتاب الجهاد والسير، باب: فضل الجهاد والسير، ح:٢٦٣٠.
(2) السابق، ح:٢٦٣١.

ذلك. قال أبو هريرة: إن فرس المجاهد ليستن في طوله، فيكتب له حسنات[١].

وروى أن أبا هريرة قال:سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (مثل المجاهد في سبيل الله، والله أعلم بمن يجاهد في سبيله، كمثل الصائم القائم، وتوكل الله للمجاهد في سبيله بأن يتوفاه: أن يدخله الجنة، أو يرجعه سالما مع أجر أو غنيمة)[٢].

وروى عن أنس بن مالك (ﷺ) عن النبي ﷺ قال: (ما من عبد يموت، له عند الله خير، يسره أن يرجع إلى الدنيا، وأن له الدنيا وما فيها، إلا الشهيد، لما يرى من فضل الشهادة، فإنه يسره أن يرجع إلى الدنيا، فيقتل مرة أخرى)[٣].

وروى عن أبي هريرة (ﷺ) قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: (والذي نفسي بيده، لولا أن رجالا من المؤمنين، لا تطيب أنفسهم أن يتخلفوا عني، ولا أجد ما أحملهم عليه، ما تخلفت عن سرية تغزو في سبيل الله، والذي نفسي بيده، لوددت أن أقتل في سبيل الله ثم أحيا، ثم أقتل ثم أحيا، ثم أقتل ثم أحيا، ثم أقتل)[٤].

وروى عن زيد بن خالد (ﷺ) : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (من جهز غازيا في سبيل الله فقد غزا، ومن خلف غازيا في سبيل الله بخير فقد غزا)[٥].

---

(1) السابق، ح:٢٦٣٣.

(2) السابق، باب: أفضل الناس مؤمن يجاهد بنفسه وماله في سبيل الله، ح:٢٦٣٥.

(3) السابق، باب: الحور العين، ح:٢٦٤٢.

(4) السابق، باب: تمني الشهادة، ح:٢٦٤٤.

(5) السابق، باب: فضل من جهز غازيا أو خلفه بخير، ح:٢٦٨٨.

وروى عن أبي هريرة (ﷺ) يقول: قال النبي صلى الله عليه وسلم: (من احتبس فرسا في سبيل الله، إيمانا بالله، وتصديقا بوعده، فإن شبعه وريه وروثه وبوله في ميزانه يوم القيامة)[١].

وروى الترمذي بسنده عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يعني يقول الله) المجاهد في سبيلي هو علي ضمانٌ إن قبضته أورثته الجنة وإن رجعته رجعته بأجر أو غنيمة)[٢].

وروى بسنده عن فضالة بن عبيد يحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال:كل ميت يختم على عمله إلا الذي مات مرابطا في سبيل الله فإنه ينمى له عمله إلى يوم القيامة ويأمن فتنة القبر)[٣].

وروى بسنده عن زيد بن خالد الجهني: عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (من جهز غازيا في سبيل الله فقد غزا ومن خلف غازيا في أهله فقد غزا)[٤].

وروى بسنده كعب بن مالك عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إن أرواح الشهداء في طير خضر تعلق من ثمر الجنة أو شجر الجنة)[٥].

وروى بسنده عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (لغدوةٌ في سبيل الله أو روحةٌ خيرٌ من الدنيا وما فيها ولقاب قوس أحدكم أو موضع يده في

---

(1) السابق، باب: من احتبس فرسا، ح:٢٦٩٨.
(2) رواه الترمذي في السنن كتاب فضائل الجهاد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب فضل الجهاد، ح:١٦٧٠، وقال هذا حديثٌ غريبٌ صحيحٌ من هذا الوجه.
(3) السابق، باب ما جاء في فضل من مات مرابطا، ح:١٦٧١، وقال حديث فضالة بن عبيد حديثٌ حسنٌ صحيحٌ.
(4) السابق، باب ما جاء فيمن جهز غازيا، ح:١٦٧٨، وقال هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ وقد روي من غير هذا الوجه.
(5) السابق، باب ما جاء في ثواب الشهيد، ح:١٦٩١، وقال هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ.

الجنة خيرٌ من الدنيا وما فيها ولو أن امرأة من نساء أهل الجنة اطلعت إلى الأرض لأضاءت ما بينهما ولملأت ما بينهما ريحا ولنصيفها على رأسها خيرٌ من الدنيا وما فيها)[1].

وروى بسنده عن المقدام بن معد يكرب قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (للشهيد عند الله ست خصال يغفر له في أول دفعة ويرى مقعده من الجنة ويجار من عذاب القبر ويأمن من الفزع الأكبر ويوضع على رأسه تاج الوقار الياقوتة منها خيرٌ من الدنيا وما فيها ويزوج اثنتين وسبعين زوجة من الحور العين ويشفع في سبعين من أقاربه)[2].

وغير ذلك من الأحاديث التي لا يمكننا حصرها هنا في هذا الموضع.

الجهاد في فكر الإمام حسن البنا وأثره على حفظ الدين :

لا يخفى على أحد دور الجهاد في حفظ الدين، وسنحاول الاقتراب من هذا والتعرف عليه من خلال ما كتبه الإمام البنا ــ رحمه الله ــ في كتابه الرسائل.

والإمام البنا ــ رحمه الله ــ لم يقف عند دور التنظير لمفهوم الجهاد ومشروعيته عن طريق الكتابة والبحوث فقط، ولكنه خاض غمارها بمفهومها العام، كالجهاد بالنفس والمال والكلمة، أو بمفهومها الخاص وهو القتال، وكانت له تجربة في تجهيز الإخوان المسلمين للجهاد على أرض فلسطين، ولا يسعنا المقام هنا أن نتحدث عنها بالتفصيل.

وقد فهم أتباعه هذا فنهجوا نهجه، وكان لهم دور بارز في الجهاد في أفغانستان وغيرها من الدول التي كان يُحارب فيها المسلمون ويفتنون عن دينهم،

(1) السابق، ١٧- باب في الغدو والرواح في سبيل الله، ح:١٦٩٩، وقال هذا حديثٌ صحيحٌ.
(2) السابق، ح:١٧١٢، وقال هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ غريبٌ.

ويطردون من أرضهم، مع استكمال الجهاد على أرض فلسطين حتى أصبحوا أكبر قوة تقف في وجه الاحتلال الصهيوني ومن يعاونه حتى الآن .

أهمية الجهاد في حياة المسلم الداعية :

يقول الإمام البنا ــ رحمه الله ــ في رسالة دعوتنا تحت عنوان فناء:

(ونحب أن يعلم قومنا إلى جانب هذا أن هذه الدعوة لا يصلح لها إلا من حاطها من كل جوانبها، ووهب لها ما تكلفه إياه من نفسه وماله ووقته وصحته، قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ [التوبة:٢٤].

فهي دعوة لا تقبل الشركة إذ أن طبيعتها الوحدة فمن استعد لذلك فقد عاش بها وعاشت به، ومن ضعف عن هذا العبء فسيحرم ثواب المجاهدين، ويكون مع المخلفين، ويقعد مع القاعدين، ويستبدل الله لدعوته به قوما آخرين ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾ [المائدة:٥٤][1].

أقسام الدور في الفقه الإسلامي :

ثم يذكر تحت عنوان رباط العقيد نصا في غاية النفاسة والدقة، حيث لا يقف ــ كما حدث مع البعض الذين قسموا الديار إلى دار حرب ودار إسلام، ولكنه يقسمها إلى دار إسلام ودار حرب ودار عهد، أو دار دعوة فيقول : (أما إذ عرفت هذا فاعلم – أيدك الله – أن الإخوان المسلمين يرون الناس بالنسبة إليهم قسمين:

١- قسم اعتقد ما اعتقدوه من دين الله وكتابه وآمن ببعثة رسوله وما جاء به،

(١) مجموعة الرسائل، ص١٦.

وهؤلاء تربطنا بهم أقدس الروابط، رابطة العقيدة وهي عندنا أقدس من رابطة الدم ورابطة الأرض، فهؤلاء هم قومنا الأقربون الذين نحنّ إليهم ونعمل في سبيلهم ونذود عن حماهم ونفتديهم بالنفس والمال، في أي أرض كانوا ومن أية سلالة انحدروا.

٢- وقوم ليسوا كذلك ولم نرتبط معهم بعد بهذا الرباط فهؤلاء نسالمهم ما سالمونا، ونحب لهم الخير ما كفوا عدوانهم عنا، ونعتقد أن بيننا وبينهم رابطة هي رابطة الدعوة، علينا أن ندعوهم إلى ما نحن عليه لأنه خير الإنسانية كلها، وأن نسلك إلى نجاح هذه الدعوة ما حدد لها الدين نفسه من سبل ووسائل، فمن اعتدى علينا منهم رددنا عدوانه بأفضل ما يرد به عدوان المعتدين.

أما إذا أردت ذلك من كتاب الله فاسمع :

١- ١ - ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾ [الحجرات:١٠].

٢- ٢ - ﴿ لا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ* إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ﴾ [الممتحنة:٨-٩].

ولعلي أكون بذلك قد كشفت لك عن هذه الناحية من دعوتنا بما لا يدعها في نفسك ملتبسة أو غامضة، لعلك بعد ذلك عرفت إلى أي قبيل ينتسب الإخوان المسلمون)[١].

وبهذا التقسيم، أقصد تقسم غير المسلمين إلى محاربين ومسالمين، أجاب الإمام عن كثير من الأسئلة، ورد كثيرا من الشبهات التي تلصق بالإسلام معتمدة

(١) مجموعة الرسائل، ص٢٤-٢٥.

على بعض الاجتهادات الفقهية التي تقسم الدور إلى دار حرب، ودار سلم وترى لزاما على المسلمين أن يغزو غيرهم مرة كل عام على الأقل، وتخييرهم بين الإسلام والجزية إن كانوا أهل كتاب، أو بين الإسلام والقتل إن كانوا كفارا، ولا تعترف بالمعاهدات الدائمة بين المسلمين وغيرهم حتى لو كانوا مسالمين، لم يقاتلونا أو يظاهروا أحدا على قتالنا.

وبحسب هذا الاجتهاد ليس بين الكافر خيار سوى أن يسلم أو يقتل، وتصبح دعوى أن الإسلام يكره غير المسلمين على الدخول في الدين حتى لو كانوا غير مقتنعين به أمرا مقبولا .

وقد ناقش العلامة الدكتور يوسف القرضاوي هذه المسألة في كتابه النافع الماتع فقه الجهاد، وصال وجال في بطون الكتب، حتى يستخرج منها أنه ثمة رأي آخر يقول إنه يمكننا أن نعقد بين الكفار عهودا مؤبدة، ونظل على هذه العهود ما داموا يحترمونها.

وقد قمت بقراءة للكتاب كله في إحدى عشرة مقالة مطولة، نشرت على موقع فضيلة الشيخ ــ أمد الله في عمره ــ كما نشرت في موقع إسلام أون باللغة العربية وترجمت للغة الانجليزية ونشرت على صفحة الموقع باللغة الانجليزية، وسأكتفي منها هنا بما له صلة بالموضوع الذي نحن بصدده.

تناول فضيلة الشيخ هذه القضية في الباب الثالث من أبواب فقه الجهاد، وهو من أطول أبواب الكتاب، بل أطولها على الإطلاق حيث تجاوزت صفحاته (١٧٠) صحيفة انتظمت (١٢) اثنى عشر فصلا، كلها تدور حول مناقشة فكرة جوهرية هامة، وهي سبب الحرب وعلتها في الإسلام هل هي للهجوم والغزو بقصد توسيع دائرة الإسلام، وإخضاع الناس ــ كل الناس ــ وتعبيدهم لله رب العالمين، أم أنها للدفاع عن الإسلام والمسلمين بغرض الدعوة إليه، وعرضه على الناس ثم

نترك لهم حرية الاختيار من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ؟

بعبارة أوجز هل القتال في الإسلام للدفاع أم للهجوم ؟

وهنا يذكر الشيخ رأيين للعلماء يطلق على الفريق الأول الدفاعيين أو المسالمين المعتدلين، والثانية الهجوميين أو المتشددين.

وبعد أن يذكر حجج وأدلة كل فريق، ويناقشها مناقشة مطولة، يرجح رأي المسالمين المعتدلين كما يطلق عليهم، وهو أن الأصل في الإسلام هو السلم، وأن المسلمين لا يحاربون إلا من حاربهم، ولا يعتدون إلا على من اعتدى عليهم، ثم يدلل على ذلك بجملة من الأدلة نذكر منها :

١- دعوة الإسلام إلى السلم: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً ﴾ [البقرة:٢٠٨]، وقد فُسِّر (السِّلْمِ) في الآية: بالموادعة وترك الحرب، كما فُسِّر بالإسلام وشرائعه كافَّة.

٢- قوله تعالى: ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ [البقرة:١٩٠]، فشرع قتال مَن قاتلنا، ومفهومه عدم قتال مَن لم يقاتلنا، ونهى عن الاعتداء ومنه قتال مَن سالم.

٣- منعه – في سورة النساء – صراحة عن قتال مَن سالمنا، بقوله تعالى: ﴿ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً ﴾ [النساء:٩٠].

٤- أمره سبحانه بالجنوح للسلم – حتى بعد وقوع القتال – إذا جنح لها العدو، وإن كان يريد الخداع، قال تعالى: ﴿ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ ﴾ [الأنفال:٦١،٦٢].

٥- أمر الله تعالى لرسوله بالتولِّي والإعراض عن المشركين إذا لم يستجيبوا لدعوته، ولم يُؤمر بقتالهم، ففي سورة التوبة: ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ [الآية:١٢٩].

٦- وضع دستور المسالمة والمحاربة في آيتين من سورة الممتحنة: ﴿ لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [الممتحنة:٨،٩].

٧- حديث الرسول المتفق عليه: " لا تتمنَّوا لقاء العدو، وسلوا الله العافية ..."(١).

٨- قراءة صحيحة للسيرة النبوية ولغزوات الرسول ﷺ.

٩- قراءة صحيحة لفتوحات المسلمين: أنها كانت ردًّا لعدوان، أو منعا لفتنة المؤمنين.

١٠- بيان أن عِلَّة القتال هي: الاعتداء والحِراب والفتنة في الدين. وليست مجرَّد الكفر، ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ [الكافرون:٦].

١١- فلسفة الإسلام في كسب الناس بالسلم، والدعوة بالحُجَّة والإقناع، والأسوة الحسنة(٢).

فانظر إلى الإمام البنا حسم القضية في كلمات قليلة، ولكنها واضحة كل الوضوح، وحاسمة كل الحسم، وأحسب أن الإمام البنا يعطينا هنا خلاصة لعشرات

---

(١) صحيح البخاري، كتاب التمني باب كراهية تمني لقاء العدو، ح:٧٢٣٧.

(٢) فقه الجهاد: دراسة مقارنة لأحكامه وفلسفته في ضوء القرآن والسنة للإمام العلامة الدكتور يوسف القرضاوي، ص٢٤٠-٣٨٥، ط١، مكتبة وهبة.

بل مئات الصفحات مما قرأ، في تواضع جم، وأدب لا نظير له (... و قوم ليسوا كذلك ولم نرتبط معهم بعد بهذا الرباط فهؤلاء نسالمهم ما سالمونا، ونحب لهم الخير ما كفوا عدوانهم عنا، ونعتقد أن بيننا وبينهم رابطة هي رابطة الدعوة، وعلينا أن ندعوهم إلى ما نحن عليه لأنه خير الإنسانية كلها، وأن نسلك إلى نجاح هذه الدعوة ما حدد لها الدين نفسه من سبل ووسائل، فمن اعتدى علينا منهم رددنا عدوانه بأفضل ما يرد به عدوان المعتدين)[1]. ولذلك لو أردنا أن نرد ما كتب الإمام البنا إلى أصوله الفقهية والأصولية، وذكرنا المصادر والمراجع التي لم يذكرها الإمام البنا لاستغرق منا هذا العمل عدة مجلدات، واحتاج هذا العمل إلى فريق بحثي متكامل في كافة تخصصات الشريعة الإسلامية كالفقه والتفسير والحديث والعقيدة والأصول،ويعينهم فريق آخر من علماء السياسة والاقتصاد والاجتماع، صحيح أن هذا العمل سيحتاج إلى وقت طويل ومال كثير، لكنه عمل هام ولعل الله يهيء له صاحب همة وثابة، وصبر دؤب، يقوم بهذا العمل ليرى الناس كم قرأ الإمام البنا حتى يخرج لنا هذا الكلام السهل الممتع الممتنع.

الجهاد بالمال :

ثم ينتقل الإمام البنا ــ رحمه الله ــ إلى جهاد الإخوان المسلمين بالمال ودوره في حفظ الدين بصفة عامة، وحفظ دعوة الإخوان المسلمين بصفة خاصة فيقول (يتساءل كثير من إخواننا الذين أحببناهم من كل قلوبنا، ووقفنا لخيرهم والعمل لمصلحتهم الدنيوية والأخروية جهودنا وأموالنا وأرواحنا، وفنينا في هذه الغاية، غاية إسعاد أمتنا وإخواننا أموالنا وأنفسنا.

وكم أتمنى أن يطلع هؤلاء الإخوان المتسائلون على شباب الإخوان المسلمين وقد سهرت عيونهم والناس نيام، وشغلت نفوسهم والخليون هجع، وأكب أحدهم على

(١) مجموعة الرسائل، ص٢٤.

مكتبه من العصر إلى منتصف الليل عاملا مجتهدا ومفكرا مجدا، ولا يـزال كـذلك طول شهره، حتى إذا ما انتهى الشهر جعل مورده موردا لجماعتـه، ونفقتـه نفقـة لدعوته، وماله خادما لغايته، ولسان حاله يقول: لا أسألكم عليه أجرا إن أجـري إلا على الله. ومعاذ الله أن نمن على أمتنا فنحن منها ولها وإنما نتوسـل إليهـا بهـذه التضحية أن تفقه دعوتنا وتستجيب لندائنا.

يتساءل هؤلاء الإخوان المحبوبون الذين يرمقون الإخوان المسلمين عن بعـد ويرقبونهم عن كثب قائلين: من أين ينفقون؟ وأنى لهم المال اللازم لـدعوة نجحـت وازدهرت كدعوتهم والوقت عصيب والنفوس شحيحة ؟

وإني أجيب هؤلاء بأن الدعوات الدينية عمادها الإيمان قبل المـال، والعقيـدة قبل الأعراض الزائلة، وإذا وجد المؤمن الصحيح وجدت معه وسائل النجاح جميعا، وإن في مال الإخوان المسلمين القليل الذي يقتطعونه من نفقاتهم ويقتـصدونه مـن ضروریاتهم ومطالب بيوتهم وأولادهم، ويجودون به طيبة نفوسهم سخية به قلوبهم، يود أحدهم لو كان له أضعاف أضعاف فينفقه في سبيل الله، فإذا لم يجد بعضهم شيئا تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا ألا يجدوا ما ينفقون. في هـذا المـال القليـل والإيمان الكبير ولله الحمد والعزة بلاغ لقوم عابدين ونجاح للعاملين الصادقين، وإن الله الذي بيده كل شيء ليبارك في القرش الواحد من قروش الإخوان، ﴿ ويَمْحَقُ اللهُ الرِّبا ويُرْبِي الصَّدَقَاتِ ﴾ [البقرة:٢٧٦].

﴿وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ﴾(الروم:٣٩)[١].

ثم يؤكد الإمام البنا أنه بالرغم من أن الاشتراك الذي يدفع من أفراد الجماعة يدفع بشكل تطوعي، ألا أن الأفراد المنتسبين إلى الجماعة يدفعونه بسخاء فيقـول:

---

(١) مجموعة الرسائل، ص٣٦-٣٧.

(ولعلك تعجب كذلك إذا علمت أن الاشتراك المالي في جماعة الإخوان المسلمين اختياري لا إجباري، وأن العضو الذي يتخلف عن دفع الاشتراك لا ينقص ذلك من حقوق أخوّته شيئاً، ومع أن هذا نص صريح في القانون الأساسي للجماعة فإن الإخوان ــ جزاهم الله خيرا ــ يبادرون إلى التضحية في سبيل الله إذا دعاهم إليها داعي الواجب ويأتون في ذلك بالعجب العاجب.

إنهم فقراء ولكنهم كرماء، إنهم قليلو المال ولكنهم أسخياء النفوس، فهم يجودون بالكثير من هذا القليل فيكون كثيراً وتباركه نعمة الله فيأتي بالخير العميم. ولعلي بهذه الناحية قد كشفت ناحية غمضت علي بعض الذين رأوا جهود الإخوان فلم يجدوا لنجاحهم سراً إلا أن يتهموهم باستجداء الهيئات وخدمة المصالح والأغراض، وهم والحمد لله من ذلك براء)[1].

الجهاد بمعناه الشامل مهمة المسلم :

ثم يذكر الإمام البنا ــ رحمه الله ــ (إن مهمة المسلم الحق لخصها الله تبارك وتعالى في آية واحدة من كتابه، ورددها القرآن الكريم بعد ذلك في عدة آيات، فأما تلك الآية التي اشتملت على مهمة المسلمين في الحياة فهي قول الله تبارك وتعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ، وَجَاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وتَكُونُوا شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللهِ هُوَ مَوْلاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾ [الحج: ٧٧-٧٨].

هذا كلام لا لبس فيه ولا غموض، ووالله إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة، وإنه لواضح كالصبح ظاهر كالنور، يملأ الآذان ويدخل على القلوب بغير استئذان، أفلم

(١) مجموعة الرسائل، ص٦٦.

يسمعه المسلمون قبل الآن ؟ أم سمعوه ولكن على قلوبهم أقفالا فلا تعي ولا تتدبر؟

يأمر الله المسلمين أن يركعوا ويسجدوا وأن يقيموا الصلاة التي هي لب العبادة وعمود الإسلام وأظهر مظاهره، وأن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئا، وأن يفعلوا الخير ما استطاعوا، وهو حين يأمرهم بفعل الخير ينهاهم بذلك عن الشر وإن من أول الخير أن تترك الشر، فما أوجز وما أبلغ ! ورتب لهم على ذلك النجاح والفلاح والفوز وتلك هي المهمة الفردية لكل مسلم التي يجب عليه أن يقوم بها بنفسه في خلوة أو جماعة.

حق الإنسانية :

ثم أمرهم بعد ذلك أن يجاهدوا في الله حق جهاده بنشر هذه الدعوة وتعميمها بين الناس بالحجة والبرهان، فإن أبوا إلا العسف والجور والتمرد فبالسيف والسنان:

والناس إن ظلموا البرهان واعتسفوا فالحرب أجدى على الدنيا من السلم

حراسة الحق بالقوة :

وما أحكم القائل: (القوة أضمن طريق لإحقاق الحق، وما أجمل أن تسير القوة والحق جنبا إلى جنب).

فهذا الجهاد في سبيل نشر الدعوة الإسلامية فضلا عن الاحتفاظ بمقدسات الإسلام فريضة الله على المسلمين كما فرض عليهم الصوم والصلاة والحج والزكاة وفعل الخير وترك الشر، وألزمهم إياها وندبهم إليها، ولم يعذر في ذلك أحدا فيه قوة واستطاعة، وإنها لآية زاجرة رادعة وموعظة بالغة زاجرة:

﴿ انْفِرُوا خِفَافاً وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ [التوبة:٤١]، وقد كشف الله سر هذا التكليف، وحكمة هذه الفريضة التي افترضها على المسلمين بعد هذا الأمر، فبين لهم أنه اجتباهم واختارهم واصطفاهم دون الناس ليكونوا سواس

خلقه، وأمناءه على شريعته وخلفاءه في أرضه، وورثة رسوله في دعوته، ومهد لهم الدين، وأحكم التشريع، وسهل الأحكام، وجعلها من الصلاحية لكل زمان ومكان بحيث يتقبلها العالم، وترى فيها الإنسانية أمنيتها المرجوة وأملها المنتظر : ﴿ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٨].

وتلك هي المهمة الاجتماعية التي ندب الله إليها المسلمين جميعا، وأن يكونوا صفا واحدا وكتلة وقوة، وأن يكونوا هم جيش الخلاص الذي ينقذ الإنسانية ويهديها سواء السبيل.

ثم أوضح الحق تبارك وتعالى للناس بعد ذلك الرابطة بين التكاليف من صلاة وصوم بالتكاليف الاجتماعية وأن الأولى وسيلة للثانية، وأن العقيدة الصحيحة أساسهما معا، حتى لا يكون لأناس مندوحة من القعود عن فرائضهم الفردية بحجة أنهم يعملون للمجموع، وحتى لا يكون لآخرين مندوحة من القعود عن العمل للمجموع بحجة أنهم مشغولين بعباداتهم مستغرقون في صلتهم لربهم، فما أدق وأحكم، ومن أحسن من الله حديثا ؟

أيها المسلمون : عبادة ربكم والجهاد في سبيل التمكين لدينكم وإعزاز شريعتكم هي مهمتكم في الحياة، فإن أديتموها حق الأداء فأنتم الفائزون، وإن أديتم بعضها أو أهملتموها جميعا فإليكم أسوق قول الله تبارك وتعالى: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ، فَتَعَالَى اللهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ﴾ [المؤمنون:١١٥-١١٦][1].

الجهاد بمعناه الشامل والتعريف المقاصدي :

ثم يذكر الإمام البنا ــ رحمه الله ــ أنواعا متعددة من الجهاد؛ ليفرق بين

(١) مجموعة الرسائل، ٤١-٤٣.

الجهاد بمعناه الشامل وبين القتال ،وهو نوع من أنواع الجهاد، وهذا الخلط بين معنى الجهاد والقتال ــ كما ذكرنا ــ من قبل ضيع على المسلمين فرصا كثيرة، حيث فهم بعض المسلمين أن الجهاد قاصر على القتال بالسيف، وبالتالي لا يجب على المرأة، ولا يجب على الشيخ الكبير ولا الشاب الصغير، ولا ذوي الأعذار والمرضى، وهؤلاء قد يكونون قادرين على الجهاد بالمعنى الشامل أي جهاد المال والنفس والدعوة وغير ذلك من أنواع الجهاد.

لكن الإمام البنا ــ رحمه الله ــ وسع معنى الجهاد حتى يستطيعه كل مسلم، وهذا هو المعنى الصحيح للجهاد وقد ذكرنا هذا في الفصل السابق فليراجع كتاب الرسائل وفي موضعه من هذه الدراسة يقول الإمام ــ رحمه الله ــ :

(من الجهاد في الإسلام أيها الحبيب: عاطفة حية قوية تفيض حناناً إلى عز الإسلام ومجده، وتهفو شوقاً إلى سلطانه وقوته، وتبكي حزناً علي ما وصل إليه المسلمون من ضعف وما وقعوا فيه من مهانة، وتشتعل ألماً على هذا الحال الذي لا يرضي الله ولا يرضي محمداً عليه الصلاة والسلام ولا يرضي نفساً مسلمة وقلباً مؤمناً. و(من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم) كما ورد في الحديث الصحيح.

لمثل هذا يذوب القلب من كمد إن كان في القلب إسلام وإيمان....[1].

يدان القول غير ميدان العمل :

ويعرف الإمام ــ رحمه الله ــ أن الجهاد ذروة سنام الإسلام، وبالتالي لا يصلح له كل أحد، ولا بد من الاستعداد الحقيقي له، وكأنه يستشعر قول الله تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّواْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ

(١) مجموعة الرسائل، ص٨١-٨٣؛ ويراجع الفصل الثاني من هذه الدراسة.

عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدَّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى وَلاَ تُظْلَمُونَ فَتِيلاً ﴾ [النساء :٧٧].

فالقتال نوع من أنواع الجهاد، لا يصل إليه إلا من انتصر على نفسه وعلى الشيطان، وانتصر في ميادين كثيرة.

ولقد حكى الله لنا عن فئة استعجلت فرض القتال دون أن تعد له عدته، أو تأخذ بالأسباب المؤدية إليه فيقول تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُواْ لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُواْ قَالُواْ وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَآئِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْاْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة: ٢٤٦].

يعرف الإمام هذا كله ولذلك يقول: (إن ميدان القول غير ميدان الخيال، وميدان العمل غير ميدان القول، وميدان الجهاد غير ميدان العمل، وميدان الجهاد الحق غير ميدان الجهاد الخاطئ.

يسهل علي كثيرين أن يتخيلوا، ولكن ليس كل خيال يدور بالبال يستطاع تصويره أقوالا باللسان، وإن كثيرين يستطيعون أن يقولوا ولكن قليلاً من هذا الكثير يثبت عند العمل، وكثير من هذا القليل يستطيع أن يعمل، ولكن قليلا منهم يقدر علي حمل أعباء الجهاد الشاق والعمل المضني. وهؤلاء المجاهدون وهم الصفوة القلائل من الأنصار قد يخطئون الطريق ولا يصيبون الهدف إن لم تتداركهم عناية الله، وفي قصة طالوت بيان لما أقول، فأعدوا أنفسكم وأقبلوا عليها بالتربية الصحيحة والاختبار الدقيق وامتحنوها بالعمل، العمل القوي البغيض لديها الشاق عليها، وافطموها عن شهواتها ومألوفاتها وعاداتها.

وفي الوقت الذي يكون فيه منكم ــ معشر الإخوان المسلمين ــ ثلاثمائة كتيبة قد جهزت كل منها نفسها **روحياً** بالإيمان والعقيدة، **وفكرياً** بالعلم والثقافة، **وجسمياً** بالتدريب والرياضة، في هذا الوقت طالبوني بأن أخوض بكم لجج البحار، وأقتحم بكم عنان السماء. وأغزو بكم كل عنيد جبار، فإني فاعل إن شاء الله، وصدق رسول الله القائل: (ولن يغلب اثنا عشر ألفاً من قلة)[١]. إني أقدر لذلك وقتاً ليس طويلاً بعد توفيق الله واستمداد معونته وتقديم إذنه ومشيئته، وقد تستطيعون أنتم معشر نواب الإخوان ومندوبيهم أن تقصروا هذا الآجل إذا بذلتم همتكم وضاعفتم جهودكم، وقد تهملون فيخطئ هذا الحساب، وتختلف النتائج المترتبة عليه، فأشعروا أنفسكم العبء وألفوا الكتائب وكونوا الفرق، وأقبلوا علي الدروس، وسارعوا إلي التدريب وانشروا دعوتكم في الجهات التي لم تصل إليها بعد، ولا تضيعوا دقيقة بغير عمل)[٢].

دور الشباب في حمل راية الجهاد لحفظ الدين :

وفي رسالة إلى الشباب يتوجه الإمام البنا ــ رحمه الله ــ إلى الشباب يحثه على تحمل مسئولياته الجسام، ليحفظ الدين بالجهاد في سبيل الله تعالى، ويفرق بين الشباب الذي نشأ في أمة وادعة هادئة قوي سلطانها واستبحر عمرانها، وبين الشباب الذي نشأ في هذه الأمة المغلوب على أمرها، والضائع حقها فيقول : (إنما تنجح الفكرة :

١- إذا قوي الإيمان بها.
٢- وتوفر الإخلاص في سبيلها.
٣- وازدادت الحماسة لها.
٤- ووجد الاستعداد الذي يحمل على التضحية والعمل لتحقيقها.

وتكاد تكون هذه الأركان الأربعة : **الإيمان، والإخلاص، والحماسة، والعمل**

---

(١) رواه الإمام أحمد في مسند بني هاشم، ح:٢٧١٣.
(٢) مجموعة الرسائل، ص١٢٨.

من خصائص الشباب . لأن أساس الإيمان القلب الذكي، وأساس الإخلاص الفؤاد النقي، وأساس الحماسة الشعور القوي، وأساس العمل العزم الفتي، وهذه كلها لا تكون إلا للشباب. ومن هنا كان الشباب قديما وحديثا في كل أمة عماد نهضتها، وفي كل نهضة سر قوتها، وفي كل فكرة حامل رايتها: ﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدىً ﴾ [الكهف:١٣].

ومن هنا كثرت واجباتكم، ومن هنا عظمت تبعاتكم، ومن هنا تضاعفت حقوق أمتكم عليكم، ومن هنا ثقلت الأمانة في أعناقكم . ومن هنا وجب عليكم أن تفكروا طويلا، وأن تعملوا كثيرا، وأن تحددوا موقفكم، وأن تتقدموا للإنقاذ، وأن تعطوا الأمة حقها كاملا من هذا الشباب.

قد ينشأ الشاب في أمة وادعة هادئة، قوي سلطانها واستبحر عمرانها، فينصرف إلى نفسه أكثر مما ينصرف إلى أمته، ويلهو ويعبث وهو هادئ النفس مرتاح الضمير . وقد ينشأ في أمة جاهدة عاملة قد استولى عليها غيرها، واستبد بشؤونها خصمها فهي تجاهد ما استطاعت في سبيل استرداد الحق المسلوب، والتراث المغصوب، والحرية الضائعة والأمجاد الرفيعة، والمثل العالية. وحينئذ يكون من أوجب الواجبات على هذا الشباب أن ينصرف إلى أمته أكثر مما ينصرف إلى نفسه. وهو إذ يفعل ذلك يفوز بالخير العاجل في ميدان النصر، والخير الآجل من مثوبة الله. ولعل من حسن حظنا أن كنا من الفريق الثاني فتفتحت أعيننا على أمة دائبة الجهاد مستمرة الكفاح في سبيل الحق والحرية. واستعدوا يا رجال فما أقرب النصر للمؤمنين وما أعظم النجاح للعاملين الدائبين)[1].

أسلحة الإخوان لتحقيق النصر :

ثم يذكر الإمام في رسالته في اجتماع رؤساء المناطق ومراكز الجهاد، بعد

(١) مجموعة الرسائل، ص١٧٣-١٧٤، بتصرف.

أن يتحدث عن الاحتلال لوادي النيل، وبرقة وطرابلس، وفلسطين، وأريتريا وزيلع وهرر ومصوع، والبلاد العربية، والأقليات الإسلامية في الدول غير المسلمة، مما يوضح مفهومه الشامل للجهاد من حيث المكان، حيث يشمل كل مكان فيه مسلم يوحد الله تعالى، بعد أن يتحدث عن ذلك كله يذكر وسائل الإخوان المسلمين في تحقيق النصر فيقول: (ويقول الناس كذلك: وما وسائلكم أيها المغلوبون علي أمركم لتحقيق مطالبكم والوصول إلى حقكم؟ ونقول نحن في سهولة ويسر : وماذا يريد منا الناس ؟ ولو أننا مغلوبون على أمرنا مدفوعون عن حقنا ؟ وهل يليق بكريم أن يذل ويستخزي والرسول ﷺ يقول : (من أعطي الذل من نفسه طائعاً غير مكره فليس مني)[1] ؟ والله يقول: ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [المنافقون:٨].

١- سلاح الحق :

إن لنا سلاحاً لا يفل ولا تنال منه الليالي والأيام هو (الحق) والحق باق خالد والله يقول: ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٨].

ويقول: ﴿ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ ﴾ [الرعد:١٧]، ويقول : ﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً﴾ [الإسراء:٨١].

٢- سلاح الإيمان :

ولنا سلاح آخر بعد ذلك وهو (الإيمان). والإيمان كذلك سر من أسرار القوة لا يدركه إلا المؤمنون الصادقون، وهل جاهد العاملون من قبل وهل يجاهدون من بعد إلا بالإيمان، وإذا فقد الإيمان ؟ فهل تغني أسلحة المادة جميعاً عن أهلها شيئاً ؟

(١) الحديث رواه الطبراني في المعجم الأوسط، باب الألف من اسمه أحمد، ح. ٤٧٣.

وإذا وجد الإيمان فقد وجدت السبيل إلي الوصول، وإذا صدق العزم وضح السبيل، (وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ) (الروم:٤٧)، ولئن تخلى عنا جند الأرض فإن معنا جند السماء ﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [لأنفال: ١٢].

٣- سلاح الأمل :

والأمل بعد ذلك سلاح ثالث فنحن لا نيأس، ولا نتعجل، ولا نسبق الحوادث، ولا يضعف من همتنا طول الجهاد والحمد لله رب العالمين، لأننا نعلم أننا مثابون متي حسنت النية وخلصت الضمائر وهي خالصة بحمد الله، فكل يوم يمضي يكتب لنا فيه ثواب جديد والنصر من وراء ذلك لا يتخلف ﴿ كَتَبَ اللهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [المجادلة:٢١]، ﴿ حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ [يوسف:١١٠]، ففيم اليأس؟ وفيم القنوط؟ . لن يجد اليأس إلى قلوبنا سبيلاً بإذن الله ﴿ إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إِلا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [يوسف: ٨٧][1].

الإسلام لا يعكر صفو العلاقة بيننا وبين الغرب :

وفي رسالة نحو النور التي كتبها الإمام البنا إلى ملوك ورؤساء العالم العربي والإسلامي كتب تحت العنوان السابق يقول: (وقد يظن الناس كذلك أن نظم الإسلام في حياتنا الجديدة تباعد بيننا وبين الدول الغربية، وتعكر صفو العلائق السياسية بيننا وبينها بعد أن كادت تستقر، وهو أيضاً ظن عريق في الوهم، فإن هذه الدول إن كانت تسيء بنا الظنون فهي لا ترضى عنا سواء تبعنا الإسلام أم غيره، وإن كانت صادقتنا بإخلاص وتبودلت الثقة بينها وبيننا فقد صرح خطباؤها وساستها بأن كل دولة حرة في النظام الذي تسلكه في داخل أرضها، مادام لا يمس حقوق

(١) مجموعة الرسائل، ٢٦٩-٢٧٠، بتصرف يسير.

الآخرين فعلى ساسة هذه الدول جميعاً : أن يفهموا أن شرف الإسلام الدولي هو أقدس شرف عرفه التاريخ، وأن القواعد التي وضعها الإسلام الدولي لصيانة هذا الشرف وحفظه أرسخ القواعد وأثبتها.

فالإسلام الذي يقول في المحافظة على التعهدات وأداء الالتزامات: ﴿ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً ﴾ [الإسراء:٣٤]، ويقول: ﴿ إِلا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئاً وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَداً فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ [التوبة:٤]، ويقول: ﴿ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ﴾ [التوبة:٧]، ويقول في إكرام اللاجئين وحسن جوار المستجير: ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾ [التوبة: ٦]، وهذا بالمشركين فكيف بالكتابيين ؟

فالإسلام الذي يضع هذه القواعد ويسلك بأتباعه هذه الأساليب: يجب أن يعتبره الغربيون ضمانة أخرى، تضمن لهم . نقول إنه من خير أوربا نفسها أن تسودها النظريات السديدة في معاملات دولها بعضها لبعض، فذلك خير لهم وأبقى)[1].

وفي هذا النص يؤكد الإمام البنا أن الأصل في علاقة المسلمين بغيرهم هو السلام، وليس الحرب، وأن التزامنا بالإسلام لا يعني القطيعة بيننا وبين الآخرين، أو إخلاف العهود والمواثيق بيننا وبينهم، بل سنكون أشد حرصا عليها ووفاء بها، ما دام غيرنا يرعاها ويحافظ عليها.

الجهاد يدخل في معظم أركان البيعة :

ويجعل الإمام البنا الجهاد ركنا من أركان البيعة، وهذا يؤكد على أن المسألة ليست مسألة تنظير فقط، ولكنه أمر لا يتم اعتماد الفرد في الانتساب إلى هذه

(١) مجموعة الرسائل، ٢٨٧.

الجماعة إلا بالإيمان به والبيعة عليه، وقد ذكر الإمام الجهاد بشكل مباشر في خمسة أركان من أركان البيعة(الجهاد، والتضحية، والطاعة، والثبات، والتجـــرد) ففـــي ركن الجهاد يقول: (و أريد بالجهاد : الفريضة الماضية إلى يوم القيامة، والمقـــصود

بقول رسول الله ﷺ : (من مات ولم يغز ولم ينو الغزو مات ميتة جاهليـــة)[١]، وأول مراتبه إنكار القلب، وأعلاها القتال في سبيل الله، وبين ذلك جهاد اللسان والقلم واليد وكلمة الحق عند السلطان الجائر، ولا تحيا دعوة إلا بالجهاد، وبقدر ســمو الــدعوة وسعة أفقها، تكون عظمة الجهاد في سبيلها، وضخامة الثمن الذي يطلب لتأييــدها، وجزالة الثواب للعاملين: (وَجَاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ) (الحج:٧٨) .

وبذلك تعرف معنى هتافك الدائم : (الجهاد سبيلنا)[٢].

وهنا يتحدث الإمام البنا عن الجهاد بمفهومه الشامل الذي يبدأ بإنكــار القلــب وينتهي بالقتال في سبيل الله تعالى.

ثم يذكر الجهاد مرة أخرى في ركن التضحية فيقول : (وأريد بالتضحية :

بذل النفس والمال والوقت والحياة وكل شيء في سبيل الغاية، وليس في الدنيا جهاد لا تضحية معه، ولا تضيع في سبيل فكرتنا تضحية، وإنما هو الأجر الجزيــل والثواب الجميل ومن قعد عن التضحية معنا فهــو آثــم : ﴿ إِنَّ اللهَ اشْــتَرَى مِــنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ) الآية، ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ ... ﴾ الآية، ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلا نَصَبٌ ﴾ الآيــة، ﴿... فَــإِن تُطِيعُــوا يُــؤْتِكُمُ اللهُ أَجْــرًا حَسَنًا...﴾ [الفتح: ١٦].

وبذلك تعرف معنى هتافك الدائم: (والموت في سبيل الله أسمى أمانينا)[٣].

ثم يذكر ركن الطاعة بمراحله الثلاث : التعريف والتكوين والتنفيذ فيقــول : (وأريد بالطاعة : امتثال الأمر وإنفاذه توا في العسر واليــسر والمنــشط والمكــره،

---

(١) مسلم في كتاب الإمارة باب ذم من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بالغزو، ح: ١٩١٠.
(٢) مجموعة الرسائل، ٣٦١.
(٣) مجموعة الرسائل، ص٣٦١-٣٦٢.

وذلك أن مراحل هذه الدعوة ثلاث :

١- **التعريف :** بنشر الفكرة العامة بين الناس، ونظام الدعوة في هذه المرحلة نظام الجمعيات الإدارية، ومهمتها العمل للخير العام ووسيلتها الوعظ والإرشاد تارة، وإقامة المنشآت النافعة تارة أخرى، إلى غير ذلك من الوسائل العملية، وكل شعب الإخوان القائمة الآن تمثل هذه المرحلة من حياة الدعوة، وينظمها القانون الأساسي، وتشرحها وسائل الإخوان وجريدتهم، والدعوة في هذه المرحلة عامة.

ويتصل بالجماعة فيها كل من أراد من الناس متى رغب المساهمة في أعمالها، ووعد بالمحافظة على مبادئها، وليست الطاعة التامة لازمة في هذه المرحلة بقدر ما يلزم فيها احترام النظم والمبادئ العامة للجماعة.

٢- **التكوين :** باستخلاص العناصر الصالحة لحمل أعباء الجهاد وضم بعضها إلى بعض، ونظام الدعوة – في هذه المرحلة – صوفي بحت من الناحية الروحية، وعسكري بحت من الناحية العملية، وشعار هاتين الناحيتين (أمر وطاعة) من غير تردد ولا مراجعة ولا شك ولا حرج، وتمثل الكتائب الإخوانية هذه المرحلة من حياة الدعوة، وتنظمها رسالة المنهج سابقا، وهذه الرسالة الآن.

والدعوة فيها خاصة لا يتصل بها إلا من استعد استعدادا تاما حقيقيا لتحمل أعباء جهاد طويل المدى كثير التبعات، وأول بوادر هذا الاستعداد كمال الطاعة .

٣- **التنفيذ :** وهي مرحلة جهاد لا هوادة فيه، وعمل متواصل في سبيل الوصول إلى الغاية، وامتحان وابتلاء لا يصبر عليهما إلا الصادقون، ولا يكفل النجاح في هذه المرحلة إلا كمال الطاعة كذلك وعلى هذا بايع الصف الأول من الإخوان المسلمين في يوم ٥ ربيع الأول سنة ١٣٥٩هـ.

وأنت بانضمامك إلى هذه الكتيبة، وتقبلك لهذه الرسالة، وتعهدك بهذه البيعة،

تكون في الدور الثاني، وبالقرب من الدور الثالث، فقدّر التبعة التي التزمتها وأعــدّ نفسك للوفاء بها[١].

ثم يذكر الجهاد مرة أخرى في ركن الثبات فيقول : (وأريــد بالثبــات : أن يظل الأخ عاملا مجاهدا في سبيل غايته مهما بعــدت المــدة وتطاولــت الــسنوات والأعوام، حتى يلقى الله على ذلك وقد فاز بإحدى الحــسنيين، فإمــا الغايــة وإمــا الشهادة في النهاية، ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ فَمِــنْهُمْ مَــنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً ﴾ [الأحزاب:٢٣]، والوقت عندنا جزء من العلاج، والطريق طويلة المدى بعيدة المراحل كثيرة العقبات، ولكنهــا وحــدها التي تؤدي إلى المقصود مع عظيم الأجر وجميل المثوبة.

وذلك أن كل وسيلة من وسائلنا الستة تحتاج إلى حسن الإعداد وتحين الفرص ودقة الإنفاذ، وكل ذلك مرهون بوقته ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيباً﴾ [الإسراء:٥١][٢].

ويؤكد على الجهاد مرة أخرى في ركن التجرد فيقول : (أريد بالتجرد :

أن تتخلص لفكرتك مما سواها من المبادئ والأشخاص، لأنها أســمى الفكــر وأجمعها وأعلاها : ﴿ صِبْغَةَ اللهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِــنَ اللهِ صِــبْغَةً ﴾ [البقــرة: ١٣٨]، ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُــرَآءُ مِــنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَــداً حَتَّــى تُؤْمِنُوا بِاللهِ وَحْدَهُ إِلا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ [الممتحنة: ٤].

---

(١) مجموعة الرسائل، ص٣٦٢- ٣٦٣.

(٢) مجموعة الرسائل، ص٣٦٣.

والناس عند الأخ الصادق واحد من ستة أصناف: مسلم مجاهد، أو مسلم قاعد، أو مسلم آثم، أو ذمي معاهد، أو محايد، أو محارب، ولكل حكمه في ميزان الإسلام، وفى حدود هذه الأقسام توزن الأشخاص والهيئات، ويكون الولاء أو العداء)[1].

ثم يذكر الإمام البنا في واجبات الأخ العامل موضوع الجهاد أكثر من مرة، ومن أهمها :

١- أن تستصحب دائما نية الجهاد وحب الشهادة وأن تستعد لذلك ما وسعك الاستعداد.

٢- أن تجاهد نفسك جهادا عنيفا حتى يسلس قيادتها لك، وأن تغض طرفك وتضبط عاطفتك وتقاوم نوازع الغريزة في نفسك، وتسمو بها دائما إلى الحلال الطيب، وتحول بينها وبين الحرام من ذلك أيا كان[2].

ويذكر الجهاد في ركن الأخوة والعمل والإخلاص فيقول في الإخلاص : (وأريد بالإخلاص : أن يقصد الأخ المسلم بقوله وعمله وجهاده كله وجه الله، وابتغاء مرضاته وحسن مثوبته من غير نظر إلى مغنم أو مظهر أو جاه أو لقب أو تقدم أو تأخر، وبذلك يكون جندي فكرة وعقيدة، لا جندي غرض ومنفعة، ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لله رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأنعام:١٦٢]، وبذلك يفهم الأخ المسلم معنى هتافه الدائم (الله غايتنا) و(الله أكبر ولله الحمد).

وفي ركن العمل يقول : (وأريد بالعمل :

ثمرة العلم والإخلاص: ﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥].

---

(١) مجموعة الرسائل، ص٣٦١-٣٦٢.

(٢) مجموعة الرسائل، ص٣٦٨.

ومراتب العمل المطلوبة من الأخ الصادق :

١- إصلاح نفسه حتى يكون: قوي الجسم، متين الخلق، مثقف الفكر، قادرا على الكسب، سليم العقيدة، صحيح العبادة، مجاهدا لنفسه، حريصا على وقته، منظما في شؤونه، نافعا لغيره، وذلك واجب كل أخ على حدته.

٢- وتكوين بيت مسلم، بأن يحمل أهله على احترام فكرته، والمحافظة على آداب الإسلام في مظاهر الحياة المنزلية، وحسن اختيار الزوجة، وتوقيفها على حقها وواجبها، وحسن تربية الأولاد، والخدم وتنشئتهم على مبادئ الإسلام، وذلك واجب كل أخ على حدته كذلك.

٣- وإرشاد المجتمع، بنشر دعوة الخير فيه، ومحاربة الرذائل والمنكرات، وتشجيع الفضائل، والأمر بالمعروف، والمبادرة إلى فعل الخير، وكسب الرأي العام إلى جانب الفكرة الإسلامية، وصبغ مظاهر الحياة العامة بها دائما، وذلك واجب كل أخ على حدته، وواجب الجماعة كهيئة عاملة .

٤- وتحرير الوطن بتخليصه من كل سلطان أجنبي ــ غير إسلامي ــ سياسي أو اقتصادي أو روحي.

٥- وإصلاح الحكومة حتى تكون إسلامية بحق، وبذلك تؤدي مهمتها كخادم للأمة، وأجير عندها وعامل على مصلحتها، والحكومة إسلامية ما كان أعضاؤها مسلمين مؤدين لفرائض الإسلام غير متجاهرين بعصيان، وكانت منفذة لأحكام الإسلام وتعاليمه ٠

ولا بأس أن نستعين بغير المسلمين عند الضرورة في غير مناصب الولاية العامة، ولا عبرة بالشكل الذي تتخذه، ولا بالنوع، مادام موافقا للقواعد العامة في نظام الحكم الإسلامي.

ومن صفاتها : الشعور بالتبعة، والشفقة، على الرعية، والعدالة بين النـــاس، والعفة عن المال العام، والاقتصاد فيه .

ومن واجباتها : صيانة الأمن، وإنفاذ القانون، ونشر التعليم، وإعداد القــوة، وحفظ الصحة، ورعاية المنافع العامة، وتنمية الثروة، وحراســة المــال، وتقويــة الأخلاق، ونشر الدعوة .

ومن حقها – متى أدت واجبها – : الولاء والطاعة، والمساعدة بالنفس والأموال.

فإذا قصرت : فالنصح والإرشاد، ثم الخلع والإبعاد، ولا طاعة لمخلوق فــي معصية الخالق.

٦- إعادة الكيان الدولي للأمة الإسلامية، بتحرير أوطانها وإحياء مجدها وتقريــب **ثقافتها** وجمع كلمتها، حتى يؤدى ذلك كله إلى إعادة الخلافة المفقودة والوحدة المنشودة.

٧- **وأستاذية العالم** بنشر دعوة الإسلام في ربوعه ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ للهِ ﴾ [لأنفال:٣٩]، ﴿ وَيَأْبَى اللهُ إِلا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَــوْ كَــرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ [التوبة:٣٢].

وهذه المراتب الأربعة الأخيرة تجب على الجماعة متحــدة وعلــى كــل أخ باعتباره عضوا في الجماعة، وما أثقلها تبعات وما أعظمها مهمات، يراهــا النــاس خيالا ويراها الأخ المسلم حقيقة، ولن نيأس أبدا، ولنا في الله أعظــم الأمــل ﴿ وَاللهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف:٢١][1].

ويقول في ركن الأخوة : (وأريد بالأخوة :

---

(١) مجموعة الرسائل، ص٣٥٩-٣٦١.

أن ترتبط القلوب والأرواح برباط العقيدة، والعقيدة أوثق الروابط وأغلاها، والأخوة أخت الإيمان، والتفرق أخو الكفر، وأول القوة : قوة الوحدة، ولا وحدة بغير حب، وأقل الحب: سلامة الصدر، وأعلاه : مرتبة الإيثار، ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر:٩].

والأخ الصادق يرى إخوانه أولى بنفسه من نفسه، لأنه إن لم يكن بهم، فلن يكون بغيرهم، وهم إن لم يكونوا به كانوا بغيره، (وإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية)، (والمؤمن للمؤمن كالبنيان، يشد بعضه بعضاً). ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ [التوبة:٧١]، وهكذا يجب أن نكون)[١].

رسالة الجهاد :

ولأهمية الجهاد في سبيل الله لا يكتفي بما ذكره في كتاب الرسائل، أو غيرها، وهو كما رأينا كاف للوقوف على أهمية هذه الفريضة الغالية، بل يخصص الإمام البنا ــ رحمه الله ــ رسالة كاملة في هذه الفريضة، التي تعد من أهم أسباب حفظ الدين يقول في بدايتها: (فرض الله الجهاد على كل مسلم فريضة لازمة حازمة لامناص منها ولا مفر معها، ورغب فيه أعظم الترغيب، وأجزل ثواب المجاهدين والشهداء، فلم يلحقهم في مثوبتهم إلا من عمل بمثل عملهم ومن اقتدي بهم في جهادهم . ومنحهم من الامتيازات الروحية والعملية في الدنيا والآخرة ما لم يمنح سواهم، وجعل دماءهم الطاهرة الذكية عربون النصر في الدنيا وعنوان الفوز والفلاح في العقبى، وتوعد المخلفين القاعدين بأفظع العقوبات، ورماهم بأبشع النعوت والصفات ووبخهم علي الجبن والقعود، ونعى عليهم الضعف والتخلف، وأعد لهم في الدنيا خزياً لا يرفع إلا إن جاهدوا، وفي الآخرة عذاباً لا يفلتون منه

(١) مجموعة الرسائل، ص٣٦٤.

ولو كان لهم مثل أحد ذهباً، واعتبر القعود والفرار كبيرة من أعظم الكبائر وإحدى الموبقات المهلكات.

ولست تجد نظاماً قديماً أو حديثاً دينياً أو مدنياً، عني بشأن الجهاد والجندية واستنفار الأمة، وحشدها كلها صفاً واحداً للدفاع بكل قواها عن الحق، كما تجد ذلك في دين الإسلام وتعاليمه، وآيات القرآن، وأحاديث الرسول العظيم ﷺ فياضة بكل هذه المعاني السامية، داعية بأفصح عبارة وأوضح أسلوب إلي الجهاد والقتال والجندية وتقوية وسائل الدفاع والكفاح بكل أنواعها من برية وبحرية وغيرها علي كل الأحوال والملابسات)[1].

ثم يستطرد الإمام البنا في ذكر الآيات والأحاديث الموجبة للجهاد في سبيل الله سواء بمعناه العام، أو معناه الخاص وهو القتال، فيذكر ثمانية مواضع في القرآن الكريم، وفي كل موضوع عدد من الآيات، ثم يذكر أكثر من ثلاثين حديثا من أحاديث النبي ﷺ تؤكد هذا المعنى وتوضحه، وهو إذ يذكر ذلك يذكره على سبيل المثال لا على سبيل الحصر[2].

حكم الجهاد عند فقهاء الأمة :

ثم يذكر الإمام البنا ــ رحمه الله ــ حكم الجهاد عند فقهاء المذاهب، فينقل عن الحنفية والمالكية والشافعية والحنابلة، ثم ينقل عن الظاهرية والشيعة الزيدية، وهذا يدلل على انفتاح الإمام البنا على المذاهب الفقهية، السنية وغيرها، كما يدل على سعة اطلاع الرجل، وثقافته الفقهية، ثم يعقب على هذه النقول فيقول : (فها أنت ذا تري من ذلك كله كيف أجمع أهل العلم مجتهدين ومقلدين، سلفيين وخلفيين، علي أن الجهاد فرض كفاية على الأمة الإسلامية، لنشر الدعوة، وفرض عين لدفع

(١) مجموعة الرسائل، ص٤٢١.

(٢) مجموعة الرسائل، ص٤٢٢-٤٣١.

هجوم الكفار عليها.

والمسلمون الآن كما تعلمون مستذلون لغيرهم محكومون بالكفار قد ديست أرضهم وانتهكت حرماتهم، وتحكم في شؤونهم خصومهم، وتعطلت شعائر دينهم في ديارهم، فضلاً عن عجزهم عن نشر دعوتهم، فوجب وجوباً عيناً لا مناص منه أن يتجهز كل مسلم وأن ينطوي علي نية الجهاد وإعداد العدة له حتى تحين الفرصة ويقضي الله أمراً كان مفعولاً .

ولعل من تمام هذا البحث أن أذكر لك أن المسلمين في أي عصر من عصورهم، قبل هذا العصر المظلم الذي ماتت فيه نخوتهم، لم يتركوا الجهاد ولم يفرطوا فيه حتى علمائهم والمتصوفة منهم والمحترفون وغيرهم، فكانوا جميعاً علي أهبة الاستعداد، كان عبد الله بن المبارك الفقيه الزاهد متطوعاً في أكثر أوقاته بالجهاد، وكان عبد الواحد بن زيد الصوفي الزاهد كذلك، وكان شقيق البلاخي شيخ الصوفية في وقتها يحمل نفسه وتلامذته علي الجهاد.

وكان البدر العيني شارح البخاري الفقيه المحدث يغزو سنة، ويدرس العلم سنة ويحج سنة، وكان القاضي أسد بن الفرات المالكي أميراً للبحر في وقته، وكان الإمام الشافعي يرمي عشرة ولا يخطئ، كذلك كان السلف رضوان الله عليه، فأين نحن من هذا التاريخ؟)[1].

مقصد الجهاد في سبيل الله (لماذا يقاتل المسلم ؟) :

ثم يجيب الإمام البنا على سؤال من أهم الأسئلة التي تطرح في موضوع الجهاد، وهو لماذا يقاتل المسلمون؟ هل يقاتلون من أجل الاستيلاء على أرض الآخرين وممتلكاتهم، وبسط نفوذهم على الناس جميعا؟ أم أنهم يقاتلون من أجل نشر

(١) مجموعة الرسائل، ٤٣٣.

دعوة الله تعالى، أو من أجل رد اعتداء المعتدين، والدفاع عن المظلومين المضطهدين في الأرض ؟

سبق أن ذكرنا في الصفحات الماضية أن ثمة خلاف بين الفقهاء حول هذه المسألة، ومن أجل ذلك ناقشها العلامة أستاذنا الدكتور يوسف القرضاوي نقاشا استغرق أكثر من مائة وسبعين صفحة من كتابه فقه الجهاد، وقد أشار إليها الإمام البنا إشارة سريعة هناك [1]، ثم يذكرها هنا في رسالة الجهاد مرة أخرى بنوع من التفصيل فيقول: (أتي على الناس حين من الدهر وهم يغمزون الإسلام بفرضية الجهاد وإباحته، حتى تحققت الآيات الكريمة : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ [فصلت:٥٣]. فها هم الآن يعترفون بأن الاستعداد هو أضمن طريق للسلام . فرض الله الجهاد على المسلمين لا أداة للعدوان، ولا وسيلة للمطامع الشخصية، ولكن ضمان للسلام وآداة للرسالة الكبرى التي حمل عبئها المسلمون، رسالة هداية الناس إلي الحق والعدل، وإن الإسلام كما فرض القتال شاد بالسلام فقال تبارك وتعالي: ﴿ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ ﴾ [لأنفال:٦١].

كان المسلم يخرج للقتال وفي نفسه أمر واحد أن يجاهد لتكون كلمة الله هي العليا، وقد فرض دينه عليه أن لا يخلط بهذا المقصد غاية أخري فحب الجاه عليه حرام، وحب الظهور عليه حرام، وحب المال عليه حرام، والغلول من الغنيمة عليه حرام، وقصد الغلب بغير الحق عليه حرام. والحلال أمر واحد أن يقدم دمه وروحه فداء لعقيدته وهداية للناس.

عن الحارس بن مسلم بن الحارس عن أبيه قال: (بعثنا رسول الله ﷺ في

(١) مجموعة الرسائل، ٢٤.

سرية، فلما بلغنا المغار استحثثت فرسي فسبقت أصحابي، فتلقاني أهل الحي بالرنين، فقلت لهم : قولوا لا إله إلا الله تحرزوا، فقالوها، فلامني أصحابي وقالوا : حرمتنا الغنيمة، فلما قدمنا علي رسول الله ﷺ أخبروه بالذي صنعت، فدعاني فحسن لي ما صنعت ثم قال لي : (ألا إن الله تعالي قد كتب لك بكل إنسان كذا وكذا من الأجر)، وقال : (أما إني سأكتب لك بالوصاية بعدي)، ففعل وختم عليه ودفعه إلي) أخرجه أبو داوود[١].

وأنت إذا قرأت وقائع الصحابة رضوان الله عليهم ومسالكهم في البلاد التي فتحوها، رأيت مبلغ عزوفهم عن المطامع والأهواء وانصرافهم لغايتهم الأساسية الأصلية، وهي إرشاد الخلق إلي الحق حتى تكون كلمة الله هي العليا ورأيت مبلغ الخطأ في اتهامهم رضوان الله عليهم بأنهم إنما كانوا يريدون الغلب علي الشعوب والاستبداد بالأمم والحصول علي الأرزاق)[٢].

ثم يؤكد الإمام ــ رحمه الله ــ على أن الجهاد في سبيل الله ومن أنواعه القتال له آداب وأخلاق وسلوك لا بد أن يتحلى بها المجاهد، فهو ليس كغيره من أنواع الاستعمار الذي يقضي على الأخضر واليابس، فيقول تحت عنوان الرحمة في الجهاد الإسلامي : (لما كانت الغاية في الجهاد الإسلامي أنبل الغايات، كانت وسيلته كذلك أفضل الوسائل فقد حرم الله العدوان، فقال تعالي : ﴿ إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة:١٩٠]، وأمر بالعدل حتى مع الخصوم فقال تعالي: ﴿وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ﴾ [المائدة:٨]، وأرشد المسلمين إلي منتهى الرحمة.

فهم حينما يقاتلون لا يعتدون ولا يفجرون ولا يمثلون ولا يسرقون ولا

(١) سنن أبي داوود كتاب الأدب باب إذا انصرفت من صلاة المغرب، ح:: ٥٠٧٩.
(٢) مجموعة الرسائل، ص٤٣٤-٤٣٥.

ينتهبون الأموال، ولا ينتهكون الحرمات ولا يتقدمون بالأذى، فهم في حربهم خير محاربين كما أنهم في سلمهم أفضل مسالمين.

عن بريدة رضى الله عنه قال: (كان لرسول الله ﷺ إذا أمر الأمير على جيش أو سريه أوصاه في خاصته بتقوى الله تعالى ومن معه من المسلمين خيرا ثم قال: (اغزوا بسم الله في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، أغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدا)[1] كما ورد النهى عن قتل النساء والصبيان والشيوخ والإجهاز على الجرحى وإهاجة الرهبان والمنعزلين ومن لا يقاتل من الآمنين، فأين هذه الرحمة من غارات المتمدينين الخانقة وفظائعهم الشنيعة ؟ وأين قانونهم الدولي من هذا العدل الرباني الشامل ؟)[2].

الجهاد الأكبر والجهاد الأصغر :

ثم يصحح الإمام ــ رحمه الله ــ فهما مغلوطا عن جهاد النفس، وأنه أهم من القتال، وعلى الرغم من أن جهاد النفس يعد مقدمة ضرورية، وأمرا هاما للقتال في سبيل الله، ولن ينتصر المسلمون على أعدائهم إلا بعد أن ينتصروا على نفوسهم في مجال الشهوات والشبهات، وينتصروا على الشيطان الذي يوسوس ويزين لهم الباطل، لكنه لن يكون أكبر من القتال الذي جعله النبي ﷺ ذروة سنام الإسلام ويقول الإمام البنا في تحقيق هذه المسألة (شاع بين كثير من المسلمين أن قتال العدو هو الجهاد الأصغر، وأن هناك جهاداً أكبر هو جهاد النفس، وكثير منهم يستدل لذلك بما يروى: (رجعنا من الجهاد الأصغر إلي الجهاد الأكبر، قالوا:وما الجهاد الأكبر ؟ قال: جهاد القلب أو جهاد النفس).

---

(١) رواه مسلم في كتاب الجهاد والسير باب تأمير الإمام الأمراء على البعوث ووصيته إياهم بآداب الغزو وغيرها، ح: ١٧٣١.

(٢) مجموعة الرسائل، ص٤٣٦.

وبعضهم يحاول بهذا أن يصرف الناس عن أهمية القتال، والاستعداد له ونية الجهاد والأخذ في سبيله. فأما هذا الأثر فليس بحديث علي الصحيح، قال أمير المؤمنين في الحديث الحافظ ابن حجر في تسديد القوس : هو مشهور علي الألسنة وهو من كلام إبراهيم بن عبلة .

وقال العراقي في تخريج أحاديث الأحياء : رواه البيهقي بسند ضعيف عن جابر، ورواه الخطيب في تاريخه عن جابر ؛ علي أنه لو صح فليس يعطي أبداً الانصراف عن الجهاد، والاستعداد لإنقاذ بلاد المسلمين، ورد عادية أهل الكفر عنها، وإنما يكون معناه: وجوب مجاهدة النفس حتى تخلص لله في كل عملها، فليعلم . وهناك أمور تلحق بالجهاد منها : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فقد جاء في الحديث : (إن من أعظم الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر) [١] . ولكن شيئاً منها لا يوجب لصاحبه الشهادة الكبرى وثواب المجاهدين إلا أن يَقتل أو يقتل في سبيل الله)[٢].

ثم يختم هذه الرسالة النافعة فيقول : (أيها الإخوان: إن الأمة التي تحسن صناعة الموت، وتعرف كيف تموت الموتة الشريفة، يهب لها الله الحياة العزيزة في الدنيا والنعيم الخالد في الآخرة، وما الوهن الذي أذلنا إلا حب الدنيا وكراهية الموت، فاعدوا أنفسكم لعمل عظيم واحرصوا على الموت توهب لكم الحياة .

واعلموا أن الموت لابد منه وأنه لا يكون إلا مرة واحدة، فان جعلتموها في سبيل الله كان ذلك ربح الدنيا وثواب الآخرة، وما يصيبكم إلا ما كتب الله لكم، وتدبروا جيداً قول الله تبارك وتعالى : ﴿ ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاساً يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ

(١) سنن النسائي كتاب البيعة، باب فضل من تكلم بالحق عند إمام جائر، ح: ٤٢٠٩.
(٢) مجموعة الرسائل، ص٤٣٦- ٤٣٧.

يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ للهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ [آل عمران:١٥٤].

فاعملوا للموتة الكريمة تظفروا بالسعادة الكاملة، رزقنا الله وإياكم كرامة الاستشهاد فى سبيله)[1].

ولم يقف الإمام البنا ــ رحمه الله ــ عند هذا الحد، ولكنه درب وجهز شباب الإخوان وشيوخهم من أجل تحرير فلسطين، ولم نذكر ما قام به الإخوان هنا من بطولات وتضحيات، حتى لانخرج عن خطة البحث ويطول بنا المقام، وهذه الأخبار أصبحت متواترة نقلها العامة والخاصة، ويمكننا مراجعة ما كتبه الأستاذ كامل الشريف في كتابه الماتع عن الإخوان المسلمين وحرب فلسطين، وقد كان ــ رحمه الله ــ شاهدا ومشاركا في هذه الحرب، ولولا خيانة بعض الحكام، وتآمرهم على هذه الفئة لا ستطاعت أن تغير خريطة المنطقة العربية كلها، فلم تكن إسرائل بهذه القوة، وما كان العرب بهذا الضعف والخور، وكانت الفرصة سانحة أمام هؤلاء المقاتلين الأوفياء من الإخوان المسلمين، لو انضم إليهم الشرفاء والمخلصين من العرب للقضاء على الدولة اليهودية التي أذاقتنا الويلات، وما زلنا نعاني من وجود هذا الكيان الصهيوني الغاصب، جسم غريب وسرطان مدمر ينخر في عظام الأمة العربية والإسلامية إلا أن يأذن الله بنصر قريب على يد شعوب أخلصت علاقتها بالله تعالى، ونزعت من قلوبها الوهن، وإلا فستكون العاقبة وخيمة لا قدر الله.

(١) مجموعة الرسائل، ص٤٣٧.

المبحث السابع
حفظ الدين: بمقاومة الإرجاف وبث الأمل

اليأس والإرجاف من الأدواء القاتلة التي إذا أحاطت بالفرد أو المجتمع أو الأمة كانت سببا في تدميره، فالإرجاف يؤدي إلى اليأس، ولذلك حذر الله المسلمين منه، وتوعد المرجفين بإخراجهم خارج حدود الدولة الإسلامية؛ حتى لاتنتشر عدواهم في المجتمع الإسلامي فتدمره، يقول الله تعالى : ﴿ لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا * مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا * سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ [٦٠-٦٢].

فنجد هنا أن الله تعالى قد ذكر المنافقين والمرجفين والذين في قلوبهم مرض في سياق واحد، على الرغم من أن الإرجاف قد يأتي من المؤمنين أحيانا، لكن نظرا لخطورته على الصف المسلم، قد توعد الله المرجفين بإخراجهم من المدينة كما توعد هم باستباحة دمائهم ولعنتهم لخطورة فعلهم .

وقد حذر الله تعالى الصف المؤمن من إشاعة الأمن أو الخوف، وأمرهم أن يردوا ذلك للقيادة العليا متمثلة في الرسول ﷺ وأولي الأمر من بعده.

يقول الله تعالى: ﴿ وَإِذَا جَاءهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلاَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاَتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ [النساء :٨٣].

أما اليأس فهو داء عضال، إذا دب في أمة من الأمم فهو كفيل بتراجعها، وتقاعسها عن الجهاد والدعوة إلى الله تعالى، بل يجعلها لا تتحرك للدفاع عن نفسها، والدفاع عن النفس فطرة فطر الله المخلوقات عليها، حتى إن الحيوانات العجماوات لا تقبل ولا تقعد عن الدفاع عن نفسها، والزود عن حياضها .

ولذلك يقول الله تعالى على لسان يعقوب عليه السلام: ﴿ يَا بَنِيَّ اذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلاَ تَيْأَسُواْ مِن رَّوْحِ اللّهِ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [يوسف :٨٧].

وقد حرص الإمام البنا ــ رحمه الله ــ أن يعالج اليأس والتشاؤم، ويقاوم الإرجاف، ويبث الأمل في قلوب أتباعه خاصة، والمسلمين عامة، نعم هو خبير بأدواء أمته، بصير بعللها وأمراضها، وهو يعلم أن عللها كثيرة، وأدواءها متعددة، لكن هذا كله لا يجعل لليأس إلى قلبه طريقا، ولا التشأؤم لفكره مسلكا.

فيقول الإمام البنا موضحا أن الضعف والقوة سنة الله تعالى في الأمم كما هو سنة في الخلق: (يا أخي : اعلم وتعلم أن مثل الأمم في قوتها وضعفها وشبابها وشيخوختها وصحتها وسقمها مثل الأفراد سواء بسواء، فالفرد بينما تراه قويا معافى صحيحا سليما، فإذا بك تراه قد انتابته العلل وأحاطت به السقام وهدّت بنيته القوية الأمراض والآلام، ولا يزال يشكو ويئن حتى تتداركه رحمة الله تبارك وتعالى بطبيب ماهر ونطاسي بارع يعلم موطن العلة ويحسن تشخيصها ويتعرف موضع الداء ويخلص في علاجه، فإذا بك بعد حين ترى هذا المريض وقد عادت إليه قوته ورجعت إليه صحته، ربما كان بعد هذا العلاج خيرا من قبله.

قل مثل هذا في الأمم تماما، تعترضها حوادث الزمن بما يهدد كيانها ويصدع بنيانها ويسري في مظاهر قوتها سريان الداء، ولا يزال يلح عليها ويتشبث بها حتى ينال منها فتبدو هزيلة ضعيفة يطمع فيها الطامعون، وينال منها الغاصبون فلا تقوى على رد غاصب، ولا تمنع من مطامح طامح، و**علاجها إنما يكون بأمور ثلاثة:** معرفة موطن الداء، والصبر على آلام العلاج، والنطاسي الذي يتولى ذلك حتى

يحقق الله على يديه الغاية ويتمم الشفاء والظفر)[1].

ثم يتحدث عن أعراض المرض فيقول: (وقد علمتنا التجارب وعرفتنا الحوادث أن داء هذه الأمم الشرقية متشعب المناحي كثير الأعراض قد نال من كل مظاهر حياتها:

١- فهي مصابه في ناحيتها السياسية بالاستعمار من جانب أعدائها، والحزبية والخصومة والفرقة والشتات من جانب أبنائها.

٢- وفي ناحيتها الاقتصادية بانتشار الربا بين كل طبقاتها واستيلاء الشركات الأجنبية على مواردها وخيراتها.

٣- وهي مصابة من الناحية الفكرية بالفوضى والمروق والإلحاد يهدم عقائدها، ويحطم المثل العليا في نفوس أبنائها.

٤- وفي ناحيتها الاجتماعية بالإباحية في عاداتها وأخلاقها والتحلل من عقدة الفضائل ورثتها عن الغر الميامين من أسلافها.

٥- وبالتقليد الغربي يسري في مناحي حياتها سريان لعاب الأفاعي فيسمم دمائها، ويعكر صفو هنائها.

٦- وبالقوانين الوضعية التي لا تزجر مجرما ولا تؤدب معتديا ولا ترد ظالما، ولا تغني يوما من الأيام غناء القوانين السماوية التي وضعها خالق الخلق ومالك الملك ورب النفوس وبارئها.

٧- وبفوضى في سياسة التعليم والتربية تحول دون التوجيه الصحيح لنشئها ورجال مستقبلها وحملة أمانة النهوض بها.

٨- وفي ناحيتها النفسية بيأس قاتل وخمول مميت وجبن فاضح وذلة حقيرة

(1) مجموعة الرسائل، ص٢٧-٢٨.

وخنوثة فاشية وشح وأنانية تكف الأيدي عن البذل وتقف حجابا دون التضحية وتخرج الأمة من صفوف المجاهدين إلى اللاهين اللاعبين.

وماذا يرجى من أمة اجتمعت على غزوها كل هذه العوامل بأقوى مظاهرها وأشد أعراضها؟ الاستعمار والحزبية، والربا والشركات الأجنبية، والإلحاد والإباحية وفوضى التعليم والتشريع، واليأس والشح، والخنوثة والجبن، والإعجاب بالخصم إعجابا يدعو إلى تقليده في كل ما صدر عنه وبخاصة في سيئات أعماله.

إن داء واحدا من هذه الأدواء يكفي لقتل أمم متظاهرة، فكيف وقد تفشت جميعا في كل أمة على حدة ؟ لولا مناعة وحصانة وجلادة وشدة في هذه الأمم الشرقية التي جاذبها خصومها حبل العداء من بعيد، ودأبوا على تلقيحها بجراثيم هذه الأمراض زمنا طويلا حتى باضت وأفرخت، لولا ذلك لعفت آثارها ولبادت من الوجود، ولكن يأبى الله ذلك والمؤمنون.

يا أخي : هذا هو التشخيص الذي يلمسه الإخوان في أمراض هذه الأمة، وهذا هو الذي يعملون في سبيل أن يبرئها منه ويعيد إليها ما فقدت من صحة وشباب)[1].

لكن كثرة الأمراض وتشعبها وتعددها لا يقضي على الأمل الذي به تحيا النفوس، ولطالما ذكر وبشر الرسول ﷺ بعالمية الإسلام وانتشاره في الآفاق في أصعب الحالات التي مرت بها الدعوة الإسلامية، فبشر بعالمية الإسلام عندما لحقه سراقة وهو في الطريق إلى المدينة بعد أن أخرجه أهلها وحيدا لا حول له ولا سند إلا حول الله وقوته، ثم بشر بها قبل ذلك يوم أن جاءه خباب بن الأرت يقول له ألا تدعو لنا؟! إلا تستنصر لنا؟!، وبشر بها يوم الخندق يوم أن تحالف اليهود الغادرون مع المشركين الفاجرين، وعزموا على استئصال شأفة المسلمين.

---

(1) مجموعة الرسائل، ص٢٨-٢٩، بتصرف يسير.

تعلم الإمام البنا ــ رحمه الله ــ هذا وغيره من سيرة الرسول ﷺ ومن التاريخ الإسلامي، ومن فقه الواقع فيقول: (أحب أن تعلم يا أخي أننا لسنا يائسين من أنفسنا، وأننا نأمل خيرا كثيرا، ونعتقد أنه لا يحول بيننا وبين النجاح إلا هذا اليأس، فإذا قوي الأمل في نفوسنا فسنصل إلى خير كثير إن شاء الله تعالى، لهذا نحن لسنا يائسين، ولا يتطرق اليأس إلى قلوبنا والحمد لله.

وكل ما حولنا يبشر بالأمل رغم تشاؤم المتشائمين، إنك إذا دخلت على مريض فوجدته تدرج من كلام إلى صمت، ومن حركة إلى سكون شعرت بقرب نهايته وعسر شفائه واستفحال دائه، فإذا انعكس الأمر وأخذ يتدرج من صمت إلى كلام ومن همود إلى حركة شعرت بقرب شفائه وتقدمه في طريق الصحة والعافية. ولقد أتى على هذه الأمم الشرقية حين من الدهر جمدت فيه حتى ملها الجمود، وسكنت حتى أعياها السكون، ولكنها الآن تغلي غليانا بيقظة شاملة في كل مناحي الحياة، وتضطرم اضطراما بالمشاعر الحية القوية والأحاسيس العنيفة. ولولا ثقل القيود من جهة والفوضى في التوجيه من جهة أخرى لكان لهذه اليقظة أروع الآثار، ولن تظل هذه القيود قيودا أبد الدهر فإنما الدهر قلب، وما بين طرفة عين وانتباهتها يغير الله من حال إلى حال، ولن يظل الحائر حائرا فإنما بعد الحيرة هدى وبعد الفوضى استقرار، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

لهذا لسنا يائسين أبدا، وآيات الله تبارك وتعالى، وأحاديث رسوله ﷺ، وسنته تعالى في تربية الأمم وإنهاض الشعوب بعد أن تشرف على الفناء، وما قصه علينا في كتابه، كل ذلك يناديا بالأمل الواسع، ويرشدنا إلى طريق النهوض ولقد علم المسلمون – لو يتعلمون –....)[1].

ثم لا يقف عند الأمل المجرد من الأخذ بالأسباب، ولكنه يذكر الوسائل العملية

(1) مجموعة الرسائل، ص٢٩.

التي تحقق هذا الأمل، وتحوله إلى واقع ملموس فيقول: (أما الوسيلة التي وعدتك الكلام عليها فهي أركان ثلاثة تدور عليها فكرة الإخوان:

أولها– المنهاج الصحيح: وقد وجده الإخوان في كتاب الله وسنة رسوله وأحكام الإسلام حين يفهمها المسلمون على وجهها غضة نقية بعيدة عن الدخائل والمفتريات فعكفوا على دراسة الإسلام على هذا الأساس دراسة سهلة واسعة مستوعبة.

وثانيها– العاملون المؤمنون: ولهذا أخذ الإخوان أنفسهم بتطبيق ما فهموه من دين الله تطبيقا لا هوادة فيه ولا لين، وهم بحمد الله مؤمنون بفكرتهم مطمئنون لغايتهم واثقون بتأييد الله إياهم ما داموا له يعملون وعلى هدي رسوله يسيرون.

وثالثها – القيادة الحازمة الموثوق بها: وقد وجدها الإخوان المسلمون كذلك، فهم لها مطيعون وتحت لوائها يعملون.

هذا ما أردت أن أتحدث به إليك عن دعوتنا وهو تعبير له تعبير، وأنت يوسف هذه الأحلام، فإن راقك ما نحن عليه فيدك مع أيدينا لنعمل سويا في هذا السبيل، والله ولي توفيقنا وهو حسبنا ونعم الوكيل فنعم المولى ونعم النصير) [1].

ثم يذكر في رسالة إلى أي شيء ندعو الناس مستشهدا بعلماء الاجتماع، ومذكرا المسلمين أن هذا الأمل وإن كان حلما الآن لكنه من السهل أن يتحول إلى حقيقة: (يقول علماء الاجتماع إن حقائق اليوم هي أحلام الأمس، وأحلام اليوم هي حقائق الغد، وتلك نظرة يؤيدها الواقع ويعززها الدليل والبرهان، بل هي محور تقدم الإنسانية وتدرجها مدارج الكمال، فمن ذا الذي كان يصدق أن يصل العلماء إلى ما وصلوا إليه من المكتشفات والمخترعات قبل حدوثها ببضع سنين، بل إن أساطين

(1) مجموعة الرسائل، ص٣٠.

العلم أنفسهم أنكروها لأول عهدهم بها، حتى أثبتها الواقع وأيدها البرهان، والمثل على ذلك كثيرة، وهي من البداهة بحيث يكفينا ذلك عن الإطالة بذكرها)[1].

ثم يذكر في رسالة هل نحن قوم عمليون أناسا يغمزون الإخوان ويتسآلون هل هم قوم عمليون ؟ فيذكر منهم : (وإما شخص مغرم بتشقيق الكلام وتنميق الجمل والعبارات وإرسال الألفاظ فخمة ضخمة ليقول السامعون إنه عالم، وليظن الناس أنه علي شئ وليس هو علي شئ وليلقي في روعك أنه يود العمل ولا يقعده عن مزاولته إلا أنه لا يجد الطريق العملي إليه، وهو يعلم كذب نفسه في هذه الدعوى وإنما يتخذها ستارا يغطي به قصوره وخوره وأنانيته وأثرته.

وإما شخص يحاول تعجيز من يدعوه ليتخذ من عجزه عن الإجابة عذراً للقعود بالعلة للخمول والمكسلة، وسبباً للانصراف عن العمل للمجموع.

وآية ذلك عند هؤلاء جميعاً أنك إذا فاجأتهم بالطريق العمليّ، وأوضحت لهم مناهج العمل المثمر، وأخذت بأبصارهم وأسماعهم وعقولهم وأيديهم إلى الطريق المستقيم لوّوا رؤوسهم وحاروا في أمرهم وأسقط في أيديهم، وظهر الاضطراب والتردد في ألفاظهم وحركاتهم وسكناتهم، وأخذوا ينتحلون المعاذير، ويرجئونك إلى وقت الفراغ، ويتخلصون منك بمختلف الوسائل، ذلك بعد آن يكونوا أمضوك اعتراضاً وأجهدوك نقاشاً ومحاورة، ورأيتهم بعد ذلك يصدون وهم مستكبرون)[2].

ثم يتحدث في رسالة : بين الأمس واليوم بعد أن يذكر الوسائل العامة والإضافية لنشر الدعوة وتبليغها فيقول : (وسيقول كثير من الناس: وماذا تعني هذه الوسائل ؟ وما عساها أن تنفع في بناء أمة وترميم مجتمع مع هذه المشكلات

(1) مجموعة الرسائل، ص٥٦.

(2) مجموعة الرسائل، ص٦٠.

المزمنة، ومع استقرار الحال علي هذه المفاسد المتعددة ؟ وكيف تعالجون الاقتصاد علي غير أساس الربا ؟ وكيف تصنعون في قضية المرأة ؟ وكيف تتالون حقكم بغير قوة ؟ فاعلموا أيها الإخوان أن وساوس الشيطان يلقيها في أمنية كل مصلح فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم، واذكروا لهؤلاء جميعاً أن التاريخ يقص علينا من نبأ الأمم الماضية والحاضرة ما فيه عظة وعبرة. والأمة التي تصمم علي الحياة لا يمكن أن تموت)[1].

ثم يذكر في خاتمة رسالة المؤتمر الخامس، محذرا الإخوان من اليأس فيقول: (لا تيئسوا فليس اليأس من أخلاق المسلمين، وحقائق اليوم أحلام الأمس، وأحلام اليوم حقائق الغد . ولا زال في الوقت متسع، ولا زالت عناصر السلامة قوية عظيمة في نفوس شعوبكم المؤمنة رغم طغيان مظاهر الفساد . والضعيف لا يظل ضعيفاً طول حياته، والقوي لا تدوم قوته أبد الآبدين : ﴿ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴾ [القصص:٥].

إن الزمان سيتمخض عن كثير من الحوادث الجسام، وإن الفرص ستسنح للأعمال العظيمة، وإن العالم ينظر دعوتكم دعوة الهداية والفوز والسلام لتخلصه مما هو فيه من آلام، وإن الدور عليكم في قيادة الأمم وسيادة الشعوب، وتلك الأيام نداولها بين الناس، وترجون من الله ما لا يرجون، فاستعدوا واعملوا اليوم، فقد تعجزون عن العمل غداً.

لقد خاطبت المتحمسين منكم أن يتريثوا وينتظروا دورة الزمان، وإني لأخاطب المتقاعدين أن ينهضوا ويعملوا فليس مع الجهاد راحة :

﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [العنكبوت:٦٩]

---

(1) مجموعة الرسائل، ص١٠٨.

وإلي الأمام دائماً ... [1].

ويكرر هذا المعنى بشكل مختلف في خاتمة مؤتمر طلبة الإخوان المسلمين فيقول: (وبعد أيها الإخوان، فهذه نظرات سيضحك لها كثير من الناس حين يستمعون إليها، وأولئك هم الذين يئسوا من أنفسهم وغفلوا عن تأييد الله لعباده المؤمنين، وجهلوا أن هذا الذي تجهرون به اليوم ليس شيئا جديدا ولكنه دعوة الإسلام التي جاء بها رسول الله ﷺ وجاهد في سبيلها وعمل لها أصحابه من بعده، والتي يجب على كل مسلم يؤمن بالله وبرسوله وكتابه أن يعمل لها كما عملوا ويجاهد في سبيلها كما جاهدوا.

أمّا أنتم أيها الإخوان فتؤمنون بذلك كله، وتعتقدون أن الله غالب على أمره، وأن الله معكم على ذلك البرهان العلمي والتطور التاريخي والوضع الجغرافي والتأييد الرباني، وتجدون البشرى في قول رب العالمين : ﴿ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴾ [القصص:٥]، واعلموا أن الله معكم، ولا أطيل عليكم في بيان واجبكم فإنكم لتعلمونه، فآمنوا وأخلصوا واعملوا وانتظروا ساعة الفوز وترقبوا وقت الانتصار .. و﴿ لِلهِ الأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ، بِنَصْرِ اللهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ [الروم:٥][2].

ثم ينادي في الشباب، ليزرع الثقة في قلوبهم، ليثقوا في منهج الله الذي ينتسبون إليه، ويعرفوا قدر أنفسهم، وقدر المسئولية الملاقاة على عاتقهم فيقول: (إن الله قد أعزكم بالنسبة إليه والإيمان به والتنشئة على دينه، وكتب لكم بذلك مرتبة الصدارة من الدنيا ومنزلة الزعامة من العالمين وكرامة الأستاذ بين تلامذته.

---

(1) مجموعة الرسائل، ص١٥٢-١٥٣.

(2) مجموعة الرسائل، ص١٦٩.

﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ ﴾ [آل عمران:١١٠]. ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾ [البقرة:١٤٣].

فأول ما يدعوكم إليه أن تؤمنوا بأنفسكم، أن تعلموا منزلتكم وأن تعتقدوا أنكم سادة الدنيا وإن أراد لكم خصومكم الذل، وأساتذة العالمين وإن ظهر عليكم غيركم بظاهر من الحياة الدنيا والعاقبة للمتقين.

فجددوا أيها الشباب إيمانكم، وحددوا غاياتكم وأهدافكم، وأول القوة الإيمان، ونتيجة هذا الإيمان الوحدة، وعاقبة الوحدة النصر المؤزر المبين. فآمنوا وتآخوا واعملوا وترقبوا بعد ذلك النصر.. وبشر المؤمنين.

إن العالم كله حائر يضطرب، كل ما فيه من النظم قد عجز عن علاجه ولا دواء له إلا الإسلام، فتقدموا باسم الله لإنقاذه، فالجميع في انتظار المنقذ، ولن يكون المنقذ إلا رسالة الإسلام التي تحملون مشعلها وتبشرون بها[1].

ثم يخاطب الشباب مرة أخرى بعد أن يذكر الأهداف السبع وهي : الرجل المسلم، والشعب المسلم، والحكومة المسلمة، والوطن الإسلامي، والخلافة الإسلامية، وأستاذية العالم فيقول: (ليقل القاصرون الجبناء أن هذا خيال عريق، ووهم استولى على نفوس هؤلاء الناس، وذلك هو الضعف الذي لا نعرفه ولا يعرفه الإسلام. ذلك هو الوهن الذي قذف في قلوب هذه الأمة فمكن لأعدائها فيها، وذلك هو خراب القلب من الإيمان وهو علة سقوط المسلمين. وإنما نعلن في وضوح وصراحة أن كل مسلم لا يؤمن بهذا المنهاج ولا يعمل لتحقيقه لاحظ له في الإسلام، فليبحث له عن فكرة أخرى يدين بها ويعمل لها.

---

(1) مجموعة الرسائل، ص١٧٦.

يا شباب : لستم أضعف ممن قبلكم ممن حقق الله على أيديهم هذا المنهاج فلا تهنوا وتضعفوا، وضعوا نصب أعينكم قوله تعالى :

﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾ [آل عمران:١٧٣](١).

ثم يرد على المرجفين في رسالة : الإخوان المسلمون تحت راية القرآن بعد أن يذكر غاية الإخوان المسلمين وعدتهم: (سيقول الذين يسمعون هذا إنه الخيال بعينه وإنه الوهم، وإنه الغرور .

وأنّى لهؤلاء الذين لا يملكون إلا الإيمان والجهاد أن يقاوموا هذه القوى المتآلبة المجتمعة، والأسلحة المتنوعة المختلفة، وأن يصلوا إلى حقهم، وهم بين ذراعي وجبهة الأسد ؟

سيقول كثيرون هذا، ولعل لهم بعض العذر، فهم قد يئسوا من أنفسهم، ويئسوا من صلتهم بالقوي القادر، أما نحن فنقول إنها الحقيقة التي نؤمن بها ونعمل لها، ونحن نقرأ قول الله تعالى : ﴿ وَلا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللهِ مَا لا يَرْجُونَ ﴾ [النساء:١٠٤](٢).

ويبث الأمل في نفس الإخوان مرة أخرى، ويحثهم على الأمل والعمل فيقول في نهاية الرسالة السابقة : (هذه منزلتكم، فلا تصغروا في أنفسكم، فتقيسوا أنفسكم بغيركم، أو تسلكوا في دعوتكم سبيلا غير سبيل المؤمنين، أو توازنوا بين دعوتكم التي تتخذ نورها من نور الله ومنهاجها من سنة رسوله، بغيرها من الدعوات التي تبررها الضرورات، وتذهب بها الحوادث والأيام.

---

(1) مجموعة الرسائل، ص١٩٤-١٩٥.

(2) مجموعة الرسائل، ص١٧٨-١٧٩.

لقد دعوتم وجاهدتم، ولقد رأيتم ثمار هذا المجهود الضئيل أصواتا تهتف بزعامة رسول الله وهيمنة نظام القرآن، ووجوب النهوض للعمل، وتخليص الغاية لله، ودماء تسيل من شباب طاهر كريم في سبيل الله، ورغبة صادقة للشهادة في سبيل الله . وهذا نجاح فوق ما كنتم تنتظرون، فواصلوا جهودكم، واعملوا، ﴿ وَاللهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ﴾ [محمد:٣٥].

فمن تبعنا الآن فقد فاز بالسبق، ومن تقاعد عنا من المخلصين اليوم فسيلحق بنا غدا، وللسابق عليه الفضل . ومن رغب عن دعوتنا، زهادة، أو سخرية بها، أو استصغارا لها، أو يائسا من انتصارها، فستثبت له الأيام عظيم خطئه، وسيقذف الله بحقنا على باطله فيدمغه فإذا هو زاهق.

فإلينا أيها المؤمنون العاملون، والمجاهدون المخلصون، فهنا الطريق السوي، والصراط المستقيم، ولا توزعوا القوى والجهود.

﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام:١٥٣][1].

ويعود الإمام مرة أخرى في رسالة نحو النور إلى الحديث عن الأمل الذي يدفع به إرجاف المرجفين، ويقضي به على يأس اليائسين فيقول: (تحتاج الأمة الناهضة إلى الأمل الواسع الفسيح، وقد أمد القرآن أممه بهذا الشعور بأسلوب يخرج من الأمة الميتة أمة كلها حياة وهمة وأمل وعزم، وحسبك أنه يجعل اليأس سبيلا إلى الكفر والقنوط من مظاهر الضلال، وإن أضعف الأمم إذا سمعت قوله تعالى : ﴿ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ، وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ ﴾ [القصص:٥-٦].

(1) مجموعة الرسائل، ص١٩٨.

وقوله تعالى : ﴿ وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ، إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ﴾ [آل عمران:١٣٩-١٤٠].

وقوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللهِ فَأَتَاهُمُ اللهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ ﴾ [الحشر:٢].

وقوله تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ ﴾ [البقرة:٢١٤].

إن أضعف الأمم إذا سمعت هذا التبشير كله، وقرأت ما إليه من قصص تطبيقية واقعية، لابد أن تخرج بعد ذلك أقوى الأمم إيمانا وأرواحا، ولابد أن ترى في هذا الأمل ما يدفعها إلى اقتحام المصاعب مهما اشتدت، ومقارعة الحوادث مهما عظمت، حتى تظفر بما تصبو إليه من كمال)[1].

وأخيرا يدفع عن المسلمين شبح الخوف من الأمم الغربية التي يخافون منها، ولا يتمسكون بتعاليم الإسلام خشية من غضبتها، واتقاء لشرها، فيقول في رسالة مشكلاتنا في ضوء النظام الإسلامية : (وقد يقال إن الجهر بالعودة إلى نظام الإسلام مما يخيف الدول الأجنبية والأمم الغربية، فتتألب علينا وتتجمع ضدنا، ولا طاقة لنا بهم ولا قدرة لنا عليهم، وهذا منتهى الوهن وغاية الفساد في التقدير وقصر النظر. وها نحن أولاء نرى هذه الدول وقد سايرناها في نظمها، وأخذنا بألوان حياتها،

(1) مجموعة الرسائل، ص٢٧٧.

واتبعناها في تقاليدها، فهل أغنى ذلك عنا شيئا ؟! وهل دفع عنا من كيدها ؟ وهل منعها من أن تحتل أرضنا، وتسلب استقلالنا وتستأثر بخيرات بلادنا، ثم تتجمع في كل مؤتمر أو مجتمع دولي ضد حقوقنا وتثير المشكلات والصعاب والعقبات في وجوهنا، ولا تتأثر إلا بشيء واحد هو ظروفها ومصالحها فقط، ولا يعنيها بعد ذلك إلا أنها نصرانية، فقد رأيناها في الحرب الماضية يحطم بعضها بعضا، وكلها مسيحية، وتتملق مع هذا دول الإسلام وأممه وشعوبه، وتتزلف إليه بمعسول وحلو الحديث، وهاهم أولاء جميعا يناصرون الصهيونية اليهودية وهى أبغض ما تكون إليهم لارتباط مصالحهم المادية وأغراضهم الاستعمارية بهذه المناصرة . وقد أصبح هذا المعنى معلوما في تصرفات كل الساسة الغربيين.

إذن فلن يجدينا شيئا عندهم أن نتنصل من الإسلام، ولن يزيدهم فينا بغضا أن نعلن التمسك به والاهتداء بهديه، وبخاصة وهم الآن معسكران مختلفان متنافسان على المصالح المادية وحدها)[1].

رحم الله الإمام البنا رحمة واسعة وأسكنه فسيح جناته، فلقد اجتهد وجاهد حتى يدفع الخور والجبن، ويقتل الإرجاف، ويزرع الأمل في قلوب المسلمين، ولا أحسب أن هذا الجهد والجهاد يذهب عند الله أبدا، ولعل ما بقي من شهامة ونخوة في قلوب فتية آمنوا بربهم فزادهم هدى، هم الذين يقفون لقوى البغي والظلم في أماكن كثيرة من وطننا العربي والإسلامي، لعل كتابات البنا ــ رحمه الله ــ بعد كتاب الله عز وجل وسنة رسوله ﷺ تكون سببا في صمودهم حتى تبقى للإسلام راية مرفوعة إلى أن يأذن الله بنصر مبين، تقر به أعين المسلمين، ويسألونك متى هو كل عسى أن يكون قريبا.

---

(1) مجموعة الرسائل، ص٣٠٦.

المبحث الثامن

حفظ الدين بمدافعة التحريف واتباع الهوى

أولاً : حفظ الدين بمدافعة التحريف :

من أخطر الأشياء التي تضيع الدين هو التحريف، الذي يبدو في البداية بسيطا لا يفطن إليه إلا من رزقه الله نورا يرى به الطريق المستقيم، ويعرف به الحق من الباطل مهما تلبس الباطل بصور براقة خادعة.

ولقد ابتليت الأمم السابقة، والديانات السماوية قبل الإسلام بهذا التحريف، حتى وصل بهم الأمر إلى طمس معالم الدين، واندراس أصوله ومعانيه في قلوب أتباعه، وحدث على كافة المستويات العقدية، والعبادية والاجتماعية والسياسية وغير ذلك.

يقول الله تعالى: ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلاَمَ اللّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ * وَإِذَا لَقُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ قَالُواْ آمَنَّا وَإِذَا خَلاَ بَعْضُهُمْ إِلَىَ بَعْضٍ قَالُواْ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة ٧٥ – ٧٦].

ويقول تعالى: ﴿ مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِن لَّعَنَهُمُ اللّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ [النساء : ٤٦].

أما اتباع الهوى فهو آفة الآفات، وقد يصور للإنسان الحق باطلا، والباطل حقا، والحلال حراما، والحرام حلالا، يقول الله تعالى: ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِيَ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث

ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٥-١٧٦].

ويقول الله تعالى : ﴿ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا * أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً ﴾ [الفرقان: ٤٣-٤٤].

ولقد سعى الإمام البنا ــ رحمه الله ــ بمقاومة التحريف، ودفعه سواء كان من الخارج أو من الداخل ففي رسالة إلى أي شيء ندعو الناس يقول : (كان المسلمون يفهمون هذا قديما ويعملون له ويحملهم إيمانهم على التضحية في سبيله، أما في هذه الأيام فقد تفرق المسلمون في فهم مهمتهم واتخذوا من التأويل والتعطيل سندا للقعود والكسل، فمن قائل يقول لك : مضى وقت الجهاد والعمل، وآخر يثبط همتك يقول لك بأن الوسائل معدومة والأمم الإسلامية مقيدة، وثالث رضي من دينه كلمات يلوكها لسانه صباح مساء، وقنع من عبادته بركعات يؤديها وقلبه هواء.

لا لا أيها الإخوان، القرآن يناديكم بوضوح وجلاء :

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ [الحجرات: ١٥]

وأما في السنة فيقول لكم الرسول: (إذا ضن الناس بالدينار والدرهم وتبايعوا بالعينة وتبعوا أذناب البقر وتركوا الجهاد في سبيل الله، أدخل الله تعالى عليهم ذلا لا يرفعه عنهم حتى يراجعوا دينهم)[1] رواه الأمام أحمد في مسنده، والطبراني في الكبير، والبيهقي في شعب الإيمان عن عبد الله بن عمر.

(1) رواه الأمام أحمد في مسند المكثرين من الصحابة، ح:٤٨١٠.

وأنتم تقرأون في كتب الفقه ما ألف منها قديما أو حديثا متى يكون الجهاد فرض كفاية ومتى يكون فرض عين، وتعلمون حقائق ذلك ومعناه حق العلم، فما هذا الخمول الذي ضرب بجدرانه ؟ وما هذا اليأس الذي قبض على القلوب فلا تعي ولا تفيق ؟ هذا أيها المسلمون عصر التكوين فكونوا أنفسكم وبذلك تتكون أمتكم .

إن هذه الفريضة تحتاج منكم نفوسا مؤمنة وقلوبا سليمة، فاعملوا على تقوية إيمانكم وسلامة صدوركم، وتحتاج منكم تضحية بالمال، والجهود فاستعدوا لذلك فإن ما عندكم ينفد وما عند الله باق، وإن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم جنة عرضها السموات والأرض[1].

ثم يتحدث في رسالة هل نحن قوم عمليون عن التحريف الذي لحق بتطبيق الأحكام الشرعية واستبدالها بالقوانين الوضعية فيقول: (وأما تطبيق أحكامه الدنيوية فقد استبدلها القوم بغيرها وأحلوا سواها محلها، وجعلوا تشريع الأجانب وما وضع الفرنسيون والرومان أساساً لتشريعهم ومصدراً لأحكامهم . وبذلك تعطلت أحكام كتاب الله وأصبحت بين المسلمين نسياً منسياً وفيها ــ علم الله ــ لهم كل خير لو كانوا يسمعون .. واكتفى المسلمون بعد هذا كله من القرآن الكريم بأن جعلوه تمائم لأمراضهم، وزينة لمجتمعاتهم، وسلوة في حفلهم وأفراحهم وأحزانهم . وليتهم إذ جعلوه كذلك أعطوه حقه بل تراهم في محله لاهين غافلين لاعبين منصرفين إلى اللغو والحديث واللهو العبث، والله تبارك وتعالى يقول : ﴿ وَإِذَا قُرِئَ القرآن فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الأعراف:٢٠٤].

كان القرآن فيما مضى زينة الصلوات، فأصبح اليوم زينة الحفلات، وكان قسطاس العدالة في المحاكم، فصار سلوة العابثين في المواسم، وكان واسطة العقد

(1) مجموعة الرسائل، ص٤٤-٤٥.

في الخطب والعظات فسار بواسطة العقد في الحلى والتميمات، أفلست محقاً حين قلت: ما رأيت ضائعاً أشبه بمحتفظٍ به من كتاب الله ! تناقض عجيب في هذا الموقف منا أمام القرآن : أننا نعظمه، ما في ذلك شك .. ونذوذ عنه، ما في ذلك شك .. ونتقرب إلى الله به ما في ذلك شك، ولكن ياقوم : أخطأتم طريق التعظيم، وتنكبتم سبيل الذود عنه، وضللتم عن جادة التقرب إلى الله به.

أليس من الإضاعة لكتاب الله أن ترى المراكز التي كان القرآن يعفي منها عدداً عظيماً من القرعة العسكرية صارت اليوم خلواً ممن يحفظه ويتقدم للمعافاه به؟

أوليس من الإضاعة لكتاب الله أن ترى الطالب يدخل الأزهر الشريف وهو يحفظه؛ لأن ذلك شرط دخوله، ثم يخرج منه وقد نسيه؛ لأن القرآن لم يشترط في إجازته بنهاية مدة تعليمه. فتراه إن خرج ليكون إماماً يصلى بالناس قصر بهم، وإن كان واعظاً استند إلى فقهاء الريف الحافظين في عظاته ودروسه، وإن كان محامياً أو قاضياً لجأ إلى المصحف في تصحيح الآيات التي يستشهد بها من كتاب الله ! إننا حقيقةً أضعنا كتاب الله وكأنه بيننا كتاب أثري لا يسري مفعوله ولا ينفذ حكمه، وهذا في الحقيقه أصل ما أصابنا من بلاء وشر .

وإذا علمت هذا أيها القارىء الكريم .. فاعلم أن الإخوان المسلمين يحاولون في جد أن يعودوا هم أولاً إلى كتاب الله، يتعبدون بتلاوته ويستنيرون في تفهم أقوال الأئمة الأعلام بأياته ويطالبون الناس بإنفاذ أحكامه ويدعون الناس معهم إلى تحقيق هذا الغاية التي هى أنبل غايات المسلم في الحياة، ولله الأمر من قبل ومن بعد)[1].

ثم يذكر في رسالة بين الأمس واليوم بعض مظاهر الحضارة الأوربية التي

(1) مجموعة الرسائل، ص٨٦-٨٧.

نجحت في زرعها في بلاد المسلمين فيقول :(من أهم الظواهر التي لازمت المدنية الأوروبية:

١- الإلحاد والشك في الله وإنكار الروح ونسيان الجزاء الأخروي والوقوف عند حدود الكون المادي المحسوس: ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴾ [الروم:٧].

٢- الإباحية والتهافت على اللذة والتفنن في الاستمتاع وإطلاق الغرائز الدنيا من عقالها، وإشباع شهوتي البطن والفرج، وتجهيز المرأة بكل صنوف المفاتن والمغريات، والإغراق في الموبقات إغراقا يحطم الأجسام والعقول ويقضي على نظام الأسر ويهدم سعادة البيوت: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوىً لَهُمْ ﴾ [محمد:١٢].

٣- الأثرة في الأفراد، فكل إنسان لا يريد إلا خير نفسه، وفي الطبقات، فكل طبقة تتعالى على من سواها وتود أن تحظى بالمغانم دونها، وفي الشعوب، فكل أمة تتعصب لجنسها وتنتقص غيرها وتحاول أن تلتهم من هي أضعف منها.

٤- الربا والاعتراف بشرعيته واعتباره قاعدة التعامل، والتفنن في صوره وضروبه وتعميمه بين الدول والأفراد.

وقد أنتجت هذه المظاهر المادية البحتة في المجتمع الأوروبي فساد النفوس، وضعف الأخلاق، والتراخي في محاربة الجرائم، فكثرت المشكلات، وظهرت المبادئ الهدامة، واشتعلت الثورات المخربة المدمرة، واضطربت النظم الاقتصادية والاجتماعية والسياسية فلم تستقر على حال، وتمزقت الدول بالطوائف والأحزاب، وتناحرت الشعوب على المطامع والأحقاد، وأثبتت هذه المدنية الحديثة عجزها التام عن تأمين المجتمع الإنساني، وإقرار الطمأنينة والسلام فيه، وفشلت في إسعاد

الناس، رغم ما فتحت عليهم من حقائق العلم والمعرفة، وما وفرت لهم من أسباب الغنى والثراء، وما مكنت لدولها في الأرض من قوة وسلطان ولما يمض عليها قرن كامل من الزمان)[1].

انتقال العدوى إلى معظم البلاد الإسلامية :

وهذا يمثل تحريفا للإسلام، وإضاعة لتعاليمه وقيمه، واستبدالها بقيم وأخلاقيات غير المسلمين يقول الإمام البنا ــ رحمه الله ــ :

(وقد عمل الأوروبيون جاهدين على أن تغمر موجة هذه الحياة المادية، بمظاهرها الفاسدة وجراثيمها القتالة، جميع البلاد الإسلامية التي امتدت إليها أيديهم، وأوقعها سوء الطالع تحت سلطانهم، مع حرصهم الشديد على أن يحتجزوا دون هذه الأمم عناصر الصلاح والقوة، من العلوم والمعارف والصناعات، والنظم النافعة، وقد أحكموا خطة هذا الغزو الاجتماعي، إحكامًا شديدًا، واستعانوا بدهائهم السياسي، وسلطانهم العسكري، حتى تم لهم ما أرادوا. أغروا كبار المسلمين بالاستدانة منهم والتعامل معهم، وسهَّلوا عليهم ذلك وهوَّنوه عليهم، واستطاعوا بذلك أن يكتسبوا حق التدخل الاقتصادي، وأن يغرقوا البلاد برؤوس أموالهم ومصارفهم وشركاتهم، وأن يديروا دولاب العمل الاقتصادي كما يريدون، وأن يستأثروا دون الأهلين بالأرباح الطائلة، والثروات العظيمة، وتمكنوا بعد ذلك من أن يغيروا قواعد الحكم والقضاء والتعليم، وأن يصبغوا النظم السياسية والتشريعية والثقافية بصبغتهم الخالصة في أقوى بلاد الإسلام.

وجلبوا إلى هذه الديار نساءهم الكاسيات العاريات، وخمورهم ومسارحهم ومراقصهم وملاهيهم، وقصصهم وجرائدهم، وروايـاتهم وخيالاتهم، وعبثهم ومجونهم، وأباحوا فيها من الجرائم ما لم يبيحوه في ديارهم، وزينوا هذه الدنيا

(1) مجموعة الرسائل، ص١٠٣-١٠٤.

الصاخبة العابثة، التي تعج بالإثم وتطفح بالفجور، في أعين البسطاء الأغرار من المسلمين الأغنياء، وذوي الرأي فيهم، وأهل المكان والسلطان.

ولم يكفهم هذا حتى أنشأوا المدارس والمعاهد العلمية والثقافية في عقر ديار الإسلام، تقذف في نفوس أبنائه الشك والإلحاد وتعلمهم كيف ينتقصون أنفسهم، ويحتقرون دينهم ووطنهم، وينسلخون من تقاليدهم وعقائدهم، ويقدسون كل ما هو غربي، ويؤمنون بأن ما يصدر عن الأوروبيين وحده هو المثل الأعلى في هذه الحياة.

واحتوت هذه المدارس على الطبقة العليا وحدها وصارت وقفاً عليها، وأبناء هذه الطبقة هم العظماء والحكام، ومن سيكون بيدهم بعد قليل مقاليد الأمور في هذه الأمم والشعوب، ومن لم يتم نضجه في هذه المعاهد الموضعية، فإن في البعثات المتلاحقة ما يكفل لهم التمام.

ونجح هذا الغزو الاجتماعي المنظم العنيف أعظم النجاح، فهو غزو محبب إلى النفوس، لاصق بالقلوب طويل العمر، قوي الأثر، وهو لهذا أخطر من الغزو السياسي والعسكري بأضعاف الأضعاف.

وتغالت بعض الأمم الإسلامية في الإعجاب بهذه الحضارة الأوربية والتبرم بصبغتها الإسلامية، حتى أعلنت تركيا أنها دولة غير إسلامية وتبعت الأوربيين بعنف قاس في كل ما يصنعون، وحاول ذلك أمان الله خان ملك الأفغان فطاحت تلك المحاولة بعرشه، وازدادت في مصر مظاهر هذا التقليد واستفحلت حتى استطاع رجل من ذوي الرأي فيها أن يجهر بأنه لا سبيل إلا الترقي إلا بأن نأخذ بهذه الحضارة خيرها وشرها وحلوها ومرها وما يحب منها وما يكره وما يحمد منها وما يعاب، وأخذت تنتقل في سرعة وقوة من مصر إلى ما جاورها من البلاد حتى وصلت إلى أقصى المغرب، وطوفت بالمشاعر المقدسة في ربوع الحجاز .

ونستطيع أن نقسم البلاد الإسلامية بحسب تأثرها بهذه الحضارة المادية وطغيان مادتها عليها إلى ثلاثة أقسام :

١- بلاد بلغ هذا التأثر مبلغا عظيما يصل إلى القلوب والمشاعر، كما غير الأوضاع والمظاهر، ومن هذه البلاد تركيا ومصر، فقد انحسر ظل الفكرة الإسلامية في هذه البلاد عن كل الأوضاع الاجتماعية، وطوردت الفكرة الإسلامية لتقبع في المساجد والزوايا والربط والتكايا .

٢- بلاد تأثرت بهذه الحضارة في أوضاعها ومظاهرها الرسمية، ولكنها لم تتغلب فيها على المشاعر القلبية كإيران وبلاد المغرب وشمال أفريقيا .

٣- بلاد لم تتأثر بهذه الحضارة فيها إلا طبقة خاصة من المثقفين والحكام دون العامة والدهماء كسوريا والعراق والحجاز وكثير من أجزاء الجزيرة العربية وبقية ممالك الإسلام) [1].

هزيمة عسكرية وهزيمة حضارية :

ثم يتحدث الإمام البنا ــ رحمه الله ــ عن أثر هذا الغزو الثقافي والحضاري فيقول: (نستطيع بعد ذلك أن نقول: إن الحضارة الغربية بمبادئها المادية، قد انتصرت في هذا الصراع الاجتماعي على الحضارة الإسلامية، بمبادئها القويمة الجامعة للروح والمادة معاً في أرض الإسلام نفسه، وفي حرب ضروس، ميدانها نفوس المسلمين، وأرواحهم وعقائدهم وعقولهم، كما انتصرت في الميدان السياسي والعسكري، ولا عجب في هذا، فإن مظاهر الحياة لا تتجزأ، والقوة قوة فيها جميعاً، والضعف ضعف فيها جميعاً كذلك: ﴿ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ﴾ [آل: عمران:١٤٠]، وإن كان مبادئ الإسلام وتعاليمه ظلت قوية في ذاتها فياضة

(1) مجموعة الرسائل، ص١٠٥-١٠٦.

بالخصب والحياة، جذابة أخاذة بروعتها وجمالها، وستظل كذلك، لأنها الحق ولن تقوم الحياة الإنسانية كاملة فاضلة بغيرها، ولأنها من صنع الله وفي حياطته: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر:٩]، ﴿ وَيَأْبَى اللهُ إِلا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ [التوبة:٣٢][1].

المنحة من رحم المحنة :

لكن الإمام البنا ــ رحمه الله ــ كعادته يرى أن هذه الهجمة الشرسة على المستوى العسكري والحضاري يمكنها أن تولد يقظة قوية لدى الشعوب الإسلامية فيقول:

وكما كان لذلك العدوان السياسي أثره في تنبيه المشاعر القومية، كان لهذا الطغيان الاجتماعي أثره في انتعاش الفكرة الإسلامية، فارتفعت الأصوات من كل مكان تطالب بالرجوع إلى الإسلام وتفهم أحكامه وتطبيق نظامه، ولابد أن يأتي قريبا ذلك اليوم الذي تندك فيه صروح هذه المدنية المادية على رؤوس أهلها، وحينئذ يشعرون بسعير الجوع الروحي تشتعل به قلوبهم وأرواحهم ولا يجدون الغذاء والشفاء والدواء إلا في تعاليم هذا الكتاب الكريم: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ، قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [يونس:٥٧-٥٨][2].

ثم يتحدث الإمام عن التحريف الناشيء عن عدم فهم الإسلام فهما شاملا، أو حصره في زاوية ضيقة، كأن يحسب الإسلام عبادة ظاهرة فقط، أو خلقا حميدا فحسب فيقول: (فمن الناس من لا يرى الإسلام شيئا غير حدود العبادة الظاهرة فإن أداها أو رأى من يؤديها اطمأن إلى ذلك ورضي به وحسبه قد وصل إلى لب

(1) مجموعة الرسائل، ص١٠٦.

(2) مجموعة الرسائل، ص١٠٤- ١٠٥.

الإسلام، وذلك هو المعنى الشائع عند عامة المسلمين.

ومن الناس من لا يرى الإسلام إلا الخلق الفاضل والروحانية الفياضة، والغذاء الفلسفي الشهي للعقل والروح، والبعد بهما عن أدران المادة الطاغية الظالمة.

ومنهم من يقف إسلامه عند حد الإعجاب بهذه المعاني الحيوية العملية في الإسلام فلا يتطلب النظر إلى غيرها ولا يعجبه التفكير في سواها.

ومنهم من يرى الإسلام نوع من العقائد الموروثة والأعمال التقليدية التي لا غناء فيها ولا تقدم معها، فهو متبرم بالإسلام وبكل ما يتصل بالإسلام، وتجد هذا المعنى واضحا في نفوس كثير من الذين ثقفوا ثقافة أجنبية ولم تتح لهم فرص حسن الاتصال بالحقائق الإسلامية فهم لم يعرفوا عن الإسلام شيئا أصلا، أو عرفوه صورة مشوهة بمخالطة من لم يحسنوا تمثيله من المسلمين.

وتحت هذه الأقسام جميعا تندرج أقسام أخرى يختلف نظر كل منها إلى الإسلام عن نظر الآخر قليلا أو كثيرا، وقليل من الناس أدرك الإسلام صورة كاملة واضحة تنتظم هذه المعاني جميعا)[1].

ثم يذكر الفهم الصحيح الذي يراه، ويراه الإخوان المسلمين فيقول: (نحن نعتقد أن أحكام الإسلام وتعاليمه شاملة تنتظم شؤون الناس في الدنيا والآخرة، وأن الذين يظنون أن هذه التعاليم إنما تتناول الناحية العبادية أو الروحية دون غيرها من النواحي مخطئون في هذا الظن، فالإسلام عقيدة وعبادة، ووطن وجنسية، ودين ودولة، وروحانية وعمل، ومصحف وسيف، والقرآن الكريم ينطق بذلك كله ويعتبره من لب الإسلام ومن صميمه ويوصي بالإحسان فيه جميعه، وإلى هذا تشير

(1) مجموعة الرسائل، ص١١٨- ١١٩.

الآية الكريمة : ﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ ﴾ [القصص:٧٧].

إلى جانب هذا يعتقد الإخوان المسلمون أن أساس التعاليم الإسلامية ومعينها هو كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، اللذان إن تمسكت بهما فلن تضل أبدا، وأن كثيرا من الآراء والعلوم التي اتصلت بالإسلام وتلونت بلونه تحمل لون العصور التي أوجدتها والشعوب التي عاصرتها، ولهذا يجب أن تستقي النظم الإسلامية التي تحمل عليها الأمة من هذا المعين الصافي معين السهولة الأولى، وأن نفهم الإسلام كما كان يفهمه الصحابة والتابعون من السلف الصالح رضوان الله عليهم، وأن نقف عند هذه الحدود الربانية النبوية حتى لا نقيد أنفسنا بغير ما يقيدنا الله به، ولا نلزم عصرنا لون عصر لا يتفق معنا.

وإلى جانب هذا أيضا يعتقد الإخوان المسلمون أن الإسلام كدين عام انتظم كل شؤون الحياة في كل الشعوب والأمم لكل الأعصار والأزمان، جاء أكمل وأسمى من أن يعرض لجزئيات هذه الحياة وخصوصا في الأمور الدنيوية البحتة، فهو إنما يضع القواعد الكلية في كل شأن من هذه الشؤون، ويرشد الناس إلى الطريق العملية للتطبيق عليها والسير في حدودها [1].

ثم يعود الإمام البنا ــ رحمه الله ــ ليحذر من تلك الموجة الغربية التي زحفت على العالم الإسلامي فيقول: (من الحق أن نعترف بأن موجة قوية جارفة، وتيارا شديدا دفاقا قد طغى على العقول والأفكار في غفلة من الزمن، وفي غرور من أمم الإسلام، وانغماس منهم في الترف والنعيم .. فقامت مبادئ ودعوات، وظهرت نظم وفلسفات، وتأسست حضارات ومدنيات، ونافست هذه كلها فكرة

(1) مجموعة الرسائل، ص١١٩-١٢١.

الإسلام في نفوس أبنائها، وغزت أممه في عقر دارها، وأحاطت بهم من كل مكان، ودخلت عليهم بلدانهم وبيوتهم ومخادعهم، بل احتلت قلوبهم وعقولهم ومشاعرهم، وتهيأت لها من أسباب الإغواء والإغراء والقوة والتمكن ما لم يتهيأ لغيرها من قبل، واجتاحت أمما إسلامية بأسرها، وانخدعت بها دول كانت في الصميم والذؤابة من دول الإسلام، وتأثر ما بقي تأثرا بالغا، ونشأ في كل الأمم الإسلامية جيل مخضرم، إلى غير الإسلام أقرب، تصدّر في تصريف أمورها واحتل مكان الزعامة الفكرية والروحية والسياسية والتنفيذية منها، فدفع بالشعوب مغافلة إلى ما يريد، بل إلى ما ألف وهي لا تدري ما يراد بها ولا ما تصير إليه، وارتفعت أصوات الدعاة إلى الفكرة الطاغية : أن خلصونا مما بقي من الإسلام وآثار الإسلام، وتقبلوا معنا راضين لا كارهين مستلزمات هذه الحياة وتكاليفها وأفكارها ومظاهرها، واطرحوا بقية الفكرة البالية من رؤوسكم ونفوسكم، ولا تكونوا مخادعين منافقين معاندين، تعملون عمل الغربيين وتقولون قول المسلمين.

من الحق أن نعرف أننا بعدنا عن هدي الإسلام وأصوله وقواعده، والإسلام لا يأبى أن نقتبس النافع وأن نأخذ الحكمة أنى وجدناها، ولكنه يأبى كل الإباء أن نتشبه في كل شيء بمن ليسوا من دين الله على شيء، وأن نطرح عقائده وفرائضه وحدوده وأحكامه، لنجري وراء قوم فتنتهم الدنيا واستهوتهم الشياطين)[1].

وفي رسالة دعوتنا في طور جديد يكتب الإمام البنا ــ رحمه الله ــ عن الصبغة الاستقلالية، والصبغة التقليدية فيقول: (نحن نريد الفرد المسلم، والبيت المسلم، والشعب المسلم، ولكنا نريد قبل ذلك أن تسود الفكرة الإسلامية حتى تؤثر في كل هذه الأوضاع وتصبغها بصبغة الإسلام، وبدون ذلك لن نصل إلى شيء، نريد أن نفكر تفكيراً استقلالياً يعتمد علي أساس الإسلام الحنيف لا علي أساس

(1) مجموعة الرسائل، ص١٨٩-١٩٠.

الفكرة التقليدية التي جعلتنا نتقيد بنظريات الغرب واتجاهاته في كل شيء، نريد أن نتميز بمقوماتنا ومشخصات حياتنا كأمة عظيمة مجيدة تجر وراءها أقدم وأفضل ما عرف التاريخ من دلائل ومظاهر الفخار والمجد.

لقد ورثنا هذا الإسلام الحنيف واصطبغنا به صبغة ثابتة قوية، تغلغلت في الضمائر والمشاعر ولصقت بحنايا الضلوع وشغاف القلوب ؛ واندمجت مصر بكليتها في الإسلام بكليته : عقيدته ولغته وحضارته ودافعت عنه وذادت عن حياضه وردت عنه عادية المعتدين، وجاهدت في سبيله ما وسعها الجهاد بمالها ودم أبنائها، وأنقذته من براثن التتار وأنياب الصليبيين، وردت الجميع على أعقابهم خاسرين، استقرت فيها علوم الإسلام ومعارفه، واحتوت الأزهر أقدم جامعة تقوم على حياطته ورعايته وحراسته، وانتهت إليها زعامة شعوبه الأدبية والاجتماعية، وصارت مطمح أنظار الجميع ومعقد آمالهم.

هذا الإسلام، عقيدته ونظمه ولغته وحضارته، ميراث عزيز غال على مصر ليس تفريطها فيه بالشيء الهين ولا إبعادها عنه بالأمر المستطاع مهما بذلت في سبيل ذلك الجهود الهدامة المدمرة. ومن هنا بدت مظاهر الإسلام قوية فياضة زاهرة دفاقة في كثير من جوانب الحياة المصرية : فأسماؤها إسلامية ولغتها عربية، وهذه المساجد العظيمة يذكر فيها اسم الله ويعلو منها نداء الحق صباح مساء، وهذه مشاعرنا لا تهتز لشيء اهتزازها للإسلام وما يتصل بالإسلام. كل ذلك حق، ولكن هذه الحضارة الغربية قد غزتنا غزواً قوياً عنيفاً بالعلم والمال، وبالسياسة والترف، والمتعة واللهو وضروب الحياة الناعمة العابثة المغرية التي لم نكن نعرفها من قبل. فأعجبنا بها، وركنا إليها، وأثر هذا الغزو فينا أبلغ الأثر وانحسر ظل الفكرة الإسلامية عن الحياة الاجتماعية في كثير من شؤونها الهامة، واندفعنا نغير أوضاعنا الحيوية ونصبغ معظمها بالصبغة الأوروبية، وحصرنا

سلطان الإسلام في حياتنا علي القلوب والمحاريب، وفصلنا عنه شؤون الحياة العملية، وباعدنا بينه وبينها مباعدة شديدة وبهذا أصبحنا نحيا حياة ثنائية متذبذبة أو متناقضة.

الإسلام بما فيه من روعة وجلال، وبسلطانه الساحر العذب الجذاب، وأصوله الثابتة المدعمة القوية، وحجته البالغة يجذب إليه القلوب والمشاعر، ويجعلنا نحن المؤمنين به في حنين دائم إليه . وهذه الحياة الغربية بما تحتويه من مباهج ومفاتن وبما لها من مظاهر القوة المادية تحاول أن تسيطر وتهيمن علي ما بقي لنا من شؤوننا الحيوية. هذا وضع مشاهد ملموس يراه ويعلمه كل ما يعنيه أمر هذه الأمة، ولا بد أن ينتهي هذا التذبذب إلى استقرار ولابد أن يتغلب أحد الجانبين علي الآخر فلكل شيء نهاية !.

فنحن الإخوان المسلمين نشفق كل الإشفاق من أن تكون هذه النهاية هي التحلل مما بقي من مظاهر الإسلام والانغماس الكلي في الحياة الغربية بكل مظاهرها، ولقد ارتفعت بذلك صيحات وقامت علي قواعده دعوات، وسبقتنا إليه شعوب وحكومات، وإن كان ذلك كله قد خفت وطأته الآن أمام ما يقاسي العالم كله من محن وويلات.....)[1]،

ثم يرصد الإمام ــ رحمه الله ــ مظاهر هذا التحول فيقول : (أما أثر هذا التذبذب في مظاهر حياتنا العملية فكبير واضح، ولعله مصدر كثير من المشكلات في التعليم والقضاء، وفى حياة الأسرة وفى منابع الثقافة العامة وفى غير ذلك من الشؤون العامة، هل هناك أمة غير مصر يسير التعليم فيها من أول خطواته على هذين اللونين من ألوان التربية، فهناك التعليم الديني يتصل بنصف الأمة وينتهي إلى

(1) مجموعة الرسائل، ص٢٣٧-٢٣٨.

الأزهر ومعاهدة وكلياته، وهناك التعليم المدني يتصل بالنصف الثاني ويتميز كل منها بخواصه ومميزاته ؟ وهل لذلك من سبب سوى أن السلسلة الأولى هي أثر الإسلام الباقي في نفوس هذه الأمة وأن السلسلة الثانية هي نتاج مجاراة الغرب والأخذ عنه، فما الذي يمنع من توحيد التعليم في مراحله الأولى على أساس التربية القومية الإسلامية ثم يكون بعد ذلك التخصص؟ وهل هناك أمة غير مصر ينقسم فيها القضاء إلى شرعي وغير شرعي كما ينقسم القضاء المصري وهل لذلك سبب سوى أن القضاء الأول أثر الإسلام في الحياة المصرية والثاني وليد النقل عن الغرب والأخذ عنه، وما الذي يمنع من أن تتوحد المحكمة على أساس اعتبار الشريعة الإسلامية هي شريعة البلاد ومصدر التقنين ؟

وهذه البيوت المصرية، ألسنا نلمح فيها أثر هذه الحياة المذبذبة المتناقضة، فكثير من الأسر المصرية لا تزال شديدة المحافظة على ما ورث من تعاليم الإسلام وآدابه في الوقت الذي انسلخ فيه الكثير عن هذه التعاليم وخرج على هذه الآداب وغلبت عليه نزعة التقليد في كل شيء بل جاوز بعضنا ذلك الحد حتى صار غريبا أكثر من الغربيين.

ولا بد من وضع حد لهذا التفاوت الغريب حتى نظفر بالأمة الموحدة، فبدون الوحدة لا تتحقق نهضة ولا تحيا أمة حياة الكمال)[1].

وفي رسالة نحو النور يحث الإمام ــ رحمه الله ــ الملوك والرؤساء والحكام إلى المسارعة باختيار الإسلام لوقاية شعوبهم من الدعوات الوافدة والمذاهب الهدامة فيقول : (تأمل المبادئ الجديدة والدعوات الجديدة أن تنفذ إلى مصر، وتكافح في سبيل استيلائها على النفوس المصرية والقلوب المصرية أشد الكفاح وتسلك إلى ذلك

(1) مجموعة الرسائل، ص٢٣٩.

كل سبيل مستطاع وغير مستطاع ومن هنا سمعنا كثيرا من هذه الأصوات يتردد في الصحف السيارة وفى المجالس والمنتديات، فالشيوعية جادة في فرض تعاليمها على أبناء هذا المجتمع، والديمقراطية الاستعمارية الهزيلة تحاول من جانبها أن تقاوم هذا التيار، ويتوسطهم قوم داعون للاشتراكية، ويقف الإسلام العتيد المستقر في هذه القلوب أربعة عشر قرنا،المستولى عليها، المؤثر فيها بجماله وجلاله وسموه وروعته، يأبى على الجميع أن ينزل عن مرتبته أو يتخلى عن هذه القلوب التي أمنت به وجاهدت أكرم الجهاد في سبيل إعلائه وبقائه ورفعته وردت عنه بهذا الجهاد غارات الصليبيين وهجمات التتار ومكايد الصهيونية : ﴿ وَاللهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف:٢١].

ولكن إلى متى هذا التطاحن بين هذه الآراء والأوضاع، وهو إن كان اليوم صغيرا فهو لن يظل كذلك ؟!

وإلى متى ينظر أهل الرأي في مصر إلى هذا الصراع في غفلة وبله وانصراف كأن الأمر لا يعنيهم، وكأنه يتناول بلدا غير بلدهم وأشخاصا غير أشخاصهم ؟!.. لا مناص لنا من أن نختار.

وإذا لم نختر اليوم ونحن راضون، فسنقبل غدا – بل الغد القريب جدا – ونحن مرغمون، وإني لأرى الوميض خلال الرماد ويوشك أن يكون له ضرام.

لابد من أن نختار لون الحياة الجديدة التي نحياها، ولم تعد أوضاع الحياة الاجتماعية بكل نواحيها في مصر صالحة أمام التطور الجديد في الأخلاق والأفكار وحاجات الناس، والعاقل من تدبر الأمر قبل وقوعه وأعد له عدته .

وأمامنا الشيوعية والاشتراكية، وهما معتبرتان في منطق التحالف الدولي اليوم من معاني الديمقراطية، ولا يستطيع الديمقراطيون أن يقدموا غير هذا. وأمامنا

كذلك (نظام الإسلام) وتوجيه الإسلام، وتعاليم الإسلام، وأحكام الإسلام.

ونحن في الحقيقة لسنا مخيرين ولسنا أحرارا في الاختيار، فإننا جميعا آمنا بهذا الإسلام الحنيف دينا ودولة، واعتبرنا مصر دولة إسلامية، بل هي زعيمة دول الإسلام. وقال دستورنا صراحة "دين الدولة الرسمي الإسلام ولغتها اللغة العربية".

وهذا الشعب – شعب وادي النيل كله في الشمال والجنوب – يدين بهذا الدين الحنيف، والأقلية غير المسلمة من أبناء هذا الوطن تعلم تمام العلم كيف تجد الطمأنينة والأمن والعدالة والمساواة التامة في كل تعاليمه وأحكامه، هذا الذى يقول كتابه: ﴿ لا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ [الممتحنة:٨].

والكلام في هذا المعنى مفروغ منه، وهذا التاريخ الطويل العريض للصلة الطيبة الكريمة بين أبناء هذا الوطن جميعا – مسلمين وغير مسلمين – يكفينا مؤونة الإفاضة والإسراف، فإن من الجميل حقا أن نسجل لهؤلاء المواطنين الكرام أنهم يقدرون هذه المعاني في كل المناسبات، ويعتبرون الإسلام معنى من معاني قوميتهم وإن لم تكن أحكامه وتعاليمه من عقيدتهم.

وإذاً لا مناص للحكومة المصرية والهيئات المصرية والأحزاب المصرية من أن تفي بعهدها الشرعي لله ولرسوله يوم نطقت بالشهادتين فالتزمت الإسلام، وبعهدها المدني الوطني لهذا الشعب يوم أصدرت الدستور، ونصت فيه على أن الدين الرسمي هو الإسلام، وبغير ذلك تكون قد غدرت بعهدها، وخانت أمانة الله والناس عندها، وعليها أن تصارح الشعب ليحدد موقفه منها وموقفها منه، ولا محل اليوم للمداورة والخداع.

وهذا الوفاء سيحمى الوطن مما يهدده من أخطار اجتماعية داهمة، ويعيد

الطمأنينة والسكينة إلى النفوس والقلوب، لكنه يستلزم حالا تغيير الاتجاهات والأوضاع كلها والمجاهرة بأن وادي النيل هو حامل رسالة الإسلام ومنفذها ومبلغها فى غير مواربة ولا وهن، ولا يغنى عن العمل الكلام.

فهل تصيخ الآذان المغلقة إلى هذا النذير، فتعود إلى حجر الإسلام قولا وعملا وتطبيقا ؟ ﴿ فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً ﴾ (النساء:٦٥).

يا دولة رئيس الحكومة.

ويا رجال الأزهر الشريف.

ويا رؤساء الهيئات والجماعات والأحزاب.

ويا أيها الغيور على مصلحة هذا الوطن العزيز.

ويا أبناء هذا الوطن جميعا.

إليكم أوجه النداء، فإلى تعاليم الإسلام، (صِبْغَةَ اللهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ) (البقرة:١٣٨) .

ألا قد بلغت ... اللهم فاشهد[1].

مفهوم رجل الدين في الإسلام :

ثم يذكر الإمام في الرسالة السابقة (رسالة نحو النور) أن أخطاء بعض رجال الدين ليس مسوغا أن نتهم الدين نفسه، فالفرق واضح بين رجل الدين الذي يصيب ويخطأ، وبين الدين الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ثم يذكر المفهوم الصحيح لرجل الدين في الإسلام، وهو يختلف اختلافا جذريا عن مفهوم

(1) مجموعة الرسائل، ص٣٠١ -٣٠٣.

رجل الدين عند الغرب، ويقطع الطريق أمام من يريدون اتباع الغرب حتى يخرجوا من قبضة رجال الدين لأنهم دون المستوى اللائق فيقول : (ومن المبررات التي اتخذها بعض الذين سلكوا سبيل الغربيين، أنهم أخذوا يشهّرون بمسلك رجال الدين المسلمين من حيث موقفهم المناوئ للنهضة الوطنية، وتجنيهم على الوطنيين ومماألتهم للغاصبين وإيثارهم المنافع الخاصة والمطامع الدنيوية على مصلحة البلد والأمة، وذلك إن صح فهو ضعف من رجال الدين أنفسهم لا في الدين ذاته، وهل يأمر الدين بهذا؟!، وهل يمليه سيرة الأجلاء الأفاضل من علماء الأمة الإسلامية؟! الذين كانوا يقتحمون على الملوك والأمراء أبوابهم وسدودهم، فيقرعونهم ويأمرونهم وينهونهم ويرفضون أعطياتهم ويبيّنون لهم الحق ويتقدمون إليهم بمطالب الأمة، بل ويحملون السلاح في وجوه الجور والظلم، وما نسي التاريخ بعد كتيبة الفقهاء في صف ابن الأشعث في شرق الدولة الإسلامية، ولا ثورة القاضي بن يحيى الليثي المالكي في غربها.

هذه تعاليم الدين وهذا ماضي رجاله من فقهاء المسلمين فهل فيه شيء من هذا الذي يزعمون؟ وهل من الإنصاف أن يتحمل الدين تبعة رجال انحرفوا عنه؟

على أن هذه المزاعم إن صحت في قوم فليست صحيحة للجميع، وإن وقعت لظرف خاص فليست تساير كل الظروف، وهذا تاريخ النهضات الحديثة في الشرق حافل بمواقف رجال الدين المسلمين في كل أمة من الأمم، وما موقف الأزهر في مصر والمجلس الأعلى في سوريا الجنوبية (فلسطين) وسوريا الشمالية (لبنان) ومولانا أبي الكلام وإخوانه من جلة العلماء الهند وزعماء المسلمين في إندونيسيا بمنسي ولا ببعيد، فتلك إذاً مزاعم يجب ألا تتخذ ذريعة لتحويل الأمة عن دينها باسم الوطنية المجردة، أو ليس الأنفع للأمة أن تصلح رجال الدين وتصطلح عليهم بدلا من أن تقف منهم الموقف المبيد.

على أن هذه التعبيرات التي سرت إلينا تقليدا ومنها (رجال الدين) لا تنطبق ولا تتفق مع عرفنا، فإنها إن كانت مع الغرب خاصة (بالأكليروس)، فأنها في العرف الإسلامي تشمل كل مسلم، فالمسلمون جميعا من أصغرهم لأكبرهم رجال دين)[1].

ولعل ما كتبه الإمام البنا في أركان البيعة، خاصة ركن الفهم ما يحفظ الدين من التحريف حيث وضع لهذا البند عشرين أصلا (تعصم من الخطأ فيه والانحراف عنه والمساومة عليه، والخديعة بغيره) على حد تعبيره رحمه الله.

ثانيًا : حفظ الدين بمتابعة الهوى :

أما حفظ الدين بمدافعة الهوى فلقد كان حريصا عليها، ونشأ هذا الحرص من انفتاحه على الآخرين، واختياره القرآن الكريم والسنة المطهرة مرجعا لكل مسلم في فهم الأحكام الفقهية، فهو لم يؤسس جماعة كي تنسب إليه، وتتغنى بأفكاره وآراءه التي اخترعها اختراعا، وابتدعها على غير مثال سابق، لكنه كان شديد الحرص على ربط المسلمين بكتاب ربهم عز وجل وسنة نبيهم ﷺ.

كما لم ينسب هذه الجماعة لاسمه، أو نسبها غيره إليه، فهي ليست جماعة البنا، بل هي جماعة من المسلمين، كما أنها أيضا ليست جماعة المسلمين، وغيرهم غير مسلم، لكنه أفسح المجال لغيره، وتعاون مع كل العاملين في الحقل الدعوي وقتها، وكثيرا ما حارب التمزق والفرقة بين العاملين في الحقل الإسلامي.

كما أن من يطالع فتاوى البنا ــ رحمه الله ــ وقد جمعت في كتاب مستقل، ــ وهي بحاجة لدراسة خاصة لعل الله يهيء من الأسباب ما يجعلنا ننال شرف دراستها ــ لا يجد شذوذا، ولا تجاوزا لآراء الفقهاء، نعم كانت له نظرته، وله

(1) مجموعة الرسائل، ص٢٨٨-٢٨٩.

اجتهاده لكنه الاجتهاد المؤسس على النظر العميق في النصوص سواء كانت نصوصا مقدسة متمثلة في القرآن والسنة، أو اجتهادات للفقهاء رحمة الله عليهم، والنظر في الواقع الذي تنزل فيه الفتوى.

والذي يطالع تاريخ الحركة الإسلامية بعد وفاة الإمام البنا ــ رحمه الله ــ وبعد الهجمة الشرسة على هذا التيار المعتدل الوسطي، التي كادت أن تقضي عليه، وتقتلعه من الواقع العربي والإسلامي لولا حفظ الله وعنايته، وكان من نتيجة هذا أن نشأت جماعات وتنظيمات بعضها كان يمثل خروجا على الجماعة الأم، وبعضها نشأ بداية جديدة نظرا لظروف الواقع، أقول الذي يقرأ هذا التاريخ يرى الفرق بين ما فعله البنا من ربط أفراد هذه الجماعة بالثوابت في القرآن والسنة واجتهادات السلف الصالح، وبين ارتباط الجماعات الأخرى بزعمائها الذين أباحوا لهم دماء الناس وأعراضهم وأمواله باسم الدين فاستباحوها دون علم أو فكر أو نظر، ولذلك ضعفت هذه الجماعات أو انتهت بموت زعمائها.

ولعل هذا من الأسباب القوية وراء صمود الجماعة لأكثر من ثمانين عاما تعرضت فيها لصدمات عنيفة من الداخل والخارج، لكنها لم تنقسم على نفسها، ولم يأكل بعضها بعضا.

ففي بداية رسالة دعوتنا يقسم الناس وموقفهم من دعوة الإخوان إلى أربعة أقسام فيقول: (وكل الذي نريده من الناس أن يكونوا أمامنا واحدا من أربعة :

مؤمن :

إما شخص آمن بدعوتنا وصدق بقولنا وأعجب بمبادئنا، ورأى فيها خيرا اطمأنت إليه نفسه، وسكن له فؤاده، فهذا ندعوه أن يبادر بالانضمام إلينا والعمل

معنا حتى يكثر به عدد المجاهدين ويعلوا بصوته صوت الداعين، ولا معنى لإيمان لا يتبعه عمل، ولا فائدة في عقيدة لا تدفع صاحبها إلى تحقيقها والتضحية في سبيلها، وكذلك كان السابقون الأولون ممن شرح الله صدورهم لهدايته فاتبعوا أنبيائه وآمنوا برسالاته، وجاهدوا فيه حق جهاده، ولهؤلاء من الله أجزل الأجر وأن يكون لهم مثل ثواب من اتبعوهم لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا.

متردد :

وإما شخص لم يستبين وجه الحق، ولم يتعرف في قولنا معنى الإخلاص والفائدة، فهذا نتركه لتردده ونوصيه بأن يتصل بنا عن كثب، ويقرأ عنا من قريب أو بعيد، ويطالع كتاباتنا ويزور أنديتنا ويتعرف إلى إخواننا، فسيطمئن بعد ذلك لنا إن شاء الله، وكذلك كان شأن المترددين من أتباع الرسل من قبل .

نفعي :

وإما شخص لا يريد أن يبذل معونته إلا إذا عرف ما يعود عليه من فائدة وما يجره هذا البذل له من مغنم فنقول له : حنانيك ليس عندنا من جزاء إلا ثواب الله إن أخلصت، والجنة إن علم فيك خيرا، أما نحن فمغمورون جاها فقراء مالا، شأننا التضحية بما معنا وبذل ما في أيدينا، ورجاؤنا رضوان الله سبحانه وتعالى وهو نعم المولى ونعم النصير، فإن كشف الله الغشاوة عن قلبه وأزاح كابوس الطمع عن فؤاده فسيعلم أن ما عند الله خير وأبقى، وسينضم إلى كتيبة الله ليجود بما معه من عرض الحياة الدنيا لينال ثواب الله في العقبى، وما عندكم ينفد وما عند الله باق، وإن كانت الأخرى فالله غني عمن لا يرى لله الحق الأول في نفسه وماله ودنياه وآخرته وموته وحياته، وكذلك كان شأن قوم من أشباهه حين أبوا مبايعة رسول الله ﷺ إلا أن يجعل لهم الأمر من بعده، فما كان جوابه ﷺ إلا أن أعلمهم أن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده، والعاقبة للمتقين.

متحامل :

وإما شخص أساء فينا ظنه وأحاطت بنا شكوكه، فهو لا يرانا إلا بالمنظار الأسود القاتم، ولا يتحدث عنا إلا بلسان المتحرج المتشكك، ويأبى إلا أن يلج في غروره، ويسدر في شكوكه ويظل مع أوهامه، فهذا ندعو الله لنا وله أن يرينا الحق حقا ويرزقنا اتباعه والباطل باطلا ويرزقنا اجتنابه، وأن يلهمنا وإياه الرشد، ندعوه إن قبل الدعاء وناديه إن أجاب النداء وندعو الله فيه وهو أهل الرجاء، ولقد أنزل الله على نبيه الكريم في صنف من الناس : ﴿ إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ [القصص:٥٦].

وهذا سنظل نحبه ونرجو فيئه إلينا واقتناعه بدعوتنا، وإنما شعارنا معه ما أرشدنا إليه المصطفى ﷺ من قبل : (اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون)[1].

فنحن نرى هنا أن الإمام ــ رحمه الله ــ قد ربط الأصناف الأربعة بالله تعالى، أما **المؤمن** فحثه على العمل والبذل(ولا معنى لإيمان لا يتبعه عمل، ولا فائدة في عقيدة لا تدفع صاحبها إلى تحقيقها والتضحية في سبيلها)، وهذا أجره على الله تعالى (ولهؤلاء من الله أجزل الأجر وأن يكون لهم مثل ثواب من اتبعوهم لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا).

والمتردد يطلب منه أن يتصل بهم ويعرف عنهم أكثر، ويخبره أن هذا شأن المترددين من أتباع الرسل.

والنفعي يخبره أن هذه دعوة ربانية لا تملك له نفعا ولا ضر (حنانيك ليس عندنا من جزاء إلا ثواب الله إن أخلصت، والجنة إن علم فيك خيرا، أما نحن

(1) مجموعة الرسائل، ص١٤-١٥، والحديث رواه البخاري كتاب أحاديث الأنبياء باب حديث الغار، ح:٣٤٧٧؛ ومسلم كتاب الجهاد والسير باب غزوة أحد، ح:١٧٩٢.

فمغمورون جاها فقراء مالا، شأننا التضحية بما معنا وبذل ما في أيدينا، ورجاؤنا رضوان الله سبحانه وتعالى وهو نعم المولى ونعم النصير).

والمتحامل لا يملك له إلا الدعاء (فهذا ندعو الله لنا وله أن يرينا الحق حقا ويرزقنا اتباعه والباطل باطلا ويرزقنا اجتنابه، وأن يلهمنا وإياه الرشد، ندعوه إن قبل الدعاء وناديه إن أجاب النداء وندعو الله فيه وهو أهل الرجاء).

فهو يريد أن يخلص الدعوة من كل هوى.

الاعتذار للمخالف والتماس العذر له ينافي اتباع الهوى :

ثم يعتذر الإمام البنا لمخالفيه، لأنه يوقن أن جمع الناس على كلمة سواء في الفروع أمر متعذر إن لم يكن مستحيلا، وبالتالي إلغاء الآخرين، واحتكار الحق أمر لا يقول به أصحاب الدعوات الربانية يقول الإمام البنا : (نعتقد هذا فنلتمس العذر لمن يخالفوننا في بعض الفرعيات، ونرى أن هذا الخلاف لا يكون أبدا حائلا دون ارتباط القلوب وتبادل الحب والتعاون على الخير، وأن يشملنا وإياهم معنى الإسلام السابغ بأفضل حدوده، وأوسع مشتملاته، ألسنا مسلمين وهم كذلك؟ وألسنا نحب أن ننزل على حكم اطمئنان نفوسنا وهم يحبون ذلك؟ وألسنا مطالبين بأن نحب لإخواننا ما نحب لأنفسنا ؟ ففيم الخلاف إذن ؟ ولماذا لا يكون رأينا مجالا للنظر عندهم كرأيهم عندنا ؟ ولماذا لا نتفاهم في جو الصفاء والحب إذا كان هناك ما يدعو إلى التفاهم ؟

هؤلاء أصحاب رسول الله ﷺ كان يخالف بعضهم بعضا في الإفتاء فهل أوقع ذلك اختلافا بينهم في القلوب؟ وهل فرق وحدتهم أو فرق رابطتهم؟ اللهم لا وما حديث صلاة العصر في قريظة ببعيد.

وإذا كان هؤلاء قد اختلفوا وهم أقرب الناس عهدا بالنبوة وأعرفهم بقرائن

الأحكام، فما بالنا نتناحر في خلافات تافهة لا خطر لها؟ وإذا كان الأئمة وهم أعلم الناس بكتاب الله وسنة رسوله قد اختلف بعضهم مع بعض وناظر بعضهم بعضا، فلِمَ لا يسعنا ما وسعهم؟ وإذا كان الخلاف قد وقع في أشهر المسائل الفرعية وأوضحها كالأذان الذي ينادى به خمس مرات في اليوم الواحد، ووردت به النصوص والآثار، فما بالك في دقائق المسائل التي مرجعها إلى الرأي والاستنباط؟

وثم أمر آخر جدير بالنظر، إن الناس كانوا إذا اختلفوا رجعوا إلى (الخليفة) وشرطه الإمامة، فيقضي بينهم ويرفع حكمه الخلاف، أما الآن فأين الخليفة؟ وإذا كان الأمر كذلك فأولى بالمسلمين أن يبحثوا عن القاضي، ثم يعرضوا قضيتهم عليه، فإن اختلافهم من غير مرجع لا يردهم إلا إلى خلاف آخر.

يعلم الإخوان المسلمون كل هذه الحيثيات، فهم لهذا أوسع الناس صدرا مع مخالفيهم، ويرون أن مع كل قوم علما، وفي كل دعوة حقا وباطلا، فهم يتحرون الحق ويأخذون به، ويحاولون في هوادة ورفق إقناع المخالفين بوجهة نظرهم. فإن اقتنعوا فذاك، وإن لم يقتنعوا فإخوان في الدين، نسأل الله لنا ولهم الهداية.

ذلك منهاج الإخوان المسلمين أمام مخالفيهم في المسائل الفرعية في دين الله يمكن أن أجمله لك في أن الإخوان يجيزون الخلاف، ويكرهون التعصب للرأي، ويحاولون الوصول إلى الحق، ويحملون الناس على ذلك بألطف وسائل اللين والحب)[1].

وفي رسالة المؤتمر الخامس يتحدث الإمام عن النفس وكيف عني الإسلام بها عناية فائقة، لأنها مكمن الهوى، فإن انصلحت انصلح بصلاحها أعمال كثيرة فيقول: (عني الإسلام عناية تامة بعلاج النفس الإنسانية وهي مصدر النظم ومادة التفكير

(1) مجموعة الرسائل، ص٢٦-٢٧.

والتصوير والتشكل، فوصف لها من الأدوية الناجعة ما يطهرها من الهوى ويغسلها من أضرار الغرض والغاية ويهديها إلى الكمال والفضيلة، ويزجرها عن الجور والقصور والعدوان، وإذا استقامت النفس وصفت فقد أصبح كل ما يصدر عنها صالحا جميلا، يقولون إن العدل ليس في نص القانون، ولكنه في نفس القاضي، وقد تأتي بالقانون الكامل العادل إلى القاضي ذي الهوى والغاية فيطبقه تطبيقا جائرا لا عدل معه، وقد تأتي بالقانون الناقص والجائر إلى القاضي الفاضل العادل البعيد عن الأهواء والغايات فيطبقه تطبيقا فاضلا عادلا فيه كل الخير والبر والرحمة والإنصاف، ومن هنا كانت النفس الإنسانية محل عناية كبرى في كتاب الله، وكانت النفوس الأولى التي صاغها هذا الإسلام مثال الكمال الإنساني، ولهذا كله كانت طبيعة الإسلام تساير العصور والأمم، وتتسع لكل الأغراض والمطالب، ولهذا أيضا كان الإسلام لا يأبى أبدا الاستفادة من كل نظام صالح لا يتعارض مع قواعده الكلية وأصوله العامة)[1].

ثم يتحدث الإمام البنا ــ رحمه الله ــ في رسالة المؤتمر الخامس عن خصائص دعوة الإخوان، فيقول تحت عنوان البعد عن مواطن الخلاف: (فأما البعد عن مواطن الخلاف الفقهي؛ فلأن الإخوان يعتقدون أن الخلاف في الفرعيات أمر ضروري لابد منه، إذ أن أصول الإسلام آيات وأحاديث وأعمال تختلف في فهمها وتصورها العقول والأفهام، لهذا كان الخلاف واقعاً بين الصحابة أنفسهم ومازال كذلك، وسيظل إلى يوم القيامة، وما أحكم الإمام مالك (ﷺ) حين قال لأبي جعفر وقد أراد أن يحمل الناس على الموطأ: "إن أصحاب رسول الله ﷺ تفرقوا في الأمصار وعند كل قوم علم، فإذا حملتهم على رأي واحد تكون فتنة"، وليس العيب في الخلاف ولكن العيب في التعصب للرأي والحجر على عقول الناس وآرائهم،

(1) مجموعة الرسائل، ص١٢١.

هذه النظرة إلى الأمور الخلافية جمعت القلوب المتفرقة على الفكرة الواحدة، وحسب الناس أن يجتمعوا على ما يصير به المسلم مسلماً كما قال زيد (ﷺ) وكانت هذه النظرة ضرورية لجماعة تريد أن تنشر فكرة في بلد لم تهدأ بعد فيه ثائرة الخلاف على أمور لا معنى للجدل ولا للخلاف فيها)[1].

(1) مجموعة الرسائل، ص١٢٤.

المبحث التاسع
حفظ الدين بمقاومة الاستبداد

الاستبداد سواء كان خارجيا متمثلا في الاستعمار، أو داخليا نابعا من الحكومات الدكتاتورية من الأسباب التي تؤدي إلى ضياع الدين، فالاستبداد الخارجي يأتي ومعه منظومة من القيم والأخلاق والعقائد يريد أن يفرضها بالقوة على الدول التي استعمرها، والاستبداد الداخلي يضعف الانتماء للأوطان، وقد يتعدى هذا إلى فقد الانتماء للدين، وفي التاريخ المعاصر رأينا بعض الشعوب التي ترتمي في أحضان الاستعمار دون مقاومته بسبب الظلم الواقع عليها من الداخل، وصدق أمير المؤمنين عمر بن الخطاب عندما كان يوصي ولاته على الأمصار فيقول: لا تضربوا الرعية فتذلوهم، ولا تجيعوهم فتكفروهم !!.

ولعل هذا ما عناه المفكر الإسلامي مالك بن نبي ــ رحمه الله ــ في حديثه عن قابلية الشعوب للاستعمار.

ولله درّ الشاعر حيث يقول :

لن أزود الطير عن شجر قد بلوت المر من ثمره

والاستبداد الداخلي أشد على الشعوب، وأخطر على الدين من الاستبداد الخارجي، حيث إن الاستبداد الخارجي قد يحفز الناس إلى الثورة، ويحثهم على الوحدة والترابط لمقاومة الخطر القادم من الخارج، أما الاستبداد الداخلي فيضيع كل معاني النخوة والمرؤة.

يقول فضيلة العلامة الأستاذ الدكتور يوسف القرضاوي في كتابه فقه الجهاد:

(إن خطر الفساد الداخلي إذا تفاقم: يشكل خطرا جسيما وشرا كبيرا على الأمة، ولهذا يعتبر الإسلام الجهاد ضدَّ الظلم والفساد في الداخل مقدَّما على الجهاد

ضدَّ الكفر والعدوان من الخارج. فإن الفساد الداخلي كثيرا ما يكون ممهِّدا للعدوان الخارجي، كما تدلُّ على ذلك أوائل سورة الإسراء، إذ قصَّت علينا ما وقع لبني إسرائيل حين أفسدوا في الأرض مرتين، وعلَوا (طغَوا) علوًّا كبيرا، ولم يجدوا بينهم مَن ينهى عن هذا الفساد أو يقاوِمه، فسلَّط الله عليهم أعداء من الخارج، يجوسون خلال ديارهم، ويدمِّرون عليهم معابدهم، ويحرقون توراتهم، ويسومونهم سوء العذاب، ويتبِّرون ما علَوا تتبيرا، وكان وعد الله مفعولا.

ومن هنا رأينا الفساد والانحلال، مقدمة للغزو والاحتلال، وقد هدَّدهم بمثل هذه العقوبات القدرية إذا وقع منهم مثل ذلك الإفساد في المستقبل، وذلك في قوله تعالى: ﴿ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا ﴾ [الإسراء:٨]، أي إن عُدتم إلى الطغيان والعلو والإفساد عُدنا عليكم بتسليط الأعداء(١).

وهذا فقه عميق، وفهم دقيق من فضيلة الشيخ حيث جعل جهاد الظلم والظالمين من الجهاد في سبيل الله تعالى، وهو مقدم على جهاد الكفار والمشركين، لأنه أعظم خطرا، وأبلغ أثرا في تأخر الأمة وضياعها من جهاد الخارج، لأن الظلم إذا أتي من الخارج ولد في جسد الأمة روح المقاومة والاستبسال، ومقاومة الكفر والظلم، وسرعان ما تستعيد قوتها، وتسترد عافيتها، وتتوحد كلمتها، وتجتمع قلوبها.

أما ظلم وفساد الداخل فهو كالسوس الذي ينخر في جسد الأمة فيتلفه، وهو كالسرطان لا يشعر به الجسد إلا بعد فوات الأوان.

وقد حارب الإمام البنا ــ رحمه الله ــ في الجبهتين معا، جبهة الظلم والاستبداد الداخلي، وجبهة الظلم والاستبداد الخارجي ففي رسالة بين الأمس واليوم يتحدث عن الصراع السياسي، وحرص الدول الغربية على استعمارنا للاستيلاء

(1) فقه الجهاد، ص١٧١، ومراجعه.

على ثرواتنا، واستعبادنا فيقول بعد أن يذكر عوامل التحلل في كيان الدولة الإسلامية: (أخذت هذه العوامل تعمل في كيان الدولة الإسلامية والأمة الإسلامية عملها، وظنت الأمم الموتورة أن قد سنحت الفرصة لتأخذ بثأرها وتقضي على هذه الدولة الإسلامية التي فتحت بلادها من قبل، وغيرت معالم أوضاعها في كل شؤون الحياة، فانحدر التتار كالسيل الدافق على الدولة الإسلامية، وأخذوا يقطعون أشلاءها جزءا جزءا حتى وصلوا إلى بغداد قلب الخلافة العباسية، ووطئوها بنعالهم في شخص الخليفة المستعصم، وبذلك تبدد شمل الدولة وانتثر عقد الخلافة لأول مرة، وتفرقت الأمم إلى دويلات صغيرة، فكل قبيلة فيها أمير المؤمنين ومنبر، وتنبهت المسيحية في أوربا وجمعت جموعها وقذفت الشرق المسلم في آسيا وأفريقيا بكتائبها في تسع حملات صليبية اشتملت على خير ما فيها من فرسان وملوك وعتاد، وتمكنت هذه القوات الزاحفة من إقامة دولة صليبية في بيت المقدس وتهديد أمم الإسلام في الشرق والغرب ومهاجمة مصر أقوى هذه الدول إذ ذاك)[1].

ثم يذكر الهجوم الجديد الذي شمل كل أو جل بلاد العالم الإسلامي فيقول: (وامتدت الأيدي الأوربية بحكم الكشف والضرب في الأرض والرحلة إلى أقصى آفاقها البعيدة، إلى كثير من بلدان الإسلام كالهند وبعض الولايات الإسلامية المجاورة لها، وأخذت تعمل في جد للوصول إلى تمزيق دولة الإسلام القوية الواسعة وأخذت تضع لذلك المشروعات الكثيرة تعبر عنها أحيانا بالمسألة الشرقية، وأخرى باقتسام تركة الرجل المريض، وأخذت كل دولة تنتهز الفرصة السانحة وتنتحل الأسباب الواهية، وتهاجم الدولة الوادعة اللاهية فتنقص بعض أطرافها أو تهد جانبا من كيانها، واستمرت هذه المهاجمة أمدا طويلا انسلخ فيه عن الدولة العثمانية كثير من الأقطار الإسلامية، ووقعت تحت السلطان الأوربي كالمغرب

(1) مجموعة الرسائل، ص٩٨.

الأقصى وشمال أوربا واستقل فيه كثير من البلاد غير الإسلامية التي كانت تحت سلطان العثمانيين كاليونان ودول البلقان، وكان الدور الختامي في هذا الصراع الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ – ١٩١٨م الذي انتهى بهزيمة تركيا وحلفائها وبذلك سنحت الفرصة كاملة لأقوى شعوب أوربا (إنجلترا وفرنسا) وإلى جوارهما (إيطاليا) فوضعت يدها على هذا الميراث الضخم من أمم الإسلام وشعوبه، وبسطت سلطانها عليها بأسماء مختلفة من احتلال واستعمار ووصاية وانتداب وتقاسمته على هذا النحو :

١- أفريقيا الشمالية (مراكش والجزائر وتونس) مستعمرات فرنسية، تتخللها منطقة نفوذ دولية في طنجة، ومستعمرات أسبانية في الريف.

٢- طرابلس وبرقة مستعمرة إيطالية لم تشأ إيطاليا أن تبقي على شيء من آثار الإسلام فيها، ففرضت عليها التجنس بالجنسية الإيطالية وأسمتها إيطاليا الجنوبية، وقذفتها بالآلاف من جياع الأسر وذئاب البشر.

٣- مصر والسودان تحت الحماية الإنجليزية لا تملك إحداهما لنفسها من أمرها شيئا.

٤- فلسطين مستعمرة إنجليزية أباحت إنجلترا لنفسها أن تبيعها لليهود لينشئوا فيها الوطن القومي الصهيوني.

٥- سوريا مستعمرة فرنسية.

٦- العراق مستعمرة إنجليزية.

٧- الحجاز حكومة ضعيفة متداعية تنتظر الصدقات وتتشبث بالعهود الزائفة والمواثيق الباطلة.

٨- اليمن حكومة منزوية وشعب فقير مهدد بالغزو في كل مكان في أي وقت من

الأوقات.

٩- بقية أقسام الجزيرة العربية إمارات صغيرة يعيش أمراؤها في كنف القناصل الإنجليزية ويقاتلون بفتات موائدهم وتشتعل صدورهم بنيران التحاقد والتباغض، هذا مع الوعود المؤكدة والمواثيق المغلظة التي قطعها الحلفاء لعاهل الجزيرة الملك حسين أن يساعدوه على استقلال العرب وتدعيم سلطان الخلافة العربية.

١٠- إيران والأفغان حكومات مضطربة تتوزعها الأطماع من كل مكان فهي تحت كنف هذه الأمة تارة وإلى جانب تلك تارة أخرى.

١١- الهند مستعمرة إنجليزية .

١٢- تركستان وما جاورها مستعمرات روسية يذيقها البلاشفة مر العذاب.

وفيما عدا ذلك فهناك الأقليات الإسلامية المنثورة في كثير من البلدان لا تعرف دولة تلجأ إلى حمايتها، أو حكومة مسلحة تحتمي بجنسيتها كالمسلمين في الحبشة والصين والبلقان وبلاد أفريقية الوسطى والجنوبية والشرقية والغربية .

وبهذا الوضع انتصرت أوربا في هذا الصراع السياسي، وتم لها ما أرادت من تمزيق الإمبراطورية الإسلامية والذهاب بدولة الإسلام، وحذفها سياسيا من دائرة الدول الحية العظيمة)[1].

ثم يذكر الإمام البنا ــ رحمه الله ــ الحقوق المشروعة لشعوب العالمين العربي والإسلامي، ويحث الأمة أن تحتشد للمطالبة بها والدفاع عنها، فيقول : (فنحن نطلب : لوادي النيل :

(1) مجموعة الرسائل، ص١٠٠-١٠١.

١- أن تجلو عنه الجنود الأجنبية : فلا يكون هناك جيش احتلال في أية بقعة من بقاعه.

٢- وأن ترفع هذه القيود والأغلال التي فرضت علي تجارتنا وزراعتنا وصناعتنا إبان الحرب وقبل الحرب والتي قبلناها مساهمة منا في المجهود الحربي.

٣- وقناة السويس أرض مصرية حفرت بدماء مصرية وجهود أبنائها فيجب أن يكون لمصر حق الإشراف عليها وحمايتها وتنظيم شأنها.

٤- والسودان : لا نقول أننا نطالب بحق مصر فيه فليس لمصر حقوق في السودان، ولكن السودان جزء من الوطن فهو مصر الجنوبية، ومصر هي السودان الشمالي وكلاهما وادي النيل.

٥- ونريد بعد ذلك تأميناً لحدودنا، حدودنا الغربية، لا بأن نحتل برقة، ولا بأن نستعمر طرابلس، فنحن أكرم علي أنفسنا والحق أكرم علينا من أن نذهب هذا المذهب الظالم، ولكن أننا نأمن علي حدودنا الغربية يوم تسلم ليبيا لأهلها العرب الذين جاهدوا في سبيلها عشرات السنين جهاد الأبطال، وكان ختام ذلك أن اشترك جيشهم الحديث في الحرب جنباً إلي جنب مع جنود الحلفاء، وتقوم فيها حكومة عربية مستقلة وتظل وطناً موحداً حراً مستقلاً.

٦- كما نريد أن تؤمن حدودنا الشرقية بحل قضية فلسطين حلاً يحقق وجهة النظر العربية أيضاً يحول دون تغلب اليهود علي مرافق هذه البلاد . إن مصر والعالم العربي والإسلامي كله يفتدي فلسطين، فأما مصر فلأنها حدها الشرقي المتاخم، وأما بلاد العرب فلأن فلسطين قلبها الخافق وواسطة عقدها ومركز وحدتها وهي ضنينة بهذه الوحدة أن تتمزق مهما كانت الظروف ومهما كلفها ذلك من تضحيات، وأما العالم الإسلامي فلأن فلسطين أولي

القبلتين وثاني الحرمين ومسرى رسول الله.

٧- ونريد بعد ذلك أن تؤمن حدودنا الجنوبية بأن تحفظ حقوقنا في إريتريا ثم زيلع وهرر وأعالي النيل .. تلك المناطق التي اختلط بتربتها دم الفاتح المصري وعمرتها اليد المصرية ورفرف في سمائها العلم المصري الخفاق . ثم اغتصب من جسم الوطن ظلماً وعدواناً.

٨- ونطلب للبلاد العربية أن تثق الدول الكبرى بالجامعة العربية وأن تفسح لها المجال لتقوى وتنهض، ففي نهضتها وقوتها أكبر عامل يساعد علي استقرار السلام والطمأنينة في الشرق العربي، كما يجب أن يعترف لكل أمة عربية بحقها في الحرية والاستقلال الكامل.

٩- ونطلب: للبلاد الإسلامية والأقليات الإسلامية أن تستقل وتتحرر، وتنال حقوقها ويرفع عنها الظلم والحيف وتكون بمأمن من الظلم والعدوان.

فهذه إيران يجب أن تجلو عنها الجنود البريطانية والروسية طبقاً لتصريح الدول المشتركة في خلال ستة أشهر من انتهاء الحرب مع اليابان، وهذه إندونيسيا بأقسامها لا مبرر لأن تعود مرة ثانية إلي هولندا، وحسب هولندا وقد ذاقت مرارة الظلم والجبروت أن تقنع بأرضها وأن تعمل لمصالحها في ظل العدالة والإنصاف وتبادل المنافع وذلك خير وأبقي من استلاب الحقوق واغتصاب الحريات وقضية الهند يجب أن تحل حلاً يحفظ حقوق المسلمين في كل الولايات ويساعد علي رقيهم وحفظ حقوقهم في كل مكان، ولقد كانت ألبانيا حكومة إسلامية قبل هذه الحرب بما أن غالب سكانها من المسلمين من بقايا المهاجرين من البلقان والترك، فمن الواجب أن تعود هذه الحكومة ومن العدل والنصفة أن تساعد مساعدة فعلية علي أن تكون حامية لحقوق الأقليات الإسلامية في بلاد البلقان، ففي يوغسلافيا وفي اليونان وفي بلغاريا وفي غيرها أقليات إسلامية مظلومة يعتدي عليها وتستلب حقوقها ولا يدري

بذلك أحد، والمسلمون في كل مكان أمة واحدة يسعى بذمتهم أدناها إذا اشتكي عضو منهم تداعي له سائر الجسد بالسهر والحمي، فمن الواجب أن تسند مهمة الإشراف علي إنصاف هؤلاء إلي أقرب الحكومات الإسلامية إليهم)[1] .

وإننا لنعجب أشد العجب من هذه النظرة الشمولية الواعية، في هذا الوقت الذي لم تكن العلاقة بالغرب اتضحت إلى هذا الحد، ولو سمع المسلمون لنداء هذا الرجل ــ رحمه الله ــ لوفروا على انفسهم كثيرا من المال والدماء، ولما ضاعت فلسطين والعراق وأفغانستان وغيرها من البلاد الإسلامية التي اغتصبت، وما زال نهر الدماء متدفقا حتى الآن، لأن كثير من المسلمين لا يقرؤن، وإن قرؤا لا يعملون!!!

وعندما يقرأ الإنسان المحايد هذا الكلام يشعر بأنه أمام محلل سياسي بارع تخصص في السياسة وحدها فأفنى فيه عمره، وقضى فيها جل وقته، ودرس وتخصص فيها شبابه وكهولته، وهكذا كل من يقرأ الإمام البنا يجد أنه متخصص في هذا الجانب، بل يتفوق على المتخصصين !!.

ثم يؤكد على هذا المعنى مرة أخرى في رسالة مشكلاتنا في ضوء النظام الإسلامي، فيقول: (حقوقنا الوطنية معروفة، أعلنتها الأمة بكل وضوح وجلاء على لسان أحزابها وهيئاتها وجماعاتها وأفرادها في كل المناسبات، وهى : تحقيق وحدة وادي النيل جنوبه وشماله، وجلاء القوات الأجنبية عنه جميعا، لتتم بذلك حريته واستقلاله.

والإسلام الحنيف يعلن الحرية ويزكيها، ويقررها للأفراد والأمم والجماعات بأفضل معانيها، ويدعوهم إلى الاعتزاز بها والمحافظة عليها، ويقول نبيه ﷺ : (من

(1) مجموعة الرسائل، ص٢٦٠-٢٦٧، باختصار وتصرف.

أعطى الذلة من نفسه طائعا غير مكره فليس منى) . وهو يحارب هذه اللصوصية الدولية التي يسمونها الاستعمار بكل ما فيه من قوه، ولا ترضى تعليمها أبداً بأن تسود أمة أو يرهق شعب شعباً آخر، ولا تزال كلمة عمر الفاروق رضى الله عنه ترن في الآذن حين قال لعامله عمرو بن العاص: (متى تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً)[1].

ثم يتحدث عن الاستبداد الداخلي في رسالة المؤتمر السادس فيقول: (فأما موقفنا من الحكومات المصرية على اختلاف ألوانها فهو موقف الناصح الشفيق، الذي يتمنى لها السداد والتوفيق، وأن يصلح الله بها الفساد، وإن كانت التجارب الكثيرة كلها تقنعنا بأننا في واد وهي في واد، ويا ويح الشجيّ من الخليّ.

لقد رسمنا للحكومات المصرية المتعاقبة كثيرا من مناهج الإصلاح، وتقدمنا لكثير منها بمذكرات إضافية في كثير من الشؤون التي تمس صميم الحياة المصرية.

لقد لفتنا نظرها إلى وجوب العناية بإصلاح الأداة الحكومية نفسها باختيار الرجال وتركيز الأعمال وتبسيط الإجراءات ومراعاة الكفايات والقضاء على الاستثناءات.

وإلى إصلاح منابع الثقافة العامة بإعادة النظر في سياسة التعليم ومراقبة الصحف والكتب والسينما والمسارح والإذاعة، واستدراك نواحي النقص فيها وتوجيهها الوجهة الصالحة.

وإصلاح القانون باستمداده من شرائع الإسلام، ومحاربة المنكر ومقاومة الإثم بالحدود وبالعقوبات الزاجرة الرادعة.

وتوجيه الشعب وجهة صالحة بشغله بالنافع من الأعمال في أوقات الفراغ.

---

(1) مجموعة الرسائل، ص٣٠٨.

فماذا أفاد كل ذلك ؟ .. لا شيء، ولقد قامت وزارة الشؤون الاجتماعية لسد هذا الفراغ فماذا فعلت وقد مضى عليها أكثر من عام ونصف عام ؟

ماذا أنجزت من الأعمال ؟ .. لا شيء، وستظل "لا شيء" هي الجواب لكل المقترحات مادمنا لا نجد الشجاعة الكافية للخروج من سجن التقليد والثورة على هذا الروتين العتيق، وما دمنا لم نحدد المنهاج ولم نتخير لإنفاذه الأكفاء من الرجال، ومع هذا فسنظل في موقف الناصحين حتى يفتح الله بيننا وبين قومنا بالحق وهو خير الفاتحين)[1].

ويتحدث ــ رحمه الله ــ عن العلاقة بين الحاكم والمحكوم، وحقوق الأمة على حكامها فيقول : (فالحاكم مسئول بين يدي الله وبين الناس، وهو أجير لهم وعامل لديهم، ورسول الله ﷺ يقول : (كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته)، وأبو بكر رضى الله عنه يقول : عندما ولى الأمر وصعد المنبر: (أيها الناس، كنت أحترف لعيالي فأكتسب قوتهم، فأنا الآن أحترف لكم، فافرضوا لي من بيت مالكم). وهو بهذا قد فسر نظرية العقد الاجتماعي أفضل وأعدل تفسير، بل هو وضع أساسه، فما هو إلا تعاقد بين الأمة والحاكم على رعاية المصالح العامة، فإذا أحسن فله أجره، وإن أساء فعليه عقابه.

ومن حق الأمة الإسلامية أن تراقب الحاكم أدق مراقبة، وأن تشير عليه بما ترى فيه الخير، وعليه أن يشاورها وأن يحترم إرادتها، وأن يأخذ بالصالح من آراءها، وقد أمر الله الحاكمين بذلك فقال:﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾ [آل عمران:١٥٩]. وأثنى به على المؤمنين خيرا فقال : ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ ﴾ [الشورى:٣٨].

ونصت على ذلك سنة رسول الله ﷺ والخلفاء الراشدين المهدين من بعدهم ..

---

(1) مجموعة الرسائل، ص٢١٤.

إذا جاءهم، أمر جمعوا أهل الرأي من المسلمين واستشاروهم ونزلوا عند الصواب من آرائهم، بل أنهم ليندبونهم إلى ذلك ويحثونهم عليه . فيقول أبو بكر رضى الله عنه : (فإن رأيتموني على حق فأعينوني وإن رأيتموني على باطل فسددوني أو قوموني)، ويقول عمر بن الخطاب: (من رأى فيّ اعوجاجاً فليقومه)[1].

وهو هنا ــ لا يعنيه شكل الدولة، ولا طريقة الحكم ولكن يعنيه المقصد الحقيقي من الحكم وهو تحقيق العدالة والمساواة بين أفراد الشعب فيقول: (والنظام الإسلامي) في هذا لا يعنيه الأشكال ولا الأسماء متى تحققت هذه القواعد الأساسية التي لا يكون الحكم صالحاً بدونها، ومتى طبقت تطبيقاً يحفظ التوازن ولا يجعل بعضها يطغى على بعض، ولا يمكن أن يحفظ هذا التوازن بغير الوجدان الحي والشعور الحقيقي بقدسية هذه التعاليم، وإن في المحافظة عليها وصيانتها الفوز في الدنيا والنجاة في الآخرة، وهو ما يعبرون عنه في الاصطلاح الحديث (بالوعي القومي) أو النضج السياسي أو (التربية الوطنية) أو نحو هذه الألفاظ، ومردها جميعاً إلى حقيقة واحدة هي اعتقاد صلاحية النظام، والشعور بفائدة المحافظة عليه.. إذ أن النصوص وحدها لا تنهض بأمة كاملة كما لا ينفع القانون إذا لم يطبقه قاضٍ عادل نزيه.

ونحن في حياتنا العصرية قد نقلنا من أوربا هذا النظام النيابي الذي تعيش في ظله حكوماتنا الآن، ووضعنا دستورنا على أساسه، وتغيير هذا الدستور مرة باسمه كذلك، وجربنا الكثير من آثاره، فإلى أي مدى ينطبق هذا النظام على الإسلام ؟ وإلى أي مدى كانت فائدتنا منه طوال هذه المدة ؟)[2].

ثم يذكر موقف الإسلام من النظام النيابي والدستوري فيقول: (يقول علماء

(1) مجموعة الرسائل، ص٣١٨-٣١٩.

(2) مجموعة الرسائل، ص٣١٩.

الفقه الدستوري: إن النظام النيابي يقوم على مسؤولية الحاكم، وسلطة الأمة، واحترام إرادتها، وإنه لا مانع فيه يمنع وحدة الأمة واجتماع كلمتها، وليست الفرقة والخلاف شرطاً فيه، وإن كان بعضهم يقول إن من دعائم النظام النيابي البرلماني : الحزبية، ولكن هذا إذا كان عرفا فليس أصلا في قيم هذا النظام، لأنه يمكن تطبيقه بدون هذه الحزبية وبدون إخلال بقواعده الأصلية.

وعلى هذا فليس في قواعد هذا النظام النيابي ما يتنافى مع القواعد التي وضعها الإسلام لنظام الحكم، وهو بهذا الاعتبار ليس بعيداً عن النظام الإسلامي ولا غريبا عنه، وبهذا الاعتبار يمكن أيضاً أن نقول في اطمئنان إن القواعد الأساسية التي قام عليها الدستور المصري لا تتنافى مع قواعد الإسلام، وليست بعيدة من النظام الإسلامي ولا غريبة عنه، بل إن واضعي الدستور المصري رغم أنهم وضعوه على أحدث المبادئ والآراء الدستورية وأرقاها، فقد توخوا فيه ألا يصطدم أي نص من نصوصه بالقواعد الإسلامية، فهي إما متمشية معها صراحة كالنص الذي يقول: (دين الدولة الإسلام) أو قابلة للتفسير الذي يجعلها لا تتنافى معها كالنص الذي يقول: (حرية الاعتقاد مكفولة).

وأحب أن أنبه هنا إلى الفرق بين الدستور وبين القوانين التي تسير عليها المحاكم إذ أن كثيراً من هذه القوانين يتنافى صراحة مع ما جاء به الإسلام، وذلك بحث أخر سنعرض له في موضعه إن شاء الله.

ومع أن النظام النيابي والدستور المصري في قواعدهما الأساسية لا يتنافيان مع ما وضعه الإسلام في نظام الحكم، فإننا نصرح بأن هناك قصورا في عبارات الدستور، وسوءاً في التطبيق، وتقصيرا في حماية القواعد الأساسية التي جاء بها الإسلام وقام عليها الدستور، أدت جميعاً إلى ما نشكو منه، ما وقعنا فيه من

اضطراب في كل هذه الحياة النيابية)[1].

ثم يناقش ــ رحمه الله ــ في جرأة وشجاعة، مع رسوخ في العلم والفهم مسئولية الحاكم، والعيوب التي تكتنف الدستور المصري، ويصل إلى احترام إرادة الأمة، ووجوب تمثيلها عن طريق الانتخابات الحرة النزيهة فيقول: (وأما عن احترام رأى الأمة، ووجوب تمثيلها واشتراكها في الحكم اشتراكاً صحيحاً، فإن الإسلام لم يشترط استبانة رأي أفرادها جميعاً في كل نازلة، وهو المعبر عنه، في الاصطلاح الحديث بالاستفتاء العام، ولكنه اكتفى في الأحوال العادية (بأهل الحل والعقد) ولم يعينهم بأسمائهم، ولا بأشخاصهم، والظاهر من أقوال الفقهاء ووصفهم إياهم أن هذا الوصف ينطبق على ثلاث فئات هم:

١- الفقهاء المجتهدون الذين يعتمد على أقوالهم في الفتيا واستنباط الأحكام.

٢- وأهل الخبرة في الشؤون العامة.

٣- ومن لهم نوع قيادة أو رئاسة في الناس كزعماء البيوت والأسر وشيوخ القبائل ورؤوساء المجموعات.

فهؤلاء جميعاً يصح أن تشملهم عبارة "أهل الحل والعقد ".

ولقد رتب النظام النيابي الحديث طريق الوصول إلى أهل الحل والعقد بما وضع الفقهاء الدستوريون من نظام الانتخابات وطرائقه المختلفة، والإسلام لا يأبى هذا التنظيم ما دام يؤدى إلى اختيار أهل الحل والعقد، وذلك ميسور إذا لوحظ في أي نظام من نظم تحديد الانتخاب صفات أهل الحل والعقد، وعدم السماح لغيرهم بالتقدم للنيابة عن الأمة)[2].

---

(1) مجموعة الرسائل، ص٣٢١-٣٢٢.

(2) مجموعة الرسائل، ص٣٢٨.

ثم يتحدث عن نظام الانتخابات، ويذكر عيوب الانتخابات في مصر، ثم يقترح الوسائل لإصلاحها فيقول : (لا بد من تعديل وإصلاح لقانون الانتخاب، ومن وجوه هذا الإصلاح الضرورية :

١- وضع صفات خاصة للمرشحين أنفسهم، فإذا كانوا ممثلين لهيئات فلا بد أن يكون لهذه الهيئات برامج واضحة وأغراض مفصلة يتقدم على أساسها هذا المرشح، وإذا لم يكونوا ممثلين لهيئات فلا بد أن يكون لهم من الصفات والمناهج الإصلاحية ما يؤهلهم للتقدم للنيابة عن الأمة، وهذا المعنى مرتبط إلى حد كبير بإصلاح الأحزاب في مصر، وما يجب أن يكون عليه أمر الهيئات السياسية فيها .

٢- وضع حدود للدعاية الانتخابية، وفرض عقوبات على من يخالف هذه الحدود، بحيث لا تتناول الأسر ولا البيوت ولا المعاني الشخصية البحتة التي لا دخل لها في أهلية المرشح وإنما تدور حول المناهج والخطط الإصلاحية .

٣- إصلاح جداول الانتخابات، وتعميم نظام تحقيق الشخصية، فقد أصبح أمر جداول الانتخابات أمراً عجباً بعد أن لعبت بها الأهواء الحزبية والأغراض الحكومية طوال هذه الفترات المتعاقبة، وفرض التصويت إجبارياً .

٤- وضع عقوبة قاسية للتزوير من أي نوع كان، وللرشوة الانتخابية كذلك.

٥- وإذا عدل إلى الانتخابات بالقائمة، لا الانتخاب الفردي كان ذلك أولى وأفضل، حتى يتحرر النواب من ضغط ناخبيهم، وتحل المصالح العامة محل المصالح الشخصية في تقدير النواب والاتصال بهم.

وعلى كل حال فأبواب الإصلاح والتعديل كثيرة، هذه نماذج منها، وإذا صدق العزم وضح السبيل، والخطأ كل الخطأ في البقاء على هذا الحال والرضا به،

والانصراف عن محاولة الإصلاح)[1].

ونختم هذا المبحث بما ذكره الإمام ــ رحمه الله ــ في مراحل ركن العمل من أركان البيعة فيقول : (وإصلاح الحكومة حتى تكون إسلامية بحق، وبذلك تؤدي مهمتها كخادم للأمة وأجير عندها وعامل على مصلحتها، والحكومة إسلامية ما كان أعضاؤها مسلمين مؤدين لفرائض الإسلام غير مجاهرين بعصيان، وكانت منفذة لأحكام الإسلام وتعاليمه.

ولا بأس أن نستعين بغير المسلمين عند الضرورة في غير مناصب الولاية العامة ولا عبرة بالشكل الذي تتخذه ولا بالنوع، مادام موافقا للقواعد العامة في نظام الحكم الإسلامي.

ومن صفاتها : الشعور بالتبعة، والشفقة، على الرعية، والعدالة بين الناس، والعفة عن المال العام، والاقتصاد فيه .

ومن واجباتها : صيانة الأمن، وإنفاذ القانون، ونشر التعليم، وإعداد القوة، وحفظ الصحة، ورعاية المنافع العامة، وتنمية الثروة، وحراسة المال، وتقوية الأخلاق، ونشر الدعوة .

ومن حقها -متى أدت واجبها - : الولاء والطاعة، والمساعدة بالنفس والأموال.

فإذا قصرت : فالنصح والإرشاد، ثم الخلع والإبعاد، ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق)[2].

(1) مجموعة الرسائل، ص٣٢٩-٣٣٠.
(2) مجموعة الرسائل، ص٣٦٠-٣٦١.

الفصل الرابع

حفـــظ الـــنفـــس

حفظ النفس

تمهيد :

أولت الشريعة الإسلامية النفس عناية فائقة، ويكفي أن الله تعالى أقسم بها في كتابه الكريم فقال: ﴿ وَلاَ أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴾ [القيامة: ٢].

وجعل الاعتداء عليها بالقتل اعتداء على البشرية كلها، فقال: ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَلِكَ فِي الأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴾ [المائدة: ٣٢].

وقتل النفس التي حرم الله قتلها من أكبر الكبائر بعد الكفر بالله، لأنه اعتداء على صنع الله، واعتداء على الجماعة والمجتمع، قال الله تعالى : ﴿.... وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥١].

ويقول تعالى : ﴿وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلاَ يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا ﴾ [الإسراء: ٣٣]

وقال تعالى :﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٩٣].

وقال رسول الله ﷺ : " اجتنبوا السبع الموبقات، قيل : وما هن يا رسول الله ؟ قال : الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات "[1].

ولم تأت الشريعة الإسلامية لحفظ نفوس أتباعها فقط، كما نجد في المذاهب الوضعية، التي تعلي من شأن أتباعها، وتنتهك حرمة الآخرين دون مرعاة عهد ولا

---

(1) متفق عليه.

ذمة، ولكن الشريعة الإسلامية جاءت لحفظ النفس البشرية كلها، سواء أكانت مؤمنة أو غير مؤمنة، ما لم تكن محاربة، روى البخاري بسنده عن النبي ﷺ قال: (من قتل معاهدا لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها توجد من مسيرة أربعين عاما)[1].

وروى البخاري بسنده عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: مر بنا جنازة، فقام لها النبي ﷺ وقمنا به، فقلنا: يا رسول، الله إنها جنازة يهودي؟ قال: إذا رأيتم الجنازة فقوموا)[2].

وروى بسنده عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال : كان سهل بن حنيف، وقيس بن سعد قاعدين بالقادسية، فمروا عليهما بجنازة، فقاما، فقيل لهما: إنها من أهل الأرض، أي من أهل الذمة، فقالا: إن النبي ﷺ مرت به جنازة فقام، فقيل له: إنها جنازة يهودي، فقال: أليست نفسا". وقال أبو حمزة، عن الأعمش، عن عمرو، عن ابن أبي ليلى قال : كنت مع قيس وسهل رضي الله عنهما، فقالا: كنا مع النبي ﷺ. وقال زكرياء، عن الشعبي، عن ابن أبي ليلى: كان أبو مسعود وقيس يقومان للجنازة)[3].

واهتم الإسلام بتزكية النفس، وقدمه على العلم والتعلم، فعندما دعا إبراهيم الخليل عليه السلام ربه فقال فيما يحكيه عن الله تعالى : ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [البقرة: ١٢٩].

فإبراهيم الخليل يدعو الله تعالى : أن يرسل في الأميين رسولا يكون من مهام هذا النبي على الترتيب التالي :

---

(1) رواه البخاري في كتاب الجزية باب من قتل معاهد بغير جرم، ح: ٣١٦١.

(2) رواه البخاري في كتاب الجنائز باب من قام لجنازة يهودي، ح: ١٣١١.

(3) رواه البخاري في كتاب الجنائز باب من قام لجنازة يهودي، ح: ١٣١٣.

١- يتلوا عليهم آيات الله أي يبلغهم رسالته التي أرسل بها.
٢- يعلمهم الكتاب والحكمة.
٣- يزكي أنفسهم بهذا التعليم والتلاوة، حتى لا يكون تعليما بعيدا عن العمل، ولكنه التعليم الذي يؤثر في الأخلاق والسلوك.

وهذا الذي ذكر الخليل عليه السلام ترتيبا منطقيا من حيث العملية التعليمية، التي تبدأ بالقراءة، ثم التدبر ثم العمل .

وقد استجاب الله دعوة الخليل وذكر ذلك في ثلاث آيات من كتابه الكريم، لكنه أعاد هذا الترتيب، واستبدله بترتيب حسب الأهمية، فذكر من مهام هذا النبي الكريم.
١- تبليغ الرسالة عن طريق تلاوة آيات الله تعالى.
٢- التزكية.
٣- التعليم.

يقول الله تعالى: ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٥١].

ويقول تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

ويقول تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة:٢].

والإسلام لا يعنى بالحفظ المادي وحده، بل يعنى أيضا بالحفظ المعنوي للنفس الذي يشمل تزكيتها، وحمايتها من كل ما ينتقص من قدرها.

يقول الله تعالى : ﴿ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا *وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا *وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا

*وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا * وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا* وَالأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا * وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا* فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا* قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ [الشمس ١: ١٠].

المقصود بالنفس :

يقول أبو حامد الغزالي . رحمه الله . في الإحياء :

النفس : لفظ مشترك بين معانٍ يُهِمُّنا منها اثنان:

أحدهما: أن يراد به المعنى الجامع لقوة الغضب والشهوة في الإنسان، ويَهتم أهلُ التصوّف بهذا المعنى؛ لأنهم يُريدون بالنفس الأصل الجامع للصفات المذمومة من الإنسان، فلابد من مجاهَدتها.

والمعنى الثاني: هي اللّطيفة التي ذكرناها، التي هي الإنسان بالحقيقة، وهي نفس الإنسان ذاته، ولكنّها توصف بأوصاف مختلفة بحسب اختلاف أحوالها، فإذا سكنت تحت الأمر وفارَقها الاضطراب بسبب معارَضة الشهوات سُمِّيت النفسَ المطمئنة، قال تعالى: ﴿يا أَيَّتُها النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّة . ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّة﴾ (سورة الفجر: ٢٧-٢٨).

والنفس بالمعنى الأول لا يتصوّر رجوعها إلى الله فهي مبعثرة عنه وهي من حزب الشيطان.

وإذ لم يتّم سكونها ودافعت الشهوات واعترضت عليها سمّيت النفس اللوامة، وإن تركت المدافعة والاعتراض وأطاعت الشهوة والشيطان سمّيت النفسَ الأمارة بالسوء[1].

ويقول العلامة فضيلة الشيخ الطاهر بن عاشور . رحمه الله .:

---

(1) إحياء علوم الدين لحجة الإسلام أبي حامد محمد بن محمد الغزالي، ج ١/ ٢٥٨-٢٥٩، باختصار وتصرف، ط، ٥ ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م، دار السلام.

ومعنى حفظ النفوس حفظ الأرواح من التلف أفرادا وعموما، لأن العالم مركب من أفراد الإنسان، وفي كل نفس خصائصها التي بها بعض قوام العالم، وليس حفظها بالقصاص كما مثل به الفقهاء، بل نجد القصاص هو أضعف أنواع حفظ النفوس؛ لأنه تدارك بعد الفوت[١]، بل الحفظ أهمه حفظها من التلف قبل وقوعه مثل مقاومة الأمراض السارية . وقد منع عمر بن الخطاب الجيش من دخول الشام لأجل طاعون عمواس . والمراد النفوس المحترمة في نظر الشريعة وهي المعبر عنها بالمعصومة الدم؛ ألا ترى أنه يعاقب الزاني المحصن بالرجم مع أن حفظ النسب دون مرتبة حفظ النفس . ويلحق بحفظ النفوس من الإتلاف حفظ بعض أطراف الجسد من الإتلاف، وهي الأطراف التي ينزل إتلافها منزلة إتلاف النفس في انعدام المنفعة بتلك النفس مثل الأطراف التي جعلت في إتلافها خطأ الدية كاملة[٢].

(يقصد بالنفس في هذا المقام مجمل الكينونة الإنسانية بعناصرها المختلفة، وهو أحد المعاني اللغوية للنفس، فقد جاء في لسان العرب أن من معاني النفس جملة الشيء وحقيقته، كما جاء فيه أيضًا أن النفس يعبر بها عن الإنسان جميعه كقولهم: عندي ثلاثة أنفس، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَى عَلَى مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ﴾ [الزمر: ٥٦]، أي أن يقول إنسان، فيكون

(1) لا نوافق العلامة ابن عاشور في جعل القصاص أضعف أنواع الحفظ، ويبرر ذلك بأنه تدارك بعد الفوت، وهذا كلام محل نظر؛ حيث إن القصاص يحفظ النفس ابتداء، فالجاني الذي يعلم أنه مقتول في الغالب إن قتل عمدا، فلن يَقتُل ولن يُقتَل، ولعل هذا هو مراد الله تعالى من قوله : ﴿ وَلَكُمْ فِي القِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٩]، وشتان بين مقاومة الأمراض وهو أمر هام وضروري، وبين إقامة العدل بين الناس، والأخذ على يد الظالم، صحيح أن القصاص ليس هو الوسيلة الوحيدة لحفظ النفس، لكنه وسيلة هامة وضرورية، ويمكننا أن نقول آخر أنواع الحفظ، وليس أضعفها.

(2) مقاصد الشريعة الإسلامية للطاهر بن عاشور، ص٧٨.

المقصود بالنفس الإنسانية فيما يأتي من البيان جملة الإنسان وحقيقته، وليس المعنى المتجه إلى الدلالة على الروح، وهو أحد المعاني اللغوية للنفس.

وحفظ النفس مقصد من مقاصد الشريعة يتعلق بمجمل الكينونة الإنسانية بعناصرها المختلفة. ومعنى هذا الحفظ هو توفير أسباب القوة للذات الإنسانية، ودفع أسباب الضعف عنها، بحيث تكون على أمثل ما يمكن من وضع لتقوم بأداء مهمتها؛ ولذلك فقد جاءت أحكام شرعية كثيرة غايتها حفظ النفس على هذا المعنى، وهي أحكام بلغت من الكثرة والتنوع مبلغًا يفيد اليقين بأن حفظ النفس هو كلية من كليات الشريعة، ومقصد عام من مقاصد الدين، ولعل جماع هذه الأحكام هو ما جاء في قوله تعالى: "وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ" (البقرة: ١٩٥)[١].

وحفظ النفس له صور متعددة في الشريعة الإسلامية، منها الحفظ المادي للنفس، ومنها الحفظ المعنوي، وكلاهما مطلوب في الشريعة الإسلامية، فالإنسان يتكون من مادة وروح، وإغفال الحفظ المادي للنفس، أو الحفظ المعنوي يؤثر على النفس الإنسانية، فلا تستطيع أن تقوم بدورها، أو تؤدي رسالتها.

فيقسم العلماء الحفظ المادي للنفس إلى قسمين وهي :

أ – حفظ النفس بأسباب البقاء والقوة.

ب – حفظ النفس بدفع العوادي.

كما يقسمون الحفظ المعنوي للنفس إلى قسمين أيضا:

أ – حفظ النفس بالتزكية.

ب – حفظ النفس بالأمن النفسي[٢].

---

(1) مقاصد الشريعة بأبعاد جديدة، ص١١٤-١١٥.

(2) مقاصد الشريعة بأبعاد جديدة، ص١١٦-١٢٥.

الإمام البنا ـ رحمه الله ـ ومقصد حفظ النفس :

سنرى في الصفحات التالية ماذا قدم الإمام البنا ـ رحمه الله ـ في مجال حفظ النفس، معتمدين التقسيم السابق في مستواه الأول فقط، وهو الحفظ المادي، والحفظ المعنوي .

المبحث الأول
الحفظ المعنوي للنفس

قدمنا هنا الحفظ المعنوي للنفس، حيث إنه شغل في فكر الإمام البنا ـ رحمه الله ـ مساحة واسعة، وقد كان مبدعا حقا في هذا المجال، والحفظ المعنوي أهم وأخطر وأكثر تبعة من الحفظ المادي، ففي الوقت الذي تقدمت فيها البشرية في الجانب المادي، وقطعت فيه مساحات واسعة من حيث صيانة النفس، وتقويتها عن طريق ممارسة الرياضة، والاهتمام بالغذاء، وتوفير الرفاهية، واكتشاف الأمراض وعلاجها، تأخرت في التربية الأخلاقية والروحية، فجلبت للناس أسباب الشقاوة والتعاسة النفسية، فأقدم الناس على الانتحار في أكثر المدن تقدما ورفاهية، وأصيب عدد لا بأس به بالاكتئاب والأمراض النفسية، وارتفعت معدلات الجريمة، ونسبة الطلاق وغير ذلك من المظاهر التي تبرهن على أن الحياة المادية وحدها لاتجلب للناس سعادة، ولا تدفع عنهم تعاسة.

ولعل هذا ما عناه الإمام البنا ـ رحمه الله ـ وهو يتحدث عن التقدم العلمي الهائل الذي فشل في جلب السعادة للناس فيقول :(حقاً لقد تقدم العلم، وتقدم الفن، وتقدم الفكر، وتزايد المال، وتبرجت الدنيا، وأخذت الأرض زخرفها وازينت، وأترف الناس ونعموا ؛ ولكن هل جلب شيء من هذا السعادة لهم؟ وهل أمن لهم شيء من هذا الحياة، أو ساق إلى نفوسهم الهدوء والطمأنينة؟ هل اطمأنت الجنوب في المضاجع؟

هل جفت الجفون من المدامع؟

هل حوربت الجريمة، واستراح المجتمع من شرور المجرمين؟

هل استغنى الفقراء وأشبعت الملايين التي تفوق الحصر بطون الجائعين؟

هل ساقت هذه الملاهي والمفاتن، التي ملأت الفضاء وسرت مسرى الهواء، العزاء إلى المحزونين؟

هل تذوقت الشعوب طعم الراحة والهدوء، وأمنت عدوان المعتدين وظلم الظالمين؟ لا شيء من هذا أيها الناس، فما فضل هذه الحضارة إذن على غيرها من الحضارات ؟

وهل هذا فحسب ؟

ألسنا نرى هذه النظم والتعاليم والفلسفات حتى في العلوم والأرقام يحطم بعضها بعضا ، ويقضي بعضها على بعض ، ويرجع الناس بعد طول التجربة وعظيم التضحيات فيها بمرارة الفشل وخيبة الأمل وألم الحرمان؟)[1].

حفظ كرامة الإنسان وعدم التعالي على المدعو :

وأول ما يطالعنا به الإمام البنا في رسالة دعوتنا حفظ كرامة الإنسان، وعدم التعالي على المدعو حتى لو كان على معصية، فعلاقة الحميمية بينه وبين من يدعوهم من المسلمين واضحة جلية، فلا استعلاء ولا خصومه بينه وبينهم، ولكنه الحب الذي ملأ قلبه وفاض على الآخرين يقول الإمام . رحمه الله . :(و نحب أن يعلم قومنا أنهم أحب إلينا من أنفسنا، و أنه حبيب إلى هذه النفوس أن تذهب فداء لعزتهم إن كان فيها الفداء، و أن تزهق ثمنا لمجدهم وكرامتهم ودينهم وآمالهم إن كان فيها الغناء، وما أوقفنا هذا الموقف منهم إلا هذه العاطفة التي استبدت بقلوبنا وملكت علينا مشاعرنا، فأقضت مضاجعنا، وأسالت مدامعنا، وإنه لعزيز علينا جد عزيز أن نرى ما يحيط بقومنا ثم نستسلم للذل أو نرضى بالهوان أو نستكين لليأس، فنحن نعمل للناس في سبيل الله أكثر مما نعمل لأنفسنا، فنحن لكم لا لغيركم أيها الأحباب، و لن

(1) مجموعة الرسائل، ص١٩٠-١٩١.

نكون عليكم في يوم من الأيام.

ولسنا نمتن بشيء ولا نرى لأنفسنا في ذلك فضلا، و إنما نعتقد قول الله تعالى: ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [الحجرات:١٧].

وكم نتمنى – لو تنفع المنى – أن تتفتح هذه القلوب على مرأى ومسمع من أمتنا، فينظر إخواننا هل يرون فيها إلا حب الخير لهم والإشفاق عليهم، والتفاني في صالحهم ؟

وهل يجدون إلا ألما مضنيا من هذا الحال التي وصلنا إليها ؟ و لكن حسبنا أن الله يعلم ذلك كله، و هو وحده الكفيل بالتأييد الموفق للتسديد، بيده أزمة القلوب و مفاتيحها، من يهد الله فلا مضل له ومن يضلل الله فلا هادي له، وهو حسبنا ونعم الوكيل . أليس الله بكاف عبده؟)[١].

الإمام لا يقبل قومية العدوان :

وعند حديثه عن القومية، وأن الإسلام لا يمانع من أن يعتز كل مسلم بقوميته التي ينتسب إليها، وقد نقلنا رأية في القومية عند الحديث عن مراعاة الإمام لمقاصد الشريعة بشكل عام، لكنه يرفض أن تكون هذه القومية سببا في العدوان والاعتداء على الآخرين فيقول : (وأما أن يراد بالقومية الاعتزاز بالجنس إلى درجة تؤدي إلى انتقاص الأجناس الأخرى والعدوان عليها والتضحية بها في سبيل عزة أمة وبقائها، كما تنادي بذلك ألمانيا وإيطاليا مثلا، بل كما تدعي كل أمة تنادي بأنها فوق الجميع.فهذا معنى ذميم كذلك ليس من الإنسانية في شيء، ومعناه أن يتناحر الجنس البشري في سبيل وهم من الأوهام لا حقيقة له ولا خير فيه)[٢].

---

(1) مجموعة الرسائل، ص١٣-١٤.

(2) مجموعة الرسائل، ص٢٣.

وفي رسالة إلى أي شيء ندعو الناس يصحح مفهوم الناس عن القومية، ويرى أن الحفظ المعنوي للنفس الذي يكون بإكسابها كل معاني العزة إنما يكمن في ولاية الله تعالى وولاية المؤمنين بعضهم بعضا فيقول: (أيها الأخ: تعال نصغ معا إلى صوت العزة الإلهية يدوي في أجواء الآفاق ، ويملأ الأرض والسبع الطباق ، ويوحي في نفس كل مؤمن أسمى معاني العزة والفخار ، حين يسمع هذا النداء الذي تستمع له السموات والأرض ومن فيهن منذ أن بلغه الأمين إلى هذا الوجود ، إلى حيث لا نهاية إذ كتب له الخلود

أجل أجل يا أخي: هذا نداء ربك إليك ، فلبيك اللهم لبيك ، و حمدا و شكرا لك لا نحصي ثناء عليك ، أنت ولي المؤمنين و نصير العاملين و المدافع عن المظلومين الذين حوربوا في بيوتهم و أخرجوا من ديارهم ، عز من لجأ إليك، و انتصر من احتمى بحماك.

أجل أجل يا أخي : تعال نستمع معا إلى صوت القرآن الكريم ، و نطرب بتلاوة الآيات البينات، ونسجل جمال هذه العزة في صحائف ذلك الكتاب المطهر .

إلي إلي يا أخي واسمع قول الله تبارك وتعالى :

١ -الله﴿ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ [البقرة:٢٥٧].

٢ – ﴿ بَلِ اللهُ مَوْلاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ ﴾ [آل عمران:١٥٠].

٣ -إِنَّمَا﴿ وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴾ [المائدة:٥٥].

٤ –إِنَّ﴿ وَلِيِّيَ اللهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴾ [الأعراف:١٩٦].

٥ قُلْ﴿ لَن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللهُ لَنَا هُوَ مَوْلاَنَا وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾

[التوبة:٥١].

٦ – ﴿ أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ [يونس:٦٢-٦٣].

٧ – ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لا مَوْلَى لَهُمْ ﴾ [محمد:١١].

٨– ﴿ لِلهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون:٨][1].

مشكلتنا في الضعف الروحي لا الضعف المادي :

ثم يبين الإمام . رحمه الله . أن مشكلة الشرق الإسلامي وضعفه ليس سببها قلة المال والعتاد، وإنما تكمن في ضعف القوة الروحية، فيقول: (يظن كثير من الناس أن الشرق تعوزه القوة المادية من المال و العتاد و آلات الحرب والكفاح لينهض ويسابق الأمم التي سلبت حقه وهضمت أهله ، ذلك صحيح ومهم ، ولكن أهم منه وألزم : القوة الروحية من الخلق الفاضل، والنفس النبيلة و الإيمان بالحقوق ومعرفتها و الإرادة الماضية، و التضحية في سبيل الواجب و الوفاء الذي تنبني عليه الثقة و الوحدة ، و عنهما تكون القوة.

لو آمن الشرق بحقه و غير من نفسه و اعتنى بقوة الروح و عني بتقويم الأخلاق، لأتته وسائل القوة المادية من كل جانب و عند صحائف التاريخ الخبر اليقين)[2].

أهمية إعداد الرجال وبناء الأخلاق :

ثم يتحدث الإمام . رحمه الله . عن أهمية إعداد الرجال الإعداد المناسب، وبناء الأخلاق فيقول:(ولكن الأمم المجاهدة التي تواجه نهضة جديدة، وتجتاز دور انتقال

(1) مجموعة الرسائل ص٣٨-٣٩.

(2) مجموعة الرسائل ص٤٦.

خطير، وتريد أن تبني حياتها المستقبلة على أساس متين يضمن للجيل الناشئ الرفاهة والهناءة، وتطالب بحق مسلوب وعز مغصوب، في حاجة إلى بناء آخر غير هذه الأبنية ...

إنها في مسيس الحاجة إلى بناء النفوس وتشييد الأخلاق وطبع أبنائها على خلق الرجولة الصحيحة، حتى يصمدوا لما يقف في طريقهم من عقبات ويتغلبوا على ما يعترضهم من مصاعب.

إن الرجال سر حياة الأمم ومصدر نهضاتها، وإن تاريخ الأمم جميعاً إنما هو تاريخ من ظهر بها من الرجال النابغين الأقوياء النفوس والإرادات . وإن قوة الأمم أو ضعفها إنما تقاس بخصوبتها في إنتاج الرجال الذين تتوفر فيهم شرائط الرجولة الصحيحة . وإني اعتقد . والتاريخ يؤيدني . أن الرجل الواحد في وسعه أن يبني أمة إن صحت رجولته، وفي وسعه أن يهدمها كذلك إذا توجهت هذه الرجولة إلى ناحية الهدم لا ناحية البناء ..

وإن الأمم تجتاز أدوارا من الحياة كتلك الأدوار التي يجتازها الأفراد على السواء : فقد ينشأ هذا الفرد بين أبوين مترفين آمنين ناعمين فلا يجد من مشاغل الحياة ما يشغل باله ويؤلم نفسه، ولا يطالب بما يرهقه أو يضنيه، وقد ينشأ الفرد الآخر في ظروف عصيبه وبين أبوين فقيرين ضعيفين فلا يطلع عليه فجر الحياة حتى تتكدس علي رأسه المطالب وتتقاضاه الواجبات من كل جانب وسبحان من قسم الحظوظ فلا عتاب ولا ملامة .

وقد شاءت لنا الظروف أن ننشأ في هذا الجيل الذي تتزاحم الأمم فيه بالمناكب، وتتنازع البقاء أشد التنازع، وتكون الغلبة دائماً للقوي السابق.

وشاءت لنا الظروف كذلك أن نواجه نتائج أغاليط الماضي ونتجرع مرارتها،

وأن يكون رأب الصدع وجبر الكسر، وإنقاذ أنفسنا وأبنائنا، واسترداد عزتنا ومجدنا، وإحياء حضارتنا وتعاليم ديننا ..

وشاءت لنا الظروف كذلك أن نخوض لجة عهد الانتقال الأهوج، حيث تلعب العواصف الفكرية والتيارات النفسية والأهواء الشخصية بالأفراد وبالأمم وبالحكومات وبالهيئات وبالعالم كله، وحيث يتبلبل الفكر وتضطرب النفس ويقف الربان في وسط اللجة يتلمس الطريق ويتحسس السبيل وقد اشتبهت عليه الأعلام وانطمست أمامه الصور ووقف على رأس كل طريق داع يدعو إليه في ليل دامس معتكر وظلمات بعضها فوق بعض، حتى لا تجد كلمة تعبر بها عن نفسية الأمم في مثل هذا العهد أفضل من "الفوضى".

كذلك شاءت لنا ظروفنا أن نواجه كل ذلك وأن نعمل على إنقاذ الأمة من الخطر المحدق بها من كل ناحية)[1].

حفظ كرامة الإنسان :

ثم يتحدث عن حفظ النفس عن طريق حفظ كرامة الإنسان، وعدم رضاه بالهوان والمذله، لأن الإنسان الذي يهين نفسه ويمتهنها لا يمكنه أن يجلب لأمته خيرا، ولا يدفع عنها ضرا، فيقول: (ومع أن ظروفنا هي ما علمت .. فإن نفوسنا لا تزال تلك النفوس الرخوة اللينة المترفة الناعمة التي تجرح خديها خطرات النسيم ويدمى بنانها لمس الحرير. وفتياتنا وفتياننا هم عدة المستقبل ومعقد الأمل لا يزال حظ أحدهم أو إحاهن مظهرا فاخراً أو أكلة طيبة أو حلة أنيقة أو مركباً فارهاً أو وظيفة وجيهة أو لقباً أجوف، وإن اشترى ذلك بحريته وإن أنفق عليه من كرامته وإن أضاع في سبيله حق أمته.

---

(1) مجموعة الرسائل، ص٦٨-٦٩.

وهل رأيت أولئك الشبان الذين تنطق وجوههم بسمات الفتوة، وتلوح على محياهم مخايل النشاط، ويجرى في قسماتهم ماء الشباب المشرق الرقراق وهم يتذللون على أبواب رؤساء المصالح والدواوين بأيديهم طلبات الوظائف ؟ وهل رأيتهم يتوسلون بالصغير والكبير، ويرجون الحقير والأمير، ويوسطون حتى سعاة المكاتب وحجاب الوزارات في قضايا المأرب وقبول الطلبات ؟

هل تظن . يا عزيزي القارئ . أن هذا الشباب إذا أسعفه الحظ وتحقق له الأمل ولتحق بوظيفة من هذه الوظائف الرسمية يفكر يوماً من الأيام في تركها أو التخلي عنها في سبيل عزة أو كرامة وإن سيم الخسف وسوء العذاب ؟

نفوسنا الحالية في حاجة إلى علا ج كبير وتقويم شامل وإصلاح يتناول الشعور الخامد والخلق الفاسد والشح المقيم . وإن الآمال الكبيرة التي تطوف برؤوس المصلحين من رجالات هذه الأمة، والظروف العصيبة التي نجتازها تطالبنا بإلحاح بتجديد نفوسنا وبناء أرواحنا بناًء غير هذا الذي أبلته السنون وأخلقته الحوادث وذهبت الأيام بما كان فيه من مناعة وقوة، وبغير هذه التقوية الروحية والتجديد النفسي لا يمكن أن نخطو إلى الأمام خطوة.

إذا علمت هذا وكنت معي أن هذا المقياس أصح وأدق في نهضات الأمم والشعوب فاعلم أن الغرض الأول الذي ترمى إليه جمعيات الإخوان المسلمين (التربية الصحيحة) : تربية الأمة على النفس الفاضلة والخلق النبيل السامي، وإيقاظ ذلك الشعور الحي الذي يسوق الأمم إلى الذود عن كرامتها والجد في استرداد مجدها وتحمل كل عنت ومشقة في سبيل الوصول إلى الغاية)[1].

دور العبادات في تزكية النفس، وحفظها عن طريق التزكية :

(1) مجموعة الرسائل، ص٦٩-٧٠.

يقول الإمام البنا :(أيها المسلمون: عبادة ربكم والجهاد في سبيل التمكين لدينكم وإعزاز شريعتكم هي مهمتكم في الحياة ، فإن أديتموها حق الأداء فأنتم الفائزون، و إن أديتم بعضها أو أهملتموها جميعا فإليكم أسوق قول الله تبارك وتعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾ [المؤمنون:١١٥-١١٦].

لهذا المعنى جاء أوصاف أصحاب محمد، وهم صفوة الله من خلقه والسلف الصالح من عباده : (رهبان بالليل فرسان بالنهار) ترى أحدهم في ليله ماثلا في محرابه قابضا على لحيته يتململ تململ السليم، و يبكي بكاء الحزين و يقول: (يا دنيا غري غيري) فإذا انفلق الصباح، و دوى النفير يدعو المجاهدين، رأيته رئبالا على صهوة جواده ، يزأر الزأرة فتدوي لها جنبات الميدان.

بالله عليك ما هذا التناسق العجيب، و التزاوج الغريب والمزيج الفريد بين عمل الدنيا ومهامها وشؤون الآخرة وروحانيتها ؟ ولكنه الإسلام الذي جمع من كل شيء أحسنه.

ولهذا المعنى أيها المسلمون نفر المسلمون، بعد أن اختار نبيه ﷺ الرفيق الأعلى في أقطار الأرض، قرآنه في صدورهم، ومساكنهم على سروجهم، وسيوفهم بأيديهم، حجتهم واضحة على ألسنتهم يدعون الناس إلى إحدى ثلاث: الإسلام أو الجزية أو القتال، فمن أسلم فهو أخوهم له ما لهم، وعليه ما عليهم ، ومن أدى الجزية فهو في ذمتهم وعهدهم يقومون بحقه، ويرعون عهده، ويوفون له بشرطه، ومن أبى جالدوه حتى يظهرهم الله عليه، ﴿وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ﴾ (التوبة:٣٢)[1].

ثم يذكر الإمام البنا في أكثر من موضوع دور العبادات في تزكية النفس، وعدم

(1) مجموعة الرسائل، ص٤٢-٤٣.

الوقوف عند حرفية العبادات، بل علينا أن نفطن إلى مقاصد العبادة، والحكمة من تشريعها حتى لاتكون عبادة جافة، لا تقدم صحابها في الدنيا، ولاترفعه في الآخرة، ويذكر من هذه العبادات الصلاة والزكاة والقرآن، وهذا الذي يذكره على سبيل المثال لا الحصر.

أولا : منزلة الصلاة ودورها في حفظ النفس بالتزكية :

يقول الإمام البنا في شأن الصلاة: (قد علمت . أعزك الله . أن الإخوان المسلمين رأوا في الإسلام أفضل الوسائل لتهذيب نفوسهم وتجديد أرواحهم وتزكية أخلاقهم، فاقتبسوا من نوره عقيدتهم، واغترفوا من فيضه مشربهم . وأنت جد عليم بأن منزلة الصلاة من الإسلام منزلة الرأس من الجسد ، فهي عماده ودعامته وركنه وشعيرته ومظهره الخالد وآيته الباقية ، وهى مع ذلك قرة العين وراحة الضمير وأنس النفس وبهجة القلب والصلة بين العبد والرب، والمرفأة تصعد برقيها أرواح المحبين إلى أعلى عليين فتنعم بالأنس وترتع في رياض القدس وتجتمع لها أسباب السعادة من عالمي الغيب والشهادة .

وتلك بارقة تسطع في نفس من قدح زنادها، وحلاوة يستشعرها من تذوق شهدها، وهل رأيت بربك أعزب وأحلى وأروع وأجلى من مظهر ذلك الخاشع العابد الراكع الساجد القانت آناء الليل يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه، وقد نامت العيون، وهدأت الجفون، واطمأنت الجنوب في المضاجع، وخلا كل حبيب بحبيبه، ونادى منادى العارفين من المحبين:

سهر العيون لغير وجهك ضائع وبكاؤهن لغير فقدك باطل

آه يا أخي، إن موقفاً واحداً من هذه المواقف أنفع للقلب وأفعل في النفس وأذكى للروح من ألف عظة قولية وألف رواية تمثيلية وألف محاضرة كلامية، وجرب تر،

ولأمر ما كان ذلك في لسان القرآن آية الإحسان ،﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ، كَانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ، وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ (الذريات:١٦-١٨) .

ولأمر ما كان أجر هؤلاء سنياً خفياً ، ﴿فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة:١٧]، ألم يكن عملهم خفياً كذلك، وهل تصلح الخلوات في حضرة الرقباء؟ وهل يلذ لمحب في غير خلوة نجاء ؟ وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان ؟ ولقد حدثوا أن أبا القاسم الجنيد رؤي بعد وفاته فقيل له : ما فعل الله بك ؟ فقال : طاحت الإشارات، وفنيت العبارات، وغابت العلوم، وضاعت الرسوم، وما نفعنا إلا ركيعات كنا نركعها في جوف الليل.

لا تستغرب . أيها القارئ الكريم . فما نفع القلب خير من خلوة يدخل بها ميدان فكره، وما تزكت النفس بأفضل من ركعات خاشعات تجلو القلوب وتقشع صدأ الذنوب وتغسل درن العيوب وتقذف في القلب نور الإيمان وتثلج الصدر ببرد اليقين)[1].

ثم يذكر الإمام . رحمه الله . موقف المسلمين اليوم من الصلاة لينفذ من هذا كله، إلى مقصد الشريعة من فرض الصلاة، وهذا المقصد هو الذي يحفظ النفس ويزكيها، فيقول: (ونحن بعد هؤلاء أمام صنفين من المسلمين : الغالبية العظمي والكثرة الساحقة، وهؤلاء يؤدون صلاة آلية ميكانيكية، ورثوها عن آبائهم واعتادوها بمرور الأيام وكر الأعوام لا يتعرفون أسرارها ولا يستشعرون آثارها، وحسب أحدهم أن يلفظ الكلمات، ويأتي بالحركات، ويسرد الهيئات ثم ينصرف معتقداً أنه أدى الفريضة وأقام الصلاة وخلص من العقوبة ونال الثواب.

هذا وهم لا حقيقة له. وليست هذه الأقوال والأفعال من الصلاة إلا جسما روحه

---

(1) لم أجده بهذا اللفظ وإنما الموجود في مصنف عبد الرزاق (....إنما الصلاة تخشع وخشوع لله) كتاب الصلاة باب الالتفات في الصلاة، ح: ٣٢٦٧.

الفهم وقوامه الخشوع وعماده التأثر، وقد ورد في الحديث (إنما الصلاة تمسكن وتواضع وتضرع وتأوه..الخ)[1].

ولهذا رأيت أكثر الناس لا ينتفعون بصلاتهم ولا ينتهون بها عن الفحشاء والمنكر، مع أنها لو كملت لأثمرت تزكية النفس وتطهير القلب ولمنعت صاحبها اقتراف الآثام وغشيان المحارم.

وصنف ثاني من الناس . وهو قليل نادر . فهم هذه المعاني من أسرار الصلاة فهو جاد في تحقيقها عامل علي استكمالها، يصلي بخشوع وتدبر واطمئنان وتفكر، ويخرج من صلاته وقد تذوق حلاوة العبادة وتأثر بمشاعر الطاعة واستنار بنور الله الذي يتجلى به علي من وصلوا نفوسهم بجلال معرفته. وفي الحديث : (من صلي صلاة لوقتها، وأسبغ وضوءها، وأتم ركوعها وسجودها وخشوعها عرجت وهي بيضاء مصفرة تقول حفظك الله كما حفظتني، ومن صلاها لغير وقتها، ولم يسبغ وضوءها، ولم يتم ركوعها ولا سجودها ولا خشوعها عرجت وهي سوداء مظلمة تقول ضيعك الله كما ضيعتني، حتى إذا كانت حيث شاء الله لفت كما يلف الثوب الخلق فيضرب بها وجهه)[2].

ولهذا تفاوتت درجات الناس، واختلف ثوابهم وإن اتحدت الصلاة شكلا ومظهراً وقولاوفعلاً .

ولهذا كانت عناية السلف الصالحين رضوان الله عليهم عظيمة بإحضار قلوبهم في صلواتهم وتمام خشوعهم في عباداتهم . ولهذا كان أول وصف وصف به

---

(1) مجموعة الرسائل، ص٧٣-٧٤.

(2) مسند البزار مسند عبادة بن الصامت، ح: ٢٦٩١، والطبراني في المعجم الأوسط ح: ٣٠٩٥.

المؤمنون: ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ [المؤمنون:٢].

علم الإخوان المسلمون هذا فأخذوا أنفسهم به، وحاولوا أن يدرجوا عليه، وكان أهم مظهر من مظاهرهم العملية : أن يحسنوا الصلاة، وهم يعتقدون أنهم بهذا يسلكون أقرب السبل إلى تجديد النفوس وتطهير الأرواح﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة:١٥٣].

فيا أيها الأخ المسلم :تفهم ذلك جيداً، وكن مثال الإحسان في صلاتك، واعتقد أن أول الخطوات العملية فيها بيننا أن نحسن الصلاة والزكاة)[1].

ثانيا : الزكاة ودورها في حفظ النفس بالتزكية :

وإن كانت الصلاة تنقي النفس، وترقى بالوجدان، ويخشع القلب، وينعكس ذلك كله على الجوارح، فيظهر في السلوك، فإن الزكاة كذلك تطهر المال وتنميه، وتزكي النفس وتعالجها من الشح والبخل، وتحفظها من الأنانية والأثرة، يقول الإمام البنا . رحمه الله . : (هما فريضتان، جعلهما الله سياج الملة ومظهر الشريعة، وقرن بينهما في كثير من آيات كتابه الكريم تنبيهاً علي عظيم فضلهما وإظهاراً لجلالة قدرهما :هما الصلاة والزكاة ..فبالأولى صلاح ما بينك وبين الله، وبالثانية صلاح ما بينك وبين الخلق .وهل في الوجود إلا خالق ومخلوق ؟ فإذا صلح شأنه معهما فقد بلغت غاية الصلاح ووصلت إلى ذروة السعادة.

ولئن كانت الصلاة مطهرة النفس وتصفية الروح، فإن الزكاة مطهرة المال وتصفية الكسب : ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ﴾ [التوبة:١٠٣].

---

(1) مجموعة الرسائل، ص٧٥-٧٦.

ولقد جعل الله تبارك وتعالى الصلاة والزكاة مظهر الإيمان ودليل صحة العقيدة، وأشار القرآن في الآية الكريمة ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾ [التوبة:١١]، وهو بمفهومه يدل على أن من قصر في أداء الصلاة والزكاة فليس من الإخوان في الدين.

وإنما كان ذلك كذلك لأن الزكاة نظام المشروعات وقوام الأعمال النافعة وتقويم الفطرة الشحيحة .. تعوّد السخاء، وتدّرب على القصد، وتطبع القلوب على الحب، وتدعو النفوس إلى الألفة وتنزع الأغلال والأحقاد، وتدعو إلى التعاون والتساند في الخيرات وتجنب أصول الشرور والمفاسد، وتخمد نار الثورات والفتن.

وكل امرئ يولي الجميل محبب ومن وجد الإحسان قيدا تقيدا

والزكاة مهمة من مهمات الحاكم: عليه القيام بجمعها، وتنظيم تحصيلها والإشراف على إنفاقها في مصارفها التي جعل الله لها. ولو أن الحكومات الإسلامية عنيت بشأن الزكاة لكانت لها مورداً حلالاً طيباً يغنيها عن الضرائب الجائرة والمكوس الظالمة، ولأحيت بذلك فريضة ضائعة وركناً مهملا من أركان الإسلام. فأما إذا نسيت الحكومات الإسلامية واجبها حيال الزكاة جمعاً وإعطاءً فإن على الأفراد أن يقوموا بإحياء هذه الشعيرة وإعادة هذه الفريضة وإخراج حق الله لعيال الله، فمن قصر في ذلك فإثمه على نفسه وجريرته على عنقه وجزاؤه أليم عند ربه.

وها أنت ترى أن أفراد المسلمين تغافلوا عن حق الله في أموالهم ولم يخرجوا نصيب الفقراء من إيرادهم، مما قطع العلائق وأكثر الجرائم ولوث النفوس وزاد أحقادها وأضغانها)[1].

ولم يقف الإمام البنا ـ رحمه الله كعادته دائما ـ عند التنظير، أو الوعظ والإرشاد

(1) مجموعة الرسائل، ص ٧٦-٧٨.

ولكنه خطا خطوة نحو العمل، فأنشاء الجمعيات الخيرية التي تقوم بالدور الواجب على الحكومات، بعد أن قصرت الحكومات في القيام بواجبها تجاه جمع الزكاة من الأغنياء والقيام على توزيعها على مستحقيها، فيقول : (رأى الإخوان المسلمون ذلك فأرادوا أن يكونوا الرعيل الأول يضربون للناس المثل عملياً في إحياء هذا الركن، ويبدءون بأنفسهم فيخرجون زكاة أموالهم طيبة بها نفوسهم، فإذا نجحوا في ذلك كانوا حجة على المقصرين ودليلاً للراغبين ودعاة للقاعدين .

وقد سبقت إلى الخير في هذا الشأن برمبال القديمة من أعمال مديرية الدقهلية بالقطر المصري، فجمعت الزكاة وصرفتها في مصارفها التي جاءت بها الآية الكريمة :

﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة:٦٠].

ولقد كنت عظيم الإشفاق شديد الخوف من انقسام الوحدة وانصداع الكلمة، لأن في المسلمين الآن خصال تحول دون اجتماعهم على مثل هذا الخير، ولا سيما إذا اتصل بالمادة والمال فما بالك إذا كان المشروع من أساسه مالياً ؟ كنت أخشى على إخوان برمبال شح الأغنياء وغلّهم أيديهم عن الإعطاء. وتهم الظنيين الذين يخلقون لكل شيء عيباً ولو كان هو الكمال مجسماً، فيلمزون المطوعين بالرياء ويلمزون الجامعين بالمحاباة .. وجشع الآخذين الذين يود أحدهم أن لو كان ما جمع له كله ليس لغيره منه نصيب .. والعادات المتوارثة التي درجنا عليها والتي تجعل كل بيت ممن بقيت فيهم بقية من المحافظة على إخراج الزكاة يفضل أن يشرف بنفسه على صرف زكاة ماله ولا يؤثر بذلك غيره مهما كان في هذا الإيثار من فائدة.

كنت أخشى على إخوان برمبال هذه المعوقات الأربعة وهي واضحة ملموسة في مجتمعاتنا مما يبكي ويؤسف، ولكن إخوان برمبال وأهل برمبال كانوا أرفع من ذلك

وأسمي فقرت بهم العين، وسعدت بهم النفس واطمأن بعملهم القلب وأثبتوا للناس أن الطهارة . إن خالطت نفوسهم . والثقة . إن تبودلت بينهم . كفيلتان بتذليل كل عقبة.

لقد كان أغنياء برمبال أرفع من أن يمتنعوا عن أداء حق الله إذ داعي الزكاة بهم أهابا .. ولقد كان فقراء برمبال أرفع من أن تمتد أعينهم إلى حقوق إخوانهم فما هو إلا أن وصل إلى كل منهم ما قسم له من الزكوات المجموعة حتى سرت نفسه ولهج لسانه بالدعاء للمزكين وللمنظمين .. ولقد كان إخوان برمبال أحكم وأحزم بتوفيق الله تعالى من أن يدعو للتهم مجالا وللظنة شبهة . فتكونت منهم لجنة أولى لعمل الكشوف بالمستحقين أخذ عليها العهد والميثاق ألا تحابي ولا تجامل ولا تفشي سرا ولا تظهر عورة، ثم تلتها لجنة أخرى للفحص عن هذه الكشوف ومراجعتها والتثبت من صحتها، ثم لجنة ثالثة لتقدير الأنصبة المستحقة لكل من تثبت حاجتة واستحقاقه، ثم لجنة رابعة لمراجعة هذا التقدير وإقراره ثم لجنة خامسه للقيام بالتوزيع عمليا. وكان هذا النظام الدقيق الموفق مدعاة إلى الإعجاب والفرح من كل من شاهدوه أو علموا به أو رأوا آثاره الرضية في نفوس برمبال وجيران برمبال.. وكان أهل برمبال بعد ذلك أكبر من العادات وأسمي من القيود فاتبعوا الرشد وآثاروا التعاون وضربوا في ذلك أروع المثل في تحقيق أمنية كنا نحلم بها من زمن بعيد.

أفلست ترى أيها القارئ بعد هذا البيان أن الإخوان المسلمين قوم عمليون، وأفلا يرى الإخوان المسلمون في ذلك تحقيقاً لآمالهم فيعملوا علي أن نسمع في القريب عن هذه الخطوات الموفقة في بقية الشعب النشيطة ﴿أَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللهِ هُوَ مَوْلاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ [الحج:٧٨][1].

ثالثًا : القرآن الكريم ودوره في حفظ النفس بالتزكية :

(1) مجموعة الرسائل، ص٧٦-٧٨.

بعد أن تحدث الإمام البنا ـ رحمه الله ـ عن العبادات ودورها في تزكية النفس، وضرب مثلا بالصلاة والزكاة، كأهم فريضتين من فرائض العبادات، يتحدث عن القرآن ودوره في تزكية النفس.

ونستفيد من كلامه فائدتين :

الأولى: أنه ينظر لمقاصد الأعمال، ولا يقف عند حرفيتها، فعلى الرغم من أنه يؤكد على ما ذكره الشاطبي ـ رحمه الله ـ من أن (.. الأصل في العبادات التعبد دون الالتفات إلى المعاني، وفي العاديات الالتفات إلى الأسرار و الحكم والمقاصد...)، ويجعل ذلك جزءا من الأصول العشرين، في ركن الفهم، غير أنه يعلم ويؤكد على أن للعبادات مقاصد، وأن مراعاتها مطلوب من كل مسلم يريد أن ينهض بعباداته في الدنيا ويؤجر في الآخرة.

الثانية: أنه يعمل على حفظ النفس الحفظ الحقيقي عن طريق التربية والتزكية بهذه العبادات.

فيقول في القرآن الكريم (ما رأيت ضائعاً أشبه بمحتفظ به، ولا مهملاً أشبه بمعني بشأنه من القرآن الكريم في أمتنا هذه :أنزل الله القرآن الكريم كتاباً محكماً ونظاماً شاملاً وقواماً لأمر الدين والدنيا، ﴿ لاَ يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت:٤٢].

وأعتقد أن أهم الأغراض التي تجب على الأمة الإسلامية حيال القرآن الكريم ثلاثة مقاصد :

أولها: الإكثار من تلاوته، والتعبد بقراءته، والتقرب إلى الله تبارك وتعالى به.

وثانيها: جعله مصدراً لأحكام الدين وشرائعه، منه تؤخذ وتستنبط وتستقي وتتعلم.

وثالثها: جعله أساساً لأحكام الدنيا منه تستمد وعلى مواده الحكيمة تطبق.

تلك أهم المقاصد والأغراض التي أنزل الله لها كتابه وأرسل به نبيه وتركه فينا من بعده واعظاً مذكراً وحكماً عدلاً وقسطاساً مستقيماً .

ولقد فهم السلف رضوان الله عليهم هذه المقاصد فقاموا بتحقيقها خير قيام، فكان منهم من يقرأ القرآن في ثلاث، ومنهم من يقرأه في سبع، ومنهم من يقرأه في أقل من ذلك أو أكثر. ولقد كان بعضهم إذا شغل عن ورده من القرآن نظر في المصحف وقرأ بعض الآيات الكريمة وقال : حتى لا أكون ممن اتخذوا هذا القرآن مهجوراً . فكان القرآن ربيع قلوبهم وورد عباداتهم يتلونه آناء الليل وأطراف النهار.

فأما التعبد بتلاوة القرآن وقرائته آناء الليل وأطراف النهار فالنذر اليسير منا من عني بذلك وعمل عليه .. وأما بقية المتعبدين فلهم فيما وضعوا لأنفسهم ووضع لهم شيوخهم من أوراد وأحزاب ووظائف وصلوات ما تركوا به كتاب الله وأحلوه محله حفظاً واهتماماً وتعبداً وتلاوةً وترديداً وتكرارا.

وما نحرم تلاوة الأوراد الصحيحة، ولا نحول بين الناس والأدعية والأحزاب التي لا تخالف ظاهر الشريعة . ولكن نقول لهم : كتاب الله أولى أولاً، رتبوا على أنفسكم منه أحزاباً تصل قلوبكم به وتربط أرواحكم بفيضه وإشراقه، ثم اذكروا الله بعد ذلك بما شئتم من الصيغ التي تنطبق على أحكام الدين . أما أن تهملوا القرآن جملة وتجعلوا عبادتكم كلها مما وضعتم لأنفسكم أو وضع غيركم لكم فترك لكتاب الله، وإهمال لحقوقه.

وأما استنباط الأحكام منه فقد وقع الناس في جهالة بكتاب الله تجعل بينهم وبين ذلك حجاباً كثيفاً وسداً منيعاً، مما اضطرهم إلى القناعة بالملخصات والرضا بالتعليقات وقصر هممهم عن السمو إلى ما هو أرقى من ذلك من الغايات .

وأما تطبيق أحكامه الدنيوية فقد استبدلها القوم بغيرها وأحلوا سواها محلها،

وجعلواتشريع الأجانب وما وضع الفرنسيون والرومان أساساً لتشريعهم ومصدراً لأحكامهم.وبذلك تعطلت أحكام كتاب الله وأصبحت بين المسلمين نسياً منسياً وفيها . علم الله . لهم كل خير لو كانوا يسمعون .. واكتفى المسلمون بعد هذا كله من القرآن الكريم بأن جعلوه تمائم لأمراضهم، وزينة لمجتمعاتهم، وسلوة في حفلهم وأفراحهم وأحزانهم . وليتهم إذ جعلوه كذلك أعطوه حقه، بل تراهم في محله لاهين غافلين لاعبين منصرفين إلى اللغو والحديث واللهو والعبث، والله تبارك وتعالى يقول : (وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) (الأعراف:٢٠٤) .

كان القرآن فيما مضى زينة الصلوات فأصبح اليوم زينة الحفلات، وكان قسطاس العدالة في المحاكم فصار سلوة العابثين في المواسم، وكان واسطة العقد في الخطب والعظات فسار بواسطة العقد في الحلى والتميمات، أفلست محقاً حين قلت : ما رأيت ضائعاً أشبه بحتفظٍ به من كتاب الله ! تناقض عجيب في هذا الموقف منا أمام القرآن : أننا نعظمه، ما في ذلك شك .. ونذوذ عنه، ما في ذلك شك .. ونتقرب إلى الله به ما في ذلك شك، ولكن ياقوم : أخطأتم طريق التعظيم، وتنكبتم سبيل الذود عنه، وضللتم عن جادة التقرب إلى الله به[1].

مقاصد القرآن الكريم :

وفي رسالة بين الأمس واليوم يؤكد الإمام البنا . رحمه الله . على مقصد القرآن، ودوره في حفظ النفس الإنسانية خاصة، وحفظ الكيان الاجتماعي عامة فيقول: (والقرآن هو الجامع لأصول هذا الإصلاح الاجتماعي الشامل، و قد أخذ يتنزل على النبي ﷺ، ويعلن به المؤمنين بين الآن والآن بحسب الوقائع والظروف والمناسبات.

كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلا ، وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ

(1) مجموعة الرسائل، ص٨٤– ٨٨، باختصار وتصرف.

﴿ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾ [الفرقان:٣٢-٣٣].

حتى اكتمل به الوحي، وحفظ في الصدور والسطور في مدى اثنتين وعشرين سنة ونيفا، و قد جمع الله فيه لهذه الأمة تبيان كل شيء، و أصول الإصلاح الاجتماعي الكامل الذي جاء به تكاد تنحصر في هذه الأصول:

أ- الربانية.

ب- التسامي بالنفس الإنسانية.

ج- تقرير عقيدة الجزاء.

د- إعلان الأخوة بين الناس.

هـ- النهوض بالرجل والمرأة جميعا، و إعلان التكافل، والمساواة بينهما، وتحديد مهمة كل منهم تحديدا دقيقا.

و- تأمين المجتمع بتقرير حق الحياة والملك والعمل والصحة والحرية والعلم والأمن لكل فرد و تحديد موارد الكسب.

ز- ضبط الغريزتين: غريزة حفظ النفس، وحفظ النوع، وتنظيم مطالب الفم والفرج.

ح- الشدة في محاربة الجرائم الأصلية.

ط- تأكيد وحدة الأمة، والقضاء على كل مظاهر الفرقة وأسبابها.

ي- إلزام الأمة الجهاد في سبيل مبادئ الحق التي جاء بها النظام.

ك- اعتبار الدولة ممثلة للفكرة و قائمة على حمايتها، ومسؤولة عن تحقيق أهدافها في المجتمع الخاص، وإبلاغها للناس جميعا)[1].

---

(1) مجموعة الرسائل، ص٩٣-٩٤ باختصار وتصرف.

إهمال الحفظ المادي يؤثر على الحفظ المعنوي :

ثم يرصد الإمام .رحمه الله .مظهرا من المظاهر التي تؤثر على النفس وتزكيتها، حيث يعمل الفقر والمرض فيها عمله، والفقير غالبا مشغول بتحصيل قوته، وقوت أولاده، والمريض لا يستطيع أن يقدم شيئا لنفسه فضلا عن أمته، وهذا يصلح للاستدلال في الحفظ المعنوي والحفظ المادي للنفس فيقول : (فاذكروا أيها الإخوان أن أكثر من ٦٠% من المصريين يعيشون أقل من معيشة الحيوان، ولا يحصلون علي القوت إلا بشق النفس، وأن مصر مهددة بمجاعة قاتلة ومعرضة لكثير من المشكلات الاقتصادية التي لا يعلم نتيجتها إلا الله، وأن مصر بها أكثر من ٢٣٠ شركة أجنبية تحتكر كل المرافق العامة وكل المنافع الهامة في جميع أنحاء البلاد، وأن دولاب التجارة والصناعة والمنشآت الاقتصادية كلها في أيدي الأجانب المرابين، وأن الثروة العقارية تنتقل بسرعة البرق من أيدي الوطنيين إلى أيدي هؤلاء، وأن مصر أكثر بلاد العالم المتمدين أمراضاً وأوبئة وعاهات، وأن أكثر من ٩٠% من الشعب المصري مهدد بضعف البنية وفقد الحواس ومختلف العلل و الأمراض، وأن مصر لا زالت إلى الآن جاهلة لم يصل عدد المتعلمين فيها إلى الخمس بما في ذلك أكثر من مائة ألف شخص لا يتجاوز تعليمهم برامج مدارس الإلزام، وأن الجرائم تتضاعف في مصر وتتكاثر بدرجة هائلة حتى أن السجون لتخرج أكثر مما تخرج المدارس، وأن مصر لم تستطع إلى الآن أن تجهز فرقة واحدة في الجيش كاملة المعدات، وأن هذه المعاني والصور تتراءى في كل بلد من بلدان العالم الإسلامي، فمن أهدافكم أن تعملوا لإصلاح التعليم ومحاربة الفقر والجهل والمرض والجريمة وتكوين مجتمع نموذجي أن ينتسب إلى شريعة الإسلام)[1].

(1) مجموعة الرسائل، ص ١٠٧.

وفي رسالة المؤتمر السادس يؤكد على هذا المعنى، ويذكر ما يتعرض له المواطن المصري من إهمال وظلم في كافة شئون حياته، وهذا ينعكس على حفظ النفس والكرامة الإنسانية فيقول: (إليكم أيها الإخوان بعض الأرقام التي تنطق بما يهددنا من أخطار اجتماعية ماحقة ساحقة إن لم يتداركنا فيها الله برحمته فسيكون لها أفدح النتائج وأعظم الآثار:

(١) الفلاحون في مصر يبلغون ثمانية ملايين، والأرض المنزرعة نحو ستة ملايين من الأفدنة وعلى هذا الاعتبار يخص الفرد الواحد نحو ثلثي فدان.

فإذا لاحظنا على جانب هذا أن الأرض تفقد خواصها لضعف المصارف وكثرة الإجهاد، وإنها لهذا السبب تأخذ من السماد الصناعي أضعاف غيرها من التي تقل عنها جودة وخصوبة ، وإن عدد السكان يتكاثر تكاثرا سريعا، وإن التوزيع في هذه الأرض يجعل من هذا العدد أربعة ملايين لا يملكون شيئا، ومليونين لا يزيد ملكهم عن نصف فدان ومعظم الباقي لا يزيد ملكه على خمسة أفدنة ، علمنا مبلغ الفقر الذي يعانيه الفلاحون المصريون ودرجة إنحطاط مستوى المعيشة بينهم درجة ترعب وتخيف.

إن أربعة ملايين من المصريين لا يحصل أحدهم على ثمانين قرشا في الشهر بشق النفس ، فإذا فرضنا أن له زوجة وثلاثة أولاد وهو متوسط ما يكون عليه الحال في الريف المصري بل الأسر المصرية عامة ، كان متوسط ما يخص الفرد في العام جنيهين ، وهو أقل بكثير مما يعيش به الحمار ، فإنه يتكلف على صاحبه (١٤٠ قرشا : خمس فدان برسيم، و ٣٠ قرشا حملا ونصف الحمل من التبن، و ١٥٠ قرشا أردب فول، و ٢٠ قرشا أربعة قراريط عفش ذرة، ومجموعها ٣٤٠ قرشا) وهو ضعف ما يعيش به الفرد من هؤلاء الآدميين في مصر ، وبذلك يكون أربعة ملايين مصري يعيشون أقل من عيشة الحيوان.

ثم إذا نظرت إلى طبقة الملاك الكبار وجدتهم مكبلين بالديون أذلاء للمحاكم والبنوك.

إن البنك العقاري وحده يحوز من الرهون قريبا من نصف مليون فدان، ويبلغ دينه على الملاك المصريين ١٧ مليونا من الجنيهات إلى أكتوبر سنة ١٩٣٦ ، وهذا بنك واحد.

وقد بلغ ثمن ما نزعت ملكيته للديون من الأرض والمنازل في سنة ١٩٣٩ (٣٤٦.٢٥٦ جنيها) فعلى أي شيء تدل هذه الأرقام؟

(٢) العمال في مصر يبلغون (٥.٧١٨.١٢٧) أي نحوا من ستة ملايين عامل، يشكو التعطل (٥١١.١١٩) أي أكثر من نصف مليون لا يجدون شيئا، وهناك الجيوش من حملة الشهادات العاطلين.

فكيف يشعر إنسان هذه حاله بكرامته الإنسانية أو يعرف معنى العاطفة القومية والوطنية وهو في بلد لا يستطيع أن يجد فيه القوت، ولقد استعاذ النبي ﷺ من الفقر، وقديما قيل: يكاد الفقر أن يكون كفرا، فضلا عن أن المشتغلين من العمال مهددون باستغلال أصحاب رأس المال وضعف الأجور والإرهاق في العمل ، ولم تصدر الحكومات بعد التشريع الكافي لحماية هؤلاء البائسين ، وقد ضاعفت حالة الحرب القائمة هذا العدد من المتعطلين وزادت العاملين منهم بؤسا على بؤسهم)[1].

التربية الشاملة للنفس والأسرة والمجتمع :

وفي رسالة الإمام . رحمه الله . إلى الشباب يؤكد على معنى تربية النفس وتزكيتها فيقول: (سنربي أنفسنا ليكون منا الرجل المسلم، وسنربي بيوتنا ليكون منها البيت المسلم، وسنربى شعبنا ليكون منه الشعب المسلم؟ وسنكون من بين هذا الشعب

(1) مجموعة الرسائل، ص٢٠٧ -٢٠٨ .

المسلم، وسنسير بخطوات ثابتة إلى تمام الشوط، وإلى الهدف الذي وضعه الله لنا لا الذي وضعناه لأنفسنا، وسنصل بإذن الله وبمعونته، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولوكره الكافرون.

وقد أعددنا لذلك إيمانا لا يتزعزع، وعملا لا يتوقف، وثقة بالله لا تضعف، وأرواحا أسعد أيامها يوم تلقى الله شهيدة في سبيله)[1].

تزكية النفس مطلب كل منتسب للإخوان :

وفي رسالة المؤتمر السادس يؤكد على مسئولية كل عضو ينتمي للجماعة بأن يهتم بتربية نفسه وتزكيتها، ودعوة غيرها ومساعدته في هذه التزكية فيقول: (يتصل الأخ بالإخوان ، فيكون مطالبا بتطهير نفسه، وتقويم مسلكه، وإعداد روحه وعقله وجسمه للجهاد الطويل الذي ينتظره في مستقبل الأيام ، ثم هو مطالب بأن يشيع هذه الروح في أسرته وأصدقائه وبيئته ، فلا يكون الأخ أخا مسلما حقا حتى يطبق على نفسه أحكام الإسلام وأخلاق الإسلام ، ويقف عند حدود الأمر والنهي التي جاء بها رسول الله ﷺ عن ربه: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا، قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ، وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴾ [الشمس:٧-١٠][2].

التغيير يبدأ من تزكية النفس :

وفي رسالة دعوتنا في طور جديد يتحدث الإمام البنا .رحمه الله . عن يقظة الروح ودورها في تزكية النفس، حيث إن التغيير لا يأتي من الخارج بل ينبع من نفس الإنسان، ولن يغير الله حالنا إلا إذا غيرنا أنفسنا، فيقول : (وينظر الناس في الدعوات إلى مظاهرها العملية وألوانها الشكلية، ويهملون كثيرا النظر إلى الدوافع النفسية والإلهامات الروحية التي هي في الحقيقة مدد الدعوات وغذاؤها وعليها يتوقف

(1) مجموعة الرسائل، ص١٧٩.

(2) مجموعة الرسائل، ص ٢٠٥.

انتصارها ونماؤها. وتلك حقيقة لا يجادل فيها إلا البعيد عن دراسة الدعوات وتعرف أسرارها، إن من وراء المظاهر جميعا في كل دعوة روحا دافعة، وقوة باطنة تسيرها وتهيمن عليها وتدفع إليها، ومحال أن تنهض أمة بغير هذه اليقظة الحقيقية في النفوس والأرواح والمشاعر:﴿إِنَّ اللهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد:١١].

ولهذا أستطيع أن أقول إن أول ما نهتم له في دعوتنا، وأهم ما نعول عليه في نمائها وظهورها وانتشارها هذه اليقظة الروحية المرتجلة. فنحن نريد أول ما نريد يقظة الروح، حياة القلوب، صحوة حقيقية في الوجدان والمشاعر، وليس يعنينا أن نتكلم عما نريد بهذه الدعوة من فروع الإصلاح في النواحي العملية المختلفة بقدر ما يعنينا أن نركز في النفوس هذه الفكرة.

نحن نريد نفوساً حية قوية فتية، قلوباً جديدة خفاقة، مشاعر غيورة ملتهبة متأججة أرواحاً طموحة متطلعة متوثبة، تتخيل مثلاً علياً، وأهدافاً سامية لتسمو نحوها وتتطلع إليها ثم تصل إليها، ولابد من أن تحدد هذه الأهداف والمثل، ولابد من أن تحصر هذه العواطف والمشاعر، ولابد من أن تركز حتى تصبح عقيدة لا تقبل جدلاً ولا تحتمل شكاً ولا ريباً . وبغير هذا التحديد والتركيز سيكون مثل هذا الصحوة مثل الشعاع التائه في البيداء لا ضوء له ولا حرارة فيه، فما حدود الأهداف وما منتهاها ؟!)[1].

تزكية النفس من أهم أهداف بعثة الرسل :

ثم يؤكد الإمام . رحمه الله . أنه ليس مبتدعا في هذه المسألة، فهو يقتفي خطوات النبي ﷺ في تربيته للرعيل الأول من صحابته رضوان الله عليهم فيقول:

(1) مجموعة الرسائل، ص٢٣٢- ٢٣٣.

(إننا نتحرى بدعوتنا نهج الدعوة الأولى، ونحاول أن تكون هذه الدعوة الحديثة صدى حقيقياً لتلك الدعوة السابقة التي هتف بها رسول الله ﷺ في بطحاء مكة قبل ألف ومئات من السنين، فما أولانا بالرجوع بأذهاننا وتصوراتنا إلى ذلك العصر المشرق بنور النبوة، الزاهي بجلال الوحي، لنقف بين يدي الأستاذ الأول وهو سيد المربين وفخر المرسلين الهادين، لنتلقى عنه الإصلاح من جديد، وندرس خطوات الدعوة من جديد.

أي نور من وهج الشموس الربانية أشعله النبي الكريم في قلوب صحابته فأشرقت وأضاءت بعد ظلمة و ديجور ؟ وأي ماء من فيض الحياة الروحية أفاضه عليها فاهتزت وربت ونمت فيها الأزاهير وأورقت بالوجدانيات والمشاعر وترعرعت فيها العواطف والضمائر ؟!

ثلاث مشاعر يقذفها النبي ﷺ في قلوب أصحابه :

إن النبي ﷺ قذف في قلوب صحابته بهذه المشاعر الثلاثة فأشرقت بها وانطبعت عليها :

أ- قذف في قلوبهم أن ما جاء به هو الحق، وما عداه الباطل، وأن رسالته خير الرسالات، ونهجه أفضل المناهج، وشريعته أكمل النظم التي تتحقق بها سعادة الناس أجمعين.

ب- وقذف في قلوبهم أنهم ما داموا أهل الحق، وما داموا حملة رسالة النور وغيرهم يتخبط في الظلام، وما دام بين يديهم هدى السماء لإرشاد الأرض فهم إذن يجب أن يكونوا أساتذة الناس، وأن يقعدوا من غيرهم مقعد الأستاذ من تلميذه : يحنوا عليه ويرشده ويقومه ويسدده ويقوده إلى الخير ويهديه سواء السبيل.

ج- وقذف في قلوبهم أنهم ما داموا كذلك مؤمنين بهذا الحق معتزين بانتسابهم إليه،

فإن الله معهم يعينهم ويرشدهم وينصرهم ويؤيدهم ويمدهم إذا تخلى عنهم الناس، ويدفع عنهم إذا أعوزهم النصير وهو معهم أينما كانوا . وإذا لم ينهض معهم جند الأرض تنزل عليهم المدد من جند السماء.

وبهذه المشاعر الثلاثة : الإيمان بعظمة الرسالة، والاعتزاز باعتناقها، والأمل في تأييد الله إياها، أحياها الراعي الأول ﷺ في قلوب المؤمنين من صحابته بإذن الله ، وحدد لهم أهدافهم في هذه الحياة، فاندفعوا يحملون رسالتهم محفوظة في صدورهم أو مصاحفهم، بادية في أخلاقهم وأعمالهم معتدين بتكريم الله إياهم واثقين بنصره وتأييده ، فدانت لهم الأرض، وفرضوا على الدنيا مدنية المبادئ الفاضلة، وحضارة الأخلاق الرحيمة العادلة، وبدلوا فيها سيئات المادية الجامدة إلى حسنات الربانية الخالدة ، ويأبى الله إلا أن يتم نوره)[1].

الفرد المسلم والبيت المسلم والمجتمع المسلم :

ثم يذكر أن هذه التربية الروحية، والتزكية النفسية للفرد سيكون لها أثرها في إصلاحه أولا، ثم إصلاح الأسرة وإصلاح المجتمع كله فيقول: (وهذا الشعور القوي الذي يجب أن تفيض به النفوس، وهذه اليقظة الروحية التي ندعو الناس إليها لابد أن يكون لها أثرها العملي في حياتهم، ولابد أن تسبقها ولا شك نهضة عملية تتناول الأفراد والأسر والمجتمعات.

(أ) ستعمل هذه اليقظة عملها في الفرد فإذا به نموذج قائم لما يريده الإسلام في الأفراد ... إن الإسلام يريد في الفرد :

١- وجداناً شاعراً يتذوق الجمال والقبح.

---

(1) مجموعة الرسائل، ص٢٣٣- ٢٣٥، بتصرف يسير.

٢- وإدراكاً صحيحاً يتصور الصواب والخطأ.

٣- وإدارة حازمة لا تضعف ولا تلين أمام الحق.

٤- وجسماً سليماً يقوم بأعباء الواجبات الإنسانية حق القيام، ويصبح أداة صالحة لتحقيق الإرادة الصالحة وينصر الحق والخير.

وقد وضع الإسلام تكاليفه الشخصية علي القواعد التي توصل إلى هذه النتائج كلها، وفي النظر الإسلامي ما يرقى بالعقول والألباب ويدفعها إلى كشف ستائر الكون ومعرفة دقائق الوجود.

وفي الخلق الإسلامي ما يربي الإرادة الحازمة والعزيمة الماضية الصارمة، وفي النظام الإسلامي في الطعام والشراب والمنام وتوابع ذلك من شؤون الحياة ما لو اتبعه الفرد لحفظ جسمه من مهلكات لا دواء لها، ولظل في وقاية من فواتك الأمراض .

ولهذا نوجب علي الأخ المسلم أن يتعبد بما أمره الله به ليرقى وجدانه، وأن يتعلم ما وسعه العلم ليتسع إدراكه، وأن يتخلق بأخلاق الإسلام لتقوى إرادته، وأن يلتزم نظام الإسلام في الطعام والشراب والنوم ليحفظ الله عليه بدنه من غوائل الأمراض والسقام.

والإسلام حين يضع هذه القواعد لا يضعها للرجال ويدع النساء؛ ولكن الصنفين في هذه الناحية الفردية في الإسلام سواء، فعلي الأخت المسلمة أن تكون كالأخ المسلم في دقة وجدانها، وسمو إدراكها، ومكانة خلقها وسلامة بدنها .

(ب) وسيكون لهذا الإصلاح الفردي أثره في الأسرة، ذلك أن الأسرة مجموعة أفراد، فإذا صلح الرجل وصلحت المرأة . وهما عماد للأسرة . استطاع أن يكونا بيتاً نموذجياً وفق القواعد التي وضعها الإسلام، وقد وضع الإسلام قواعد البيت فأحكم وضعها، فأرشد إلى حسن الاختيار، وبين أفضل الطرائق للارتباط، وحدد الحقوق والواجبات، وأوجب علي الطرفين رعاية ثمرات هذا الزواج حتى تينع وتنضج في غير

عبث ولا إهمال، وعالج ما يعترض هذه الحياة الزوجية من المشكلات أدق علاج، وأختط في كل نظراته طريقاً وسطاً لا تفريط فيه ولا إفراط.

(ج) وإذا صلحت الأسرة فقد صلحت الأمة، وإنما الأمة مجموعة من الأسر، وإنما الأسرة أمة مصغرة والأمة أسرة مكبرة، وقد وضع الإسلام للأمة قواعد الحياة الاجتماعية السعيدة...)[1].

أهمية الأخلاق وأثرها في بناء الأمم :

وفي رسالة نحو النور يذكر الإمام . رحمه الله . أهمية الأخلاق للأمة الناهضة كي تصحو من غفلتها، وتنهض من كبوتها، فيقول : (والأمة الناهضة أحوج ما تكون إلى الخلق .. الخلق الفاضل القوي المتين والنفس الكبيرة العالية الطموحة، إذ أنها ستواجه من مطالب العصر الجديد مالا تستطيع الوصول إليه إلا بالأخلاق القوية الصادقة النابعة من الإيمان العميق والثبات الراسخ والتضحية الكثيرة والاحتمال البالغ ، وإنما يصوغ هذه النفس الكاملة الإسلام وحده، هو الذي جعل صلاح النفس و تزكيتها أساس الفلاح، فقال تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ، وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴾ [الشمس:٩-١٠].

وجعل تغيير شئون الأمم وقفا على تغير أخلاقها وصلاح نفوسها فقال: ﴿ إِنَّ اللهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ [الرعد:١١].

وإنك لتسمع الآيات البالغة في مفردات الأخلاق الكريمة فتراها القوة التي لا تغالب في إصلاح النفوس وإعدادها وتزكيتها وتصفيتها، مثل قوله تعالى في الوفاء: ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً لِيَجْزِيَ اللهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ ﴾ [الأحزاب:٢٣-٢٤].

---

(1) مجموعة الرسائل، ص٢٣٥-٢٣٦، بتصرف يسير.

وفي البذل والتضحية والصبر والاحتمال ومغالبة الشدائد: ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلا نَصَبٌ وَلا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَطَئُونَ مَوْطِئاً يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلاً إِلا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ * وَلا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً وَلا يَقْطَعُونَ وَادِياً إِلا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [التوبة:١٢٠-١٢١].

وليس كالإسلام عاملا على إيقاظ الضمير وإحياء الشعور وإقامة رقيب على النفس وذلك خير الرقباء، وبغيره لا ينتظم قانون ما إلى أعماق السرائر وخفيات الأمور) (١).

الإسلام يحافظ على النفس الإنسانية عامة :

ويذكر في نفس الرسالة كيف أن الإسلام حافظ على الحياة الإنسانية عامة، وليست نفس المؤمنين فحسب، ولكنه دين يحمى حقوق الأقليات غير المسلمة في المجتمع المسلم، ويراعي حقوق الإنسانية بصفة عامة فيقول: (يظن الناس أن التمسك بالإسلام وجعله أساساً لنظام الحياة ينافي وجود أقليات غير مسلمة في الأمة المسلمة، وينافي الوحدة بين عناصر الأمة، وهي دعامة قوية من دعائم النهوض في هذا العصر، ولكن الحق غير ذلك تماماً، فإن الإسلام الذي وضعه الحكيم الخبير الذي يعلم ماضي الأمم وحاضرها ومستقبلها قد احتاط لتلك العقبة وذللها من قبل، فلم يصدر دستوره المقدس الحكيم إلا وقد اشتمل على النص الصريح الذي لا يحتمل لبساً ولا غموضاً في حماية الأقليات، وهل يريد الناس أصرح من هذا النص: ﴿ لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ [الممتحنة:٨].

(1) مجموعة الرسائل، ص٢٨٣.

فهذا نص لم يشتمل على الحماية فقط، بل أوصى بالبر والإحسان إليهم، وأن الإسلام الذي قدّس الوحدة الإنسانية العامة في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ [الحجرات:١٣].

ثم قدس الوحدة الدينية العامة كذلك فقضى على التعصب وفرض على أبنائه الإيمان بالرسالات السماوية جميعا في قوله : ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ* صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً﴾ [البقرة:١٣٦-١٣٨].

ثم قدس بعد ذلك الوحدة الدينية الخاصة في غير صلف ولا عدوان فقال تبارك وتعالى : ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات:١٠].

هذا الإسلام الذي بني على هذا المزاج المعتدل والإنصاف البالغ لا يمكن أن يكون أتباعه سببا في تمزيق وحدة متصلة، بل بالعكس إنه أكسب هذه الوحدة صفة القداسة الدينية بعد أن كانت تستمد قوتها من نص مدني فقط.

وقد حدد الإسلام تحديدا دقيقا من يحق لنا أن نناوئهم ونقاطعهم ولا نتصل بهم فقال تعالى بعد الآية السابقة ﴿إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الممتحنة:٩].

وليس في الدنيا منصف واحد يكره أمة من الأمم على أن ترضى بهذا الصنف دخيلا فيها وفسادا كبيرا بين أبنائها ونقضا لنظام شؤونها.

ذلك موقف الإسلام من الأقليات غير مسلمة ، واضح لا غموض فيه ولا ظلم معه، وموقفه من الأجانب موقف سلم ورفق ما استقاموا وأخلصوا ، فإن فسدت ضمائرهم وكثرت جرائمهم فقد حدد القرآن موقفنا منهم بقوله :﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ *هَا أَنْتُمْ أُولاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلا يُحِبُّونَكُمْ﴾ [آل عمران:١١٨-١١٩].

وبذلك يكون الإسلام قد عالج هذه النواحي جميعا أدق العلاج وأنجحه وأصفاه)[1].

تزكية النفس من ضمن اركان البيعة :

وفي أركان البيعة من رسالة التعاليم يؤكد الإمام على تزكية النفس وتربيتها وتهذيبها، فيذكر ذلك في ركن الفهم وأصوله العشرين فيقول في الأصل الثالث: (وللإيمان الصادق والعبادة الصحيحة والمجاهدة نور وحلاوة يقذفهما الله في قلب من يشاء من عباده، ولكن الإلهام والخواطر والكشف والرؤى ليست من أدلة الأحكام الشرعية ، ولا تعتبر إلا بشرط عدم اصطدامها بأحكام الدين ونصوصه).

كما يذكر ذلك في الأصل الثامن عند حديثه عن الخلاف الفقهي وأنه لا يكون سببا للتفرق في الدين، ولا يكون سببا في هدم رابطة الإخوة، وهذا يعد نوعا من الحفظ المعنوي للنفس برباط الأخوة : (والخلاف الفقهي في الفروع لا يكون سببا للتفرق في الدين ، ولا يؤدي إلى خصومة ولا بغضاء ولكل مجتهد أجره ، ولا مانع من التحقيق العلمي النزيه في مسائل الخلاف في ظل الحب في الله والتعاون على الوصول إلى الحقيقة ، من غير أن يجر ذلك إلى المراء المذموم والتعصب)

(1) مجموعة الرسائل، ص ٢٨٥- ٢٨٦.

ويقول في الأصل السابع عشر مبيننا أهمية عمل القلوب (والعقيدة أساس العمل، وعمل القلب أهم من عمل الجارحة، وتحصيل الكمال في كليهما مطلوب شرعاً وإن اختلفت مرتبتا الطلب)[1].

وفي ركن الإخلاص فيقول : (و أريد بالإخلاص :

أن يقصد الأخ المسلم بقوله وعمله وجهاده كله وجه الله ، وابتغاء مرضاته وحسن مثوبته من غير نظر إلى مغنم أو مظهر أو جاه أو لقب أو تقدم أو تأخر، وبذلك يكون جندي فكرة وعقيدة ، لا جندي غرض و منفعة ،قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) (الأنعام:١٦٢) ، و بذلك يفهم الأخ المسلم معنى هتافه الدائم (الله غايتنا) و (الله أكبر ولله الحمد) [2].

وفي ركن العمل يذكر من مراحل العمل إصلاح النفس، وإصلاح النفس يكون وفق الصفات العشر المطلوبة من الأخ المسلم عامة، وممن ينتمي لجماعة الإخوان بشكل خاص، وهذه الصفات العشر مختارة بعناية فائقة، ودقة بالغة حتى تشمل حفظ النفس على مستويين؛ الحفظ المعنوي والحفظ المادي، فيقول في ركن العمل وهو ثاني الأركان بعد ركن الإخلاص: (و أريد بالعمل :

ثمرة العلم والإخلاص : ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة:١٠٥].

ومراتب العمل المطلوبة من اللأخ الصادق :

١- إصلاح نفسه حتى يكون : قوي الجسم، متين الخلق، مثقف الفكر، قادرا على الكسب، سليم العقيدة، صحيح العبادة، مجاهدا لنفسه، حريصا على وقته، منظما

(1) مجموعة الرسائل، ص٣٥٦ – ٣٥٩ .

(2) مجموعة الرسائل ص٣٥٩ .

في شؤونه، نافعا لغيره، وذلك واجب كل أخ على حدته)[1]. ونستطيع أن نعيد ترتيب هذه الصفات وفق مفهوم حفظ النفس بشقيه المعنوي والنفسي كما يلي:

الحفظ المعنوي ويشمل :

١- سليم العقيد.

٢- صحيح العبادة .

٣- متين الخلق.

٤- مجاهدا لنفسه.

٥- مثقف الفكر.

الحفظ المادي للنفس ويشمل :

١- قوي الجسم .

٢- قادر على الكسب.

٣- حريصا على وقته.

٤- منظما في شئونه .

٥- نافعا لغيره .

ثم يذكر تزكية النفس وتربيتها في باقي الأركان مثل الجهاد والتضحية والطاعة والثبات والتجرد، والأخوة والثقة، وقد سبق أن ذكرنا معظم هذه الأركان في حفظ الدين، ونذكر هنا ركن الأخوة كوسيلة من وسائل حفظ النفس، فيقول : (وأريد بالأخوة :

---

(1) مجموعة الرسائل، ص٣٥٩ .

أن ترتبط القلوب والأرواح برباط العقيدة، والعقيدة أوثق الروابط وأغلاها، والأخوة أخت الإيمان، والتفرق أخو الكفر، وأول القوة : قوة الوحدة، ولا وحدة بغير حب، وأقل الحب: سلامة الصدر ، وأعلاه: مرتبة الإيثار، ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر:٩].

والأخ الصادق يرى إخوانه أولى بنفسه من نفسه، لأنه إن لم يكن بهم، فلن يكون بغيرهم، وهم إن لم يكونوا به كانوا بغيره ، (وإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية)[١]، (والمؤمن للمؤمن كالبنيان، يشد بعضه بعضاً)[٢]. ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة:٧١]، وهكذا يجب أن نكون)[٣].

تزكية النفس من واجبات الأخ العامل :

ونختم بما ذكره الإمام . رحمه الله . في واجبات الأخ العامل الذي ختم بها رسالة التعاليم، وسنذكر منها هنا ما يناسب حفظ النفس حفظا معنويا فيقول: (أيها الأخ الصادق :

إن إيمانك بهذه البيعة يوجب عليك أداء هذه الواجبات حتى تكون لبنة قوية في البناء :

١- أن يكون لك ورد يومي من كتاب الله لا يقل عن جزء، واجتهد ألا تختم في أكثر من شهر، ولا في أقل من ثلاثة أيام.

٢- أن تحسن تلاوة القرآن والاستماع إليه والتدبر في معانيه، وأن تدرس السير

---

(1) الحاكم في المستدرك كتاب: ومن كتاب الإمامة وصلاة الجماعة، باب ما من ثلاثة نفر في قرية. ح: ٧٩٦.

(2) صحيح البخاري :كتاب الصلاة باب تشبيك الأصابع في المسجد وغيره ح ٤٨١.

(3) مجموعة الرسائل، ص٣٦٤ .

المطهرة و تاريخ السلف بقدر ما يتسع له وقتك، وأقل ما يكفي في ذلك كتاب (حماة الإسلام)، وإن تكثر من القراءة في حديث رسول الله ﷺ، وأن تحفظ أربعين حديثا على الأقل ولتكن الأربعين النووية، وأن تدرس رسالة في أصول العقائد ورسالة في فروع الفقه.

٣- أن تكون صادق الكلمة فلا تكذب أبدا.

٤- أن تكون وفيا بالعهد والكلمة والوعد، فلا تخلف مهما كانت الظروف.

٥- أن تكون شجاعا عظيم الاحتمال، وأفضل الشجاعة الصراحة في الحق وكتمان السر، والاعتراف بالخطأ والإنصاف من النفس وملكها عند الغضب.

٦- أن تكون وقورا تؤثر الجد دائما، ولا يمنعك الوقار من المزاح الصادق والضحك في تبسم.

٧- أن تكون شديد الحياء دقيق الشعور، عظيم التأثر بالحسن و القبح، تسر للأول و تتألم للثاني، وأن تكون متواضع في غير ذلة ولا خنوع ولا ملق، وأن تطلب أقل من مرتبتك لتصل إليها.

٨- أن تكون عادلا صحيح الحكم في جميع الأحوال، لا ينسيك الغضب الحسنات ولا تغضي عين الرضا عن السيئات، ولا تحملك الخصومة على نسيان الجميل، وتقول الحق ولو كان على نفسك أو على أقرب الناس إليك وإن كان مرّا.

٩- أن تكون رحيم القلب كريما سمحا تعفو وتصفح و تلين وتحلم وترفق بالإنسان والحيوان، جميل المعاملة حسن السلوك مع الناس جميعا، محافظا على الآداب الإسلامية الاجتماعية فترحم الصغير وتوقر الكبير وتفسح في المجلس، ولا تتجسس، ولا تغتاب ولا تصخب، وتستأذن في الدخول والانصراف..الخ.

١٠- أن تحرص كل الحرص على أداء مهنتك من حيث الإجادة والإتقان وعدم الغش

وضبط الموعد.

١١- أن تعمل ما استطعت على إحياء العادات الإسلامية، وإماتة العادات الأعجمية في كل مظاهر الحياة، ومن ذلك التحية واللغة والتاريخ والزي والأثاث، ومواعيد العمل والراحة، والطعام و الشراب ، والقدوم والانصراف، والحزن والسرور .. الخ، وأن تتحرى السنة المطهرة في ذلك.

١٢- أن تديم مراقبة الله تبارك وتعالى، وتذكر الآخرة وتستعد لها ، وتقطع مراحل السلوك إلى رضوان الله بهمة وعزيمة ، وتتقرب إليه سبحانه بنوافل العبادة ومن ذلك صلاة الليل وصيام ثلاثة أيام من كل شهر على الأقل، والإكثار من الذكر القلبي واللساني، و تحرّي الدعاء المذكور في كل الأحوال.

١٣- أن تحسن الطهارة وأن تظل على وضوء غالب الأحيان.

١٤- أن تحسن الصلاة وتواظب على أدائها في أوقاتها، وتحرص على الجماعة والمسجد ما أمكن ذلك.

١٥- أن تصوم رمضان و تحج البيت إن استطعت إليه سبيلا، وتعمل على ذلك إن لم تكن مستطيعا الآن ذلك.

١٦- أن تستصحب دائما نية الجهاد و حب الشهادة وأن تستعد لذلك ما وسعك الاستعداد.

١٧- أن تجدد التوبة والاستغفار دائما وأن تتحرز من صغائر الآثام فضلا عن كبارها، وأن تجعل لنفسك ساعة قبل النوم تحاسبها فيها على ما عملت من خير أو شر، وأن تحرص على الوقت فهو الحياة فلا تصرف جزءا منه من غير فائدة، وأن تتورع عن الشبهات حتى لا تقع في الحرام.

١٨- أن تجاهد نفسك جهادا عنيفا حتى يسلس قيادتها لك، وأن تغض طرفك،

وتضبط عاطفتك، وتقاوم نوازع الغريزة في نفسك ، وتسمو بها دائما إلى الحلال الطيب ، وتحول بينها وبين الحرام من ذلك أيا كان.

١٩- أن تبتعد عن أقران السوء، وأصدقاء الفساد، وأماكن المعصية والإثم.

٢٠- أن تحارب أماكن اللهو فضلا عن أن تقربها، وأن تبتعد عن مظاهر الترف و الرخاوة جميعا.

٢١- أن تعرف أعضاء كتيبتك فردا فردا معرفة تامة، وتعرفهم نفسك معرفة تامة كذلك، وتؤدي حقوق أخوتهم كاملة من الحب والتقدير والمساعدة والإيثار، وأن تحضر اجتماعاتهم فلا تتخلف عنها إلا بعذر قاهر، وتؤثرهم بمعاملتك دائما.

٢٢- أن تعمل على نشر دعوتك في كل مكان، وأن تحيط القيادة علما بكل ظروفك، ولا تقدم على عمل يؤثر فيها جوهريا إلا بإذن، وأن تكون دائم الاتصال الروحي و العملي بها ، وأن تعتبر نفسك دائما جنديا في الثكنة تنتظر الأوامر)[1].

ونحن نرى هنا الاهتمام الشديد من الإمام البنا . رحمه الله . بحفظ النفس حفظا معنويا حيث ذكر اثنين وعشرين واجبا من واجبات الأخ العامل من مجموع ثمانية وثلاثين واجبا كلها تعنى بحفظ النفس حفظا معنويا.

(1) مجموعة الرسائل، ص٣٦٥-٣٦٩.

المبحث الثاني
الحفظ المادي للنفس

لم يغفل الإمام البنا ـ رحمه الله ـ الحفظ المادي للنفس، فالعقل السليم في الجسم السليم، والمؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، فيذكر في رسالة المؤتمر الخامس خصائص دعوة الإخوان المسلمين، ومن بين هذه الخصائص التدرج في الخطوات .فيقول الإمام : (وأما التدرج والاعتماد على التربية ووضوح الخطوات في طريق الإخوان المسلمين، فذلك أنهم اعتقدوا أن كل دعوة لابد لها من مراحل ثلاث :

١- مرحلة الدعاية والتعريف والتبشير بالفكرة، وإيصالها إلى الجماهير من طبقات الشعب.

٢- ثم مرحلة التكوين، وتخير الأنصار وإعداد الجنود وتعبئة الصفوف من بين هؤلاء المدعوين.

٣- ثم بعد ذلك كله مرحلة التنفيذ والعمل والإنتاج، وكثيراً ما تسير هذه المراحل الثلاث جنباً إلى جنب نظراً لوحدة الدعوة وقوة الارتباط بينها جميعاً، فالداعي يدعو، وهو في الوقت نفسه يتخير ويربي، وهو في الوقت عينه يعمل وينفذ كذلك)[1].

وبعد أن يتحدث عن المرحلة الأولى، ينتقل للمرحلة الثانية، وهي مرحلة التكوين، وتخير الأنصار وإعداد الجنود وتعبئة الصفوف من بين هؤلاء المدعوين فيقول: (خطونا الخطوة الثانية في صور ثلاث:

١- **الكتائب:** ويراد بها تقوية الصف بالتعارف، وتمازج النفوس والأرواح ومقاومة

---

(1) مجموعة الرسائل، ص ١٢٥-١٢٦، باختصار وتصرف.

العادات والمألوفات، والمران على حسن الصلة بالله تبارك وتعالى، واستمداد النصر منه، وهذا هو معهد التربية الروحية للإخوان المسلمين.

٢- **الفرق للكشافة والجوالة والألعاب الرياضية:** ويراد بها تقوية الصف بتنمية جسوم الإخوان، وتعويدهم الطاعة والنظام والأخلاق الرياضية الفاضلة، وإعدادهم للجندية الصحيحة التي يفرضها الإسلام على كل مسلم، وهذا هو معهد التربية الجسمية للإخوان المسلمين.

٣- **درس التعاليم في الكتائب أو في أندية الإخوان المسلمين:** ويراد بها تقوية الصف بتنمية أفكار الإخوان وعقولهم بدراسة جامعة لأهم ما يلزم الأخ المسلم معرفته لدينه ودنياه، وهذا هو معهد التربية العلمية والفكرية للإخوان المسلمين، ذلك إلى مختلف نواحي النشاط الأخرى التي يدرب بها الإخوان على الواجب الذي ينتظرهم كجماعة تعد نفسها لقيادة أمة، بل لهداية العالمين)[1].

ثم يذكر في رسالة المؤتمر الخامس بعض نتائج فساد النظام الاجتماعي في مصر، والإهمال في صحة المواطن، فيقول: (لقد استقبلت العيادات الحكومية المصرية سنة ١٩٣٤ (٧.٢٤١.٣٨٣) مريضا منهم مليون بالبلهارسيا ، وأكثر من نصف مليون بالأنكلستوما، ومليون ونصف بالرمد، وفي مصر ٩٠ في المائة مريض بالرمد والطفيليات، وفيها ٥٥.٥٧٥ من فاقدي البصر ، ويكشف لنا الكشف الطبي في المدارس وفي المعاهد وفي الجامعة . ومنها الكلية الحربية . حقائق عجيبة عن ضعف بنية الطلاب وهم زهرة شباب الأمة، وكل ذلك في أمة علمها نبيها أن تسأل الله أن يعافيها في أبدانها وفي سمعها وفي بصرها)[2].

---

(1) مجموعة الرسائل، ص١٢٥-١٢٦.

(2) مجموعة الرسائل، ص٢٠٩.

موقف الإسلام من القوة :

ثم يتحدث في رسالة نحو النور عن موقف الإسلام من القوة والجندية، وأنه يستطيع أن يمد الأمة بما تحتاج إليه في سبيل نهضتها وتقدمها فيقول: (وتحتاج كذلك الأمم الناهضة إلى القوة وطبع أبنائها بطابع الجندية، ولا سيما في هذه العصور التي لا يضمن فيها السلم إلا بالاستعداد للحرب، والتي صار شعار أبنائها جميعا : (القوة أضمن طريق لإحقاق الحق).

والإسلام لم يغفل هذه الناحية ، بل جعلها فريضة محكمة من فرائضه ، ولم يفرق بينها وبين الصلاة والصوم في شيء، وليس في الدنيا كلها نظام عني بهذه الناحية لا في القديم ولا في الحديث ، كما عني بذلك الإسلام في القرآن وفي حديث رسول الله، وإنك لترى ذلك ماثلا واضحا في قوله تعالى :

﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَا اسْتَطَعْتُم مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ [لأنفال:٦٠] ، وفي قوله تعالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ﴾ [البقرة:٢١٦].

وهل رأيت منشورا عسكريا في كتاب مقدس يتلى في الصلاة والذكر والعبادة والمناجاة كهذا المنشور الذي يبتدئ بالأمر المنجز في قوله تعالى : ﴿ فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ ﴾ ثم بين الجزاء بعد ذلك : ﴿ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً ﴾ [النساء:٧٤].

ثم يتلو ذلك باستثارة أنبل العواطف في النفوس، وهي استنقاذ الأهل والوطن فيقول: ﴿ وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيّاً وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيراً ﴾ [النساء:٧٥].

ثم يوضح لهم شرف غايتهم ودناءة غاية عدوهم، ليبّين لهم أنهم يجودون بثمن

غال هو الحياة على سلعة غالية وتربوا عليه وهي رضوان الله، على حين يقاتل غيرهم لغير غاية، فهم أضعف نفوسا وأخزى أفئدة، فذلك قوله تعالى :

﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً﴾ [النساء:٧٦].

ثم يندد بالذين جبنوا عن أداء هذا الواجب ، وأخذوا التكاليف السهلة، وتركوا تكاليف البطولة ، ويبين لهم خطأ موقفهم هذا ، وأن الإقدام لن يضرهم شيئا بل سيكسبون به الجزاء الكبير ، والإحجام لا يغنيهم شيئا فالموت من ورائهم لا محالة فيقول بعد الآيات السابقة مباشرة : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً ، أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ﴾ [النساء:٧٧-٧٨].

بربك أي منشور عسكري في هذه القوة وفي هذا الوضوح يبعث في نفس الجندي كل ما يريد القائد من همة وعزة وإيمان ؟؟

وإذا كان قوام الحياة العسكرية في عرفهم أمرين ، هما النظام والطاعة ، فقد جمعهما الله في آيتين من كتابه فقال تبارك وتعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ﴾ [الصف:٤]، كما قال تعالى:﴿فَأَوْلَى لَهُمْ، طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ﴾ [محمد:٢٠-٢١].

وإنك إذا قرأت ما جاء به الإسلام في إعداد العدة، واستكمال القوة، وتعليم الرمي ورباط الخيل ، وفضل الشهادة وأجر الجهاد وثواب النفقة فيه ورعاية أهله واستيعاب صنوفه ، لرأيت من ذلك ما لا يحصيه الحصر ، سواء في الآيات الكريمة أو الأحاديث الشريفة أو السير المطهرة أو الفقه الحنيف: ﴿ .... وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ

عِلْما ....﴾ [الأعراف: ٨٩] [١].

حفظ النفس بدفع العوادي :

ثم يذكر في نفس الرسالة موقف الإسلام من الصحة العامة، حيث إنها سبيل من سبل حفظ النفس ماديا بدفع العوادي عنها فيقول : (ولما كانت الأمم الناهضة في حاجة إلى هذه الجندية الفاضلة، وكان قوام هذه الجندية صحة الأبدان وقوة الأجسام ، فقد أشار القرآن إلى هذا المعنى في بيان قصة أمة مجاهدة تحفزت للنهوض بعبء النضال في سبيل حريتها واستقلالها وتكوين نفسها ، فاختار الله لها زعيما قوي الفكر وقوي الخلق ، وجعل من أركان نهوضه بعبئه قوة بدنه ، فذلك ما حكاه القرآن الكريم عن بني إسرائيل في تزكيته طالوت ﴿إِنَّ اللهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ﴾ [البقرة:٢٤٧].

ولقد شرح رسول الله هذا المعنى في كثير من أحاديثه، وحث المؤمنين على المحافظة على قوة أبدانهم ، كما حثهم على قوة أرواحهم ، فالحديث الصحيح يقول: (المؤمن القوى خير من المؤمن الضعيف)[٢] ويقول (إن لبدنك عليك حقا)[٣]. ولقد بين رسول الله للأمة كثيرا من قواعد الصحة العامة وبخاصة في علم الوقاية ، وهو أفضل شطري الطب فقوله ﷺ : (نحن قوم لا نأكل حتى نجوع وإذا أكلنا لا نشبع) [٤]

---

(1) مجموعة الرسائل، ص٢٧٩ -٢٨٠.

(2) صحيح مسلم: كتاب القدر: باب: في الأمر بالقوة، وترك العجز، والاستعانة بالله، وتفويض المقادير لله ح: ٢٦٦٤.

(3) صحيح البخاري : كتاب الصوم : باب من أقسم على أخيه ليفطر في التطوع ولم ير عليه قضاء إذا كان أوفق له، ح: ١٩٦٨.

(4) هذا حديث شائع بين الناس، والصواب أنه لا أصل له في كتب الحديث المعتمدة، قال الشيخ الألباني في السلسة الصحيحة لا أصل له .

وتحريه فيما يشرب من ماء ، وفي الحديث : (كان يستعذب الماء)[1] ، ونهيه عن البول والتبرز في المياه الراكدة ، وإعلانه الحجر الصحي على البلد المطعون وأهله ، فلا يتركونه ولا ينزله غيرهم ، وتحذيره من العدوى وطلب الفرار من المجذوم ، وأخيرا عنايته بكثير من فروع رياضة البدن كالرمي والسباحة والفروسية والعدو ، وحث أمته عليها وعلى العناية بها حتى جاء في الحديث: (من تعلم الرمي ثم نسيه فليس مني)[2] ونهيه نهيا مشددا عن التبتل والترهب وتعذيب الجسوم وإضوائها تقربا إلى الله تبارك وتعالى، وإرشاد الأمة إلى جانب الاعتدال في ذلك كله ، كل هذا ينطق بعناية الإسلام البالغة بصحة الأمة العامة وتشديده في المحافظة عليها وإفساح صدره لكل ما فيه خيرها وسعادتها من هذا الجنب الهام)[3].

ثم نختم هنا بما ذكره الإمام البنا .رحمه الله . من واجبات الأخ العامل، وكنا قد ذكرنا أكثر من عشرين واجبا من الواجبات التي تحفظ النفس حفظا معنويا، وهنا يذكر عدة واجبات تعنى بحفظ النفس حفظا ماديا فيقول:

١- أن تبادر بالكشف الصحي العام وأن تأخذ في علاج ما يكون فيك من أمراض ، وتهتم بأسباب القوة و الوقاية الجسمانية، وتبتعد عن أسباب الضعف الصحي.

٢- أن تبتعد عن الإسراف في قهوة البن والشاي، ونحوها من المشروبات المنبهة، فلا تشربها إلا لضرورة ، وأن تمتنع بتاتا عن التدخين.

٣- أن تعني بالنظافة في كل شيء في المسكن و الملبس والمطعم والبدن ومحل العمل، فقد بني الدين على النظافة.

---

(1) أبو داوود كتاب الآنية باب في إيكاء الآنية، ح : ٣٧٣٥ .

(2) سنن ابن ماجة كتاب الجهاد باب الرمي في سبيل الله ح ٢٨١٤ .

(3) مجموعة الرسائل، ص٢٨١-٢٨٢.

٤- أن تكون عظيم النشاط مدربا على الخدمات العامة، تشعر بالسعادة والسرور إذا استطعت أن تقدم خدمة لغيرك من الناس، فتعود المريض وتساعد المحتاج و تحمل الضعيف وتواسي المنكوب ولو بالكلمة الطيبة، وتبادر دائما إلى الخيرات)[١].

فإذا أضافنا إلى ذلك الجانب العملي الذي قام به الإمام البنا من حيث إنشاء فرق الكشافة، وإقامة الدورات الرياضة، والاهتمام بالتدريبات البدنية، وكان من ثمرة هذا النظام الخاص الذي دوخ الإنجليز في الداخل، واشتبك مع اليهود وغيرهم على أرض فلسطين في الخارج، نقول إذا أضافنا هذا للجانب النظري اتضح لنا مدى عناية الإمام .رحمه الله .بالنفس على المستوى المادي كما اعتنى بها على المستوى المعنوي.

(1) مجموعة الرسائل، ص٣٦٥-٣٦٦.

الفصل الخامس

حفـــظ الـعقـــل

حفـــظ الـعقـــل

تـمـهـيـد :

يقول الإمام أبو حامد الغزالي .رحمه الله .في الإحياء في تعريفه للعقل :

وهو أيضًا مشترك لمعان مختلفة ذكرناها في كتاب العلم،ويُهِمّنا هنا معنيان.

أحدهما: أنّه يُراد به العلم بحَقائق الأمور، فيكون العَقل عِبارة عن صفة العلم الذي محله القلب.

والثاني: أنّه المدرك للعلوم، فيكون هو القلب بمعنى اللطيفة الربانّية المدركة العالمة)[1].

ويقول العلامة الطاهر ابن عاشور :

ومعنى حفظ العقل حفظ عقول الناس من أن يدخل عليها خلل، لأن دخول الخلل على العقل مؤد إلى فساد عظيم من عدم انضباط التصرف، فدخول الخلل على عقل الفرد مفض على فساد جزئي، ودخوله على عقول الجماعات وعموم الأمة أعظم . ولذلك يجب منع الشخص من السكر ومنع الأمة من تفشي السكر بين أفرادها، وكذلك تفشي المفسدات مثل : الحشيشة، والأفيون، والمورفين، والكوكايين والهروين، ونحوها مما كثر تناوله في القرن الرابع عشر الهجري[2].

وحفظ العقل هنا له بعدان :

الأول : البعد المادي يتناول الدماغ وما يتبعه من أعصاب تؤثر في الجسد، حيث إنه يمثل غرفة التحكم التي تؤثر في الجسد كله، وهذا يدخل في الحفظ المادي للنفس، حيث إن العقل يتأثر بالجسد، كما يتأثر به الجسد أيضا، فإذا ضعف الجسد،

---

(1) إحياء علوم الدين لحجة الإسلام أبي حامد محمد بن محمد الغزالي، ج١/ ٢٥٩ باختصار وتصرف، ط٥، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م، دار السلام.

(2) مقاصد الشريعة الإسلامية للطاهر بن عاشور، ص٧٨.

وأصابته العلل والأمراض فإن ذلك يؤثر على العقل لا محالة، وكذلك إذا اعتل العقل اعتل البدن كله.

وكل ما ذكره الإمام البنا ـ رحمه الله ـ في حفظ النفس يمكننا استدعاءه هنا في حفظ العقل حفظا ماديا.

الثاني: الحفظ المعنوي، وهذا أهم من الحفظ المادي، ولعل اهتمام القرآن الكريم والسنة والمطهرة كان من هذا الجانب، أي الحفظ المعنوي للعقل بكونه أداة من أدوات التفكر في خلق الله تعالى، وهذا التفكر سيقود حتما إلى الإيمان بالله، وكذلك التدبر في كتاب الله تعالى المقروء والمنظور .

يقول الله تعالى :﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ١٦٤].

ويقول تعالى: ﴿وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الرعد: ٤].

ويقول تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]

ويجعل الله تعالى العقل أداة مهمة من أدوات فهم كتاب الله تعالى، فيقول: ﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢] ﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤].

ويجعل من مقاصد نزول القرآن الكريم التدبر :

﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩].

ثم يصف الذين لا يعقلون بأنهم أشد شرا من الأنعام فيقول: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ﴾ [الأنفال: ٢٢].

ويقول تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً ﴾ [الفرقان: ٤٤].

ثم يؤكد مرة أخرى على أن العقل أداة من أدوات التفكر فيقول :﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ ﴾ [آل عمران: ١٩٠].

ويقول النبي ﷺ فيما رواه ابن حبان بسنده عن عائشة (رضي الله عنها) تعليقا على الآية السابقة (... لقد نزلت علي الليلة آية، ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها)[١].

ويقول النبي ﷺ : (لا يَكُنْ أَحدُكم إمَّعة يقول: أنا مع الناس إن أحسنوا أحسنتُ، وإن أساءوا أسأتُ"[٢].

يقول فضيلة العلامة الدكتور يوسف القرضاوي: (ثم يأتي بعد ذلك المحافظة على العقل، وأول درجات المحافظة عليه: أن نغذيه بالمعارف الموثقة، ونبعد عنه الأباطيل المُضلِّلة، وأن نكون أُمَناء في توعيته وتثقيفه، وخصوصًا في فترة الطفولة والصبا والمراهقة. كما جاء في الحديث: "كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه" متفق عليه[٣].

---

(1) صحيح ابن حبان كتاب التوبة باب ذكر البيان بأن المرء عليه إذا تخلى لزوم البكاء على ما ارتكب من الحوبات، وإن كان بائنا عنها مجدا في إتيان ضدها، ح: ٦٢٠.

(2) الترمذي كتاب البر والصلة، باب ما جاء في الإحسان والعفو، ح: ٢٠٠٧.

(3) البخاري كتاب الجنائز باب ما جاء في أولاد المشركين، ح: ١٣٨٥، ومسلم كتاب القدر باب

إن الإنسان إنما يتميز بعقله، والعقل في الإسلام هو مناط التكليف، وكل ما يغيّب العقل من مسكر أو مخدر، فهو جريمة كبيرة تستحق العقوبة.

وهناك مخدرات عقلية أخرى تُغيِّب وعي الناس بحقيقة الكون والحياة والإنسان، يقوم بها أناس يُروِّجون الباطل تحت عناوين مختلفة من الكهانة أو العرافة أو السحر، أو تحضير الأرواح أو الاتصال بالجن، أو نحوها، وكلها جنايات على العقل الإنساني يجب أن تحارب، وأن يزجر مقترفوها بالعقاب الرادع.

وكل عمل يغيب العقل بالثقافة المسمومة – باسم الدين أو الدنيا – يعد من كبائر الإثم، وفواحش الجرائم. لهذا كان من أعظم ما جاء به الإسلام، وحث عليه القرآن: تكوين العقلية العلمية، التي تؤمن بالنظر والتفكر، وتتَبَّى الحق والبرهان، وترفض اتباع الظن والهوى، والتقليد الأعمى للآباء أو الكبراء وتعتبر طلب العلم فريضة، والجهل منكرًا)[1].

ويقول فضيلة الشيخ العلامة محمد الغزالي . رحمه الله . :

ألِف الناس أن تكون العبادات أقرب إلى شئون الغيب عنها إلى دائرة المنطق، لكني أرى غير هذا؛ فأنا أنادى إلى الصلاة لا بدقات طبل ولا بزمارات إنذار، وإنما صوت يشدني من عقلي! وعندما أنصرف من صلاتي لا أُجزَى إلا بما عَقَلتُ منها!

والدين الذي اعتنقته قام على معجزة عقلية تعرِّفني أن الله واحد في الأرض والسماء، لأنه: (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلا اللهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ) (الأنبياء: ٢٢).

وفي القرآن مئات الآيات التي تتحدث عن العقل ووظائفه والأساليب الصحيحة

معنى كل مولود يولد على الفطرة، وحكم موت أطفال الكفار وأطفال المسلمين، ح: ٢٦٥٨.

(1) السياسة الشرعية للأستاذ الدكتور يوسف القرضاوي.

لاستدلاله وبعده عن الأوهام والظنون. وقد أحصيت في مقال لي ستة عشر آية تنوِّه بأولي الألباب وترى أنهم هم الناس حقًّا! وهل الإنسانُ إلا عقلُه؟ ما أصدَقَ قولَ المتنبي:

لولا العقولُ لكان أدنى ضَيغَمٍ أدنى إلى شرفٍ من الإنسانِ

ومن أجل ذلك يرى الإسلام ضرورة صقل العقل وتوسيع آفاقه وزيادة إشراقه بأنواع العلوم والتجارب. إن الأعمار العقلية للناس تنقص أو تزيد وَفْقَ ما يُفيدون من تجربة ويتلقَّون من تعليم.

والحق أن الأمم تتقدم أو تتأخر بمقدار أنصبتها من العلم، وقدرتها على تحويله إلى حضارة مثمرة. والعقل الصحيح هو الذي يقرأ آيات الله في الكون كما يقرؤها في المصحف.

أما التخلف العقلي فستارة تُسدَل على البصائر والعيون فلا تكشف سرًّا ولا تَدعَم حقًّا ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ [الحج: ٤٦].

إن الأمم المتخلفة عقليًّا كالأطفال الذين لم يبلُغوا الحلم يوضعون في وصاية الكبار حتى يَنضَجوا. وربما كَرِهت الأمم المتخلِّفة هذه المنزلة المَهينة، بيد أن سنن الله الكونية تفرض نفسها طوعًا أو كرهًا.

وقد رأيت عابِدين في أفكارهم . لا في قاماتهم . قِصَرٌ فشعرت بخيبة الأمل، لأن هؤلاء العابدين كانوا بلاءً على دينهم، وربما ضرُّوه من حيث أرادوا نفعه، لأنهم كالدُّبَّة التي قتلت صاحبها!

يُصقَل العقل خلال مراحل الدراسة المُتَابعة، ويُصقَل العقل بالحفاظ على سلامة الحواس وعافية البدن، ويُحفَظ بازدراء المسكِرات والمخدِّرات والمفتِرات التي

تنال من وعي المرء وكرامته، يُحفَظ قبل ذلك وبعده باستلهام الرشد واستمداد النور منه سبحانه! وقد وردت في ذلك توجيهات من الكتاب والسنة يطول سردها)[1].

مقصد حفظ العقل عند الإمام البنا ـ رحمه الله ـ :

ولقد أولى الإمام البنا . رحمه الله . العقل ما يستحقه من العناية والاهتمام، ولا غرو فهو مناط التكليف، وهو سيد الجسد، إن صلح صلح الجسد كله، وإن فسد فسد الجسد كله.

فنجده في رسالة دعوتنا وهو يتحدث عن موقفه من القومية والوطنية، ويتحدث عن الخلافات الدينية، يربي في **أتباعه التفكير العلمي المنهجي**، وهذا أمر لا يتوافر في كثير من زعامات العمل الإسلام، فالكثير منهم يريد أن يلغي الآخر، كما يريد أن يحتكر الحق، حتى لو كان يتبع مذهبا فقهيا، كأن يكون شافعيا أو مالكيا أو حنفيا أو حنبليا، فإذا أفتى أو تكلم لا يذكر إلا رأي المدرسة الفقهية التي ينتسب إليها، ثم سفه آراء الآخرين، وربما نال منهم ورمى بعضهم بالجهل وعدم العلم.

وقد نقلنا رأي الإمام من هذه الدعوات أثناء حديثنا عن مراعاته للمقاصد بصفة عامة، فلن نعيدها هنا مرة أخرى، لكننا نؤكد على أن الإمام . رحمه الله . لم يرفض هذه الدعوات جملة، فبعض الذين نادوا بها كانوا مخلصين لأمتهم ودينهم، ولم يقبلها مطلقا، لأن بعض المنادين بهذه الدعوات أرادوا أن يتخذها الناس دينا بديلا عن الانتساب للإسلام.

فيذكر الوطنية بمعناها الإيجابي أولا حتى يعلمنا إحسان الظن بالآخرين، ثم يذكر المعنى السلبي لها، ويؤكد أن الإسلام مع المعنى الإيجابي، وهو بهذا يلزم أطراف النزاع بالتسليم له، لقوة حجته، وبراعة استدلاله، ومنطقية طرحه، وهنا يتميز

(1) مائة سؤال عن الإسلام للشيخ محمد الغزالي، ص٤١١٢-١١٣، ط٥، نهضة مصر، ٢٠٠٥م.

الخبيث من الطيب، ويظهر المصلح من المفسد.

وهذه النظرة الواعية، والفهم العميق يكلفان صاحبهما الكثير من الوقت والجهد، ويأخذ العالم فترة طويلة من التأمل والتدبر، وأيسر منه أن يقبل هذه الأفكار جملة، أو يرفضها جملة، لكن هذا القبول المطلق، والرفض غير المبرر بعيد عن المنهج العلمي في الفهم والاستنباط.

ونحن ندعو القارئ الكريم أن يعود لمجموعة الرسائل، أو لما ذكرناه في بداية هذه الدراسة، ويعيد قراءة ما كتبه الإمام عن الوطنية والقومية، والخلافات الدينية، ليرى عذوبة الألفاظ، وسهولة المعاني، ومدى الجهد المبذول من الإمام . رحمه الله . في دراسة هذه الدعوات والتعمق فيها، والرد على أصحابها ردا علميا محايدا[١].

ثم يدعو الإمام . رحمه الله . إلى إصلاح التعليم لأنه وسيلة لحفظ العقل، فيقول: (وإن لكل أمة وشعب إسلامي سياسة في التعليم وتخريج الناشئة، وبناء رجال المستقبل، الذين تتوقف عليهم حياة الأمة الجديدة، فيجب أن تبنى هذه السياسة على أصول حكيمة تضمن للناشئين مناعة دينية وحصانة خلقية، ومعرفة بأحكام دينهم، واعتدادا بمجده الغابر وحضارته الواسعة؟)[٢].

وفي رسالة المؤتمر الخامس ينادي أتباعه من جماعة الإخوان خاصة والناس عامة، وبخاصة المتحمسون منهم أن يزنوا الأمر بالعقل، ولا تأخذهم العاطفة والحماس الذي يدفع أصحابه لاستعجال الثمرة قبل أوانها فيقول: (ألجموا نزوات العواطف بنظرات العقول، وأنيروا أشعة العقول بلهب العواطف، وألزموا الخيال صدق الحقيقة والواقع، واكتشفوا الحقائق في أضواء الخيال الزاهية البراقة . ولا تميلوا كل الميل

(1) يراجع مجموعة الرسائل، ص١٩–٢٧.

(2) مجموعة الرسائل، ص٤٩.

فتذروها كالمعلقة، ولا تصادموا نواميس الكون فإنها غلابة، ولكن غالبوها واستخدموها وحولوا تيارها واستعينوا ببعضها على بعض، وترقبوا ساعة النصر وما هي منكم ببعيد) (1).

حفظ العقل عن طريق التفكير والتعليم المنهجي :

ويظهر حفظ العقل عن طريق التعليم والتعلم المنهجي أثناء حديث الإمام ـ رحمه الله ـ عن الفرق بين القانون والدستور، كما يتحدث كيف يكون النقد إيجابيا وبناء، يذكر الميزات والعيوب بحيث لا يكون هناك إفراط ولا تفريط، فيقول: (وأحب ... أن نفرق دائما بين (الدستور) وهو نظام الحكم العام الذي ينظم حدود السلطات وواجبات الحاكمين ومدى صلتهم بالمحكومين، وبين (القانون) وهو الذي ينظم صلة الأفراد بعضهم ببعض ويحمى حقوقهم الأدبية والمادية ويحاسبهم على ما يأتون من أعمال.

وأستطيع بعد هذا البيان أن أجلي لكم موقفنا من نظام الحكم الدستوري عامة، ومن الدستور المصري خاصة :

الواقع أيها الإخوان : أن الباحث حين ينظر إلى مبادئ الحكم الدستوري التي تتلخص في المحافظة على الحرية الشخصية بكل أنواعها، وعلى الشورى واستمداد السلطة من الأمة وعلى مسئولية الحكام أمام الشعب ومحاسبتهم على ما يعملون من أعمال، وبيان حدود كل سلطة من السلطات هذه الأصول كلها يتجلى للباحث أنها تنطبق كل الانطباق على تعاليم الإسلام ونظمه وقواعده في شكل الحكم.

ولهذا يعتقد الإخوان المسلمون أن نظام الحكم الدستوري هو أقرب نظم الحكم القائمة في العالم كله إلى الإسلام، وهم لا يعدلون به نظاماً آخر.

---

(1) مجموعة الرسائل، ص١٢٧.

بقي بعد ذلك أمران : أولهما النصوص التي تصاغ في قالبها هذه المبادئ، وثانيهما طريقة التطبيق التي تفسر بها عمليا هذه النصوص، إن المبدأ السليم القويم قد يوضع في نص مبهم غامض فيدع مجالا للعبث بسلامة المبدأ في ذاته، وإن النص الظاهر الواضح للمبدأ السليم القويم قد يطبق وينفذ بطريقة يمليها الهوى وتوحيها الشهوات، فيذهب هذا التطبيق بكل ما يرجى من فائدة .

إذا تقرر هذا فإن من نصوص الدستور المصري ما يراه الإخوان المسلمون غامضا مبهما يدع مجالا واسعا للتأويل والتفسير الذي تمليه الغايات والأهواء، فهي في حاجة إلى وضوح وإلى تحديد وبيان ... هذه واحدة، والثانية : هي أن طريقة التنفيذ التي يطبق بها الدستور، ويتوصل بها إلى جني ثمرات الحكم الدستوري في مصر، طريقة أثبتت التجارب فشلها وجنت الأمة منها الأضرار لا المنافع، فهي في حاجة شديدة إلى تحوير وإلى تعديل يحقق المقصود ويفي بالغاية.

وحسبنا أن نشير هنا إلى قانون الانتخاب، وهو وسيلة اختيار النواب الذين يمثلون الأمة ويقومون بتنفيذ دستورها وحمايته، وما جره هذا القانون على الأمة من خصومات وحزازات، وما أنتجه يشهد به الواقع الملموس، ولابد أن تكون فينا الشجاعة الكافية لمواجهة الأخطاء والعمل على تعديلها.

لهذا يعمل الإخوان المسلمون جهدهم حتى تحدد النصوص المبهمة في الدستور المصري، وتعدل الطريقة التي ينفذ بها هذا الدستور في البلاد، وأظن أن موقف الإخوان قد وضح بهذا البيان، وردت الأمور إلى نصابها الصحيح) [1].

يعلم إخوانه وأتباعه الاعتدال في النقد، والحيدة في الطرح، وهذا عند تعليقه على مقالين كتبهما الأستاذ صالح العشماوي عن الدستور، وبسبب هذا كتب الإمام البنا ما

---

(1) مجموعة الرسائل، ص١٣٨.

نقلناه في الفقرات السابقة فيقول : (ويتساءل كذلك فريق من الناس ما موقف مجموعة الإخوان المسلمين من الدستور المصري ؟ ولاسيما بعد أن كتب الأخ صالح أفندي عشماوي رئيس تحرير مجلة النذير في هذا الموضوع، وتناولت كتابته صحيفة (مصر الفتاة) بالنقد والموازنة، وهذه فرصة طيبة لأتحدث إلى حضراتكم فيها عن رأي الإخوان المسلمين وموقفهم من الدستور المصري.

إن الأخ صالح أفندي عشماوي قد أراد أن يعبر في مقاله الأول عن وجهة النقد التي يراها الإخوان فاحتد واشتد، ولما نبهناه إلى أن هذا ليس موقفنا في الواقع، فنحن نسلم بالمبادئ الأساسية للحكم الدستوري باعتبارها متفقة بل مستمدة من نظام الإسلام، وإنما ننقد الإبهام وطرائق الإنفاذ، أراد أن يعبر عن ذلك ويقر الأمر في وضعه الطبيعي بالنسبة للإخوان فتساهل ولان، وهو في كلا الموقفين مأجور، فالخير أراد، ونية المرء خير من عمله، ونحن نشكر الذين أخذوا على الأخ صالح أفندي هذا الموقف، ولا يضره فيما أعتقد أن يستفيد من هذا التنبيه فيؤثر الاعتدال في كل حال، وأعتقد أنه لا مجال لقول بعد هذا البيان)[1].

ثم يتحدث بنفس الطريقة العلمية التي تحفظ العقل عن القانون أيضا فيقول: (قدمت أن الدستور شيء والقانون شيء آخر، وقد أبنت موقف الإخوان من الدستور، وأبين لحضراتكم الآن موقفهم من القانون.

إن الإسلام لم يجئ خلواً من القوانين، بل هو قد أوضح كثيراً من أصول التشريع وجزئيات الأحكام، سواء أكانت مادية أم جنائية، تجارية أم دولية، والقرآن والأحاديث فياضة بهذه المعاني، وكتب الفقهاء غنية كل الغنى بكل هذه النواحي، وقد اعترف الأجانب أنفسهم بهذه الحقيقة، وأقرها مؤتمر لاهاي الدولي أمام ممثلي الأمم

(1) مجموعة الرسائل، ص١٣٧-١٣٩.

من رجال القانون في العالم كله.

فمن غير المفهوم ولا المعقول أن يكون القانون في أمة إسلامية متناقضًا مع تعاليم دينها وأحكام قرآنها وسنة نبيها، مصطدماً كل الاصطدام بما جاء عن الله ورسوله، وقد حذر الله نبيه ﷺ من ذلك من قبل، فقال تبارك وتعالى: ﴿ وَأَنِ احْكُم بَّيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ، أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة:٤٩-٥٠]، ذلك بعد قوله تعالى:وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ . الظَّالِمُونَ . الْفَاسِقُونَ ﴾ [المائدة:٤٤، ٤٥، ٤٧]، فكيف يكون موقف المسلم الذي يؤمن بالله وكلماته إذا سمع هذه الآيات البينات وغيرها من الأحاديث والأحكام، ثم رأى نفسه محكوماً بقانون يصطدم معها؟ فإذا طالب بالتعديل قيل له: إن الأجانب لا يرضون بهذا ولا يوافقون عليه، ثم يقال بعد هذا الحجر والتضييق : إن المصريين مستقلون وهم لم يملكوا بعد أن يتمتعوا بحرية الدين، وهي أقدس الحريات.

على أن هذه القوانين الوضعية كما تصطدم بالدين ونصوصه تصطدم بالدستور الوضعي نفسه الذي يقرر أن دين الدولة هو الإسلام، فكيف نوافق بين هذين يا أولى الألباب ؟

وإذا كان الله ورسوله قد حرم الزنا وحظر الربا ومنع الخمور وحارب الميسر، وجاء القانون يحمى الزانية والزاني، ويلزم بالربا، ويبيح الخمر، وينظم القمار فكيف يكون موقف المسلم بينهما ؟ أيطيع الله ورسوله ويعصى الحكومة وقانونها والله خير وأبقى ؟ أم يعصى الله ورسوله ويطيع الحكومة فيشقى في الآخرة والأولى ؟ نريد الجواب على هذا من رفعة رئيس الحكومة ومعالي وزير العدل ومن علمائنا الفضلاء الأجلاء .

أما الإخوان المسلمون فهم لا يوافقون على هذا القانون أبدا ولا يرضونه بحال وسيعملون بكل سبيل على أن يحل مكانه التشريع الإسلامي العادل الفاضل في نواحي القانون ولسنا هنا في مقام الرد على ما قيل في هذه الناحية من شبهات أو ما يعترض سبيلها من توهم العقبات ولكننا في مقام بيان موقفنا الذي عملنا وسنعمل عليه متخطين في سبيله كل عقبة موضحين كل شبهة حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله.

ولقد تقدم الإخوان المسلمون إلى معالي وزير العدل بمذكرة إضافية في هذا الموضوع، ولقد حذروا الحكومة في نهايتها من إحراج الناس هذا الإحراج، فالعقيدة أثمن ما في الوجود، وسوف يعاودون الكرّة، وسوف لا يكون ذلك آخر مجهودهم وَيَأْبَى اللَّهُ إِلا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ) (التوبة:٣٢) [1]

موقف الإخوان من القومية والعروبة عن طريق التعليم المنهجي :

وهنا يؤكد الإمام البنا . رحمه الله . على موقفه وموقف الإخوان من القومية والعروبة، وهذه طريقة للتعليم والتعلم تحفظ العقل، وتضعه في مكانه المناسب من الضروريات الخمس التي أتت الشريعة لحفظها فيقول:(كثيرا ما تتوزع أفكار الناس في هذه النواحي الثلاثة : الوحدة القومية، والوحدة العربية، والوحدة الإسلامية، وقد يضيفون إلى ذلك الوحدة الشرقية، ثم تنطلق الألسنة والأفكار بالموازنة بينها وإمكان تحققها أو صعوبة ذلك الإمكان، ومبلغ الفائدة أو الضر منها والتشجيع لبعضها دون البعض الآخر .

فما موقف الإخوان المسلمين من هذا الخليط ومن الأفكار والمناحي ؟ ولا سيما وكثير من الناس يغمزون الإخوان المسلمين في وطنيتهم ويعتبرون تمسكهم بالأفكار

(1) مجموعة الرسائل، ص ١٣٩-١٤٠.

الإسلامية مانعا إياهم من الإخلاص للناحية الوطنية .

والجواب عن هذا أننا لن نحيد عن القاعدة التي وضعناها أساسا لفكرتنا وهى السير على هدى الإسلام وضوء تعاليمه السامية. فما موقف الإسلام نفسه من هذه النواحي؟[١].

موقف الإسلام من القومية :

إن الإسلام قد فرضها فريضة لازمة لا مناص منها،أن يعمل كل إنسان لخير بلده وأن يتفانى في خدمته، وأن يقدم أكثر ما يستطيع من الخير للأمة التي يعيش فيها، وأن يقدم في ذلك الأقرب فالأقرب رحما وجوارا حتى أنه لم يجز أن تنقل الزكوات أبعد من مسافة القصر – إلا لضرورة – إيثارا للأقربين بالمعروف فكل مسلم مفروض عليه أن يسد الثغرة التي هو عليها، وأن يخدم الوطن الذي نشأ فيه ومن هنا كان المسلم أعمق الناس وطنية؛ لأن ذلك مفروض عليه من رب العالمين وكان الإخوان المسلمون بالتالي أشد الناس حرصا على خير وطنهم وتفانيا في خدمة قومهم، وهم يتمنون لهذه البلاد العزيزة المجيدة كل عزة ومجد وكل تقدم ورقى، وكل فلاح ونجاح، وقد انتهت إليها رياسة الأمم الإسلامية بحكم ظروف كثيرة تضافرت على هذا الوضع الكريم... [٢].

موقف الإسلام من العروبة :

ثم إن الإسلام الحنيف نشأ عربيا، ووصل إلى الأمم عن طريق العرب، وجاء كتابه بلسان عربي مبين، وتوحدت الأمم باسمه على هذا اللسان يوم كان المسلمون مسلمين، وقد جاء في الأثر: إذا ذل العرب ذل الإسلام، وقد تحقق هذا المعنى حين دال سلطان العرب السياسي وانتقل الأمر من أيديهم إلى غيرهم من الأعاجم والديلم

---

(1) مجموعة الرسائل، ص١٤١، بتصرف.

(2) مجموعة الرسائل، ص١٤١ بتصرف .

ومن إليهم، فالعرب هم عصبة الإسلام وحراسه ... [1].

موقف الإسلام من الوحدة الإسلامية :

بقي علينا أن نحدد موقفنا من الوحدة الإسلامية، والحق أن الإسلام كما هو عقيدة وأنه قضى على الفوارق النسبية بين الناس فالله تبارك وتعالى يقول: ﴿إِنَّما الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ (الحجرات:١٠) ، والنبي ﷺ قال: (المسلم أخو المسلم)[2]. والمسلمون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم.

فالإسلام والحالة هذه لا يعترف بالحدود الجغرافية، ولا يعتبر الفروق الجنسية والدموية،، ويعتبر المسلمين جميعا أمة واحدة ،، ويعتبر الوطن الإسلامي وطنا واحدا مهما تباعدت أقطاره وتناءت حدوده.

وكذلك الإخوان المسلمون يقدسون هذه الوحدة ويؤمنون بهذه الجامعة،، ويعملون لجمع كلمة المسلمين وإعزاز إخوان الإسلام، وينادون بأن وطنهم هو كل شبر أرض فيه مسلم يقول (لا إله إلا الله محمد رسول الله)....

وضح إذا أن الإخوان المسلمين يحترمون قوميتهم الخاصة باعتبارها الأساس الأول للنهوض المنشود، ولا يرون بأسا بأن يعمل كل إنسان لوطنه، وأن يقدمه على ما سواه، ثم هم بعد ذلك يؤيدون الوحدة العربية باعتبارها الحلقة الثانية في النهوض، ثم هم يعملون للجامعة الإسلامية باعتبارها السياج الكامل للوطن الإسلامي العام، ولى أن أقول بعد هذا : إن الإخوان يريدون الخير للعالم كله، فهم ينادون بالوحدة العالمية لأن هذا هو مرمى الإسلام وهدفه ومعنى قول الله تبارك وتعالى : ﴿ وَما أَرسَلْناكَ إِلا رَحْمَةً لِلعالَمِينَ ﴾ [الأنبياء:١٠٧].

---

(1) مجموعة الرسائل، ص١٤٢بتصرف .

(2) رواه البخاري في كتاب المظالم والغضب باب لا يظلم المسلم المسلم ولا يسلمه، ح:٢٣٣.

وأنا في غنى بعد هذا البيان أن أقول أنه لا تعارض بين هذه الوحدات بهذا الاعتبار، وبان كل منهما يشد أزر الأخرى ويحقق الغاية منها، فإذا أراد أقوام أن يتخذوا من المناداة بالقومية الخاصة سلاحا يميت الشعور بما عداها، فالإخوان المسلمون ليسوا معهم ولعل هذا هو الفارق بيننا وبين كثير من الناس) [1].

حفظ العقل عن طريق فهم الواقع المحيط بالمسلم :

ويتحدث الإمام .رحمه الله . عن الواقع المحيط بالمسلم حتى يميز بين العدو والصديق، والقريب والبعيد، فيقول : (و من هنا يعتقد الإخوان المسلمين أن كل أمة اعتدت وتعتدي على أوطان الإسلام دولة ظالمة لابد أن تكف عن عدوانها، ولابد من أن يعد المسلمون أنفسهم ويعملوا متساندين على التخلص من نيرها .

١- إن إنجلترا لا تزال تضايق مصر رغم محالفتها إياها، ولا فائدة في أن نقول إن المعاهدة نافعة أو ضارة أو ينبغي تعديلها أو يجب إنفاذها فهذا كلام لا طائل تحته، والمعاهدة غل في عنق مصر، وقيد في يدها ما في ذلك شك، وهل تستطيع أن تتخلص من هذا القيد إلا بالعمل وحسن الاستعداد ؟ فلسان القوة هو أبلغ لسان، فلتعمل على ذلك ولتكتسب الوقت إن أرادت الحرية والاستقلال.

وإن إنجلترا لا تزال تسئ إلى فلسطين، وتحاول أن تنقص من حقوق أهلها، وفلسطين وطن لكل مسلم باعتبارها من أرض الإسلام، وباعتبارها مهد الأنبياء، وباعتبارها مقر المسجد الأقصى الذي بارك الله حوله، ففلسطين دْين على إنجلترا للمسلمين لا تهدأ ثائرتهم حتى توفيهم فيه حقهم، وإنجلترا تعلم ذلك العلم، ذلك ما حداها إلى دعوة ممثلي البلاد الإسلامية إلى مؤتمر لندن ...

---

(1) مجموعة الرسائل، ص١٤٢- ١٤٤، باختصار وتصرف، وينظر أيضا كلام الإمام عن نفس الفكرة ولكن بأسلوب آخر، ص٢٢٩-٢٣١، وأيضًا ص١٩- ٢٥ .

ولنا حساب بعد ذلك مع إنجلترا في الأقاليم الإسلامية التي تحتلها بغير حق، والتي يفرض الإسلام على أهلها وعلينا معهم أن نعمل لإنقاذها وخلاصها.

٢- أما فرنسا التي ادعت صداقة الإسلام حينا من الدهر فلها مع المسلمين حساب طويل، ولا ننسى لها هذا الموقف المخجل مع سوريا الشقيقة، ولا ننسى لها موقفها في قضية المغرب الأقصى والظهير البربري، ولا ننسى أن كثيرا من إخواننا الأعزاء، شباب المغرب الأقصى الوطني الحر المجاهد، في أعماق السجون وأطراف المنافي، وسيأتي اليوم الذي يصفى فيه هذا الحساب، ﴿وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران:١٤٠].

٣- وليس حسابنا مع إيطاليا بأقل من حسابنا مع فرنسا، فطرابلس العربية المسلمة الجارة القريبة العزيزة، يعمل الدوتشي ورجاله على إفنائها وإبادة أهلها واستئصالها ومحو كل أثر للعروبة والإسلام منها، وكيف يكون فيها أثر للعروبة والإسلام، وقد اعتبرت جزءا من إيطاليا ؟ ولا يجد الدوتشي بعد ذلك مانعا يمنعه من أن يدعي أنه حامي الإسلام وأن يطلب بهذا العنوان صداقة المسلمين!! [١].

محاربة الأمية حفظا للعقل :

وفي رسالة المؤتمر السادس يتحدث عن بعض صور الفساد في المجتمع المصري فيقول بشأن الأمية وهي ضد حفظ العقل، إذا أن من أهم وسائل حفظ العقل هو التعليم بصفة خاصة، والتعليم المنهجي الفاعل بصفة عامة فيقول: (إن مصر بعد هذا الجهاد الطويل لا زالت بها آلاف كثير ممن لا يخط الألف، ولازال عدد المتعلمين فيها لا يجاوز الخمس (٢٠ في المائة) من بينهم تلاميذ المدارس الإلزامية الذين لا

(1) مجموعة الرسائل، ص١٥٠ -١٥١ بتصرف يسير.

يحسنون شيئا وكثير منهم لم يجاوز شهادة إتمام الدراسة الابتدائية وحتى الذين تعلموا تعليما عاليا لا تنقطع الشكوى من أن مؤهلاتهم العلمية لا تمكنهم من النجاح الكامل في الحياة العملية، وتتردد هذه الشكوى على لسان وزراء المعارف ورؤساء دوائر العمال وغيرهم)[1].

الحفظ المعنوي للعقل عن طريق التفكير الصحيح :

ثم يتحدث الإمام .رحمه الله .في رسالة دعوتنا في طور جديد عن العقلية الغيبية والعقلية العلمية، مبينا الحفظ المعنوي للعقل عن طريق تحرير الفكر فيقول : (لقد تذبذب العقل البشري منذ وجد الإنسان على ظهر الأرض إلى يومه هذا ـ وأغلب الظن كذلك حتى تتداركه هداية من الله .بين أطوار ثلاثة، وإن شئت قلت بين ألوان ثلاثة من ألوان التفكير والتصوير :

١ـ طور الخرافة والبساطة والتسليم المطلق للغيب المجهول والقوى الخفية البعيدة عنه . فهو ينسب إليها كل شيء ويفسر بها كل شيء . ولا يرى لنفسه معها عملاً ولا فكراً، وكثيراً ما استبد هذا الطور بالإنسان في أدوار حياته الأولى يوم عاش على هذه الأرض يجهلها وتجهله، ولعل أقواماً من بني الإنسان لا يزالون يعيشون على هذا النحو إلى الآن .

٢ـ وطور الجمود والمادية والتنكر لهذا الغيب المجهول، والخروج على هذه القوى البعيدة على حس الإنسان والتمرد على كل ما يتصل إليها بسبب، ومحاولة تفسير مظاهر الكون جميعاً محاولة مادية صرفة وفق قوانين تجريبية اهتدى إليها الإنسان بطول تجاربه ودوام بحثه وتفكيره .وكثيراً ما طغى هذا التفكير على العقل الإنساني في هذه العصور الحديثة، التي وصل فيها الإنسان إلى الكشف عن كثير

(1) مجموعة الرسائل، ص٢٠٩– ٢١٠.

من مجهولات الطبيعة، وعرف فيها الكثير من خواص الكائنات، فظن أنه واصل لا محالة بهذا الأسلوب إلى معرفة ما هناك، وإن كان الذي يعرفه بالنسبة إلى ما يجهله كالذرة من الرمال في الفلاة الواسعة الفسيحة.

وفي هذا الدور أنكر الإنسان المادي الألوهية وما يتصل بها والنبوات وما يمت إليها والآخرة والجزاء والعالم الروحي بكل ما فيه، ولم ير شيئاً إلا هذا العالم الأدنى المحدود يفسر ظواهره بحسب قوانينه المادية الصرفة.

كلا هذين اللونين من ألوان التفكير خطأ صريح وغلو فاحش وجهالة من الإنسان بما يحيط بالإنسان[1].

ثم يوضح الإمام البنا . رحمه الله . منهج الإسلام الواضح، وقوله الفصل في هذه المسألة فيقول :ولقد جاء الإسلام الحنيف يفصل القضية فصلاً حقاً، فيقرر حق العالم الروحي ويوضح صلة الإنسان بالله رب الكائنات جميعاً وبالحياة الآخرة بعد هذه الحياة الدنيا، ويجعل الإيمان بالله أساس إصلاح النفس التي هي من عالم الروح فعلاً والتي لا سبيل إلى صلاحها إلا بهذا الإيمان، ويصف ذلك العالم الغيبي المجهول وصفاً يقربه إلى الأذهان ولا يتنافى مع بدهيات العقول، وهو مع هذا يقرر فضل هذا العالم المادي وما فيه من خير للناس لو عمروه بالحق وانتفعوا في حدود الخير، ويدعو إلى النظر السليم في ملكوت السماوات والأرض، ويعتبر هذا النظر أقرب إلى معرفة الله العلي الكبير . هذا الموقف من الإسلام الحنيف ألزم العقل البشري لوناً من ألوان التفكير، هو أكملها وأتمها وأكثرها انطباقاً على واقع الحياة ومنطق الكون، وأعظمها نفعاً لبني الإنسان : ذلك هو الجمع بين الإيمان بالغيب والانتفاع بالعقل . فنحن نعيش في عالمين فعلاً لا في عالم واحد، ونحن عاجزون عن تفسير كثير من

(1) مجموعة الرسائل، ص٢٢٧ – ٢٢٨ .

ظواهر الكون فعلاً، عاجزون عن إدراك كل الحقائق الأولية التي تحيط بنا . ونحن في إدراكها ننتقل من مجهول إلى مجهول حتى ينتهي بنا العجز إلى الإقرار بعظمة الله، ونحن نشعر من أعماق قلوبنا بعاطفة الإيمان قوية مشبوبة، لأن الإيمان من فطرة نفوسنا وهو لها ضرورة من ضرورات حياتها كالغذاء والهواء والماء للأجسام سواء بسواء . ونحن بعد ذلك نلمس أن المجتمع الإنساني لن يصلحه إلا اعتقاد روحي يبعث في النفوس مراقبة الله والتعزي بمعرفته، ومن هنا كان لزاماً على الناس أن يعودوا إلى الإيمان بالله والنبوات وبالروح وبالحياة الآخرة، وبالجزاء فيها على الأعمال ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ ﴾ [الزلزلة:٧-٨].

كل هذا في الوقت الذي يجب عليهم فيه أن يطلقوا لعقولهم العنان لتعلم وتعرف، وتخترع وتكتشف، وتسخر هذه المادة الصماء، وتنتفع بما في الوجود من خيرات وميزات: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً ﴾ [طه:١١٤].

وإلى هذه اللون من التفكير الذي يجمع بين العقليتين الغيبية والعلمية ندعو الناس. لقد عاش الغرب أخريات أيامه مادي النزعة، لا يشعر بغير المادة، ولا يعترف بغير المادة، ولا يحس بوجود غيرها حتى ماتت في نفوس أبنائه عواطف الرحمة الإنسانية، وخبت أنواع الروحانية الربانية . وهيمن الغرب على الدنيا بأسرها بعلومة ومعارفه ومباهجه وزخارفه وكشوفه ومخترعاته وجنوده وأمواله، وصبغ الفكر البشري في كل مكان بصبغته هذه .

والآن والدنيا كلها تكتوي بهذه النيران، تنبثق الدعوة من جانب جديد لتهيب بالناس في الشرق والغرب معاً أن يمزجوا المادة بالروح، وأن يؤمنوا بالغيب والشهادة، وأن يتعرفوا من جديد إلى الله : ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾

[الذريات:٥٠][1].

ثم يتحدث عن موقف الإسلام من العلم كوسيلة من الوسائل التي تحفظ العقل، مؤكدا على أهمية العمل بصفة عامة، فليس العلم الشرعي هو المطلوب فقط، بل كل ما يخدم الأمة الإسلامية خاصة، والإنسانية عامة فهو من العلم الشرعي المطلوب، الذي يثاب فاعله، فقد يأتي على المسلمين زمان تكون حاجتهم للعلوم التجريبة أكثر منها للعلوم الشرعية، فيقول في رسالة نحو النور : (وكما تحتاج الأمم إلى القوة تحتاج كذلك إلى العلم الذي يؤازر هذه القوة ويوجهها أفضل توجيه، ويمدها بما تحتاج إليه من مخترعات ومكتشفات، والإسلام لا يأبى العلم، بل يجعله فريضة من فرائضه فيقويه ويناصره، وحسبك أن أول آية نزلت من كتاب الله تعالى : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ، خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ، اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ، عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق:١-٥].

وأن رسول الله قد جعل من فداء المشركين في بدر أن يعلّم أحدهم من الأسرى عشرة من أبناء المسلمين القراءة والكتابة ،عملا على محو الأمية، ولم يسو الله بين العلماء وبين الجاهلين، فقال تبارك وتعالى : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الأَلْبَابِ﴾ [الزمر:٩]، وقد وزن الإسلام مداد العلماء بدم الشهداء، ولازم القرآن بين العلم والقوة في الآيتين الكريمتين : ﴿ فَلَوْلا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة:١٢٢-١٢٣].

ولم يفرق القرآن بين علم الدنيا وعلم الدين، بل أوصى بهما جميعاً، وجمع علوم

(1) مجموعة الرسائل، ص٢٢٨ – ٢٢٩ .

الكون في آية واحدة، وحث عليها وجعل العلم بها سبيل خشيته وطريق معرفته، فذلك قول الله تعالى :

- ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾ وفي ذلك إشارة إلى الهيئة والفلك وارتباط السماء بالأرض.
- ثم قال تعالى ﴿ فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهَا ﴾ وفي ذلك الإشارة إلى علم النبات وغرائبه وعجائبه وكيميائه.
- ﴿ وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴾ وفي ذلك الإشارة إلى علم الجيولوجيا وطبقات الأرض وأدوارها وأطوارها.
- ﴿ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ ﴾ وفيها الإشارة إلى علم البيولوجيا والحيوان بأقسامه من إنسان وحشرات وبهائم .

فهل ترى هذه الآية غادرت شيئا من علوم الكون ؟ ثم يردف ذلك كله بقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [فاطر:٢٧-٢٨].

أفلست ترى من هذا التركيب العجيب أن الله يأمر الناس بدراسة الكون ويحضهم على ذلك، ويجعل العارفين منهم بدقائقه وأسراره هم أهل معرفته وخشيته؟)[1].

حفظ العقل عن طريق الفهم الصحيح :

وفي رسالة التعاليم، يجعل الإمام البنا الركن الأول من أركان البيعة الفهم، ويقدمه على الإخلاص، لأن الفهم هو الذي يحفظ الإخلاص ويحمي التوحيد، بل هو الذي يحفظ الدين والنفس والعقل والمال والنسل، ويذكر الإمام عشرين أصلا لحماية هذا الفهم وقد عرضنا لها أثناء حديثنا عن حفظ الدين عن طريق الفهم الصحيح،

(1) مجموعة الرسائل، ص٢٨٢ – ٢٨٣ .

وسنذكر هنا ما يتصل بحفظ العقل من هذه الأصول.

فبعد أن يتحدث الإمام البنا في الأصل الأول عن شمولية الإسلام **يذكر في الأصل الثاني:** (والقرآن الكريم والسنة المطهرة مرجع كل مسلم في تعرف أحكام الإسلام، ويفهم القرآن طبقا لقواعد اللغة العربية من غير تكلف ولا تعسف، ويرجع في فهم السنة المطهرة إلى رجال الحديث الثقات) [1] .

فهنا بعد أن يذكر المرجعية العليا في تعرف الأحكام الشرعية وهي القرآن والسنة، يوضح كيف يفهم القرآن الكريم وكيف تفهم السنة المطهرة، فيجعل اللغة العربية أداة من أدوات فهم النص القرآني، ويرجع إلى رجال الحديث الثقات للوقوف على صحة الحديث سندا ومتنا، وفهمه الفهم الصحيح، وهذا كله تدريب للعقل، وارتقاء به يؤدي إلى حفظه والقيام بدوره المنوط به.

ويذكر في الأصل الرابع من الأصول العشرين (والتمائم والرقي والودع والرمل والمعرفة والكهانة وادعاء معرفة الغيب، وكل ما كان من هذا الباب منكر تجب محاربته إلا ما كان آية من قرآن أو رقية مأثورة) [2].

وهنا يحرر الإمام . رحمه الله . العقل المسلم من الخرافة والتعلق بالأوهام، ويرجعه إلى الفهم الصحيح لقضية الغيب حيث إنها تمثل ركنا هاما من أركان الإيمان بالله تعالى، وكل ما ذكره الإمام . رحمه الله . من **التمائم والرقي والودع** والرمل والمعرفة والكهانة وادعاء معرفة الغيب هذا كله ينافي الإيمان، ولذلك هو منكر يجب تغييره، ولكن ملكته الفقهية، وانضباطه الشرعي جعلته يستثني الرقية من القرآن والمأثور على الرغم من أن العلماء اختلفوا حول جواز هذا النوع من الرقية، ولكن

---

(1) مجموعة الرسائل، ص٣٥٦ .

(2) مجموعة الرسائل، ص٣٥٦- ٣٥٧ .

حيثما اختلف الفقهاء فلا إنكار هنا، فلا إنكار في مختلف عليه.

وفي الأصل الخامس يقول : (ورأي الإمام ونائبه فيما لا نص فيه، وفيما يحتمل وجوها عدة وفي المصالح المرسلة معمول به ما لم يصطدم بقاعدة شرعية، وقد يتغير بحسب الظروف والعرف والعادات، والأصل في العبادات التعبد دون الالتفات إلى المعاني، وفي العاديات الالتفات إلى الأسرار والحكم والمقاصد) [1].

وهنا يفسح المجال للعقل المسلم في مجال المصالح المرسلة، وفيما يحتمل وجوها عدة، أي في ظني الدلالة، أن يبدع فيه حسب الأصول العامة للشريعة الإسلامية، بحيث لا يصطدم مع قاعدة كلية، ولا نص قطعي الثبوت قطعي الدلالة .

صحيح أنه أعطى هذه المساحة لإمام المسلمين، لكن الإمام في الغالب لا ينفرد بالاجتهاد إلا إن كان من أهل الاجتهاد المطلق، ولا نحسب ذلك يكون متاحا الآن ولا في المستقبل، بعد أن تشابكت القضايا، وتضخمت المشاكل، فلم يعد العقل الفردي قادرا على الاجتهاد في القضايا السياسة والاجتماعية والاقتصادية، ولا يصلح في هذا الوقت إلا الاجتهاد الجماعي المنظم في هذه القضايا المتشابكة .

ثم يتحدث عن تغير الأحكام وفق تغير الظروف والعادات، والأشخاص والأحوال، ويؤكد على القاعدة الذهبية التي ينقلها من الإمام الشاطبي . عميد مدرسة المقاصد ـ فيقول : (و الأصل في العبادات التعبد دون الالتفات إلى المعاني، وفي العاديات الالتفات إلى الأسرار والحكم والمقاصد) .

ويقول في الأصل السابع: (ولكل مسلم لم يبلغ درجة النظر في أدلة الأحكام الفرعية أن يتبع إماما من أئمة الدين، ويحسن به مع هذا الاتباع أن يجتهد ما استطاع في تعرف أدلته، وأن يتقبل كل إرشاد مصحوب بالدليل متى صح عنده صلاح من

---

(1) مجموعة الرسائل، ص٣٥٧ .

أرشده وكفايته، وأن يستكمل نقصه العلمي إن كان من أهل العلم حتى يبلغ درجة النظر)[1].

وهنا يستحث الإمام **- رحمه الله -** العقل المسلم على الاجتهاد في التعرف على أدلة الأحكام الفقهية، حتى يصل إلى درجة الاجتهاد، وأن يتعلق دائما بالدليل وليس بالأشخاص، فيعرف الرجال بالحق، ولا يعرف الحق بالرجال، وهذا كله يربي العقلية المسلمة على المنهجية في البحث، والتعمق في الفكر.

ويقول في الأصل التاسع : (وكل مسألة لا ينبني عليها عمل فالخوض فيها من التكلف الذي نهينا عنه شرعا، ومن ذلك كثرة التفريعات للأحكام التي لم تقع، والخوض في معاني الآيات القرآنية الكريمة التي لم يصل إليها العلم بعد، والكلام في المفاضلة بين الأصحاب رضوان الله عليهم وما شجر بينهم من خلاف، ولكل منهم فضل صحبته وجزاء نيته وفي التأول مندوحة)[2].

وهنا يصون العقل المسلم من الخوض فيما لا ينبي عليه عمل، حتى يفرغ لأداء دوره، والقيام برسالته، ويضرب الأمثلة على هذا بكثرة التفريعات الفقهية التي لم تقع، ومعاني الآيات القرآنية التي شاء الله أن تكون من المشتبهات التي لا يهتدي فيها العقل إلى دليل قطعي، والخوض فيما حدث بين صحابة النبي ﷺ من خلاف، وخاصة إذا صدر هذا من عوام الناس الذين لا يدركون السياق التاريخي الذي وقعت فيها الأحداث.

ويقول في الأصل العاشر: (ومعرفة الله تبارك وتعالى وتوحيده وتنزيهه أسمى عقائد الإسلام، وآيات الصفات وأحاديثها الصحيحة وما يليق بذلك من التشابه، نؤمن

---

(1) مجموعة الرسائل، ص٣٥٧ .

(2) مجموعة الرسائل، ص٣٥٧ .

بها كما جاءت من غير تأويل ولا تعطيل، ولا نتعرض لما جاء فيها من خلاف بين العلماء، ويسعنا ما وسع رسول الله ﷺ وأصحابه ﴿ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا ﴾ [آل عمران:٧][1].

وهنا أيضا . كما في الأصل التاسع . يصون العقل من الخوض فيما لا يستطيع إدراكه، ويقطع المعارك التي دارت بين الفقهاء قديما وحديثا بشأن فهم آيات الصفات من حيث التأويل والتعطيل بعبارة دقيقة موجزة أشد الإيجاز لكنها في **غاية الأهمية** (نؤمن بها كما جاءت من غير تأويل ولا تعطيل، ولا نتعرض لما جاء فيها من خلاف بين العلماء).

وفي الأصل الثالث عشر يقول : (ومحبة الصالحين واحترامهم والثناء عليهم بما عرف من طيب أعمالهم قربة إلى الله تبارك وتعالى، والأولياء هم المذكورون بقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾، والكرامة ثابتة بشرائطها الشرعية، مع اعتقاد أنهم رضوان الله عليهم لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا في حياتهم أو بعد مماتهم فضلا عن أن يهبوا شيئا من ذلك لغيرهم)[2].

فهنا يميز الإمام . رحمه الله . بين أمرين طالما وقع الناس بسببهم في خطأ، فهو يفرق بين محبة الصالحين والثناء عليهم والاقتداء بأفعالهم الصالحة، فهذا أمر حسن لا حرمة فيه، بل مندوب ومستحب، وبين الاعتقاد أنهم يملكون لأنفسهم نفعا أو ضرا، أو يملكون ذلك لغيرهم، وهذا أمر غير مقبول فهو طريق للشرك والعياذ بالله، ثم يذكر للمسلم صفات الأولياء وهم المذكرون في قوله تعالى ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ أي الإيمان والتقوى، فليست الولاية مجرد ادعاء أو وراثه يتوارثها الأبناء عن الآباء،

---

(1) مجموعة الرسائل، ص٣٥٧ .

(2) مجموعة الرسائل، ص٣٥٨ .

ولكنها تكمن في تمام الاتباع والطاعة لله، والتقوى.

وفي الأصل الثامن عشر يقول: (والإسلام يحرر العقل، ويحث على النظر في الكون، ويرفع قدر العلم والعلماء، ويرحب بالصالح والنافع من كل شيء، والحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق الناس بها)[1].

وهنا يذكر صراحة موقف الإسلام من العقل، في عبارات سريعة مركزة يمكننا حصرها في:

١- تحرير العقل.

٢- الحث على النظر في الكون.

٣- الاهتمام بالعلم والعلماء ورفع قدرهم في الدنيا وعند الله إن هم قاموا بدورهم، وأخلصوا النية لله.

٤- الترحيب بكل صالح ونافع، فالأصل في الأشياء الحل أو الإباحة.

٥- لا مانع من الاستفادة من خبرات الآخرين بعد وزنها بموازين الشرع، حتى لو كان الآخر غير مسلم.

وكل عنوان من هذه العناوين يحتاج إلى صفحات في شرحه والتدليل عليه، ولا أحسب أن المقام هنا يساعدنا على هذا، ولعلنا نعود إليه في بحث مستقل إن شاء الله تعالى.

وفي الأصل التاسع عشر يقول : (وقد يتناول كل من النظر الشرعي والنظر العقلي ما لا يدخل في دائرة الآخر، ولكنهما لن يختلفا في القطعي، فلن تصطدم

---

(1) مجموعة الرسائل ص٣٥٨، والحديث رواه الترمذي كتاب العلم باب ما جاء في فضل العلم على العبادة، ح: ٢٦٨٧.

حقيقة علمية صحيحة بقاعدة شرعية ثابتة، ويؤول الظني منهما ليتفق مع القطعي، فإن كانا ظنيين فالنظر الشرعي أولى بالإتباع حتى يثبت العقلي أو ينهار) [١] .

فهنا يوضح الإمام . رحمه الله . المساحة التي يتناولها النظر العقلي والشرعي، ويذكر أنه لا يمكن أن يحدث تعارض بين الحقائق العلمية الصحيحة، والقواعد الشرعية الثابتة، حيث إن مصدرهما واحد وهو الله تعالى، في كونه المنظور وكتابه المقروء، ولكن الذي يوهم التعارض ما يحدث بين الظني والقطعي، والحل في هذا أن يؤول الظني حتى يتفق مع القطعي، فإن كانا ظنيين يقدم الشرعي على العقلي حتى يثبت العقلي أو ينهار.

وهي قاعدة غاية في الأهمية، حيث إن كثيرا من الناس أقاموا معارك وهمية بين العلم والدين، اتهم رجال الدين العلماء بالكفر والمروق والخروج من الملة، واتهم العلماء رجال دين بالتخلف والرجعية، وما حدث بين الكنيسة والعلماء، ثم بين العلماء وبين الكنيسة بعد أن مكن للعلماء، وهذه الصورة حدثت بين المسلمين وإن كانت في صورة مصغرة .

والواقع أنها حروب مفتعلة، وعداواة متوهمة، يقطعها الإمام في عبارات حازمة، يمكننا قراءتها على هذا النحو:

١- النظر الشرعي والنظر العقلي يتناول كل منهما ما لا يدخل في دائرة الآخر، فللنظر الشرعي دائرته، وللنظر العقلي دائرته.

٢- النظر الشرعي والنظر العقلي لا يختلفان في القطعي.

٣- يؤول الظني من النظر الشرعي أو النظر العقلي حتى يتفق مع القطعي، حيث إعمال الأدلة أولى من إهمالها.

---

(1) مجموعة الرسائل، ص٣٥٩ .

٤- إن كان ظنيين يقدم النظر الشرعي الظني، حتي يثبت النظر العقلي فساعتها يقدم، أو ينهار فنظل على العمل بالنظر الشرعي حتى لو كان ظنيا.

وفي واجبات الأخ العمل يذكر التعليم كأداة من أدوات حفظ العقل فيقول في الواجب الثاني : (أن تحسن تلاوة القرآن والاستماع إليه والتدبر في معانيه، وأن تدرس السير المطهرة وتاريخ السلف بقدر ما يتسع له وقتك، وأقل ما يكفي في ذلك كتاب (حماة الإسلام)، وإن تكثر من القراءة في حديث رسول الله ﷺ، وأن تحفظ أربعين حديثا على الأقل ولتكن الأربعين النووية، وأن تدرس رسالة في أصول العقائد ورسالة في فروع الفقه)[١].

ويقول في الواجب الرابع عشر: (أن تجيد القراءة والكتابة، وأن تكثر من المطالعة في رسائل الإخوان وجرائدهم ومجلاتهم ونحوها، وأن تكون لنفسك مكتبة خاصة مهما كانت صغيرة، وأن تتبحر في علمك وفنك إن كنت من أهل الاختصاص، وأن تلم بالشؤون الإسلامية العامة إلماما يمكنك من تصورها والحكم عليها حكما يتفق مع مقتضيات الفكرة)[٢].

تقدير الإسلام للعقل من خلال فهم العقيدة :

وفي رسالة العقائد يذكر الإمام .رحمه الله .تقدير الإسلام للعقل، فعلى الرغم من أن الأصل في معرفة العقائد القرآن والسنة، ولكن العقل الصحيح يؤيد الشرع، ولا يعارضه، فيقول : (أساس العقائد الإسلامية – ككل الأحكام الشرعية – كتاب الله تعالى وسنة رسوله .

(1) مجموعة الرسائل، ص٣٦٥ .

(2) مجموعة الرسائل، ص٣٦٦ .

ويجب أن تعلم، مع ذلك، أن كل هذه العقائد يؤيدها العقل، ويثبتها النظر الصحيح، ولهذا شرف الله تعالى العقل بالخطاب، وجعله مناط التكليف، وندبه إلى البحث والنظر والتفكير، قال تعالى : ﴿ قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ ﴾ [يونس:١٠١]، وقال تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاء فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ، وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ، وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاء مَاء مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ، رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ﴾ [ق:٦، ١١]، وذم الذين لا يتفكرون ولا ينظرون فقال تعالى : ﴿ وَكَأَيِّن مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ [يوسف:١٠٥]، وطالب الخصوم بالدليل والبرهان حتى فيما هو ظاهر البطلان، تقديرا للأدلة، وإظهارا لشرف الحجة، وقد ورد في الحديث أن بلالا جاء يؤذن النبي بصلاة الصبح، فرآه يبكي فسأله عن سبب بكائه، فقال : (ويحك يا بلال ما يمنعني أن أبكي وقد أنزل الله علي هذه الليلة: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ﴾ (آل عمران:١٩٠)، ثم قال: (ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها) رواه ابن أبي الدنيا في كتاب التفكر.

ومن هنا نعلم أن الإسلام لم يحجر على الأفكار، ولم يحبس العقول، وإن أرشدها إلى التزام حدها، وعرفها قلة علمها، وندبها إلى الاستزادة من معارفها، فقال تعالى : ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ [الاسراء:٨٥]، وقال تعالى ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْماً ﴾ [طه:١١٤][1].

ويذكر احترامه للعقل عند حديثه عن الأسماء الحسنى فيقول : (يذكر البعض أن لكل اسم من أسماء الله تعالى خواص وأسرارا تتعلق به على إفاضة فيها أو إيجاز،

(1) مجموعة الرسائل، ص٣٨٠ – ٣٨١.

وقد يتغالى البعض فيتجاوز هذا القدر إلى زعم أن لكل اسم خادما روحانيا يخدم من يواظب على الذكر به، وهكذا، والذي أعلمه في هذا، وفوق كل ذي علم عليم، أن أسماء الله تعالى ألفاظ مشرفة لها فضل على سائر الكلام، وفيها بركة وفي ذكرها ثواب عظيم، وأن الإنسان إذا واظب على ذكر الله تعالى طهرت نفسه، وصفت روحه، ولا سيما إذا كان ذكره بحضور قلب وفهم للمعنى، أما ما زاد على ذلك فلم يرد في كتاب ولا سنة، وقد نهينا عن الغلو في دين الله تعالى، والزيادة فيه، وحسبنا الاقتصار على ما ورد)[1].

ثم يتحدث عن صفات الله تبارك وتعالى في نظر العقل فيقول: (أنت إذا نظرت إلى الكون وما فيه من بدائع الحكم، وغرائب المخلوق، ودقيق الصنع، وكبير الإحكام، مع العظمة والاتساع، والتناسق والإبداع، والتجدد والاختراع، ورأيت هذه السماء الصافية، بكواكبها وأفلاكها، وشموسها وأقمارها ومداراتها، ورأيت هذه الأرض بنباتها وخيراتها، ومعادنها وكنوزها، وعناصرها وموادّها، ورأيت عالم الحيوان وما فيه من غريب الهداية والإلهام، بل لو رأيت تركيب الإنسان وما احتواه من أجهزة كثيرة، كل يقوم بعمله، ويؤدي وظيفته، ورأيت عالم البحار وما فيه من عجائب وغرائب، وعرفت القوى الكونية وما فيها من حكم وأسرار، من كهرباء وأثير ومغناطيس وراديوم، ثم انتقلت إلى ذوات العالم وأوصافها، إلى الروابط والصلات فيما بينها، وكيف أن كلا منها يتصل بالآخر اتصالا محكما وثيقا، بحيث يتألف من مجموعها وحدة كونية كل جزء منها يخدم الأجزاء الأخرى، كما يخدم العضو في الجسم الواحد بقية الأعضاء ، لخرجت من كل ذلك، بغير أن يأتيك دليل أو برهان، أو وحي أو قرآن، بهذه العقيدة النظرية السهلة وهي : أن لهذا الكون خالقا صانعا موجدا، وأن هذا الصانع لا بد أن يكون عظيما فوق ما يتصور العقل البشري الضعيف من العظمة، وقادرا فوق ما يفهم

(1) مجموعة الرسائل ص ٣٨٧ .

الإنسان من معاني القدرة، وحيا بأكمل معاني الحياة، وأنه مستغنٍ عن كل هذه المخلوقات، لأنه كان قبل أن تكون، وعليما بأوسع حدود العلم، وأنه فوق نواميس هذا الكون لأنه واضعها، وأنه قبل هذه المخلوقات لأنه خالقها، وبعدها لأنه هو الذي يحكم عليها بالعدم، وإجمالا سترى نفسك مملوءاً بالعقيدة بأن صانع هذا الكون ومدبره متصف بكل صفات الكمال فوق ما يتصورها العقل البشري الصغير، ومنزه عن صفات النقص، وسترى هذه العقيدة وحي وجدانك لوجدانك، وشعور نفسك لنفسك : ﴿ فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّم ﴾ [الروم: ٣٠][1].

وهنا تتجلى عبقرية الإمام ـ رحمه الله ـ في أمرين :

الأمر الأول: تقديمه العقيدة بهذه اللغة السهلة المرنة الجميلة التي يجتمع عليها الخاصة والعامة، فليست بلغة الفلاسفة، ولا المناطقة التي تصعب على قطاع عريض من المسلمين حتى المتخصصين منهم، وليست بالركيكة المبتذلة التي يستعلي عليه المتخصص، وهذا منهج سار عليه الإمام وتبعه فيه تلامذة مخلصون، توسعوا في هذا الجانب، فيسر الله بهم علم التوحيد الذي كان لا يدرس إلا في أقسام العقيدة في الأزهر أو دار العلوم فيصعب على الدارس والمدرس، ويكون سببا في قسوة القلب، وأحيانا في التطاول على مقام الله تعالى.

كتب بمثل هذه الطريقة فضيلة الشيخ العلامة محمد الغزالي ـ رحمه الله ـ في عقيد المسلم، وفضيلة الشيخ العلامة السيد سابق ـ رحمه الله ـ في تبسيط العقائد، وفضيلة الشيخ الدكتور يوسف القرضاوي في حقيقة التوحيد، ووجود الله.

وهذه هي الطريقة المثلى في كتابة العقيدة الإسلامية، وهذا هو منهج القرآن

---

(1) مجموعة الرسائل، ص٣٩١– ٣٩٢.

الكريم والسنة المطهرة في تعريف الناس بالإله الواحد، وقضايا الغيب، خطاب العقل بأبسط البدهيات، ومخاطبة الفطرة الإنسانية بما وضعه الله فيها من إيمان كامن أو مستتر.

الأمر الثاني : هو حفظ العقل هنا حتى في مجال العقيدة إذا الأصل فيها الاتباع، والسير وفق المنقول المتواتر من القرآن الكريم والسنة المطهرة، لكنه لا مانع من استعمال العقل كأداة من الأدوات،ووسيلة من الوسائل التي خلقها الله تعالى، وجعلها قادرة على التعرف عليه إذا أزيلت من أمامها حجب الجهل والتعصب والهوى .

وليت علماء التوحيد يسلكون هذا المسلك حتى يحببوا الناس في هذا العلم الذي هو أشرف العلوم وأهمها، ولا يجعلونه حكرا على الباحثين والدارسين المتخصصين، بل يجتهدوا في وصول هذا العلم لكل مسلم مهما كانت ثقافته، وأيا كانت لغته ومستواه التعليمي، فهو مكلف ومخاطب بالتعرف على الله تعالى بأيسر الطرق.

وهذا هو منهج القرآن الكريم في تعليم الناس التوحيد والإيمان به سبحانه وتعالى.

ولو أردنا أن ننظر إلى مثال واحد من الأمثلة التي ذكرها القرآن الكريم، وهي كثيرة تحتاج إلى مؤلفات خاصة، هذا المثال يغرس التوحيد في قلوب المؤمنين عن طريق القصص الطريف العميق، وهذه الآيات الثلاث جاءت متتالية في سورة البقرة، ولا تحتاج إلى إعمال ذهن، أو إتعاب عقل حتى يوقن المسلم خاصة والإنسان عامة بقدرة الله تعالى، تلك الآيات التي تتحدث واحدة منها عما حدث بين إبراهيم الخليل والنمورد الذي أراد أن يدعي الألوهية، ويدلل عليها بأدلة ساذجة سطحية، فألقمه الخليل حجرا أسكته يقول الله تعالى:﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ

الله يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

وهذه الآية تغرس التوحيد والإيمان غرسا حيث تدلل على قدرة الله المتناهية التي لا يقف أمامها شيء في الأرض ولا في السماء .

ثم تعلم المسلمين كيف تكون المناظرة؟، وكيف يكون الجدال مع الكافرين؟ وكيف نقيم عليهم الحجة البالغة، ونلزمهم بالدليل الناصع الواضح، بل كيف نسكتهم فليس أمامهم إلا الإيمان بالله تعالى، أو التسليم بالهزيمة .

والآية الثانية تحكي قصة هذا الرجل الذي تعجب، أو استبعد قدرة الله على إحياء هذه القرية بعد موتها وهلاك أهلها، فأماته الله ثم أحياه؛ ليدلل له على قدرته المتناهية أيضا في إحياء الموتى، وخرق ناموس الكون، فيتحلل الحمار الذي كان يركبه ولم يبق منه إلا العظام النخرة، ويظل الطعام كما هو مائة عام دون أن يتعفن يقول الله تعالى : ﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ **[البقرة: ٢٥٩].**

والآية الثالثة كانت لخليل الله إبراهيم الذي يوقن إيقانا لا شك فيه، ويؤمن إيمانا راسخا بقدرة الله على إحياء الموتى؛ لكنه يريد أن يترقى في العلم فينتقل من مرحلة العلم العقلي إلى مرحلة الرؤية التي تجعل القلب يزداد إيمانا على إيمانه يقول الله تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٠].

وهذا المنهج هو الذي سار عليه الإمام البنا . رحمه الله تعالى . أثناء حديثة عن الإيمان بالله تعالى.

فيستطرد الإمام . رحمه الله . في سوق الأدلة البسيطة السهلة لكنها دالة على توصيل ما يريد فيقول : (و نسوق إليك بعد هذه المقدمة بعضا من غرائب الحوادث في هذا الكون، وسترى أنها على قلتها بالنسبة لعظمة الكون وما فيه من دقة وإحكام ستكون كافية لأن تشعر في نفسك بما قدمت لك.

الملاحظة الأولى : هذا الهواء الذي نستنشقه مركب من عدة عناصر، منها جزءان هامان : جزء صالح لتنفس الإنسان ويسمى باصطلاح الكيميائيين الأكسجين، وجزء ضار به ويسمى الكربون، فمن دقائق الارتباط بين وحدات هذا الوجود المعجز أن هذا الجزء الضار بالإنسان يتنفسه النبات وهو نافع له، ففي الوقت الذي يكون الإنسان فيه يستنشق الأكسجين ويطرد الكربون يكون النبات يعمل عكس هذه العملية، فيستنشق الكربون ويطرد الأكسجين، فانظر إلى الرابطة التعاونية بين الإنسان والنبات في شيء هو أهم عناصر الحياة عندهما، وهو التنفس، وقل لي بعد ذلك : هل يفعل هذا في الكون العظيم غير عظيم قادر واسع العلم، دقيق الحكمة ؟

الملاحظة الثانية : أنت تأكل الطعام وهو يتركب من عدة عناصر نباتية أو حيوانية، يقسمها العلماء إلى مواد زلالية، أو نشوية، أو دهنية، مثلا، فترى أن الريق يهضم بعض المواد النشوية، ويذيب المواد السكرية ونحوها مما يقبل الذوبان، والمعدة يهضم عصيرها المواد الزلالية كاللحم وغيره، والصفراء المنفرزة من الكبد تهضم الدهنيات، وتجزئها إلى أجزاء دقيقة يمكن امتصاصها، ثم يأتي البنكرياس بعد ذلك فيفرز أربع عصارات تتولى كل واحدة منها تتميم الهضم في عنصر من العناصر الثلاثة : النشوية أو الزلالية أو الدهنية، والرابعة تحول اللبن إلى جبن، فتأمل هذا الارتباط العجيب بين عناصر الجسم البشري، وعناصر النبات والحيوان والأغذية التي

يتغذى بها الإنسان.

الملاحظة الثالثة : ترى الزهرة في النبات فترى لها أوراقا جميلة جذابة ملونة بألوان بهيجة، فإذا سألت علماء النبات عن الحكمة في ذلك، أجابوك بأن هذا إغواء للنحل وأشباهه من المخلوقات التي تمتص رحيق الأزهار لتسقط على الزهرة، حتى إذا وقفت على عيدانها علقت حبوب اللقاح وانتقلت من الزهرة الذكر إلى الزهرة الأنثى فيتم التلقيح، فانظر كيف جعلت هذه الأوراق الجميلة في الزهرة حلقة اتصال بين النبات والحيوان حتى يستخدم النبات والحيوان في عملية التلقيح الضرورية للإثمار والإنتاج !

كل ما في الكون ينبئك بوجود حكمة عالية، وإرادة سامية، وسيطرة قوية، ونواميس في غاية الدقة والإحكام يسير عليها هذا الوجود، ورب هذه الحكمة، وصاحب هذه العظمة، وواضع هذه النواميس هو : الله)[1].

ثم يربط الإمام كل ما سبق بكتاب الله تعالى الذي يرسخ الإيمان في القلوب، ويرسخه في فطرة الإنسان، حتى يختلط بلحمه وعظمه، فلا تزعزعه الشدائد، ولا تؤثر فيه الشبهات.

(وقد أفاض القرآن في ذلك، وفي لفت الإنظار إلى هذه الحكم البارعة، والأسرار العالية، فلا تكاد تخلو صورة من صوره من ذكر آلاء الله ونعمه، ومظاهر قدرته وحكمته وحث الناس على تجديد النظر في ذلك، ودوام التفكر فيه.

قال تعالى ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ، وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ، وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ

(1) مجموعة الرسائل، ص٣٩٢– ٣٩٣.

وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ، وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ، وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الروم:٢٠: ٢٤].

و قال تعالى :﴿ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ، وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ،فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الروم: ٤٨-٥٠].

وغير ذلك كثير في سورة الرعد، والقصص، والأنبياء، والنمل، وق، وغيرها من سور القرآن) (١).

ثم يتكلم الإمام .رحمه الله . عن صفات الله تعالى فلا يزيد على أن يذكر آيات بينات من آي الذكر الحكيم فتقع في موضعها تماما، وتعرف طريقها إلى العقل والوجدان والقلب، فيفهمها الدارس والمدرس، والعالم والمتعلم، ﴿... وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ حَدِيثًا ﴾ [النساء: ٨٧]، ﴿.. وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ قِيلًا ﴾ [النساء: ١٢٢].

فيتحدث الإمام عن وجود الله، وقدمه وبقائه، ووحدانيته، وقدرته، وإرادته وعلمه، وحياته، وسمعه وبصره، وكل ذلك لم يتجاوز النصوص القرآنية، ولم يزد عن عدة صفحات، وتكفي المقارنة بما كتبه الإمام .رحمه الله . بما كتب في منهج التوحيد المقرر على المرحلة الإعدادية أو الثانوية الأزهرية لنرى الفارق بين الطريقتين.

الأدلة العقلية والمنطقية على وجود الله تعالى :

(1) مجموعة الرسائل، ص٣٩٣- ٣٩٤.

ثم لا يغفل الإمام . رحمه الله تعالى . العقل في التعرف على وجود الله بجوار الأدلة النصية، لكن الأمثلة التي يسوقها هنا تختلف عن أدلة الفلاسفة وأهل المنطق، حيث يفهمها الخاصة والعامة، فيقول : (يعمد علماء العقائد إلى إثبات صفات الله تبارك وتعالى بأدلة عقلية، وأقيسة منطقية، ونحن نقول : إن ذلك حسن، لأن العقل أساس المعرفة، ومناط التكليف، وحتى لا يكون في نفس أحد أثر من آثار الشبهات والأباطيل، ولكن الأمر أوضح من ذلك، ووجود الخالق تبارك وتعالى وإثبات صفات الكمال المطلق له صار في حكم البديهيات التي لا يحتاج إلى إثباتها دليل أو برهان، ولا يطالب بالدليل عليها إلا كل مكابر مريض القلب لا يجديه دليل، ولا تنفع معه حجة، ومع هذا فتتميما للفائدة نذكر بعض الأدلة العقلية الإجمالية والتفصيلية، فنقول:

الدليل الأول: هذا الوجود الذي يدل بعظمته وإحكامه على وجود خالقه وعظمته وكماله.

الدليل الثاني: إن فاقد الشيء لا يعطيه، فإذا لم يكن موجد الكون متصفا بصفات الكمال فكيف تكون آثار هذه الصفات في مخلوقاته .

الدليل الثالث : وهو خاص بأن هذا الخالق واحد لا يتعدد، إن التعدد مدعاة للفساد والخلاف والعلو ولاسيما وشأن الألوهية الكبرياء والعظمة، وأيضا فلو استقل أحد المتعددين بالتصرف تعطلت صفات الآخرين، ولو اشتركوا تعطلت بعض صفات كل منهم، وتعطيل صفات الألوهية يتنافى مع جلالها وعظمتها، فلابد أن يكون الإله واحدا لا رب غيره.

هذه نماذج من الأدلة المنطقية على وجود الخالق، وإثبات صفاته، ومن أراد الاستيعاب فعليه بالمطولات، على أن الأمر كله مركوز في فطر النفوس الصافية مستقر في أعماق القلوب السليمة، ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾

[النور: ٤٠][1].

ثم يجيب عن السؤال الذي يتردد في أذهان بعض الناس بالحجة والمنطق، لكنه أيضا المنطق السهل، والحجة البينة، بعيدا عن الجدل الجاف، والمنطق الحاد فيقول : (ورد في حديث أبي هريرة (ﷺ) قال : قال رسول الله ﷺ : (لا يزال الناس يتساءلون حتى يقال خلق الله الخلق، فمن خلق الله ؟ فمن وجد من ذلك شيئا فليقل آمنت بالله) رواه مسلم.

وهذا السؤال وإن كان خطأ من أساسه، لأننا أمرنا ألا نبحث في ذات الله تبارك وتعالى، لأن عقولنا القاصرة التي تعجز عن إدراك حقيقة نفسها تعجز من باب أولى عن إدراك حقيقة ذات الله تبارك وتعالى، إلا أنه يختلج في نفوس بعض الناس، ونريد أن نوضح لهم الجواب عليه بمثال يريح ضمائرهم، إن شاء الله تعالى، **فنقول:** " إذا وضعت كتابا على مكتبتك ثم خرجت من الحجرة، وعدت إليها بعد قليل فرأيت الكتاب الذي تركته على المكتب موضوعا في الدرج، فإنك تعتقد تماما أن أحدا لا بد أن يكون وضعه في الدرج، لأنك تعلم من صفات هذا الكتاب أنه لا ينتقل بنفسه ".

احفظ هذه النقطة وانتقل معي إلى نقطة أخرى: لو كان معك في حجرة مكتبك شخص جالس على الكرسي ثم خرجت وعدت إلى الحجرة فرأيته جالسا على البساط مثلا فإنك لا تسأل عن سبب انتقاله، ولا تعتقد أن أحدا نقله من موضعه، لأنك تعلم من صفات هذا الشخص أنه ينتقل بنفسه ولا يحتاج إلى من ينقله.

احفظ هذه النقطة الثانية ثم اسمع ما أقوله لك : لما كانت هذه المخلوقات محدثة ونحن نعلم من طبائعها أنها لا توجد بذاتها بل لا بد لها من موجد، عرفنا أن موجدها هو الله تبارك وتعالى، ولما كان كمال الألوهية يقتضي عدم احتياج إله إلى

(1) مجموعة الرسائل، ص٤٠٤ .

غيره، بل إن من صفاته قيامه بنفسه، عرفنا أن الله تبارك وتعالى موجود بذاته، وغير محتاج إلى من يوجده، وإذا وضعت النقطتين السابقتين إلى جانب هذا الكلام، اتضح لك هذا المقام، والعقل البشري أقصر من أن يتورط في أكثر من ذلك، والله نسأل العصمة من الزلل، إنه رؤوف رحيم)[1].

وهنا نجد أن كلام الإمام . رحمه الله . يخاطب العقل، ويعمل على حفظه، عن طريق هذا التفكير الذي يدخل إلى العقل والقلب، وليتنا نقتبس هذا الأسلوب لتبسيط القضايا الكبرى لطلابنا حتى نصل إلى أهدافنا دون إرهاق للعقول وكد للأذهان دون فائدة تذكر.

حفظ العقل عن طريق كيفية النقل عن غير المسلمين :

ثم ننتقل إلى ما نقله الإمام . رحمه الله . عن علماء الطبيعة غير المسلمين، في إثبات وجود الله وصفاته، عملا بالقول المأثور (الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أولى الناس بها) وهذا يفتح عقولنا وقلوبنا على ما أنتجه الفكر البشري فنأخذ منه المفيد النافع، ونترك الضار الذي يصطدم مع ديننا وقيمنا، يقول الإمام: (قدمنا إليك أن هذه العقيدة فطرية في النفوس السليمة، مستقرة في الأذهان الصافية، تكاد تكون من بدهيات المعلومات، تؤكدها نتائج العقول جيلا بعد جيل، ولذلك اعتقدها علماء الكون من الأوربيين وغيرهم، وإن لم يتلّقوا عن دين من الأديان، وسننقل لك بعض شهاداتهم، لا تأييدا للعقيدة، ولكن إثباتا لاستقرارها في النفوس، وقطعا لألسنة الذين يريدون أن يتحللوا من رباط العقائد، ويخادعوا ضمائرهم وأرواحهم بالباطل.

١ – قال ديكارت العالم الفرنسي :

(إني مع شعوري بنقص ذاتي أحس في الوقت نفسه بوجود ذات كاملة، وأراني

(1) مجموعة الرسائل، ص٤٠٥ .

مضطرا للاعتقاد بأن هذا الشعور قد غرسته في ذاتي تلك الذات الكاملة المتحلية بجميع صفات الكمال، وهي: الله).

فهو يثبت في كلامه هذا ضعف نفسه ونقصها، ووجود الله وكماله، ويعترف بأن شعوره وإحساسه هبة من الله له وفطرة فيه، ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم:٣٠].

٢- **وقال إسحاق نيوتن** العالم الإنجليزي الشهير، ومكتشف قانون الجاذبية :

(لا تشكّوا في الخالق فإنه مما لا يعقل أن تكون المصادفات وحدها هي قائدة هذا الوجود).

٣- **وقال هرشل الفلكي الإنجليزي :**

(كلما اتسع نطاق العلم ازدادت البراهين الدامغة القوية على وجود خالق أزلي لا حد لقدرته ولا نهاية، فالجيولوجيون والرياضيون والفلكيون والطبيعيون قد تعاونوا على تشييد صرح العلم، وهو صرح عظمة الله وحده) .

٤- **وقال لينيه:**، كما نقله عنه كاميل فلامريون الفرنسي في كتابه المسمى (الله في الطبيعة) :

(إن الله الأزلي الأبدي العالم بكل شيء والمقتدر على كل شيء، قد تجلى لي ببدائع صنعه حتى صرت مندهشا مبهوتا، فأي قدرة وأي حكمة، وأي إبداع أبدعه في مصنوعاته ! سواء في أصغر الأشياء أو أكبرها ! إن المنافع التي نستمدها من هذه الكائنات تشهد بعظمة رحمة الله الذي سخرها لنا، كما أن كمالها وتناسقها ينبئ بواسع حكمته، وكذلك حفظها عن التلاشي وتجددها يقر بجماله وعظمته) .

٥- **ويقول هوبرت سبنسر الإنجليزي:** في هذا المعنى في رسالته في التربية:

(العلم يناقض الخرافات، ولكنه لا يناقض الدين، يوجد في شيء كثير من العلم الطبيعي الشائع روح الزندقة، ولكن العلم الذي تجاوز المعلومات السطحية، ورسب في أعماق الحقائق، براء من هذه الروح، العلم الطبيعي لا ينافي الدين، والتوجه للعلم الطبيعي عبادة صامتة واعتراف صامت بنفاسة الأشياء التي تعاين وتدرس، ثم بقدرة خالقها، فليس ذلك التوجه تسبيحا شفهيا، بل هو تسبيح عملي، وليس باحترام مُدّعى، إنما هو احترام أثمرته تضحية الوقت والتفكير والعمل، وهذا العلم لا يسلك طريق الاستبداد في تفهيم الناس استحالة إدراك السبب الأول وهو الله، ولكنه ينهج بنا النهج الأوضح في تفهيمنا الاستحالة، بإبلاغنا جميع أنواع الحدود التي لا يستطاع اجتيازها، ثم يقف بنا في رفق وهوادة عند هذه النهاية، وهو بعد ذلك يرينا بكيفيةٍ لا تعادل صغر العقل الإنساني إزاء ذلك الذي يفوت العقل ...)، ثم أخذ يضرب الأمثلة على ما يقول فقال : (إن العالم الذي يرى قطرة الماء فيعلم أنها تتركب من الأكسجين والإيدروجين بنسبة خاصة، بحيث لو اختلفت هذه النسبة لكانت شيئا آخر غير الماء، يعتقد عظمة الخالق وقدرته وحكمته وعلمه الواسع بأشد وأعظم وأقوى من غير العالم الطبيعي الذي لا يرى فيها إلا أنها قطرة ماء فحسب، وكذلك العالم الذي يرى قطعة البَرد فيرى تحت مجهره ما فيها من جمال الهندسة ودقة التقسيم، لا شك أنه يشعر بجمال الخالق ودقيق حكمته أكبر من ذلك الذي لا يعلم عنها إلا أنها مطر تجمد من شدة البرد).

وأقوال علماء الكون في ذلك لا تقع تحت حصر، وفيما ذكرناه الكفاية، وإنما استشهدنا بذلك حتى يعلم شبابنا أن دينهم مؤيد من عند الله تبارك وتعالى، لا يزيده العلم إلا قوة وثباتا وتأييدا، مصداقا لقول الله تعالى : ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾

[فصلت:٥٣][1].

موقف السلف والخلف من تأويل الصفات :

ثم نختم هذا الفصل بمعالجة الإمام البنا لقضية من أخطر قضايا الفكر الإسلامي، وهي موقف السلف والخلف من قضية تأويل الصفات، وهذه مسألة كما سبق أن قلنا قضية زلت فيها أقدام، وقامت حولها معارك ومناظرات فسق فيها كل مسلم أخاه، وما كان أغناهم عن هذه المعارك لو تناولوها بهذا الفكر والعقل المتزن، وهي تصلح كنموذج لأبناء الحركة الإسلامية خاصة وللمسلمين عامة كيف يعالجون قضايا الخلاف، بتحديد موطن الخلاف، ونقاط الاتفاق فسيتضح أن الأمر هين، وأن مواطن الاتفاق أقوى وأكثر من نقاط الخلاف، وبالتالي يقبل كل منهما الآخر ويتعاون معه.

ونحن ننقل مقتطفات من رسالة العقائد، ونحيل القاريء بعد ذلك للرسالة كاملة إن أراد أن يستزيد .

يقول الإمام البنا :(انقسم الناس في هذه المسألة على أربع فرق : ١- فرقة أخذت بظواهرها كما هي، فنسبت لله وجها كوجوه الخلق، ويدا أو أيادي كأيديهم، وضحكا كضحكهم، وهكذا حتى فرضوا الإله شيخا، وبعضهم فرضه شابا، وهؤلاء هم المجسمة والمشبهة، وليسوا من الإسلام في شيء، وليس لقولهم نصيب من الصحة، ويكفي في الرد عليهم، قول الله تبارك وتعالى : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١]. وقوله تعالى : ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ اللهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ الإخلاص.

٢- فرقة عطلت معاني هذه الألفاظ على أي وجه، يقصدون بذلك نفي

(1) مجموعة الرسائل، ص٤٠٦- ٤٠٨.

مدلولاتها مطلقا عن الله تبارك وتعالى، فالله تبارك وتعالى عندهم لا يتكلم ولا يسمع ولا يبصر، لأن ذلك لا يكن إلا بجارحة، والجوارح يجب أن تنفى عنه سبحانه، فبذلك يعطلون صفات الله تبارك وتعالى ويتظاهرون بتقديسه، وهؤلاء هم المعطلة، ويطلق عليهم بعض علماء تاريخ العقائد الإسلامية : (الجهمية)، ولا أظن أن أحدا عنده مسكة من عقل يستسيغ هذا القول المتهافت ! وها قد ثبت الكلام والسمع والبصر لبعض الخلائق بغير جارحة، فكيف يتوقف كلام الحق تبارك وتعالى على الجوارح ؟! تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا.

هذان رأيان باطلان لا حظّ لهما من النظر، وبقي أمامنا رأيان هما محل أنظار العلماء في العقائد، وهما رأي السلف ورأي الخلف.

٣- مذهب السلف في آيات الصفات وأحاديثها :

أما السلف رضوان الله عليهم فقالوا: نؤمن بهذه الآيات والأحاديث كما وردت، ونترك بيان المقصود منها لله تبارك وتعالى، فهم يثبتون اليد والعين والأعين والاستواء والضحك والتعجب... الخ، وكل ذلك بمعانٍ لا ندركها، ونترك لله تبارك وتعالى الإحاطة بعلمها، ولاسيما وقد نهينا عن ذلك في قول النبي ﷺ : (تفكروا في خلق الله، ولا تتفكروا في الله، فإنكم لن تقدروا قدره) .

قال العراقي : رواه أبو نعيم في الحلية بإسناد ضعيف، ورواه الأصبهاني في الترغيب والترهيب بإسناد أصح منه، ورواه أبو الشيخ كذلك.

مع قطعهم رضوان الله عليهم بعدم مشابهته بانتفاء المشابهة بين الله وبين الخلق.

٤- مذهب الخلف في تأويل الصفات :

فأما الخلف فقد قالوا : إننا نقطع بأن معاني ألفاظ هذه الآيات والأحاديث لا

يراد بها ظواهرها، وعلى ذلك فهي مجازات لا مانع من تأويلها، فأخذوا يؤولون (الوجه) بالذات و(اليد) بالقدرة .. وما إلى ذلك هربا من شبهة التشبيه، وإليك نماذج من أقوالهم في ذلك :

قال أبو الفرج بن الجوزي الحنبلي في كتابه (دفع شبهة التشبيه) :

(قال الله تعالى : (ويبقى وجه ربك) قال المفسرون : ويبقى ربك، وكذلك قالوا في قوله تعالى : (يريدونه وجهه) أي يريدونه، وقال الضحاك وأبو عبيدة : (كل شيء هالك إلا وجهه) أي إلا هو) .

وعقد في أول الكتاب فصلا إضافيا في الرد على من قالوا أن الأخذ بظاهر هذه الآيات والأحاديث هو مذهب السلف، وخلاصة ما قاله هو أن الأخذ بالظاهر هو تجسيم وتشبيه، لأن ظاهر اللفظ هو ما وضع له، فلا معنى لليد حقيقة إلا الجارحة، وهكذا.

وأما مذهب السلف فليس أخذها على ظاهرها، ولكن السكوت جملة عن البحث فيها، وأيضا فقد ذهب إلى أن تسميتها آيات صفات وأحاديث صفات تسمية مبتدعة لم ترد في كتاب ولا في سنة، وليست حقيقية فإنها إضافات ليس غير، واستدل على كلامه في ذلك بأدلة كثيرة لا مجال لذكرها هنا....[1].

ثم يذكر الإمام . رحمه الله . أوجه الاتفاق بين السلف والخلف في تأويل الصفات فيقول تحت عنوان : بين السلف والخلف :

(قد علمت أن مذهب السلف في الآيات المتشابهات والأحاديث التي تتعلق بصفات الله تبارك وتعالى أن يمروها على ما جاءت عليه، ويسكتوا عن تفسيرها أو تأويلها، وأن مذهب الخلف أن يؤولوها بما يتفق مع تنزيه الله تبارك وتعالى عن

(1) مجموعة الرسائل، ص٤١١ -٤١٤ باختصار وتصرف.

مشابهة خلقه، وعلمت أن الخلاف شديد بين أهل الرأيين حتى أدى بينهما إلى التنابز بالألقاب العصبية، وبيان ذلك من عدة أوجه :

أولا : اتفق الفريقان على تنزيه الله تبارك وتعالى عن المشابهة لخلقه.

ثانيا : كل منهما يقطع بأن المراد بألفاظ هذه النصوص في حق الله تبارك وتعالى غير ظواهرها التي وضعت لها هذه الألفاظ في حق المخلوقات، وذلك مترتب على اتفاقهما على نفي التشبيه .

ثالثا : كل من الفريقين يعلم أن الألفاظ توضع للتعبير عما يجول في النفوس، أو يقع تحت الحواس مما يتعلق بأصحاب اللغة وواضعيها، وأن اللغات مهما اتسعت لا تحيط بما ليس لأهلها بحقائقه علم، وحقائق ما يتعلق بذات الله تبارك وتعالى من هذا القبيل، فاللغة أقصر من أن تواتينا بالألفاظ التي تدل على هذه الحقائق، فالتحكم في تحديد المعاني بهذه الألفاظ تغرير .

وإذا تقرر هذا فقد اتفق السلف والخلف على أصل التأويل، وانحصر الخلاف بينهما في أن الخلف زادوا تحديد المعنى المراد حيثما ألجأتهم ضرورة التنزيه إلى ذلك حفظا لعقائد العوام من شبهة التشبيه، وهو خلاف لا يستحق ضجة ولا إعناتا)[1].

ترجيح مذهب السلف :

ثم يرجح رأي السلف مع احترام الرأي الآخر وحسن الظن به، وصرف همم المسلمين إلى ما هو أهم وأولى من هذا الخلاف فيقول: (ونحن نعتقد أن رأي السلف من السكوت وتفويض علم هذه المعاني إلى الله تبارك وتعالى أسلم وأولى بالاتباع، حسما لمادة التأويل والتعطيل، فإن كنت ممن أسعده الله بطمأنينة الإيمان، وأثلج صدره ببرد اليقين، فلا تعدل به بديلا، ونعتقد إلى جانب هذا أن تأويلات الخلف لا

(1) مجموعة الرسائل، ص٤١٦-٤١٧.

توجب الحكم عليهم بكفر ولا فسوق، ولا تستدعي هذا النزاع الطويل بينهم وبين غيرهم قديما وحديثا، وصدر الإسلام أوسع من هذا كله.

وقد لجأ أشد الناس تمسكا برأي السلف، رضوان الله عليهم، إلى التأويل في عدة مواطن، وهو الإمام أحمد بن حنبل (ﷺ)، من ذلك تأويله لحديث:

(الحجر الأسود يمين الله في أرضه)[1]، وقوله ﷺ :(قلب المؤمن بين إصبعين من أصابع الرحمن)[2]، وقوله ﷺ : (إني لأجد نفس الرحمن من جانب اليمن)[3].

وقد رأيت للإمام النووي (ﷺ) ما يفيد قرب مسافة الخلاف بين الرأيين مما لا يدع مجالا للنزاع والجدال، ولا سيما وقد قيد الخلف أنفسهم في التأويل بجوازه عقلا وشرعا، بحيث لا يصطدم بأصل من أصول الدين.

قال الرازي في كتابه (أساس التقديس): (ثم إن جوزنا التأويل اشتغلنا على سبيل التبرع بذكر تلك التأويلات على التفصيل، وإن لم نجز التأويل فوضنا العلم بها إلى الله تعالى، فهذا هو القانون الكلي المرجوع إليه في جميع المتشابهات، وبالله التوفيق).

وخلاصة هذا البحث أن السلف والخلف قد اتفقا على أن المراد غير الظاهر المتعارف بين الخلق، وهو تأويل في الجملة، واتفقا كذلك على أن كل تأويل يصطدم بالأصول الشرعية غير جائز، فانحصر الخلاف في تأويل الألفاظ بما يجوز في الشرع، وهو هين كما ترى، وأمر لجأ إليه بعض السلف أنفسهم، وأهم ما يجب أن

---

(1) الحاكم في المستدرك كتاب: أول المناسك باب: الحجر الأسود يمين الله التي يصافح بها خلقه، ح: ١٧٢٤.

(2) صحيح مسلم: كتاب القدر، باب : الحجر الأسود يمين الله التي يصافح بها خلقه، ح:١٧٢٤.

(3) مسند البزار، مسند سلمة بن نفيل (ﷺ) ح: ٣٧٠٢.

تتوجه إليه همم المسلمين الآن توحيد الصفوف، وجمع الكلمة ما استطعنا إلى ذلك سبيلا، والله حسبنا ونعم الوكيل[١].

(1) مجموعة الرسائل، ص٤١٧-٤١٨.

الفصل السادس

حفظ النسل (النسب)

حفظ النسل (النسب)

تمهيد :

يقول العلامة ابن عاشور:

وأما حفظ الأنساب، ويعبر عنه بحفظ النسل فقد أطلقه العلماء ولم يبينوا المقصود منه، ونحن نفصل القول فيه. وذلك أنه إن أريد به حفظ الأنساب أي النسل من التعطيل فظاهر عده من الضروري؛ لأن النسل هو خلفة أفراد النوع فلو تعطل يؤول تعطيله إلى اضمحلال النوع وانتقاصه.

وأما إن أريد بحفظ النسب حفظ انتساب النسب إلى أصله، وهو الذي لأجله شرعت قواعد الأنكحة وحرم الزنا، وفرض له الحد فقد يقال: إن عده من الضروريات غير واضح؛ إذ ليس بالأمة من ضرورة إلى معرفة أن زيدا هو ابن عمرو، وإنما ضرورتها في وجود أفراد النوع وانتظام أمرهم، ولكن في هذه الحالة مضرة عظيمة، وهي أن الشك في انتساب النسل إلى أصله يزيل من الأصل الميل الجبلي الباعث عن الذب عنه والقيام عليه بما فيه بقاؤه وصلاحه وكمال جسده وعقله بالتربية والإنفاق على الأطفال إلى أن يبلغوا مبلغ الاستغناء عن العناية[1].

---

(1) مقاصد الشريعة الإسلامية للطاهر بن عاشور، ص٧٩. ولا أوافق ابن عاشور – رحمه الله – على اعتباره حفظ النسب بمعنى حفظ انتساب النسب إلى أصله من الحاجي وليس من الضروري، وإن الأمة بحاجة لمعرفة أن زيدًا بن عمرو لما يترتب عليه من أحكام فقهية لا يمكن إغفالها، ثم ما ذكره من مضار تترتب على جهالة النسب يكفي على اعتباره من الضروري لا من الحاجي، وإن الأمهات لا يقمن بتحصيل المقصود مع مجهول النسب، بل قد تكون الأم أول من يسعى للخلاص من هذا المولود بالقتل أو الترك، خاصة في المجتمعات المحافظة التي تعد الزنى جريمة لا تغتفر وتحمل المرأة المسئولية التي قد تدفع حياتها ثمنًا لها، فتلجأ المرأة إلى الخلاص من هذه الجريمة، فتدسه في التراب، أو تمسكه على هون، وفي ذلك ضياع للنسل، وقتل للنفس التي لا يشك أحد أن حفظها من الضروريات الخمس.

والنسل في اللغة هو الخلق أو الولادة، ويطلق أيضًا على الولد باعتبار أنه نتيجة للولادة، وهو من باب إطلاق أسماء المقدمات على النتائج كما هو مستعمل في لسان العرب، وقد جاء في علم المقاصد أن حفظ النسل من المقاصد الضرورية الخمسة، وعبر عنه أحيانًا بحفظ النسب، كما عبر عنه أيضًا بحفظ الأبضاع، وكان تناوله بالبحث يضيق فيه المدلول أحيانًا حتى يقتصر على حفظ الأنساب، بمعنى حفظ نسبة الأبناء إلى الآباء، ويتسع أحيانًا أخرى حتى يشمل إنجاب الأولاد ورعايتهم بالتربية بالإضافة إلى حفظ الأنساب. ونحن نميل بمدلول حفظ النسل إلى التوسع بحيث يشمل جملة من المعاني.

ومن تلك المعاني لحفظ النسل استمرارية تجدد أجيال المجتمع بإنجاب العدد الكافي من الولد بحيث يعوض عددهم ما يهلك من الأفراد أو يزيد عليه، فيكون المجتمع إذن في نمو عددي مطرد يحفظ له حيويته وشبابه وقوته.

ومن معاني حفظ النسل حفظ النسب، وذلك بأن يكون نسب الأبناء إلى آبائهم أمرًا معلومًا، وأن يكون حاصلاً بالطريقة الشرعية المتمثلة في الزواج بشروطه وأحكامه، فهذا الانتساب إلى الأسرة بالطريقة الشرعية من شأنه أن يجعل النسل أي الولد شديد الانتماء إلى مجتمعه بشدة انتمائه إلى أسرته التي هي اللبنة الأولى للمجتمع، كما تجعل الأسرة شديدة الإحاطة به والرعاية له، وكل ذلك ينعكس قوة في النفس وتوازنًا في الشخصية وانسجامًا مع المجتمع.

ومن معانيه أيضًا رعاية الولد من قبل الأسرة خاصة ومن قبل المجتمع بصفة عامة رعاية تمتد في الزمان من لدن الولادة بل مما قبلها حتى الاعتماد على النفس بالبلوغ[1].

(1) مقاصد الشريعة بأبعاد جديدة، ص١٤٦-١٤٧.

ونستطيع أن نجري بعض التعديلات على تقسيم الأستاذ الدكتور عبد المجيد النجار لمسالك الحفظ الذي ذكرناه في التمهيد إلى هذه الدراسة.

فنقول حفظ النسل، وله عدة مسالك :

١- حفظ النسل بالإنجاب.

٢- حفظ النسل بحفظ النسب.

٣- حفظ النسل بحفظ مؤسسة الأسرة .

٤- حفظ النسل بحفظ الكيان الاجتماعي .

٥- حفظ النسل بمؤسسة الدولة (وقد تعرضنا له أثناء حفظ الدين بالسلطان).

٦- حفظ النسل برباط الأخوة الإسلامية والإنسانية.

حفظ النسل عند الإمام البنا ـ رحمه الله ـ :

والإمام البنا . رحمه الله . قد عني بحفظ النسل بالمفهوم السابق، وإن لم يكن قد قسم هذا التقسم، وفرع تلك التفريعات، لكننا نركز هنا على جوهر رسالته وفكره في هذا الصدد، ولن نعنى بهذا الترتيب السابق حيث لم يذكره الإمام، ولم ينص عليه، لكنها محاولات اجتهادية نسير فيها مع فكر الإمام لنعيد تسكينه تحت مقاصد الشريعة، دون تكلف أو تعسف.

حفظ النسب بمراعاة حقوق الإخوة الإنسانية، والإسلامية :

ففي رسالة دعوتنا يرفض الإمام قومية العدوان، حتى لايكون هناك استعلاء من الأمة الإسلامية على البشر جميعا بحجة الاعتزاز بالقومية، فيقول (وأما أن يراد بالقومية الاعتزاز بالجنس إلى درجة تؤدي إلى انتقاص الأجناس الأخرى والعدوان عليها والتضحية بها في سبيل عزة أمة وبقائها، كما تنادي بذلك ألمانيا وإيطاليا مثلا، بل كما تدعي كل أمة تنادي بأنها فوق الجميع.فهذا معنى ذميم كذلك ليس من الإنسانية في شيء، ومعناه أن يتناحر الجنس البشري في سبيل وهم من الأوهام لا

حقيقة له ولا خير فيه).

الإخوان المسلمون لا يؤمنون بالقومية بهذه المعاني ولا بأشباهها ولا يقولون فرعونية وعربية وفينيقية وسورية ولا شيئا من هذه الألقاب والأسماء التي يتنابز بها الناس، ولكنهم يؤمنون بما قال رسول الله ﷺ الإنسان الكامل بل أكمل معلم علم الإنسان الخير: (إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء، الناس لآدم وآدم من تراب، لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى)[1]. ما أروع هذا وأجمله وأعدله، الناس لآدم فهم في ذلك أكفاء، والناس يتفاضلون بالأعمال فواجبهم التنافس في الخير، دعامتان قويمتان لو بنيت عليهما الإنسانية لارتفعت بالبشر إلى علياء السموات، الناس لآدم فهم إخوان فعليهم أن يتعاونوا وأن يسالم بعضهم بعضا، ويرحم بعضهم بعضا، ويدل بعضهم بعضا على الخير، والتفاضل بالأعمال. فعليهم أن يجتهدوا كل من ناحيته حتى ترقى الإنسانية، فهل رأيت سموا بالإنسانية أعلى من هذا السمو أو تربية أفضل من هذه التربية؟[2].

ويؤكد في نفس الرسالة على أن اتباع تعاليم الإسلام يكون سببا في التفرق والتمزق بين أبناء الوطن الواحد بسبب الاختلاف في الدين فيقول : (وأحب أن أنبهك إلى سقوط ذلك الزعم القائل إن الجري عن هذا المبدأ يمزق وحدة الأمة التي تتألف من عناصر دينية مختلفة، فإن الإسلام وهو دين الوحدة والمساواة كفل هذه الروابط بين الجميع ما داموا متعاونين على الخير، ﴿ لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ) (الممتحنة:٨)، فمن أين يأتي التفريق إذاً؟ ﴾[3].

(1) أخرجه الأزرقي في أخبار مكة، ح: ٧١٣، وضعفه الألباني في السلة الضعيفة، ح: ١١٦٣.
(2) مجموعة الرسائل، ص٢٣- ٢٤.
(3) مجموعة الرسائل، ص٢١- ٢٢.

وفي نفس الوقت يقبل الوطنية التي تدعم الأخوة الإسلامية فيقول : (وإن كانوا يريدون بالوطنية تقوية الرابطة بين أفراد القطر الواحد، وإرشادهم إلى طريق استخدام هذه التقوية في مصالحهم، فذلك نوافقهم فيه أيضا ويراه الإسلام فريضة لازمة، فيقول نبيه ﷺ : (وكونوا عباد الله إخوانا)، ويقول القرآن الكريم: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [آل عمران:١١٨][1].

وكذلك لا ينكر فضل العروبة، ولا فضل اللغة العربية، إذ هي الوعاء واللسان الذي حمل النور والهداية للبشرية كلها، وبالتالي يعد الاعتزاز بها في اعتدال دون تعصب أو ظلم للآخرين من المعاني الإيجابية فيقول : (ولسنا مع هذا ننكر خواص الأمم ومميزاتها الخلقية، فنحن نعلم أن لكل شعب مميزاته وقسطه من الفضيلة والخلق، ونعلم أن الشعوب في هذا تتفاوت وتتفاضل، ونعتقد أن العروبة لها من ذلك النصيب الأوفى والأوفر، ولكن ليس معنى هذا أن تتخذ الشعوب هذه المزايا ذريعة إلى العدوان، بل عليها أن تتخذ ذلك وسيلة إلى تحقيق المهمة السابقة التي كلفها كل شعب، تلك هي النهوض بالإنسانية، ولعلك لست واجدا في التاريخ من أدرك هذا المعنى من شعوب الأرض كما أدركته تلك الكتيبة العربية من صحابة رسول الله ﷺ)[2].

ويؤكد مرة أخرى أن رباط الإيمان والعقيدة الذي يضمن الأخوة والترابط بين المسلمين لايعني ظلم الجنس البشري ولا العدوان عليه فيقول : (أما إذ عرفت هذا

(1) مجموعة الرسائل، ص٢٠.

(2) مجموعة الرسائل، ص٢٤.

فاعلم – أيدك الله – أن الإخوان المسلمين يرون الناس بالنسبة إليهم قسمين :

قسم اعتقد ما اعتقدوه من دين الله وكتابه وآمن ببعثه ورسوله وما جاء به، وهؤلاء تربطنا بهم أقدس الروابط، رابطة العقيدة وهي عندنا أقدس من رابطة الدم ورابطة الأرض، فهؤلاء هم قومنا الأقربون الذين نحنّ إليهم ونعمل في سبيلهم ونذود عن حماهم ونفتديهم بالنفس والمال، في أي أرض كانوا ومن أية سلالة انحدروا.

وقوم ليسوا كذلك ولم نرتبط معهم بعد بهذا الرباط فهؤلاء نسالمهم ما سالمونا، ونحب لهم الخير ما كفوا عدوانهم عنا، ونعتقد أن بيننا وبينهم رابطة هي رابطة الدعوة، علينا أن ندعوهم إلى ما نحن عليه لأنه خير الإنسانية كلها، وأن نسلك إلى نجاح هذه الدعوة ما حدد لها الدين نفسه من سبل ووسائل، **فمن اعتدى علينا منهم رددنا عدوانه بأفضل ما يرد به عدوان المعتدين.**

أما إذا أردت ذلك من كتاب الله فاسمع :

١– ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾ [الحجرات:١٠].

٢– ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ ﴾ [الممتحنة:٨–٩][1].

ثم يسعى إلى إيجاد روح الأخوة والحب بين العاملين في الحقل الإسلامي فيقول : (أتحدث إليك الآن عن دعوتنا أمام الخلافات الدينية والآراء المذهبية).

دعوة تجمع ولا تفرق :

اعلم . فقهك الله . أولا: أن دعوة الإخوان المسلمين دعوة عامة لا تنتسب إلى

(1) مجموعة الرسائل، ص٢٤– ٢٥.

طائفة خاصة، ولا تنحاز إلى رأي عرف عند الناس بلون خاص ومستلزمات وتوابع خاصة، وهي تتوجه إلى صميم الدين ولبه، وتود أن تتوحد وجهة الأنظار والهمم حتى يكون العمل أجدى والإنتاج أعظم وأكبر، فدعوة الإخوان دعوة بيضاء نقية غير ملونة بلون، وهي مع الحق أينما كان، تحب الإجماع، وتكره الشذوذ وإن أعظم ما مني به المسلمون الفرقة والخلاف، وأساس ما انتصروا به الحب والوحدة. ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها، هذه قاعدة أساسية وهدف معلوم لكل أخ مسلم، وعقيدة راسخة في نفوسنا، نصدر عنها وندعو إليها.

أسباب الخلاف في الفروع :

ونحن مع هذا نعتقد أن الخلاف في فروع الدين أمر لا بد منه ضرورة، ولا يمكن أن نتحد في هذه الفروع والآراء والمذاهب لأسباب عدة :

١- منها اختلاف العقول في قوة الاستنباط أو ضعفه.

٢- وإدراك الدلائل والجهل بها والغوص على أعماق المعاني، وارتباط الحقائق بعضها ببعض، والدين آيات وأحاديث ونصوص يفسرها العقل والرأي في حدود اللغة وقوانينها، والناس في ذلك جد متفاوتين فلا بد من خلاف.

٣- ومنها سعة العلم وضيقه، وإن هذا بلغه ما لم يبلغ ذاك والآخر شأنه كذلك، وقد قال مالك لأبي جعفر: إن أصحاب رسول الله ﷺ تفرقوا في الأمصار وعند كل قوم علم، فإذا حملتهم على رأي واحد تكون فتنة.

٤- ومنها اختلاف البيئات حتى أن التطبيق ليختلف باختلاف كل بيئة، وإنك لترى الإمام الشافعي (رضي الله عنه) يفتي بالقديم في العراق ويفتي بالجديد في مصر، وهو في كليهما آخذ بما استبان له وما اتضح عنده لا يعدو أن يتحرى الحق في كليهما.

٥- ومنها اختلاف الاطمئنان القلبي إلى الرواية عند التلقين لها، فبينما نجد هذا

الراوي ثقة عند هذا الإمام تطمئن إليه نفسه وتطيب بالأخذ به، تراه مجروحا عند غيره لما علم عن حاله.

٦- ومنها اختلاف تقدير الدلالات فهذا يعتبر عمل الناس مقدما على خبر الآحاد مثلا، وذاك لا يقول معه به، وهكذا.

الإجماع على أمر فرعي متعذر :

كل هذه أسباب جعلتنا نعتقد أن الإجماع على أمر واحد في فروع الدين مطلب مستحيل، بل هو يتنافى مع طبيعة الدين، وإنما يريد الله لهذا الدين أن يبقى ويخلد ويساير العصور، ويماشي الأزمان، وهو لهذا سهل مرن هين، لين، لا جمود فيه ولا تشديد.

نعتذر لمخالفينا :

نعتقد هذا فنلتمس العذر لمن يخالفوننا في بعض الفرعيات، ونرى أن هذا الخلاف لا يكون أبدا حائلا دون ارتباط القلوب وتبادل الحب والتعاون على الخير، وأن يشملنا وإياهم معنى الإسلام السابغ بأفضل حدوده، وأوسع مشتملاته، ألسنا مسلمين وهم كذلك؟ وألسنا نحب أن ننزل على حكم اطمئنان نفوسنا وهم يحبون ذلك؟ وألسنا مطالبين بأن نحب لإخواننا ما نحب لأنفسنا؟ ففيم الخلاف إذن؟ ولماذا لا يكون رأينا مجالا للنظر عندهم كرأيهم عندنا؟ ولماذا لا نتفاهم في جو الصفاء والحب إذا كان هناك ما يدعو إلى التفاهم ؟

وثم أمر آخر جدير بالنظر، إن الناس كانوا إذا اختلفوا رجعوا إلى (الخليفة) وشرطه الإمامة، فيقضي بينهم ويرفع حكمه الخلاف، أما الآن فأين الخليفة؟ وإذا كان الأمر كذلك فأولى بالمسلمين أن يبحثوا عن القاضي، ثم يعرضوا قضيتهم عليه، فإن اختلافهم من غير مرجع لا يردهم إلا إلى خلاف آخر.

يعلم الإخوان المسلمون كل هذه الحيثيات، فهم لهذا أوسع الناس صدرا مع

مخالفيهم، ويرون أن مع كل قوم علما، وفي كل دعوة حقا وباطلا، فهم يتحرون الحق ويأخذون به، ويحاولون في هوادة ورفق إقناع المخالفين بوجهة نظرهم. فإن اقتنعوا فذاك، وإن لم يقتنعوا فإخوان في الدين، نسأل الله لنا ولهم الهداية.

ذلك منهاج الإخوان المسلمين أمام مخالفيهم في المسائل الفرعية في دين الله يمكن أن أجمله لك في أن الإخوان يجيزون الخلاف، ويكرهون التعصب للرأي، ويحاولون الوصول إلى الحق، ويحملون الناس على ذلك بألطف وسائل اللين والحب(١).

وهذا نص في غاية النفاسة، فالآفة التي وقع فيها بعض قيادات العمل الإسلامي هي عدم قبول الآخر، والسعي إلى تشويه صورته بالحق والباطل، واتهام النوايا، وتبادل التهم والشكوك، واحتكار الحق وقصره على المذهب أو الجماعة التي يعمل من خلالها.

ولقد سمعنا وقرأنا كيف ينتقص قدر علمائنا وفقهائنا بسبب الخلاف الفقهي، وربما في قضايا فرعية ثانوية، أما الإمام هنا فيؤصل للخلاف الفقهي وأسبابه، ويرى أن اجتماع الناس على أمر فرعي قد يكون مستحيلا، ثم يعلم أتباعه كيف يحسنون الظن بالمخالفين، ويقدرون ما هم عليه من الحق من وجهة نظرهم.

وهذا يحفظ الأخوة، ويقوي رابطتها، ويدعم أواصرها ويعلي من شأنها، وهذا يؤدي إلى حفظ النسب بمعناه السابق .

وفي رسالة إلى أي شيء ندعو الناس يحث المسلمين عامة على أن ينتفعوا بإخاء إخوانهم فيقول : (ينادي الإسلام أبناءه ومتبعيه فيقول لهم : ﴿ وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُواْ وَاذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُم

(1) مجموعة الرسائل، ص٢٥-٢٧ باختصار وتصرف .

فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا ﴾ [آل عمران:١٠٣].

ويقول القرآن الكريم في آية أخرى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات:١٠]، وفي آية أخرى : ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ [التوبة:٧١].

ويقول النبي الكريم صلى الله عليه وسلم: (و كونوا عباد الله إخوانا) وكذلك فهم المسلمون الأولون – رضوان الله عليهم – من الإسلام هذا المعنى الأخوي وأملت عليهم عقيدتهم في دين الله أخلد عواطف الحب والتآلف، وأنبل مظاهر الأخوة، والتعارف، فكانوا رجلا واحدا وقلبا واحدا ويدا واحدة، حتى امتن الله بذلك في كتابه فقال تبارك وتعالى: ﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ﴾ [لأنفال:٦٣].

وإن ذلك المهاجر الذي كان يترك أهله، ويفارق أرضه في مكة ويفر بدينه، كان يجد أمامه أبناء الإسلام من فتيان يثرب ينتظرون وكلهم شوق إليه وحب له وسرور بمقدمه، وما كان لهم سابق معرفة ولا قديم صلة، وما ربطهم به وشيجة من صهر أو عمومة، وما دفعتهم إليه غاية أو منفعة، وإنما هي عقيدة الإسلام جعلتهم يحنون إليه، ويتصلون به، ويعدونه جزءا من أنفسهم وشقيقا لأرواحهم، وما هو إلا أن يصل المسجد حتى يلتف حوله الغر الميامين من الأوس والخزرج، كلهم يدعوه إلى بيته، ويؤثره على نفسه ويفديه بروحه وعياله، ويتشبث بمطلبه هذا حتى يؤول الأمر إلى الاقتراع، حتى روى الإمام البخاري ما معناه : (ما نزل مهاجري على أنصاري إلا بقرعة) .

وحتى خلد القرآن للأنصار ذلك الفضل أبد الدهر، فما زال يبدو غرة مشرقة في جبين السنين في قول الله تبارك وتعالى : ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلاَ يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [الحشر:٩].

وعلى هذا درج أبناء الإسلام وخص الرعيل الأول ممن وجدت بين نفوسهم الأخوة الإيمانية، لا فرق بين مها جرهم وأنصارهم، ولا بين مكّيهم و يمنّيهم، حتى أثنى الرسول على الأشاعرة من أهل اليمن بقوله ﷺ ما معناه.

(نعم القوم الأشعريون إذا جهدوا في سفر أو حضر جمعوا ما عندهم فوضعوه في مزادتهم ثم قسموه بينهم بالسوية)[١].

وأنت إذا قرأت القرآن الكريم، وأحاديث النبي العظيم ﷺ، وطالعت سير الغر الميامين من أبناء هذا الدين، رأيت من ذلك ما يقر عينك ويملأ سمعك وقلبك)[٢].

ثم يؤكد الإمام . رحمه الله . على مراعاة الأخوة بينه وبين غيره من الحركات الإسلامية، أو قادة العمل الإسلامي وينظر إلى الجميع نظر ود واحترام على أساس أن كلا منهما يكمل الآخر وليس بديلا عنه، ولم يخطر في باله، ولم يرد في كتاباته همزا ولا لمزا للأخرين، إلا أن يساء إليه أو يتهم فيدافع عن نفسه وعن جماعته دفاع العف نظيف اللسان والقلب، لا يحمل حقدا ولا بغضا ولا كره لأحد.

ففي رسالة المؤتمر الخامس يتحدث عن موقف الإخوان من الهيئات المختلفة، مثل الشبان المسلمين ومصر الفتاة، وسننقل مقتطفات من كلام الإمام عن هذه الهيئات، فيقول : (والآن وقد أفصحت عن رأي الإخوان وموقفهم في كثير من المسائل العامة التي تشغل أذهان الأمة في هذه الأوقات، أحب كذلك أن أفصح لحضراتكم عن موقف الإخوان المسلمين من الهيئات الإسلامية في مصر، ذلك أن كثيرا من محبي الخير يتمنون أن تجتمع هذه الهيئات وتتوحد في جمعية إسلامية ترمي عن قوس واحدة، ذلك أمل كبير وأمنية عزيزة يتمناها كل محب للإصلاح في هذا البلد.

---

(1) رواه البخاري في كتاب الشركة باب الشركة في الطعام والنهد والعروض، ح: ٢٤٨٦.

(2) مجموعة الرسائل، ص٤٩-٥٠ .

والإخوان المسلمون يرون في الهيئات الإسلامية على اختلاف ميادينها تعمل لنصرة الإسلام، ويتمنون لها جميعا النجاح، ولم يفتهم أن يجعلوا من منهاجهم التقرب منها والعمل على جمعها وتوحيدها حول الفكرة العامة، وقد تقرر هذا في المؤتمر الدوري الرابع للإخوان بالمنصورة وأسيوط في العام الفائت، وأبشركم بأن مكتب الإرشاد حين أخذ يعمل على تنفيذ هذا القرار، وجد روحا طيبة من كل الهيئات التي اتصل بها وتحدث إليها، مما يبشر بنجاح المسعى مع الزمن إن شاء الله.

الإخوان والشبان :

كثيرا ما يتردد سؤال على أذهان الناس : ما الفرق بين جماعة الإخوان المسلمين وجماعة الشبان ؟ ولماذا لا تكونان هيئة واحدة تعملان على منهاج واحد ؟

وأحب قبل الجواب أن أؤكد للذين يسرهم وحدة الجهود وتعاون العاملين أن الإخوان والشبان وبخاصة هنا في القاهرة، لا يشعرون بأنهم في ميدان منافسة ولكن في ميدان تعاون قوي وثيق، وأن كثيرا من القضايا الإسلامية العامة يظهر فيها الإخوان والشبان شيئا واحدا وجماعة واحدة، إذ أن الغاية العامة مشتركة وهي العمل لما فيه إعزاز الإسلام وإسعاد المسلمين، وإنما تقع فروق يسيرة في أسلوب الدعوة وفي خطة القائمين بها وتوجيه جهودهم في كلتا الجماعتين، وإن الوقت الذي ستظهر فيه الجماعات الإسلامية كلها جبهة موحدة غير بعيد على ما أعتقد، الزمن كفيل بتحقيق ذلك إن شاء الله[1].

ثم يتحدث عن موقف الإخوان المسلمين من مصر الفتاة فيقول : (بهذه المناسبة لابد لي أن أعرض لموقف الإخوان المسلمين من جماعة مصر الفتاة، لقد تكونت جماعة الإخوان منذ عشر سنين وتكونت جماعة مصر الفتاة منذ خمس

(1) مجموعة الرسائل، ص١٤٥-١٤٦ .

سنين، فجمعية الإخوان تكبر جمعية مصر الفتاة بضعف عمرها تماما، ومع هذا أيضا شاع في كثير من الأوساط أن جماعة الإخوان من شعب مصر الفتاة، وسبب ذلك أن مصر الفتاة اعتمدت على الدعاية والإعلان في الوقت الذي آثر فيه الإخوان العمل والإنتاج، وما علينا من ذلك كله فسواء أكان الإخوان هم الذين رسموا لمصر الفتاة طريق الجهاد والعمل للإسلام أم أن مصر الفتاة هي التي أظهرت الإخوان وأبرزتهم للناس، وهم قد ولدوا قبلها وسبقوها إلى الجهاد والميدان بخمس سنوات أي بمثل عمرها، وذلك أمر نظري لا يقيم له الإخوان وزنا، ولكن الذي أريد أن أنبه إليه في هذه الكلمة أن الإخوان المسلمين لم يكونوا يوما من الأيام في صفوف مصر الفتاة ولا عاملين لها، ولا أقصد بذلك أن أنال منها أو من القائمين بدعوتها ولكن أقول تقريرا للواقع، وأن جريدة مصر الفتاة هاجمت الإخوان واتهمتهم تهما غير صحيحة وزعمت أنهم يعتدون عليها ويتهمونها وذلك غير صحيح أيضا، ونحن معشر الإخوان لم نعقب على ما كتب أهمية، ولا نحب أن نؤاخذ بشيء منه، وأرجو أن يكون ذلك هو شعور الإخوان جميعا.

وأن كثيرا من الناس يود لو اتحدت جماعة مصر الفتاة مع الإخوان المسلمين، وهذا شعور ما من شك في أنه جميل نبيل فليس أجمل من الوحدة والتعاون على الخير، ولكن من الأمور ما ليس يفصل فيه إلا الزمن وحده، في مصر الفتاة من لا يرى الإخوان إلا جماعة وعظية وينكر عليهم كل ما سوى ذلك من منهاجهم، وفي الإخوان من يعتقد أن مصر الفتاة لم ينضج في نفوس كثيرا من أعضائها بعد المعنى الإسلامي الصحيح نضجا يؤهلهم للمناداة بالدعوة الإسلامية خالصة سليمة، فلنترك للزمن أداء مهمته وإصدار حكمه وهو خير كفيل بالصقل والتميز.

وليس معنى هذا أن الإخوان سيحاربون مصر الفتاة بل إنه ليسرنا أن يوفق كل عامل للخير وإلى الخير، ولا يحب الإخوان أن يخلطوا البناء بهدم، وفي ميدان الجهاد

متسع للجميع.

ذلك موقفنا من مصر الفتاة مادامت قد أعلنت أنها ليست حزبا سياسيا، وأنها تعمل وستظل تعمل للفكرة الإسلامية ولمبادئ الإسلام، وفي ذلك الواقع انتصار جديد لمبادئ الإخوان المسلمين.

بقي أمر أخير ذلك هو موقف الإخوان من مصر الفتاة في قضية تحطيم الحانات، ومعلوم أنه ما من غيور في مصر يتمنى أن يرى فوق أرضها حانة واحدة، وقد ألقى الإخوان تبعة هذا التحطيم على الحكومة قبل الذين فعلوه، لأنها هي التي أحرجت شعبها المسلم هذا الإحراج ولم تفطن إلى ذلك التغيير النفساني، والاتجاه الجديد القوي الذي طرأ عليه من تقديس الإسلام والاعتزاز بتعاليمه، وقديما قيل : (قبل أن تأمر الباكي بالكف عن البكاء، تأمر الضارب أن يرفع العصا)، ونحن نعتقد أن هذا التحدي لم يحن وقته بعد، ولابد من تخير الظروف المناسبة أو استخدام منتهى الحكمة فيه، وإنفاذه بصور أخف ضررا وأبلغ في الدلالة على المقصد، كلفت نظر الحكومة إلى واجبها الإسلامي، وبالرغم من أن المقبوض عليهم لم يعترفوا، فقد وجه الإخوان إلى معالي وزير العدل، يلفتون نظر معاليه فيه إلى وجوب النظر في هذه القضية نظرة خاصة تتناسب مع الدافع الشريف فيها، وأن يسرع بإصدار تشريع يحمي البلاد من هذه المهالك الخلقية)[1].

أرأيت خلافا في الرأي أعف، ولا أنقى وأطهر من هذا الخلاف، الذي لاتنسي فيه الخصومة الإنسان الحق والعدل، ومراعاة حقوق الأخوة، وإحسان الظن بالآخرين !!؟؟

ويؤكد على هذا المعنى مرة أخرى في رسالة المؤتمر السادس فيقول : (وأما

(1) مجموعة الرسائل، ص ١٤٨–١٤٩ .

موقفنا من الهيئات الإسلامية على اختلاف نزعاتها، فموقف حب وإخاء وتعاون وولاء، نحبها ونعاونها، ونحاول جاهدين أن نقرب بين وجهات النظر ونوفق بين مختلف الفكر توفيقاً ينتصر به الحق في ظل التعاون والحب . ولا يباعد بيننا وبينها رأي فقهي أو خلاف مذهبي، فدين الله يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه . ولقد وفقنا الله إلى خطة مثلى، إذ نتحري الحق في أسلوب لين يستهوي القلوب وتطمئن إليه العقول، ونعتقد أنه سيأتي اليوم الذي تزول فيه الأسماء والألقاب والفوارق الشكلية والحواجز النظرية وتحل محلها وحدة عملية تجمع صفوف الكتيبة المحمدية حيث لا يكون هناك إلا إخوان مسلمون، للدين عاملون وفي سبيل الله مجاهدون : ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [المائدة:٥٦](١).

وفي رسالة دعوتنا في طور جديد يؤكد الإمام البنا على الأخوة الإنسانية العالمية، فيقول : (وأما أنها عالمية فلأنها موجهه إلى الناس كافه لأن الناس في حكمها إخوة : أصلهم واحد، وأبوهم واحد، ونسبهم واحد، لا يتفاضلون إلا بالتقوى وبما يقدم أحدهم المجموع من خير سابغ وفضل شامل ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾ [النساء:١]. فنحن لا نؤمن بالعنصرية الجنسية ولا نشجع عصبية الأجناس والألوان، ولكن ندعو إلى الأخوة العادلة بين بنى الإنسان.

قرأت لأحد زعماء الغرب أنه يقسم الجنس البشرى إلى مبتكرين ومحافظين ومخربين، وهو يعتبر قومه مبتكرين ويعتبر قوما آخرين من الغربيين محافظين، ويعتبرنا نحن الشرقيين وما إلينا عدا هذين مخربين ومدمرين، هذا التقسيم ظالم جائر فضلا عن أنه غير صحيح بأصله، فالجنس البشرى كله مرده إلى دم واحد وطينه

(1) مجموعة الرسائل، ص ٢١٦ .

واحدة وإن اختلفت البيئات والوسائط والمدارك والثقافات . وإذا هذب الإنسان استطاع أن يرتقي من رتبته إلى أعلى منها بدرجة ما يصل إليه من تهذيب. وليس هناك جنس من بني آدم لا يمكن إصلاحه في حدود ظروفه وبيئته الخاصة به. هذا من جهة، ومن جهة أخري فإن هذا الشرق الذي وضع في صف المخربين والمدمرين هو مبعث المدنيات ومشرق الحضارات ومهبط الرسالات، وهو مفيض ذلك كله على الغرب، لا ينكر هذا إلا جاحد مكابر . ومثل هذه المزاعم الباطلة إنما هي نزوات من غرور الإنسان وطيش الوجدان لا يمكن أن تستقر على أساسها نهضات أو تقوم على قاعدتها مدنيات، وما دام في الناس من يشعر بمثل هذا الشعور لأخيه الإنسان فلا أمن ولا سلام ولا اطمئنان حتى يعود الناس إلى علم الأخوة فيرفعونه خفاقاً ، ويستظلون بظله الوارف الأمين، ولن يجدوا طريقاً معبدة إلى ذلك كطريق الإسلام الذي يقول كتابه : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِنْ ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ [الحجرات:١٣]. ويقول نبيه ﷺ : (ليس منا من دعا إلى عصبية، وليس منا من مات على عصبية) رواه أحمد من حديث جبير بن مطعم ﷺ.

ولهذا كانت دعوة الإخوان المسلمين ربانية إنسانية)[١].

وفي رسالة نحو النور سبق أن ذكرنا في حفظ النفس ثلاثين وصية ذكرها الإمام البنا رحمه الله في إصلاح الناحية الاجتماعية والعلمية، ويمكننا استدعاءها هنا أيضا، فهي تدلل على عناية الإمام بحفظ النسب[٢].

حفظ النسب عن طريقة الاهتمام بمؤسسة الأسرة :

ويظهر اهتمام الإمام البنا بالنسب وحفظه عن طريق العناية بمؤسسة الأسرة

(1) مجموعة الرسائل، ص٢٢٦ .

(2) مجموعة الرسائل، ص٣٩١-٣٩٣ .

فيقول في رسالة دعوتنا في طور جديد بعد أن تحدث عن إصلاح الفرد: (وسيكون لهذا الإصلاح الفردي أثره في الأسرة، ذلك أن الأسرة مجموعة أفراد، فإذا صلح الرجل وصلحت المرأة . وهما عماد للأسرة . استطاع أن يكونا بيتاً نموذجياً وفق القواعد التي وضعها الإسلام، وقد وضع الإسلام قواعد البيت فأحكم وضعها، فأرشد إلى حسن الاختيار، وبين أفضل الطرائق للارتباط وحدد الحقوق والواجبات، وأوجب على الطرفين رعاية ثمرات هذا الزواج حتى ينع وتنضج في غير عبث ولا إهمال، وعالج ما يعترض هذه الحياة الزوجية من المشكلات أدق علاج، وأخذ في كل نظراته طريقاً وسطاً لا تفريط فيه ولا إفراط.

وإذا صلحت الأسرة فقد صلحت الأمة، وإنما الأمة مجموعة هذه الأسر وإنما الأسرة أمة مصغرة والأمة أسرة مكبرة، وقد وضع الإسلام للأمة قواعد الحياة الاجتماعية السعيدة، فعقد بين بنيها آصرة الأخوة وجعلها قرينة الإيمان، ورفع مستوى هذه الصلة إلى المحبة بل إلى الإيثار، وقضى على كل ما من شأنه أن يمزق هذه الروابط أو يضعف هذه الوشائج، وحدد الحقوق والواجبات والصلات،فللأبوة حقها وعليها واجبها، وللبنوة مثال ذلك، ولذوى القربى حقوقهم وعليهم واجباتهم، وفصل مهمة الحاكم والمحكوم أدق تفصيل، وبين للمعاملات بين الناس أحكامها بأفصح بيان، ولم يجعل لأحد على أحد فضلاً إلا بالتقوى فلا سيد ولا مسود ولا أمراء ولا عبيد، ولكن الناس في ذات الله سواسية كأسنان المشط، إنما يتفاوتون بعمل الصالحات، وكذلك حدد صلات الأمم بعضها ببعض، وبين حقوق كل صنف فيها وواجباته، ولم يدع من ذلك صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها.

وقد عالج الإسلام بعد ذلك مشاكل المجتمعات . فالوقاية مما يؤدي إليها أولاً واستئصال ما عساه أن يحدث منها ثانياً . فلكل مشكلة اجتماعية عنده دواء، والدواء الأول في كل علاج صلاح النفوس والتضامن الاجتماعي بين بني الإنسان.

والإسلام يحيط بكل ذلك لا يسلك سبيل العنت، ولا يحمل الناس على ما يؤدي إلى الحرج ولكن يريد بالناس اليسر ولا يريد بهم العسر، ويضع القواعد الكلية ويدع الفرعيات الجزئية ويرسم طرائق التطبيق، ويكل للأزمان والعصور وبعد ذلك أن تعمل عملها وهو لذلك شريعة كل زمان ومكان، وهو لذلك يفرض نشر الدعوة حتى تشمل الناس أجمعين ويتحقق قوله تعالي: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء:١٠٧].

وإذا قوي الشعور الذي أشرنا إليه آنفاً، وأدي إلى نتيجته التي وضعناها الآن، فطبق نظام الإسلام على الفرد والبيت والأمة، ووصلت الرسالة إلى القلب والآذان، فقد نجحت فكرتنا واستجيبت دعوتنا ويأبى الله إلا أن يتم نوره[1].

وفي أركان البيعة يتحدث الإمام البنا . رحمه الله . عن ركن الأخوة كوسيلة هامة من وسائل حفظ النسل أو النسب، فيقول :

(وأريد بالأخوة : أن ترتبط القلوب والأرواح برباط العقيدة، والعقيدة أوثق الروابط وأغلاها، والأخوة أخت الإيمان، والتفرق أخو الكفر، وأول القوة : قوة الوحدة، ولا وحدة بغير حب، وأقل الحب: سلامة الصدر، وأعلاه : مرتبة الإيثار، ﴿يُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر:٩].

والأخ الصادق يرى إخوانه أولى بنفسه من نفسه، لأنه إن لم يكن بهم، فلن يكون بغيرهم، وهم إن لم يكونوا به كانوا بغيره، (وإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية)، (والمؤمن للمؤمن كالبنيان، يشد بعضه بعضاً) [2].(وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ

(1) مجموعة الرسائل، ص٢٣٦– ٢٣٧ .

(2) البخاري كتاب الأدب باب تعاون المؤمنين بعضهم بعضا ح ٦٠٢٧، ومسلم كتاب البر

أُولَيَاء ُ بَعْضٍ﴾ [التوبة:٧١]، وهكذا يجب أن نكون)[١].

وفي واجبات الأخ العامل نذكر ما ذكره الإمام البنا . رحمه الله . فيما يخص العلاقات الاجتماعية فيقول :

١- أن تكون عادلا صحيح الحكم في جميع الأحوال، لا ينسيك الغضب الحسنات ولا تغضي عين الرضا عن السيئات، ولا تحملك الخصومة على نسيان الجميل، وتقول الحق ولو كان على نفسك أو على أقرب الناس إليك وإن كان مرّا .

٢- أن تكون عظيم النشاط مدربا على الخدمات العامة، تشعر بالسعادة والسرور إذا استطعت أن تقدم خدمة لغيرك من الناس، فتعود المريض وتساعد المحتاج وتحمل الضعيف وتواسي المنكوب ولو بالكلمة الطيبة، وتبادر دائما إلى الخيرات .

٣- أن تكون رحيم القلب كريما سمحا تعفو وتصفح وتلين وتحلم وترفق بالإنسان، والحيوان، جميل المعاملة حسن السلوك مع الناس جميعا، محافظا على الآداب الإسلامية الاجتماعية فترحم الصغير وتوقر الكبير وتفسح في المجلس، ولا تتجسس ولا تغتاب ولا تصخب، وتستأذن في الدخول والانصراف ..الخ.

٤- أن تعرف أعضاء كتيبتك فردا فردا معرفة تامة، وتعرفهم نفسك معرفة تامة كذلك، وتؤدي حقوق أخوتهم كاملة من الحب والتقدير والمساعدة والإيثار وأن تحضر اجتماعاتهم فلا تتخلف عنها إلا بعذر قاهر، وتؤثرهم بمعاملتك دائما)[٢].

ثم يفرد الإمام البنا الأسرة برسالة مستقلة، والأسرة التي يتحدث عنها الإمام البنا

والصلة والأدب باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، ح: ٢٥٨٥.

(1) مجموعة الرسائل، ص٣٦٤.

(2) مجموعة الرسائل، ص٣٦٦-٣٦٨.

هنا، ليست الأسرة التقليدية، المكونة من الآباء والأمهات، والأولاد والأحفاد، وليست بديلا عنها، لكنها داعمة لها، فقد حاول الإمام أن يقيم هذه الأسر لدعم الأسرة الأساسية، ولتقوية علاقة الأخوة والحب، والتعرف والتفاهم والتكافل بين الأفراد المنتسبين إلى جماعة الإخوان المسلمين، فيقول : (يحرص الإسلام على تكوين أسر من أهله يوجههم إلى المثل العليا ويقوي روابطهم، ويرفع أخوتهم من مستوى الكلام والنظريات إلى مستوى الأفعال والعمليات، فاحرص يا أخي أن تكون لبنة صالحة في هذا البناء الإسلام)[1].

ثم يذكر الإمام ـ رحمه الله أركان هذه الأسرة فيقول: (وأركان هذا الرباط ثلاثة فاحفظها واهتم بتحقيقها حتى لا يكون هذا تكليفا لا روح فيه :

١ – **التعارف:** هو أول هذه الأركان، فتعارفوا وتحابوا بروح الله تعالى، واستشعروا معنى الأخوة الصحيحة الكاملة فيما بينكم، واجتهدوا ألا يعكر صفو علاقتكم شيء وتمثلوا الآيات الكريمة دائما والأحاديث الشريفة، اجعلوها نصب أعينكم وتذاكروا قول الله تعالى ﴿ إِنَّما الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات:١٠]، وقوله تعالى: ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا ﴾ [آل عمران:١٠٣]، وقول رسول الله ﷺ : (المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا)[2]، (المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه)[3] (مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد)[4].

---

(1) مجموعة الرسائل، ص٣٧٣.

(2) صحيح البخاري، كتاب الصلاة، أبواب استقبال القبلة، باب تشبيك الأصابع في المسجد وغيره، ح: ٤٦٩.

(3) البخاري كتاب المظالم والغصب باب لا يظلم المسلم المسلم ولا يسلمه، ح:٢٤٤٢، ومسلم كتاب والبر والصلة والأدب باب تحريم ظلم المسلم، وخذله، واحتقاره، ودمه، وعرضه، وماله، ح: ٢٥٦٤.

(4) مسلم في كتاب البر والصلة والأدب باب مثل المؤمنين توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل

ولقد ظلت هذه الأوامر الربانية والتوجيهات المحمدية بعد الصدر الأول كلاما على ألسنة المسلمين، وخيالا في نفوسهم، حتى جئتم معشر الإخوان المتعارفين، تحاولون تطبيقها في مجتمعكم، وتريدون تأليف الأمة، المتآخية بروح الله وأخوة الإسلام من جديد، فهنيئا لكم إن كنتم صادقين، وأرجو أن تكونوا كذلك، والله ولي توفيقكم .

٢– والتفاهم : وهو الركن الثاني من أركان هذا النظام، فاستقيموا على منهج الحق، وافعلوا ما أمركم الله به، واتركوا ما نهاكم عنه، وحاسبوا أنفسكم حساباً دقيقاً على الطاعة والمعصية، ثم بعد ذلك لينصح كل منكم أخاه متى رأى فيه عيباً ، وليقبل الأخ نصح أخيه بسرور وفرح، وليشكر له ذلك، وليحذر الناصح أن يتغير قلبه على أخيه المنصوح بمقدار شعرة، وليحذر أن يشعر بانتقاصه، أو بتفضيل نفسه عليه، ولكنه يتستر عليه شهرا كاملا، ولا يخبر بما لاحظه أحدا إلا رئيس الأسرة وحده إذا عجز عن الإصلاح، ثم لا يزال بعد ذلك على حبه لأخيه وتقديره إياه، ومودته له، حتى يقضي الله أمرا كان مفعولا، وليحذر المنصوح من العناد والتصلب وتغير القلب على أخيه الناصح قيد شعرة، فإن مرتبة الحب في الله هي أعلى المراتب، والنصيحة ركن الدين : (الدين النصيحة) والله يعصمكم من بعض، ويعزكم بطاعته، ويصرف عنا وعنكم كيد الشيطان.

٣– والتكافل : هو الركن الثالث، فتكافلوا، وليحمل بعضكم عبء بعض، وذلك صريح الإيمان ولب الأخوة، فليتعهد بعضكم بعضاً بالسؤال والبر، وليبادر إلى مساعدته ما وجد إلى ذلك سبيلاً ، وتصورا قول رسول الله : (لأن يمشي أحدكم في حاجة أخيه خير له من أن يعتكف في مسجدي هذا شهرا) [1] ، (من أدخل السرور

الجسد الواحد، ح: ٢٥٨٦.

(1) رواه الحاكم في المستدرك كتاب الأدب، باب أشرف المجالس ما استقبل به القبلة، ح:٧٧٧٨.

علـى أهل بيـت مـن المـسلمين لـم يـر الله لـه جـزاء دون الجنـة) [1] ، والله يؤلـف بـين قلوبكم بروحه إنه نعم المولى ونعم النصير.

أيها الإخوان: فـي الواجبـات التـي بـين أيـديكم إن وعيتموها والأعمـال التـي بـين أيـديكم إن اتبعتموهـا مـا يكفـل تحقيـق هـذه الأركـان، فراجعـوا دائمـا واجبـات الأخ التعاوني، وليحاسب كل منكم نفسه على إنفاذها، ثم ليحرص كل أخ على الاجتماعات المحددة مهما كانت أعذاره، ثم ليبادر كل منكم إلى تسديد ما عليه لصندوق أسرته، حتى لا يتخلف عن الواجبات متخلف، فإذا أديتم هذه الواجبات الفردية والاجتماعية والمالية، فإن هذا النظام سيتحقق ولا شك، وإذا قصرتم فيها فسيتضاءل حتى يموت، وفي موته أكبر خسارة لهذه الدعوة، وهي اليوم أمل الإسلام والمسلمين)[2].

ويذكر برنامجا عمليا تسير عليه هذه الأسر حتى لا تكون مجالا لقتل الوقت، أو اللهو غير المباح، فيقول (ويسأل كثير منكم عما يشغلون به وقت اجتماعهم الأسبوعي كأسرة، وذلك أمر سهل ميسور، وما أكثر الواجبات وأقل الأوقات فليكن ما تشغل به الأسرة وقتها واجتماعاتها :

أ- يعرض كل أخ مشاكله ويشاركه إخوانه في دراسة حلولها في جو من صدق الأخوة وإخلاص التوجه إلى الله، وفي ذلك توطيد للثقة، وتوثيق للرابطة (والمؤمن مرآة أخيه)، وحتى يتحقق فينا شيء من مأثور قوله عليه الصلاة والسلام (مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم، كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى)[3].

---

(1) مسلم في كتاب البر والصلة والأدب، باب مثل المؤمنين توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد الواحد، ح: ٢٥٨٦.

(2) لم أجده بهذا اللفظ.

(3) صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، ح:٤٧٩١.

ب- مذاكرة حول شؤون الإسلام، وتلاوة الرسائل والتوجيهات الواردة من القيادة العامة للأسر، ولا محل في الأسرة للجدل أو الحدة ورفع الصوت، فذلك حرام في فقه الأسرة، ولكن بيان واستيضاح في حدود الأدب والتقدير المتداول من الجميع، فإذا أغلق شيء أو أريد اقتراح شيء أو استيضاحه احتفظ به النقيب حتى يرجع إلى القيادة، وقد عاب الله أقواما فقال : ﴿ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ ..﴾ ثم أرشدهم إلى ما يجب أن يكون فقال : ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ ﴾ [النساء:٨٣].

ج- مدارسة نافعة في كتاب من الكتب القيمة، وليحرص الإخوان بعد هذا على تحقيق معنى الأخوة في المجاملات الطارئة، التي لا تحضرها الكتب ولا تحيط بها التوجيهات، وأشار إليها الصادق الأمين : عيادة المريض، ومواساة المحتاج ولو بالكلمة الطيبة، وتفقد الغائب، وتعهد المنقطع .. كلها تزيد رابطة الإخاء، وتضاعف في النفوس والشعور بالحب والصلة .

ولزيادة الترابط بين الإخوان عليهم أن يحرصوا على :

١- القيام برحلات ثقافية لزيارة الآثار والمصانع وغير ذلك.

٢- القيام برحلات قمرية رياضية.

٣- القيام برحلات نهرية للتجديف.

٤- القيام برحلات جبلية أو صحراوية أو حقلية.

٥- القيام برحلات متنوعة بالدراجة.

٦- صيام يوم في الأسبوع أو كل أسبوعين.

٧- صلاة الفجر جماعة مرة كل أسبوع على الأقل في المسجد.

٨- الحرص على مبيت الإخوان مع بعضهم مرة كل أسبوع أو أسبوعين)[1].

رأي الأستاذ البنا في موضوع تحديد النسل :

كتب فضيلة العلامة الأستاذ الدكتور يوسف القرضاوي في كتابة الفتوى بين الانضباط والتسيب عن الثقافة التي يجب على المفتي أن يتسلح بها قبل التصدي للفتوى، واستشهد بفتوى الإمام البنا . رحمه الله . كنموذج من نماذج الفتاوى التي يعرف صاحبها الواقع معرفة جيدة، فلا يخبط خبط عشواء، ولا يتعجل في إطلاق كلمة الحلال أو الحرام بغير دليل وبرهان، من القرآن الكريم والسنة المطهرة، وأقوال الفقهاء، ثم معرفة الواقع الذي يريد المفتي إنزال الفتوى فيه، ونحن ننقل هنا كلام الدكتور القرضاوي، ثم نتبعه بفتوى الإمام البنا كاملة.

يقول فضيلة الشيخ العلامة الدكتور يوسف القرضاوي: (إن المفتي أو الفقيه الذي يقوم مقام النبي ﷺ بل يوقع عن الله جل شأنه، جدير بأن يكون على قدر كبير من العلم بالإسلام، والإحاطة بأدلة الأحكام، والدراية بعلوم العربية، مع البصيرة والمعرفة بالحياة وبالناس أيضا بالإضافة إلى ملكة الفقه والاستنباط.لا يجوز أن يفتي الناس في دينهم من ليس له صلة وثيقة وخبرة عميقة بمصدريه الأساسيين: الكتاب والسنة.ولا يجوز أن يفتي الناس من لم تكن له ملكة في فهم لغة العرب وتذوقها، ومعرفة علومها وآدابها حتى يقدر على فهم القرآن والحديث.ولا يجوز أن يفتي الناس من لم يتمرس بأقوال الفقهاء، ليعرف منها مدارك الأحكام، وطرائق الاستنباط، ويعرف منها كذلك مواضع الإجماع ومواقع الخلاف.ولا يجوز أن يفتي الناس من لم يتمرس بعلم أحوال الفقه، ومعرفة القياس والعلة، ومتى يستعمل القياس، ومتى لا يجوز. كما لا يجوز أن يفتي من لم يعايش الفقهاء في كتبهم وأقوالهم، ويطلع على اختلافهم، وتعدد مداركهم، وتنوع مشاربهم، ولهذا قالوا: من لم يعرف اختلاف الفقهاء لم يشم

(1) مجموعة الرسائل، ص٣٧٤-٣٧٥.

رائحة الفقه!ولا يجوز أن يفتي الناس من يعيش في صومعة حسية أو معنوية، لا يعي واقع الناس، ولا يحس بمشكلاتهم...

ومما قاله الإمام أحمد:لا ينبغي للرجل أن ينصب نفسه للفتيا حتى يكون فيه خمس خصال:

أولها: أن تكون له نية، فإن لم تكن له نية، لم يكن عليه نور، ولا على كلامه نور.

والثانية: أن يكون له حلم ووقار وسكينة.

والثالثة: أن يكون قويا على ما هو فيه وعلى معرفته.

والرابعة: الكفاية (أي من العيش) والا مضغه الناس.

والخامسة: معرفة الناس.

إن المفتي البصير يجب أن يكون واعيا للواقع، غير غافل عنه، حتى يربط فتواه بحياة الناس، فهو لا يكتب نظريات، ولا يلقي فتواه في فراغ، ومراعاة الواقع تجعل المفتي يراعي أمورا معينة، ويضع قيودا خاصة، وينبه على اعتبارات مهمة.وأستطيع أن أذكر هنا مثلا لفتوى صدرت من الإمام الشهيد حسن البنا حول (تحديد النسل) ذكر فيها النصوص الشرعية التي رغبت في كثرة النسل، والنصوص التي رخصت في العزل....) [1].

فتوى الإمام البنا في تحديد النسل[2] :

(1) الفتوى بين الانضباط والتسيب د. يوسف القرضاوي، ص٣٢- ٣٦، ط٢، المكتب الإسلامي ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.

(2) هذه المرة الأولى التي خرجت فيها عن كتاب الرسائل الطبعة التي اعتمدت عليها، حيث لم تطبع معها هذه الرسالة، ولكنها موجودة ضمن طبعات أخرى ومنشورة على مواقع الانترنت، ولم أعثر عليها مطبوعة حتى الآن .

ونحن نذكرها هنا كدليل على عناية الإمام البنا بحفظ النسل، عن طريق الإنجاب:

في مايو ١٩٣٧م عقدت الجمعية الطبية المصرية مؤتمرًا لمناقشة موضوع "تحديد النسل" بكلية الطب، ودعت فيه فضيلة الأستاذ المرشد العام حسن البنا، فألقى فضيلتُه الكلمةَ التالية تحت عنوان: " خطر يتهدد الأمة وينذر بفنائها.. كيف ولَم نلتمس لتحديد النسل ؟ "

يا حضرات السادة :

نشكر للجمعية الطبية، التي أتاحت لنا هذه الفرصة لنتحدث في هذا الموضوع الدقيق.. موضوع تحديد النسل.. وأرجو أن تتكرَّموا حضراتكم بملاحظة أنني حين أتكلم فيه سأعرض إلى ناحية محدودة هي الناحية الإسلامية، بمعنى أنني سأوضح – ما استطعت– نظرة الإسلام إلى هذه الفكرة، وسأصدر في ذلك عن رأيي الشخصي بحسب ما علمت، لا عن رأي جماعة الإخوان المسلمين التي أتشرف بالانتساب إليها.

جاء الإسلام نظامًا كاملاً، يشمل كليات الشئون الإنسانية عمليةً وروحيةً ، ووصف نفسه بأنه دين البشرية جميعًا، ورسالةُ الله على يد نبيِّه محمد رسول الله ﷺ إلى الناس كافة ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء:١٠٧].

والإسلام دين فطري لا يركن إلى الخيال ولا يعتمد عليه، بل يواجه حقائق الأشياء، ويحترم الواقع ويطوعه،ونحن نعلم أن كل تشريع لا تحميه قوةٌ تنفيذيةٌ تشريع عاطل، مهما كان عادلاً رحيمًا، لا يظفر من النفوس إلا بدرجة من الإعجاب، لا تدفعها إلى اتباعه والنزول على حكمه، فلا بد إذن من قوة تحمي التشريع وتقوم على تنفيذه، وتقنع النفوس الضعيفة والمتمردة التي لا تحتمل البرهان ولا تنصاع للدليل بإجلاله واحترامه.

والنـاس إن ظلمـوا البرهـان واعتـسفوا فالحرب أجدى على الدنيا من السلم

لهذا شرع الإسلام الجهادوفرض على نبيه جنديةً عامةً غايتُها مناصرة الحق أينما كان، والذّود عنه حيثما وجد دون ظلم، أو إرهاق، أو استغلال مادي، أو استعمار نفعي، كما قال القرآن الكريم: ﴿حَتَّى لاَ تَكُوْنَ فِتْنَةٌ وَيَكُوْنَ الدِّيْنُ كُلُّهُ لِلهِ﴾ [الأنفال:٣٩].

وأجمل ما تكون القوة مع الحق، وليست القوة عيبًا في ذاتها، ولا عارًا على أهلها،وليس الاستعداد للطوارئ إلا صفةً من صفات الكمال،وإنما العيب أن تُستخدم القوة في تثبيت الظلم ويكون الاستعداد وسيلةَ العدوان، ومن هنا أَمَر الإسلام بالقوة والاستعداد في قوله تعالى:﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِّنْ قُوَّةٍ..﴾ [الأنفال:٦٠]، ثم وجَّه هذه القوة أفضل توجيه وأكرمه، في قوله تعالى: ﴿وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ [المائدة:٨].

وإذا كانت هذه فكرة الإسلام ورسالته، وكانت القوة أول ما تكون بالعدد الكثير من العاملين، وإنما العزة بالكثرة، وكانت القاعدة الأصولية أن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.. فكان لنا أن نستخلص من هذه نتيجة منطقية طبيعية، هي: أن الإسلام يأمر بالإكثار من النسل، ويحضُّ عليه ويدعو إليه، وبالعكس لا يرى التحديد والضبط.

وتطبيقًا على ذلك وتحقيقًا له وردت الآثار عن رسول الله ﷺ تحثُّ على الزواج، وتبيِّن أن الغاية منه الأولاد قبل كل شيءٍ ومن ذلك ما يلي:

١- عن معقل بن يسار (رضي الله عنه) قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: "يا رسول الله!!إني أحببت امرأةً ذات حسب ومنصب ومال، إلا أنها لا تلد، أفأتزوجها؟فنهاه، ثم أتاه الثانية، فقال له مثل ذلك، ثم أتاه الثالثة، فقال له:

"تزوجوا الودود الولود، فإني مكاثر بكم الأمم"[1].

٢- وعن معاوية بن حيدة عن رسول الله ﷺ "سوداء ولودٌ خيرٌ من حسناء لا تلد، وإني مكاثر بكم الأمم" (رواه الطبراني)[2].

٣- نهى رسول الله ﷺ عن العزوبة للقادر على الزواج[3].

٤- نهى عن أن يُخصى أحد من بني آدم في روايات عدة[4].

وهذه هي القاعدة الأصلية التي جرى عليها الإسلام، وأجمع على قبولها المسلمون.

وهناك نظرة أخرى، وهي: أن الإسلام- وهو التشريع الذي جاء ليكون عامًا خالدًا- وضع في حسابه ظروف الأفراد والأسر، والأمم التي تختلف باختلاف أحوال الحياة، وحوادث الكون، فجعل العزائم والرخص، وقرر أن الضرورات تبيح المحظورات، وأنه "لا ضرر ولا ضرار"، وأن الاستثناء قد يعرض للقاعدة الكلية، وخصوصًا في المصالح المرسلة والشئون العارضة، ومن هنا اختلفت النصوص والآراء في كثير من المسائل، ومنها هذه المسألة، وإنا نوجز ما ورد فيما يلي:

- وردت أحاديث بحرمة العزل، وبأنه الموءودة الصغرى، وبها أخذ فريق من أئمة الفقهاء، وحكموا بحرمته مطلقًا.
- وردت أحاديث تبيحه، وتبين أنه لا يؤخر من قضاء الله شيئًا، وبها أخذ فريق من

(1) سنن أبي داوود كتاب النكاح باب النهي عن تزوج من لم يلد من النساء، ح: ٢٠٥٠.

(2) رواه الطبراني في المعجم الكبير، ح: ١٠٤٠.

(3) الطبراني في المعجم الكبير، ح: ١٠٨.

(4) رواه الإمام أحمد في باقي مسند المكثرين، ح: ١٤٦١٨.

أئمة الفقهاء أيضًا،فحكموا بالإباحة مطلقًا أو مع الكراهية.

- وتوسط فريق ثالث، فاشترط للإباحة إذن الزوجة، وتفرَّع على هذا الأصل حكم تعاطي الأدوية لمنع الحمل، وتقليل النسل، فالذين حرموا العزل حكموا بحرمته، والذين أباحوا العزل حكموا بإباحته، والذين توسطوا اشترطوا رضاء الزوجة في هذا أيضًا.
- وبعض الذين أباحوا العزل حرموا منع الحمل بتعاطي الأدوية، ومحاولة تقليل النسل بأية وسيلة من الوسائل، ومن هؤلاء جمهور المالكية، وبعض فقهاء الشافعية، وإليك بعض الأقوال لهؤلاء:
- ذُكل عن القاضي أبي بكر بن العربي أن تعاطي ما يقطع الماء عن الرجل أو يبرد الرحم عن المرأة لا يجوز.
- وقال الحطاب: قال الجزولي في شرح الرسالة: "ولا يجوز للإنسان أن يشرب من الأدوية ما يقلل نسله".
- قال صاحب المعيار: "إن المنصوص لأئمتنا– رضوان الله عليهم– المنع من استعمال ما يبرد الرحم، أو يستخرج ما هو بداخله من الماء، وعليه المحصلون والنظار".
- نقل في شرح الإحياء عن العماد بن يونس والعز بن عبد السلام، وهما من أئمة الشافعية أنه يحرم على المرأة استعمال دواء مانع للحمل.
- قال ابن يونس: ولو رضي الزوج.

أما تعاطي الأدوية لقتل الحيوان المنوي بعد وصوله إلى الرحم، فقد فرق الأئمة بين حالتين:

قبل التخلق وبعده، فأما بعد التخلق فالإجماع على حرمته تقريبًا، أما قبل التخلُّق ففيه الخلاف المتقدم.

- إذا تقرر هذا ولاحظنا أن الإسلام لم يغفل ناحية القوة في الأبناء، والصحة في الإنتاج، بل أوصى بذلك ونبَّه إليه، فعن أسماء بنت يزيد قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "لا تقتلوا أولادكم سرًّا فإن الغيل يدرك الفارس فيد عثره عن فرسه" (أخرجه أبو داود[1])، والغيل أن يقرب الرجل امرأته وهي ترضع، فتضعف لذلك قُوى الرضيع، فإذا بلغ مبلغ الرجال ظهر فيه أثر هذا الضعف.

علمنا أن الإسلام مع وصيته بالإكثار من النسل، وإرشاده إلى أسباب القوة فيه قد يجعل رخصة تستخدم إذا توافرت الأسباب والدواعي التي تدعو إليها، وعلينا إذا أردنا أن نستخدم هذه الرخصة أن نسأل أنفسنا الأسئلة الآتية:

- أليست هناك أسباب تدعو إلى الإكثار من النسل لا إلى تحديده؟!
- هل ثبت بأدلة قوية وقرائن صادقة أن هناك من الأسباب ما يدعو إلى التحديد؟! وهل تأكدنا أن كثرة النسل هي السبب في الضائقة الاجتماعية؟!
- هل يمكن استخدام علاج اجتماعي آخر؟!
- هل وثقنا من أنه سوف لا تنجُم عن هذا التحديد أضرارٌ خطيرةٌ؟
- هل اتُّخِذت الاحتياطات الكافية لمنع هذه الأضرار؟!

ما الوسائل التي ستُتَّخذ؟ وهل سيبيحها الإسلام؟!:

هل وثقنا من أن هذه الرخصة ستُستخدم بقدر الضروري فقط، وأنه سيستخدمها الذين يراد منهم استخدامها، وأن العود إلى القاعدة الكلية، وهي ترك التحديد سيكون

(1) أبو داوود كتاب الطب باب: في الغيل، ح: ٣٨٨١.

ممكنًا إذا ما دعت الحاجة إليه ؟!

وأخيراً هل الأفضل في ذلك أن يعالج بصورة عامة أو بصورة فردية خاصة ؟!

أليس من الجائز أن تسفر هذه التجربة عن عجز عن معالجة الأضرار المزعومة، كوفيات الأطفال مثلاً، فتظل هذه الدواعي كما هي، ويضاف إليها الأضرار التي ستنُجم عن التحديد ؟!

وملاحظة أخرى قد تكون بعيدةً عن تفكيرنا المحدود بالواقع والبيئة الخاصة، وإن كانت صحيحة في ذاتها، وهي أن الإسلام لا يتقيَّد بهذا التقسيم السياسي في الوطن الإسلامي العام، فهو: عقيدة ووطن وجنسية، وأرض المسلمين في نظره وطن واحد، فالزيادة في جزء منه قد تسدُّ نقصًا في جزء آخر.

وعلى ضوء البيانات التي سمعتُها في هذه الدار الكريمة من حضرات الباحثين الفضلاء .. أستطيع أن أستخلص النتيجة التالية:

إن نجاح التشريع غير مضمون في القرى بتاتًا.. فإن أولاد الفلاح هم رأس ماله وثروته، والفلاحون في أشد الحاجة إلى الإكثار من الذرية.

وإن المشاهد أن الطبقة التي تستخدم التحديد هي الطبقة المتعلمة التي ينتظر منها الإكثار، وذلك ضار بالأمة؛ فإن القادرين على التربية هم الذين يفرُّون من كثرة الأبناء؛ ولهذا نحن في الواقع نخشى إن استمر هذا الحال أن نجد أنفسَنا في المستقبل أمامَ مشكلةٍ هي كيف نُكثِر من النسل لخدمة الوطن المحتاج إلى كثرة الأبناء ؟!

ومعنى هذا أن استخدام رخصة التحديد– التي أباحها الإسلام لظروفها– لا تجوز بصورة عامة، ولا يصح أن تُحَلى عليها الأمة، بل تُستخدم بصورة خاصة فردية بحتة مع الذين تتوفر عندهم دواعيها فقط.

إن هناك من ظروف الأمة الخاصة في نهضتها الجديدة ما يدعو إلى تكثير

النسل، فأمامنا الجيش، وأمامنا السودان، وأمامنا الأرض البور في مصر، وهي تبلغ ثلاثة ملايين من الأفدنة، أي نصف المزروع الحالي؛ ولأن أسباب الأضرار المشكو منها اقتصاديًّا وصحيًّا واجتماعيًّا لا ترجع إلى كثرة النسل بل إلى ارتفاع مستوى المعيشة من جهة وجهل الأمهات من جهة أخرى، والمزاحمة من جهة ثالثة، وأسباب أخرى نعجز عن حصرها وسردها.. وذلك ما استبان لي.. وفوق كل ذي علم عليم.) أ. هـ.

ونحن بعد قراءة هذه الفتوى نفهم أن فضيلة العلامة الدكتور يوسف القرضاوي، وهو الخبير بأمر الفتوى والإفتاء فقد أفنى فيها جل عمره، لم يختر هذه الفتوى اختيارا عشوائيا، ولكنه اختيار مقصود، وإن هذه الفتوى تصلح كنموذج للتدريس في دور الإفتاء في العالم العربي والإسلامي، ويمكننا إبداء ملاحظات سريعة حولها في نقاط مختصرة.

أولا : هذه المسألة كانت جديدة، في وقت إصدار الفتوى، فلم يكن عرف الناس التنظيم أو التحديد بالشكل الذي هو عليه الآن، فالآن اتضحت منافعه ومضاره، واتضح من يقف وراءها ويدفع في اتجاهه، واتضح حجم الملايين التي تنفق من أجل إلزام الناس بهذا التحديد أو التنظيم بشكل عام دون مراعاة للفوارق التعليمية والثقافية والاجتماعية.

ولذلك نجد أن الإمام البنا . رحمه الله . لا يريد أن يزج باسم جماعة الإخوان المسلمين في مسألة تعد من مسائل النوازل التي تحتاج إلى تفكر وترو قبل إصدار الحكم فيها بالجواز أو المنع، ولذلك نجد الإمام البنا يقول : (سأعرض إلى ناحية محدودة هي الناحية الإسلامية، بمعنى أنني سأوضح- ما استطعت- نظرة الإسلام إلى هذه الفكرة، وسأصدر في ذلك عن رأيي الشخصي بحسب ما علمت، لا عن رأي جماعة الإخوان المسلمين التي أتشرف بالانتساب إليها).

وهنا يحتاط الإمام مرتين، المرة الأولى: أنه يتحدث عن وجهة نظر الشرع فقط، فهو ليس طبيبا حتى يتحدث عن الأعراض التي يمكن أن تنشأ عن هذا التحديد أو التنظيم، بل يترك هذا الأمر لأصحابه، لأن أصحاب الدعوة هم أساتذة الطب، وبالتالي يترك هذا الأمر لهم.

والمرة الثانية: أنه ينسب هذا الرأي لنفسه لا لجماعة الإخوان المسلمين بخلاف ما وجدنا في كتاب الرسائل حيث إنه يتحدث عن رأي الإخوان المسلمين وليس عن رأيه الشخصي.

ثانيًا: يؤصل لمقصد هام من مقاصد الشريعة وهي الجهاد في سبيل الله، وهذا الجهاد يحتاج للقوة، ومنها القوة المادية التي تعتمد على القوة البشرية، فعلى الرغم من تطور الأسلحة وتنوعها، ألا أن ميزان القوى البشرية ما زال له أثر لا ينكر حتى وقتنا الحالي فكيف بأكثر من ستين عاما خلت ؟

ثالثًا: يرجع الإمام للقرآن الكريم والسنة المطهرة، وهما المصدران الأساسان في التشريع، وهما وإن لم يرد فيهما نص قطعي الدلالة في المسألة لكنها نصوص عامة تضبط أراء المجتهدين، ونصوص القرآن تدعو المسلمين إلى الاستعداد بالقوة، ونصوص السنة تحث المسلمين على التكاثر والتناسل، وبالتالي لا بد أن لا يصادم الاجتهاد الأدلة العامة في التشريع.

رابعًا: يذهب إلى كتب الفقه، وهي في الغالب تمنع من قطع النسل ومنعه، حسب ما فهم السلف من السبل التي كانت معروفة لديهم .

خامسًا: يفهم أيضا من خلال نصوص السنة وكلام الفقهاء أن العبرة ليست بالكم فقط، ولكنها بالكيف، فيجيز التنظيم الذي يكون في مصلحة الطفل حتى يتم رضاعته، ويعتمد على نفسه في الطعام والشراب.

سادسًا: يؤكد أن التنظيم بالمعنى السابق هو الاستثناء الذي يؤكد القاعدة فلا

يتحول إلى قاعدة، بل يظل استثناء، يستخدم بضوابطه المبيحة له، ونعود بعذ ذلك إلى الأصل.

سابعًا: يضع مجموعة من الأسئلة يتوقف الحكم الفقهي على الإجابة عليها، وكلها أسئلة تحرك العقل وتستحثه على الفهم والتفكير، لمعرفة الواقع معرفة صحيحة، ويؤكد من خلال هذه الأسئلة التي غالبا ما تحمل إجابات بين طياتها على عدم التعلق بأسباب وهمية، أو مصالح متوهمة .

ثامنًا: علينا أن نطرح الأسئلة التي طرحها الإمام أمامنا بعد أن مرت على التجربة أكثر من ستين عاما لنعرف كم كانت هذه الأسئلة مهمة وضرورية.

السؤال أو الملاحظة	الإجابة
١- أليست هناك أسباب تدعو إلى الإكثار من النسل لا إلى تحديده ؟!	▪ **نعم.**
٢- هل ثبت بأدلة قوية وقرائن صادقة أن هناك من الأسباب ما يدعو إلى التحديد؟! وهل تأكدنا أن كثرة النسل هي السبب في الضائقة الاجتماعية ؟!	▪ **لا، بدليل أن كثيرا من البلاد عندها زيادة سكانية أكثر واستطاعت أن تحولها إلى مواطن قوة، مثل الصين وغيرها.**
٣- هل يمكن استخدام علاج اجتماعي آخر؟!	▪ **نعم**
٤- هل وثقنا من أنه سوف لا تنُجم عن هذا التحديد أضرارٌ خطيرةٌ ؟ ٥- هل اتُّخِذت الاحتياطات الكافية لمنع هذه الأضرار؟!	▪ **اتضحت الأضرار الصحية الكثيرة الآن التي لا يتكرهاتُحفي بعض الحالات لكنها لا تكفي.**

٦ –ما الوسائل التي ستُتَّخذ؟ وهل سيبيحها الإسلام ؟!	▪ **بعضها جائز من حيث الأصل، وأكثرها غير جائز مثل التعقيم، ناهيك عن كشف العورات أمام الأطباء**
٧–هل وثقنا من أن هذه الرخصة ستُستخدم بقدر الضروري فقط، وأنه سيستخدمها الذين يراد منهم استخدامها، وأن العود إلى القاعدة الكلية، وهي ترك التحديد سيكون ممكنًا إذا ما دعت الحاجة إليه ؟!	▪ **وهذا لم يحدث بل أصبح هذا هو القاعدة والاستثناء عدم التحديد، وأصبح من لا يحددون مجال للسخرية والتندر، بهم في وسائل الإعلام وغيرها.**
٨–وأخيراً هل الأفضل في ذلك أن يعالج بصورة عامة أو بصورة فردية خاصة ؟!	▪ **الأفضل أن تظل بصورة فريدة ولا تكون أمرًا عاما.**
٩ – أليس من الجائز أن تسفر هذه التجربة عن عجز عن معالجة الأضرار المزعومة، كوفيات الأطفال مثلاً، فتظل هذه الدواعي كما هي، ويضاف إليها الأضرار التي ستنجم عن التحديد؟!	▪ **هذا وارد في بعض الأماكن وإن كانت نسبة الوفيات في كثير من الأماكن قد انخفضت الآن.**
١٠ –وملاحظة أخرى قد تكون بعيدةً عن تفكيرنا المحدود بالواقع والبيئة الخاصة، وإن كانت صحيحة في ذاتها، وهي أن الإسلام لا يتقيَّد بهذا التقسيم السياسي في	▪ **وهذا أمر هام يجب أن يوضع في الحسبان.**

الوطن الإسلامي العام، فهو: عقيدة ووطن وجنسية، وأرض المسلمين في نظره وطن واحد، فالزيادة في جزء منه قد تسدُّ نقصًا في جزء آخر.	

وبعد طرح هذه الأسئلة والملاحظات، والنظر في أدلة الشريعة، وأقوال الفقهاء، والاستماع لوجهة نظر العلماء من أهل التخصص تأتي فتوى الإمام في هذه المسألة، وهذا نصها :

إن نجاح التشريع غير مضمون في القرى بتاتًا.. فإن أولاد الفلاح هم رأس ماله وثروته، والفلاحون في أشد الحاجة إلى الإكثار من الذرية.

وإن المشاهد أن الطبقة التي تستخدم التحديد هي الطبقة المتعلمة التي ينتظر منها الإكثار، وذلك ضار بالأمة؛ فإن القادرين على التربية هم الذين يفرُّون من كثرة الأبناء؛ ولهذا نحن في الواقع نخشى إن استمر هذا الحال أن نجد أنفسَنا في المستقبل أمامَ مشكلةٍ هي كيف نُكثِر من النسل لخدمة الوطن المحتاج إلى كثرة الأبناء؟!

ومعنى هذا أن استخدام رخصة التحديد- التي أباحها الإسلام لظروفها- لا تجوز بصورة عامة، ولا يصح أن تُحَلى عليها الأمة، بل تُستخدم بصورة خاصة فردية بحتة مع الذين تتوفر عندهم دواعيها فقط.

إن هناك من ظروف الأمة الخاصة في نهضتها الجديدة ما يدعو إلى تكثير النسل، فأمامنا الجيش، وأمامنا السودان، وأمامنا الأرض البور في مصر، وهي تبلغ ثلاثة ملايين من الأفدنة، أي نصف المزروع الحالي؛ ولأن أسباب الأضرار المشكو منها اقتصاديًّا وصحيًّا واجتماعيًّا لا ترجع إلى كثرة النسل بل إلى ارتفاع مستوى المعيشة من جهة وجهل الأمهات من جهة أخرى، والمزاحمة من جهة ثالثة، وأسباب أخرى نعجز عن

حصرها وسردها.. وذلك ما استبان لي.. وفوق كل ذي علم عليم.

أليست هذا نموذج يدرس لطلاب العلم والباحثين كيف يكون الإفتاء، إن بعض العلماء أصدر فتوى بجواز الصح مع إسرائيل، وكانت بنود الصلح سرية لا يعرفها الشعب المصري حتى الآن بعد مرور أكثر من ثلاثين عاما على إبرام هذه المعاهدة المشئومة،فكيف يصدر فتوى تهم الأمة العربية والإسلامية بأسرها وهو لا يعرف شيئا عنها.

وغير ذلك الكثير والكثير من الفتاوى التي تصدر هنا وهناك، ثم يتبين أنها كارثة تحيق بالأمة أو الأفراد أو المجتمع ؟

و لو سرنا على هذا النظام في الإفتاء، وهذا التفكير الجاد، لظلت هيبة الإفتاء محفوظة، ولجنبنا العلماء مواقع الخطر.

الفصل السابع

حفظ المال

حفظ المال

المبحث الأول

عناية الشيخ حسن البنا بمقاصد حفظ المال في الإطار النظري والتنظيري

مللال عصب الحياة، وعدة الحرب، وعماد السلم؛ فبه تُنال الحقوق، وتُؤدَّى الواجبات، وبه يستطيع الإنسان أن يَبنيَ ويُعمِّر وأن يزرع ويُثمِّر، وأن يَصنع ويُنتِج، به يصان العرض أن يُسلب، والأرض أن تُنهب، والكرامة أن تداس أو تدنس.

ولا عجب أن يهتم به الإسلام، ويعتبره إحدى الضروريات الخمس التي جاءت الشريعة للمحافظة عليها: « الدين والنفس والعقل والعرض والمال ».

وقد ذكر المال في القرآن الكريم والسنة المطهرة أكثر من مرة، والمال لا يذم ولا يمدح لذاته، بل يمدح مادام قد اكتسبه المسلم من حلال ووضعه في حلال، ويذم إذا اكتسبه المسلم من حرام أو وضعه في حرام، والمال – عند العقلاء من المسلمين – ليس غاية بل هو وسيلة يستعين به المسلم على عمارة الدنيا بما أمر الله تعالى، والإنسان لا يملك المال في هذه الدنيا ملكا مطلقا ينفقه حيث شاء، ويتلفه في الحق أو الباطل لكنه مستأمن على هذا المال، ولأن المال مال الله فلا يجوز للمسلم أن يتصرف في هذا المال وفق هواه وحسب شهواته بل عليه أن ينفقه حيث أمر صاحب المال.

وقد أمر الله بتنمية المال واستثماره، ونهانا أن نضعه في أيدي السفهاء:

﴿ وَلا تُؤتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلا مَعْرُوفًا ﴾ [النساء: ٥].

كما أمرهم بألا يجمعوا هذا المال من طريق غير مشروع، كأكل أموال الناس بالباطل عن طريق الغش أو التدليس أو الربا.

﴿ وَلاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقاً مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة ١٨٨].

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلاَ تَقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً ﴾ [النساء ٢٩].

﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لاَ يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَن جَاءهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ يَمْحَقُ اللّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ. فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لاَ تَظْلِمُونَ وَلاَ تُظْلَمُونَ ﴾ [البقرة ٢٧٥-٢٧٩].

وقد حفلت السنة المطهر بالحديث عن المال، وحثت على طلبه من مصادره المشروعة، وإنفاقه فيما أباح الله سبحانه وتعالى، وطلبت من المسلم أن يعمل ويكدح لتكون يده هي العليا دائما، معطاء ليس متسولاً، ثم نهته عن الإسراف وإضاعة المال فيما لا يعود بالنفع عليه وعلى المجتمع، وجعلت الدفاع عن هذا المال وحمايته من أيدي المعتدين واجباً ينال المسلم الشهادة إن مات بسببه، وبينت السنة أن كثرة المال ليست عيباً يلحق المسلم في عرضه أو دينه ما دام قد اكتسبه من حل ووضعه في حل.

روى البخاري ومسلم بسندهما عن حكيم بن حزام ﷺ قَالَ سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ فَأَعْطَانِي، ثُمَّ سَأَلْتُهُ فَأَعْطَانِي، ثُمَّ سَأَلْتُهُ فَأَعْطَانِي ثُمَّ قَالَ « يَا حَكِيمُ إِنَّ هَذَا الْمَالَ خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ ، فَمَنْ أَخَذَهُ بِسَخَاوَةِ نَفْسٍ بُورِكَ لَهُ فِيهِ، وَمَنْ أَخَذَهُ بِإِشْرَافِ نَفْسٍ لَمْ يُبَارَكْ

لَهُ فِيهِ كَالَّذِي يَأْكُلُ وَلاَ يَشْبَعُ ، الْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى». قَالَ حَكِيمٌ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لاَ أَرْزَأُ أَحَداً بَعْدَكَ شَيْئاً حَتَّى أُفَارِقَ الدُّنْيَا، فَكَانَ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه يَدْعُو حَكِيماً إِلَى الْعَطَاءِ فَيَأْبَى أَنْ يَقْبَلَهُ مِنْهُ ، ثُمَّ إِنَّ عُمَرَ رضي الله عنه دَعَاهُ لِيُعْطِيَهُ فَأَبَى أَنْ يَقْبَلَ مِنْهُ شَيْئاً . فَقَالَ عُمَرُ إِنِّى أُشْهِدُكُمْ يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى حَكِيمٍ، أَنِّى أَعْرِضُ عَلَيْهِ حَقَّهُ مِنْ هَذَا الْفَيْءِ فَيَأْبَى أَنْ يَأْخُذَهُ. فَلَمْ يَرْزَأْ حَكِيمٌ أَحَداً مِنَ النَّاسِ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَتَّى تُوُفِّىَ (١) .

ورويا بسندهما عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه قال: سَمِعْتُ عُمَرَ يَقُولُ كَانَ النَّبِىُّ ﷺ يُعْطِينِى الْعَطَاءَ فَأَقُولُ أَعْطِهِ أَفْقَرَ إِلَيْهِ مِنِّى حَتَّى أَعْطَانِى مَرَّةً مَالاً فَقُلْتُ أَعْطِهِ مَنْ هُوَ أَفْقَرُ إِلَيْهِ مِنِّى فَقَالَ النَّبِىُّ ﷺ« فَتَمَوَّلْهُ وَتَصَدَّقْ بِهِ، فَمَا جَاءَكَ مِنْ هَذَا الْمَالِ وَأَنْتَ غَيْرُ مُشْرِفٍ وَلاَ سَائِلٍ فَخُذْهُ ، وَمَا لاَ فَلاَ تُتْبِعْهُ نَفْسَكَ» (٢) .

ورويا بسندهما عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول:«إِنَّ اللَّهَ كَرِهَ لَكُمْ ثَلاَثاً قِيلَ وَقَالَ، وَإِضَاعَةَ الْمَالِ وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ» (٣) .

وروى النسائي في سننه «جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ فَقَالَ الرَّجُلُ يَأْتِينِي فَيُرِيدُ مَالِي. قَالَ تَنْشُدُهُ بِاللهِ. قَالَ: فَإِنْ لَمْ يَنْشُدْ. قَالَ: فَاسْتَعِنْ عَلَيْهِ مَنْ حَوْلَكَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ. قَالَ: فَإِنْ لَمْ يَكُنْ حَوْلِي أَحَدٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ. قَالَ: فَاسْتَعِنْ عَلَيْهِ بِالسُّلْطَانِ. قَالَ: فَإِنْ

---

(1) أخرجه البخاري، ك: الزكاة، ب: الاستعفاف عن المسألة٣/٣٣٥ (١٤٧٢)، و مسلم، ك: الزكاة، ب: بيان أن اليد العليا خير من اليد السفلى ٢/٧١٧(٩٦/١٠٣٥).

(2) أخرجه البخاري، ك:الزكاة، ب:من أعطاه الله شيئامن غير إشراف ولا مسألة٣/٣٣٧ (١٤٧٣)، ومسلم، ك: الزكاة، ب: إباحة الأخذ لمن أعطي بغير مسألة ٢/ ٧٢٣ (١١١/١٠٤٥).

(3) أخرجه البخاري، ك: الزكاة، ب: قول الله تعالى لا يسألون الناس إلحافا ٣/٣٤٠ (١٤٧٧)، ومسلم، ك: الأقضية، ب: النهي عن كثرة المسألة من غير حاجة ٣/١٣٤٠(١٠/١٧١٥).

نَأَى السُّلْطَانُ عَنِّي.قَالَ: لَا تَكُونَنَّ مَالَكَ حَتَّى تَكُونَ مِنْ شُهَدَاءِ الْآخِرَةِ أَوْ تَمْنَعَ مَالَكَ»[1].

وروى مسلم في صحيحه أن رسول الله ﷺ قال: « **مَنْ قُتِلَ دُونَ مَالِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ**»[2].

وقال النبي ﷺ: « يَا عَمْرُو نِعْمَ الْمَالُ الصَّالِحُ لِلْمَرْءِ الصَّالِحِ»[3].

وروى البخاري ومسلم عن أبي هريرة ﷺ قال: قال النبي ﷺ لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَكْثُرَ فِيكُمُ الْمَالُ فَيَفِيضَ، حَتَّى يَهُمَّ رَبُّ الْمَالِ مَنْ يَقْبَلُ صَدَقَتَهُ ، وَحَتَّى يَعْرِضَهُ فَيَقُولَ الَّذِي يَعْرِضُهُ عَلَيْهِ لَا أَرَبَ لِي»[4].

وكان من دعاء النبي ﷺ «اللَّهُمَّ أَصْلِحْ لِي دِينِيَ الَّذِي هُوَ عِصْمَةُ أَمْرِي وَأَصْلِحْ لِي دُنْيَايَ الَّتِي فِيهَا مَعَاشِي وَأَصْلِحْ لِي آخِرَتِي الَّتِي فِيهَا مَعَادِي وَاجْعَلِ الْحَيَاةَ زِيَادَةً لِي فِي كُلِّ خَيْرٍ وَاجْعَلِ الْمَوْتَ رَاحَةً لِي مِنْ كُلِّ شَرٍّ»[5].

وحفظ المال في الشريعة الإسلامية له عدة مسالك :

---

(1) أخرجه النسائي، ك:تحريم الدم، ب:مايفعل من تعرض لماله٧ / ١١٣.

(2) أخرجه مسلم، ك:الإيمان، ب: الدليل على أن من قصد أخذ مال غيره.١٢٤/١(١٤١/٢٢٦).

(3) أخرجه أحمد ٤ / ١٩٧ (١٧٧٦٣)، وقال المحقق: إسناده صحيح على شرط مسلم.

(4) أخرجه البخاري، ك: الزكاة، ب: الصدقة قبل الرد ٢٨١/٣(١٤١٢)، ومسلم، ك: الزكاة، ب: الترغيب في الصدقة ٧٠١/٢(٦١/١٥٧).

(5) أخرجه مسلم، ك: الذكر والدعاء،، ب: التعوذ من شر ما عمل٤ / ٢٠٨٧ (٧١/٢٧٢٠)، وينظر كتاب المعاملات المالية دراسة في الأحكام والأخلاق والسلوك للمؤلف الجزء الأول ص٦٥- ٧٢ .

١- حفظ المال بالكسب والتنمية.

٢- حفظ المال من التلف، ويشتمل على :

أ - حفظ المال من التلف العبثي.

ب- حفظ المال من التلف المفسد.

ج- حفظ المال من التلف السرفي.

٣- حفظ المال بحماية الملكية.

٤- حفظ المال بحماية قيمته.

٥- حفظ المال بالتداول والترويج[1].

الشيخ حسن البنا ومقصد حفظ المال في الشريعة الإسلامية :

الاحتكار من نتائج الفساد الاجتماعي :

عني الشيخ حسن البنا .رحمه الله .بهذا المقصد كما عني بمقاصد الشريعة السابقة، ففي رسالة المؤتمر السادس، وعند الحديث عن بعض نتائج الفساد الاجتماعي في مصر يقول: (شركات الاحتكار في مصر قد وضعت يدها على مرافق الحياة والمنافع العامة، فالنور والمياه والملح والنقل ونحوها كلها في يد هذه الشركات التي لا ترقب في مصري إلاّ ولا ذمة ، والتي تحقق أفحش الأرباح وتضن حتى باستخدام المصريين في أعمالها.

لقد بلغت أرباح شركة المياه منذ تأسست في ٢٧ مايو سنة ١٨٦٥ إلى سنة ١٩٣٣ عشرين مليونا من الجنيهات ، وقد بلغ التفريط والتهاون بالحكومة المصرية أن

(1) مقاصد الشريعة بأبعاد جديدة، ص١٩٢- ٢٠٣ .

باعت حصتها في أرباح الشركة في عهد وزارة رياض باشا (وكان ناظر الأشغال حينذاك محمد زكي باشا) بمبلغ عشرين ألفا من الجنيهات مع أن حصتها في صافي الربح من تاريخ البيع وهو ١٠ يوليو سنة ١٨٩٩ إلى سنة ١٩٣٤ فقط مبلغ مليونين ونصف من الجنيهات.

إن في مصر ٣٢٠ شركة أجنبية تستغل جميع مرافق الحياة ، وقد بلغت أرباحها في سنة ١٩٣٨ الماضية (٧.٦٣٧.٤٨٢ جنيها) وهذه الشركات جميعا تخالف نصوص العقود في كثير من التصرفات ثم لا يكون التصرف معها إلا متراخيا ضعيفا يفوت الفائدة على الحكومة والجمهور معا.

ولعل من الطريف المبكي أن نقول إن عدد الشركات المصرية إلى سنة ١٩٣٨ بلغ إحدى عشر شركة فقط مقابل ٣٢٠ شركة أجنبية) [1].

وهنا يحذر الشيخ حسن البنا . رحمه الله . من امتلاك الأجانب لشركات مهمة تمثل عصب الاقتصاد في هذا الوقت، ثم عدم الرقابة عليها من قبل الحكومة، بل وبيع الحكومة حصة الشعب بثمن بخص، وهذا يمثل إضاعة للمال، بصورة تذكرنا بقضية بيع القطاع العام بعد ذلك بعشرات السنين وكأن التاريخ يعيد نفسه!!.

وهنا يستعمل الشيخ لغة الأرقام، وهي لغة دالة معبرة، فلم يعمد إلى أسلوب الوعظ، أو طريقة الأدباء والبلغاء والشعراء في توضيح حجم المأساة التي كانت تمر بها مصر في هذا الوقت، لكنه يعتمد الأسلوب العلمي، فيذكر الأسباب ويقوم بتحليلها، والتعليق عليها بما لا يترك مجالا للشك في ما يتكلم به.

ونلاحظ هنا أن الإمام البنا . رحمه الله . لم يقف عند المعنى الفقهي القديم للاحتكار، وما إذا كان الاحتكار سيكون في القوت أم في غيره، لأن هذا الاجتهاد من

(1) مجموعة الرسائل، ص٢٠٩.

ساداتنا الفقهاء – عليهم رضوان الله تعالى – كان يناسب عصرهم حيث كان يمثل القوت الضروري الأساس، وربما الوحيد في عصرهم [١]، أما الآن فحاجة الناس للدواء والكهرباء والماء وغير ذلك لا يقل عن حاجتهم للغذاء، بل ربما يفوق حاجتهم للغذاء، ومن ثمَّ وجدناه يتحدث عن احتكار الماء والكهرباء، ويعتبر ذلك احتكارا سواء بالمعنى الفقهي أو المعنى اللغوي العرفي وهذا سبقٌ من الإمام يضاف إلى ما سبقه وما تلاه من نظرات فقهية مقاصدية لا تقف عند المعنى الحرفي للمصطلحات.

من مقاصد الدعوة الحفاظ على المال :

وعند الحديث عن مقاصد الدعوة ووسائلها العامة في رسالته في اجتماع رؤساء المناطق ومراكز الجهاد يقول في المقصد الرابع من هذه المقاصد : (ولن يستشعر أحد العزة والكرامة ويتذوق طعم الحياة الكريمة إلا إذا شبع بطنه واستغني عن غيره، وتوفرت له ضروريات حياته، وإلي ذلك نظر الإسلام فلم يهمل المعاني الاقتصادية ولم يتغافل عن الإصلاح المالي، بل إنه وضع لذلك أفضل القواعد التي تنمي وحدة الأمة أفراداً وجماعات ، وترفع مستوي المعيشة وتقرب بين الطبقات، وتؤمن الجميع أنفسهم وزراريهم وأولادهم، وتضمن لهم العدالة الاجتماعية الصحيحة، وتوفر الفرص المتكافئة للجميع علي السواء.

لم يحتقر الإسلام المال، ولم يزهد في الثروة ولم يحرم الطيبات ، بل اعتبر

---

(1) هناك ثلاث اتجاهات للفقهاء فيما يجري فيه الاحتكار :

الأول : ما ذهب إليه أبو حنيفة ومحمد والشافعية والحنابلة أنه لا احتكار إلا في القوت خاصة.

الاتجاه الثاني : أن الاحتكار يجري في كل ما يحتاجه الناس ، ويتضررون من حبسه ، من قوت وإدام ولباس وغير ذلك . وهذا ما ذهب إليه المالكية وأبو يوسف من الحنفية .

الاتجاه الثالث : أنه لا احتكار إلا في القوت والثياب خاصة . وهذا قول لمحمد بن الحسن. ينظر الموسوعة الفقهية الكويتية ٢/ ٩٢.

المال من نعم الله الواجبة الشكر، وقال النبي ﷺ : (نعم المال الصالح للرجل الصالح)، واستعاذ من العوز والفقر وقرنه بالكفر فقال : (اللهم إني أعوذ بك من الكفر والفقر)، وحث بعد ذلك علي العمل والكسب، واعتبر ذلك قربة إلي الله تؤدي إلي حبه ومثوبته ومغفرته . فقال رسول الله ﷺ : (إن الله يحب المؤمن المحترف) كما قال : (من أمسي كالاً من عمل يده أمسي مغفوراً له)، وحرم السؤال والاستجداء لما في ذلك من مذلة وهوان .

ثم أوصي بعد هذا بالمحافظة علي هذا المال والاعتدال في إنفاقه وابتغاء أفضل السبل به فقال القرآن الكريم: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴾ [النساء: ٥]، وقال : ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴾ [الفرقان: ٦٧].

ثم لفت النظر إلي منابع الثروة وأصول طرائق الكسب من التجارة والزراعة والصناعة والثروات الحيوانية والمعدنية والمائية والهوائية والقوى الكونية، وكل ذلك واضح في كتاب الله العلي الكبير، وحث المسلمين علي استغلالها وتثميرها والانتفاع بها وعدم الغفلة عنها، جمع لهم ذلك في إشارة واضحة، ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾ [لقمان: ٢٠].

ثم حرم الكسب الحرام كله الذي يؤدي إلي البغضاء والشحناء وفساد المجتمعات؛ لأن الإسلام حين أراد أن يوفر للفرد وسائل الحياة والرفاهية أراد كذلك أن يوفر للمجتمع حياة التكافل والطمأنينة ، ويقضي فيه على فحش الأثرة والأنانية، فحرم الربا وحرم النصب وحرم الاحتيال ، ووضع في ذلك القاعدة المعروفة من تقديم المنفعة العامة على المنفعة الخاصة دائماً، فإذا تعارضت حقوق الفرد مع حقوق الجماعة أهدرت الحقوق الفردية وعوض عنها أصحابها، وأقيمت حقوق الجماعة بما

يوصل للخير العام.

ولم يقف أمر النظام الاقتصادي الإسلامي عند هذا الحد ، ولكنه رسم الخطط الأساسية للتقريب بين الطبقات فانتقص من مال الغني بما يزكيه ويطهره وينقيه ويكسبه القلوب والمحامد ، وزهّده في الترف والخيلاء ورغّبه في الصدقة والإحسان، وأجزل لهفي ذلك المثوبة والعطاء وقرر للفقير حقاً معلوماً وجعله في كفالة الدولة أولاً وفي كفالة الأقارب ثانياً وفي كفالة المجتمع بعد ذلك. ثم قرر بعد هذا صور التعامل النافع للفرد الحافظ للجماعة تقريراً عجيباً في دقته وشموله وآثاره ونتائجه، وأقام الضمير الإنساني مهيمناً عليها من وراء هذه الصور الظاهرية . كل هذا بعض ما وضع الإسلام من قواعد ينظم بها شأن الحياة الاقتصادية للمؤمنين، ...)[١].

أرأيت فهما لأهمية المال والحفاظ عليه، ووضع الوسائل المعينة على هذا بعد توضيح موقف الإسلام من المال مثل هذا الفهم، من حيث العمق، والسهولة واليسر وقابليته للتطبيق لمن أرد أن يعمل؟

ويضع الشيخ حسن البناء تحت عنوان مقاصد دعوة الإخوان المسلمين التي يرى أنها هي مقاصد الإسلام حيث يقدم لهذا بقوله (وظهرت دعوتكم أيها الإخوان في ثنايا هذه السحب المتراكمة جميعاً ، فلمعت كما يلمع البرق الوامض ، ثم أنارت كما تنير الشمس المشرقة ، تبعث في القوم النور والحياة واليقظة بعد طول نوم وخمود، فكانت أغراضكم وأهدافكم هي أغراض الإسلام الحنيف ومقاصده)[٢].

فالرجل لم يتحدث بهذا في إطار موعظة عامة، أو مقالة نظرية، لكنه يجعله مقصدا من مقاصد الدعوة الخمسة، وهدفا أساسيا من أهدافها، كما يقترح لها الوسائل

---

(1) مجموعة الرسائل، ص٢٤٩-٢٥١.

(2) مجموعة الرسائل، ص٢٤٩.

المناسبة.

وفي رسالة نحو النور تلك الرسالة التي تقدم بها للملوك والحكام والرؤساء العرب والمسلمين، ولكل أصحاب النفوذ واتخاذ القرار يذكر تحت عنوان الإسلام والاقتصاد: (والأمة الناهضة أحوج ما تكون إلى تنظيم شؤونها الاقتصادية ، وهي أهم الشؤون في هذه العصور ، ولم يغفل الإسلام هذه الناحية بل وضع كلياتها ولم يقف أمام استكمال أمرها ، وها أنت ذا تسمع قول الله تبارك وتعالى في المحافظة على المال وبيان قيمته ووجوب الاهتمام به : ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا ...﴾ [النساء: ٥].

ويقول في موازنة الإنفاق والدخل : ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٩].

ويقول رسول الله ﷺ : (ما عال من اقتصد)[1] وهو كما يصدق في الفرد يصدق في الأمة مع قوله ﷺ : (نعم المال الصالح للرجل الصالح)[2] ، وأي نظام اقتصادي فاضل يرحب به الإسلام ويدعو الأمة إلى تشجيعه ولا يقف أبدا في سبيله، والفقه الإسلامي مملوء بأحكام المعاملات المالية ، وقد فصلها تفصيلا لا يدع زيادة لمستزيد.

وبعد فإن الأمة إذا توفرت لها هذه الدعائم من الأمل والوطنية والعلم والقوة والصحة والاقتصاد فهي بلا شك أقوى الأمم والمستقبل لها، ولاسيما إذا أضيف إلى ذلك أنها قد طهرت من الأثرة والعدوان والأنانية والطغيان، وأصبحت تتمنى الخير للعالم كله، وإن الإسلام قد كفل ذلك فلا حجة لأمة تريد النهوض في النكول عنه

(1) الإمام أحمد في مسند الكثرين من الصحابة، ح: ٤٢٥٧.

(2) سبق ص .

والعدول عن طريقه)[١].

وفـي نفس الرسـالة السابقة يقترح الشيخ حسن البنـا الوسـائل المناسبة، وبعض خطوات الإصـلاح فـي الناحيـة السياسة والإداريـة، والاجتماعيـة، والناحيـة الاقتصادية، فيقول فيما يخص الناحية الاقتصادية الوسائل التالية :

١- تنظيم الزكاة دخلا ومنصرفا بحسب تعاليم الشريعة السمحة ، والاستعانة بـه فـي المـشروعات الخيريـة التـي لابـد منهـا كملاجـئ العجزة والفقراء واليتـامى وتقويـة الجيش .

٢- تحريم الربـا وتنظيم المـصارف تنظيمـا يـؤدي إلـى هذه الغايـة، وتكـون الحكومـة قدوة في ذلك بإلغاء الفوائد في مشروعاتها الخاصـة بها كبنك التسليف والسلف الصناعية وغيرها.

٣- تشجيع المشروعات الاقتصادية والإكثار منها ، وتشغيل العاطلين من المواطنين فيها واستخلاص ما في أيدي الأجانب منها للناحية الوطنية البحتة.

٤- حماية الجمهور من عسف الشركات المحتكرة وإلزامها حدودها والحصول على كل منفعة ممكنة للجمهور.

٥- تحـسين حـال المـوظفين الـصغار برفـع مرتبـاتهم واسـتبقاء علاواتهـم ومكافـأتهم وتقليل مرتبات الموظفين الكبار.

٦- حصر الوظـائف وخـصوصا الكثيرة منهـا ، والاقتـصار علـى الـضروري، وتوزيـع العمل على الموظفين توزيعا عادلا والتدقيق في ذلك.

٧- تشجيع الإرشاد الزراعي والصناعي والتجاري ، والاهتمام بترقية الفلاح والصانع

---

(1) مجموعة الرسائل، ص٢٨٤.

من الناحية الإنتاجية.

٨- العناية بشؤون العمال الفنية والاجتماعية ، ورفع مستواهم في مختلف النواحي الحيوية.

٩- استغلال الموارد الطبيعية كالأرض البور والمناجم المهملة وغيرها.

١٠- تقديم المشروعات الضرورية على الكماليات في الإنشاء والتنفيذ.

وبعد، فهذه رسالة الإخوان المسلمين ، نتقدم بها، وإنا لنضع أنفسنا ومواهبنا وكل ما نملك تحت تصرف أي هيئة أو حكومة تريد أن تخطو بأمة إسلامية نحو الرقي والتقدم ، نجيب النداء ونكون الفداء، ونرجو أن نكون قد أدينا بذلك أمانتنا وقلنا كلمتنا والدين النصيحة لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم)[1].

ويذكر وسائل ومقترحات لإصلاح الناحية السياسية والإدارية، وهذا بلا شك ينعكس على حفظ المال، فلا حفظ للمال إلا في ظل نظام سياسي وإداري صالح فيقول:

١- القضاء على الحزبية وتوجيه قوى الأمة السياسية في وجهة واحدة وصفّ واحد.

٢- إصلاح القانون حتى يتفق مع التشريع الإسلامي في كل فروعه.

٣- تقوية الجيش والإكثار من فرق الشباب وإلهاب حماستها على أسس من الجهاد الإسلامي.

٤- تقوية الروابط بين الأقطار الإسلامية جميعا ، وبخاصة العربية منها تمهيدا للتفكير الجدي العملي في شأن الخلافة الضائعة.

---

(1) مجموعة الرسائل، ص٢٩٣-٢٩٤.

٥- بث الروح الإسلامي في دواوين الحكومة بحيث يشعر الموظفون جميعا بأنهم مطالبون بتعاليم الإسلام.

٦- مراقبة سلوك الموظفين الشخصي وعدم الفصل بين الناحية الشخصية والناحية العملية.

٧- تقديم مواعيد العمل في الدواوين صيفا وشتاء حتى يعين ذلك على الفرائض ويقضي على السهر الكثير.

٨- القضاء على الرشوة والمحسوبية والاعتماد على الكفاية والمسوغات القانونية فقط.

٩- أن توزن كل أعمال الحكومة بميزان الأحكام والتعاليم الإسلامية ، فتكون نظم الحفلات والدعوات والاجتماعات الرسمية والسجون والمستشفيات بحيث لا تصطدم بتعاليم الإسلام ، وتكون الدوريات في الأعمال على تقسيم لا يتضارب مع أوقات الصلاة.

١٠- استخدام الأزهريين في الوظائف العسكرية والإدارية وتدريبهم[1].

ونأتي لبيت القصيد، فقد خص الشيخ حسن البنا . رحمه الله . النظام الاقتصادي برسالة خاصة سميت بالنظام الاقتصادي تحت عنوان أكبر وهو مشكلاتنا الداخلية في ضوء النظام الإسلامي تكلم عن أهمية الحل الإسلامي، بل وحتميته على حد تعبير أستاذنا العلامة الدكتور يوسف القرضاوي في كتبه الماتعة عن حتمية الحل الإسلامي، ثم تكلم عن نظام الحكم، وعن النظام الاقتصادي، وكما يقولون السياسة والاقتصاد وجهان لعملة واحدة، فلا يمكن أن تقوم سياسة بغير اقتصاد، ولا يمكن أن

(1) مجموعة الرسائل، ص٢٩٠-٢٩١.

ينمو اقتصاد إلا في ظل نظام سياسي ناجح.

وسنأخذ القارىء الكريم في سياحة ممتعة مع هذه الرسالة القيمة التي سبق فيها الشيخ حسن البنا عصره، ولو وعى قومه، وأخذوا كلامه مأخذ التطبيق الجاد لنهضت الأمة العربية والإسلامية ولكان لها شأنها بين الأمم.

ففي بداية هذه الرسالة يحذر قومه وأمته،ويتمنى أن تجد نصائحة آذان واعية قبل أن تغرق السفينة بمن فيها وما فيها، فيقول بعد أن ذكر نظام الحكم واقترح الوسائل التي تعين على الخروج من هذا المأزق : (وهنا أتناول (وضعنا الاقتصادي) بمثل هذا البيان،رجاء أن تجد هذه الكلمات المخلصة آذاناً مصغية، وقلوباً واعية، تستشعر الخطر وتعمل على تلافيه، من قبل أن يستشري الداء، ويعز الدواء، ويتسع الخرق على الراقع ... ولا يحرك النفوس ويثير الخواطر، ويؤلم المشاعر شئ كالضائقة المالية، تأخذ بخناق الجماهير فتحول بينهم وبين الحصول على ضروريات الحياة فضلاً عن كماليتها .. ولا أزمة أعنف من أزمة الرغيف، ولا عضة أقوى من عضة الجوع والمسغبة .. ولا حاجة أشد من حاجة القوت، وطالب القوت ما تعدى . دخلت الجارية على محمد بن الحسن الشيباني صاحب أبي حنيفة، فقالت : يا سيدي فني الدقيق. فقال: قاتلك الله! أذهبت من رأسي أربعين مسألة)[1].

وقبل أن يتحدث عن قواعد النظام الاقتصادي يذكر مجموعة مقدمات يشخص بها الداء قبل أن يصف الدواء، وهو في هذه المقدمة يذكر نقاط القوة، ونقاط الضعف، لنستفيد من الأولى، ونقوي الثانية، كما يذكر الفرص والتهديدات، لنستفيد من الفرص، ونحول التهديدات إلى فرص أو نحيدها على الأقل فيقول : (وهناك حقائق لا يستطيع أحد أن ينكرها أو يتجاهلها منها :

(1) مجموعة الرسائل، ص٣٣٧.

١- غنى الطبيعة :

إن هذا البلد ليس فقيراً، بل لعله أغنى بلاد الله تبارك وتعالى بخيراته الطبيعية، وثرواته المختلفة من زراعية ومائية وحيوانية ومعدنية، ونيله العجيب، ووادية الخصيب، وما شئت من فضل الله تبارك وتعالى على مصر وأهل مصر منذ القدم يقول الله تعالى:﴿.. **اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُم..**﴾ **[البقرة: ٦١]**

٢- استغلال أجنبي :

إن الأجانب الذين احتلوا هذا الوطن بغفلة من أهله ، وتساهل من حكامه ، وظلم من غاصبيه ، أسعد حالا من أهله وبنيه ، وأنهم قد وضعوا أيديهم على أفضل منابع الثروات فيه، شركات أو أفرادا ، فالصناعة والتجارة ، والمنافع العامة، والمرافق الرئيسية، كلها بيد هؤلاء الأجانب حقيقة ،أو الأجانب الذين اتخذوا من الجنسية المصرية شعارا ومازالوا يحنون بعد إلى أوطانهم ويؤثرونها بأكبر أرباحهم، وإن كثيرا مازال ينظر إلى المواطن المصري ، والعامل المصري، والحاكم المصري نظرة لا تقدير فيها ولا إنصاف.

٣- ثراء فاحش وفقر مدقع :

ومنها أن التفاوت عظيم، والبون شاسع، والفرق كبير، بين الطبقات المختلفة في هذا الشعب، فثراء فاحش وفقر مدقع، والطبقة المتوسطة تكاد تكون معدومة، والذي نسميه نحن الطبقة المتوسطة ليس إلا من الفقراء المعوزين وإن كنا نسميهم متوسطين، على قاعدة : بعض الشر أهون من بعض . ورحم الله فقهاءنا الذين حبَّروا البحوث الطويلة في الفرق بين الفقراء والمساكين وإن كلاهما من المحتاجين البائسين .

٤- تخبط اقتصادي :

ومنها وهو الأهم، أننا في وسط هذا المعترك الحاد الصاخب العنيف بين

المبادئ الاقتصادية، من رأسمالية أو اشتراكية أو شيوعية، لم نحدد لوناً نصبغ به حياتنا الاقتصادية ، في وقت تحتم فيه التحديد، وتعقدت فيه الأمور، بحيث لم تعد تنفع فيها أنصاف الحلول، ولم يعد يجدي إلا الوضوح الكامل، وتحديد الأهداف تحديداً دقيقاً، والسير إليها في قوة وعزيمة.

وهذه الأوضاع، وإن امتزجت بها المعاني السياسية، إلا أنها في أغلب صورها ودوافعها ونتائجها تعاليم وأوضاع اقتصادية، ولهذا لا بد لنا من أن نختار لوناً من هذه الألوان أو من غيرها إن استطعنا، لنعيش في حدود وضع معلوم له خصائصه ومميزاته، يحدد أهدافنا الرئيسية، ويرسم لنا طريق العمل للوصول إلى هذه الأهداف.

٥- إلى الإسلام :

وأعتقد أنه لا خير لنا في واحد من هذه النظم جميعاً، فلكل منها عيوبه الفاحشة، كما له حسناته البادية، وهى نظم نبتت في غير أرضنا لأوضاع غير أوضاعنا، ومجتمعات فيها غير ما في مجتمعنا ...فضلاً عن أن بين أيدينا النظام الكامل الذي يؤدى إلى الإصلاح الشامل في توجيهات الإسلام الحنيف، وما وضع للاقتصاد قواعد كليةأساسية لو علمناها وطبقناها تطبيقاً سليماً، لانحلت مشكلاتنا، ولظفرنا بكل ما في هذه النظم من حسنات، وتجنبنا كل ما فيها من سيئات، وعرفنا كيف يرتفع مستوى المعيشة وتستريح كل الطبقات، ووجدنا أقرب الطرق إلى الحياة الطيبة)[1].

ثم يذكر الشيخ حسن البنا عشر قواعد يقوم عليها النظام الاقتصادي في الإسلام يذكرها إجمالا ثم يتبعها بالتفصيل اليسير فيقول : (قدمت في الكلمة السابقة أن مصر تتقاذفها الألوان الاقتصادية وتتضارب فيها النظم والآراء العصرية ، من رأسمالية أو اشتراكية أو شيوعية، وأن من الخير كل الخير أن تبرأ مصر من هذه

(1) مجموعة الرسائل، ص٣٣٨-٣٣٩ .

الألوان كلها، وأن تركز حياتها الاقتصادية على قواعد الإسلام وتوجيهاته العليا، وتستمد منه وتعتمد عليه، وبذلك تسلم من كل ما يصحب هذه الآراء من أخطاء وما يلصق بها من عيوب، وتنحل مشاكلنا الاقتصادية من أقصر طريق.

ويتلخص نظام الإسلام الاقتصادي في أهمها :

١- اعتبار المال الصالح قوام الحياة، ووجوب الحرص عليه، وحسن تدبيره وتثميره.

٢- إيجاب العمل والكسب على كل قادر.

٣- الكشف عن منابع الثروات الطبيعية، ووجوب الاستفادة من كل ما في الوجود من قوى ومواد.

٤- تحريم موارد الكسب الخبيث.

٥- تقريب الشقة بين مختلف الطبقات، تقريباً يقضى على الثراء الفاحش والفقر المدقع.

٦- الضمان الاجتماعي لكل مواطن، وتأمين حياته، والعمل على راحته وإسعاده.

٧- الحث على الإنفاق في وجوه الخير، وافتراض التكافل بين المواطنين، ووجوب التعاون على البر والتقوى .

٨- تقرير حرمة المال، واحترام الملكية الخاصة ما لم تتعارض مع المصلحة العامة.

٩- تنظيم المعاملات المالية بتشريع عادل رحيم، والتدقيق في شؤون النقد.

١٠- تقرير مسؤولية الدولة في حماية هذا النظام.

والذي ينظر في تعاليم الإسلام، يجد فيه هذه القواعد مبينة في القرآن الكريم والسنة المطهرة وكتب الفقه الإسلامي بأوسع بيان)[1].

---

(1) مجموعة الرسائل، ص٣٤٠.

ونستطيع أن نعيد قراءة هذه المبادئ في ضوء مسالك حفظ المال التي ذكرناها في بداية هذا الفصل على النحو التالي :

أولاً : حفظ المال عن طريق الكسب والتنمية، ويضع له الشيخ حسن البنا ـ رحمه الله ـ ثلاثة وسائل :

١ – المال الصالح قوام الحياة :

فقد امتدح الإسلام المال الصالح، وأوجب الحرص عليه وحسن تدبيره وتثميره، وأشاد بمنزلة الغنى الشاكر الذي يستخدم ماله في نفع الناس ومرضاة الله، وليس في الإسلام هذا المعنى الذي يدفع الناس إلى الفقر والفاقة من فهم الزهد على غير معناه.

وما ورد في ذم الدنيا والمال والغنى والثروة إنما يراد به ما يدعو إلى الطغيان والفتنة والإسراف ، ويستعان به على الإثم والمعصية والجور وكفران نعمة.

وقد نهى رسول الله ﷺ عن إضاعة المال في غير وجهه، فقال : (إن الله ينهاكم عن قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال) كما أن من مات مدافعا عن ماله فهو شهيد كما جاء في الحديث : (من مات دون عرضه فهو شهيد، ومن مات دون ماله فهو شهيد ...) الحديث .

٢ – العمل على كل قادر :

وفى الإسلام الحث على العمل والكسب، واعتبار الكسب واجباً على كل قادر عليه ، والثناء كل الثناء على العمال والمحترفين، وتحريم السؤال، وإعلان أن من أفضل العبادة العمل، وأن العمل من سنة الأنبياء، وأن أفضل الكسب ما كان من عمل اليد، والزراية على أهل البطالة، والذين هم عالة على المجتمع مهما كان سبب تبطلهم، ولو كان الانقطاع لعبادة الله . فإن الإسلام لا يعرف هذا الضرب من التبطل .. والتوكل على الله إنما هو بالأخذ في الأسباب وأيضاً بالنتائج، فمن فقد أحدهما

فليس بمتوكل .. والرزق المقدور مقرون بالسعي الدائب، والله تبارك وتعالى يقول : ﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [التوبة: ١٠٥].

ويقول الرسول ﷺ : (ما أكل أحد طعاماً قط خيرا من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده)[١]، ويقول عمر: (لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق وهو يقول اللهم ارزقني، وقد علم أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة)، وفى الحديث : (ولا يزال الرجل يسأل الناس حتى يأتي يوم القيامة وليس في وجهه مزعة لحم)[٢].

٣- الكشف عن منابع الثروات :

كما أن فيه لفت النظر إلى ما في الوجود من منابع الثروة ومصادر الخير، والحث على العناية بها ووجوب استغلالها، وأن كل ما في هذا الكون العجيب مسخر للإنسان ليستفيد منه وينتفع به، ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ..﴾ [لقمان: ٢٠].

﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ....﴾ [الجاثية: ١٣].

---

(1) صحيح البخاري كتاب البيوع باب كسب الرجل وعمله بيده، ح: ٢٠٧٢.

(2) صحيح البخاري كتاب الزكاة باب من سأل الناس تكثرا، ح: ١٤٧٥، ومسلم كتاب الزكاة باب كراهة المسألة للناس ح: ١٠٤٠.

القرآن الكريم، علم تفصيل ذلك بأوسع بيان وأوفاه)[1].

ثم يتحدث عن حفظ المال من التلف، أيا كان نوع هذا التلف، فيذكر وسيلتين فيقول :

١- تحريم الكسب الخبيث :

ومن تعاليمه : تحريم موارد الكسب الخبيثة، وتحديد الخبث في الكسب بأنه ما كان بغير مقابل من عمل: كالربا والقمار والمناصيب ونحوها، أو كان بغير حق: كالنصب والسرقة والغش ونحوها . أو كان عوضاً لما يضر : كثمن الخمر والخنزير والمخدر ونحوها . فكل هذه موارد للكسب لا يبيحها الإسلام، ولا يعترف بها.

٢- استغلال النفوذ .. من أين لك هذا ؟ :

كما حظر الإسلام استخدام السلطة والنفوذ، ولعن الراشي والمرتشي والرائش، وحرم الهدية على الحكام والأمراء، وكان عمر يقاسم عمّاله ما يزيد عن ثرواتهم، ويقول لأحدهم : (من أين لك هذا ؟ إنكم تجمعون النار وتورثون العار)، وليس للوالي من مال الأمة إلا ما يكفيه، وقد قال أبو بكر لجماعة المسلمين حين ولي عليهم : (كنت أحترف لعيالي فأكتسب قوتهم، وأنا الآن احترف لكم، فافرضوا لي من بيت مالكم) ، ففرض له أبو عبيدة قوت رجل من المسلمين ليس بأعلاهم ولا بأوكسهم، وكسوة الشتاء وكسوة الصيف، وراحلة يركبها ويحج عليها، وقُوِّمت هذه الفريضة بألفي درهم .. ولما قال أبو بكر : لا يكفيني، زادها له خمسمائة وقُضي الأمر[2].

ثم يتحدث عن حفظ المال عن طريق التداول، حتى لا يكون في يد طبقة،

---

(1) مجموعة الرسائل، ص٣٤٠-٣٤٢.

(2) مجموعة الرسائل، ص٣٤٢-٣٤٤ .

وتحرم منه بقية الطبقات فيقول :

١ – التقريب بين الطبقات :

وقد عمل الإسلام على التقريب بين الطبقات بتحريم الكنز ومظاهر الترف على الأغنياء، والحث على رفع مستوى المعيشة بين الفقراء، وتقرير حقهم في مال الدولة ومال الأغنياء، ووصف الطريق العملي لذلك.

وأكثر من الحث على الإنفاق في وجوه الخير والترغيب في ذلك، وذم البخل والرياء والمنّ والأذى، وتقرير طريق التعاون والقرض الحسن ابتغاء مرضاة الله تبارك وتعالى ورجاء ما عنده : ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ... ﴾ [المائدة: ٢].

٢ – الضمان الاجتماعي :

وقرر الضمان الاجتماعي لكل مواطن، وتأمين راحته ومعيشته كائناً من كان، مادام مؤدياً لواجبه، أو عاجزاً عن هذا الأداء بسبب قهري لا يستطيع أن يتغلب عليه . ولقد مر عمر على يهودي يتكفف الناس، فزجره واستفسر عما حمله على السؤال، فلما تحقق من عجزه رجع على نفسه باللائمة وقال له : (ما أنصفناك يا هذا، أخذنا منك الجزية قوياً وأهملناك ضعيفاً، افرضوا له من بيت المال ما يكفيه).

وهذا مع إشاعة روح الحب والتعاطف بين الناس جميعاً[1].

ويتحدث عن حماية المال وحفظه عن طريق احترام الملكية الخاصة فيقول:

حرمة المال واحترام الملكيات :

وقرر حرمة المال، واحترام الملكية الخاصة ما دامت لا تتعارض مع المصلحة

---

(1) مجموعة الرسائل، ص٣٤٢– ٣٤٣ .

العامة : (كل المسلم على المسلم حرام : دمه وعرضه وماله)[1].. و(لا ضرر ولا ضرار)[2].

وأخيرا تحدث عن حفظ المال عن طريق حماية قيمته، ودور الدولة في هذه الحماية فيقول :

١- تنظيم المعاملات المالية :

وشرع تنظيم المعاملات المالية في حدود مصلحة الأفراد والمجتمع، واحترام العقود والالتزامات، والدقة في شؤون النقد والتعامل به، حتى أفردت له أبواب في الفقه الإسلامي تحرم التلاعب فيه كالصرف ونحوه ولعل هنا موضعاً من مواضع الحكمة في تحريم استخدام الذهب والفضة باعتبارهما الرصيد العالمي للنقد .

٢- مسؤولية الدولة :

وأعلن مسؤولية الدولة عن حماية هذا النظام ، وعن حسن التصرف في المال العام، تأخذه بحقه وتصرفه بحقه ، وتعدل في جبايته ، ، ولقد قال عمر ما معناه : (إن هذا المال مال الله ، وأنتم عباده ، وليصلن الراعي بأقصى الأرض قسمه من هذا المال وإنه ليرعى في غنمه ، ومن غَلّ غلّ في النار)[3].

وبعد حديث الشيخ حسن البنا . رحمه الله . عن أصول النظام الاقتصادي الإسلامي، ينزل إلى الواقع المصري ليقترح الوسائل العملية، فهو دائما لا يقف عند

---

(1) مسلم كتاب البر والصلة والأدب باب تحريم ظلم المسلم، وخذله، واحتقاره، ودمه، وعرضه، وماله، ح: ٢٥٦٤

(2) ابن ماجة كتاب الأحكام باب لا ضرار ولا ضرار، ح: ٢٣٤٠.

(3) مجموعة الرسائل، ص٣٤٢- ٣٤٣ .

حد التنظير، والكلام النظري فقط، ولكنه يضرب أمثلة عملية من الواقع، فيذكر أن من نتائج تطبيق هذا النظام الاقتصادي ما يلي :

١ – استقلال النقد :

ذكرنا بعض الأصول التي يقوم عليها النظام الاقتصادي الإسلامي ، والروح التي تمليها علينا تلك الأصول ، التي تنتج مع التطبيق الصحيح وضعا اقتصاديا سليما ليس أفضل منه ، فهي توجب استقلال نقدنا ، واعتماده على رصيد ثابت من مواردنا ومن ذهبنا ، لا على أذونات الخزانة البريطانية ودار الضرب البريطانية والبنك الأهلي البريطاني – وإن كان مقره مصر – وتأمل الآية الكريمة: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا... ﴾ [النساء: ٥].

ومن أفظع التغرير بهذا الشعب ، أن يسلم جهوده ومنتجاته نظير أوراق لا قيمة لها إلا بالضمان الإنجليزي ، وإن مصر إذا حزمت أمرها ، وأحكمت تصرفاتها ، ستصل ولا شك إلى هذا الاستقلال ... ولقد انفصلنا عن الكتلة الإسترلينية ، وفكرنا في تأميم البنك الأهلي ، وطالبنا بالديون التي لنا على الإنجليز، وكل هذه ونحوها مشروعات تؤمن النقد المصري ... فماذا فعل الله بها؟ وماذا أعددنا العدة لإنقاذها ؟

لعل من المفارقات أن أكتب هذه الكلمات في الوقت الذي يذاع فيه أن المفاوضات بين مصر وإنجلترا حول الأرصدة الإسترلينية باءت أو قاربت أن تبوء بالفشل ، لتعنت الإنجليز وتمسكهم بألا يدفعوا لمصر عن سنة ١٩٤٨ أكثر من ١٢ مليونا ، في الوقت الذي تطلب فيه مصر طلبا متواضعا هو ١٨ مليونا.

ولقد أنتج ضعف الرقابة على النقد ، والاستهانة بأمره استهانة بلغت حد الاستهتار ، هذه المآسي التي نصطلي بنارها من التضخم الذي استتبع غلاء المعيشة ، وصعوبة الاستيراد والتصدير.

ولم يحدث في تاريخ الدول الراقية فيما نعلم أن بنكا يستغل قرارا من وزير هذا الاستغلال الشائن ، كما فعل ذلك البنك الأهلي بقرار من وزير المالية غير الموقع عليه من أحد في يونيو سنة ١٩١٦ ، فيصدر بمقتضاه من الأوراق ما يشاء[١].

كتب الشيخ حسن البنا . رحمه الله . هذا الكلام منذ أكثر من ستين عاما، وهو المناداة باستقلال النقد، واعتماد الغطاء الذهبي للنقد، وما زالت مصر خاصة، والعالم العربي والإسلامي عامة مرتبط بالدولار، واستبدل الهيمنة الانجليزية بالهيمنة الأمريكية التي تزيد عنها سوء، وخاصة بعد أن لعبت أمريكا باقتصاد العالم وألغت الغطاء الذهبي للعملات على مستوى العالم.

ثم يذكر الشيخ حسن البنا الأثر الثاني لتطبيق النظام الإسلامي في الاقتصاد فيقول :

٢ – تمصير الشركات :

كما توجب هذه الأصول الاهتمام الكامل بتمصير الشركات ، وإحلال رؤوس الأموال الوطنية محل رؤوس الأموال الأجنبية كلما أمكن ذلك ، وتخليص المرافق العامة – وهي أهم شيء للأمة – من يد غير أبنائها ، فلا يصح بحال أن تكون الأرض والبناء والنقل والماء والنور والمواصلات الداخلية والنقل الخارجي حتى الملح و الصودا .. في يد شركات أجنبية تبلغ رؤوس أموالها وأرباحها الملايين من الجنيهات ، لا يصيب الجمهور الوطني ولا العامل الوطني منها إلا البؤس والشقاء والحرمان[٢].

---

(1) مجموعة الرسائل، ص٣٤٥ .

(2) مجموعة الرسائل، ص٣٤٦ .

وهذا وإن تغير الآن فيما يخص الشركات الوطنية، ولكنه تغيير شكلي بحيث إنه لا يصب في مصلحة المواطن، فكل هذه الشركات التي كانت في يد الأجانب، وإن تحولت في يد أبناء الوطن لكنها عقود إذعان لا يملك المواطن إلا التسليم لها حيث لا يوجد في معظمها عنصر المنافسة، بالإضافة إلى سوء الخدمات، وهذا لا يؤدي ما كان يصبوا إليه الشيخ حسن البنا من تمصير الشركات.

ثم يذكر الشيخ حسن البنا الأثر الثاني لتطبيق النظام الاقتصادي الإسلامي فيقول :

٣- استغلال منابع الثروة :

واستغلال منابع الثروةالطبيعية استغلالاً سريعاً منتجاً، أمر يوجبه الإسلام، الذي لفت كتابه أنظارنا إلى آثار رحمة الله في الوجود، وما أودع في الكون من خيرات في الأرض وفى السماء، وأفاض في أحكام الركاز، وحث على طلب الخير أينما كان . في الماء عندنا ثروات، وفى الصحاري ثروات، وفى كل مكان ثروات، لا ينقصها إلا فكر يوجه، وعزيمة تدفع، ويد تعمل، وخذ بعد ذلك من الخير ما تشاء: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ * وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر:٢٧- ٢٨]. والعلماء هنا فيما يظن الذين يعلمون علم الكائنات وما فيها للناس من خير، وما يتجلى في دقيق صنعها من واسع علم الله خالق الأرض والسموات.

والعناية بالمشروعات الوطنية الكبرى المهملة التي طال عليها الأمد، وقعد بها التراخي والكسل، أو أحبطتها الخصومة الحزبية أو طمرتها المنافع الشخصية، أو قضت عليها الألاعيب السياسية والرشوة الحرام، كل هذه يجب أن تتوجه إليها الهمم من جديد : (إن الله يحب من أحدكم إذا عملَ عملاً أن يتقنه).

كم كنا نربح لو أن مشروع خزان أسوان تحقق فعلا منذ سنة ١٩٣٧ ، وكم كنا نحتاج ونعرى لو لم يلهم الله طلعت حرب – عليه الرضوان – أن يتقدم بمشروعات (المحلة) .

هناك مشروعات كثيرة درست وبحثت، ثم وضعت على الرف وطال عليها الأمد قبل الحرب، ولا موجب لهذا الإهمال، والضرورة قاسية والحاجة ملحة، والأمر لا يحتمل التأخير.

انفضوا الغبار عن ملفات هذه المشروعات واستذكروها من جديد ونفذوا : ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ... ﴾ [التوبة: ١٠٥][1].

ولعله هنا يشير إشارة واضحة لحفظ المال عن طريق الكسب والتنمية، والإفادة من الموارد الطبيعية التي حباها الله هذا البلد، ويضرب بعض الأمثلة للمشروعات الناجحة حتى لو كانت قليلة، تصل إلى حد الندرة، لكن البناء عليها، والتفكير في غيرها كان كفيلا بتغيير الحال .

ثم ينتقل الشيخ حسن البنا . رحمه الله . إلى الاهتمام بالصناعة، وهذا أيضا أثر من آثار تفعيل النظام الإسلامي في الاقتصاد فيقول :

٤ – الصناعة :

والتحول إلى الصناعة فوراً من روح الإسلام الذي يقول نبيه ﷺ : (إن الله يحب المؤمن المحترف)، (من أمسى كالاً من عمل يده أمسى مغفوراً له). والذي أثنى كتابه على داود وسليمان بهذا التقدم الصناعي، وذكر لنا من دقائق الرقى فيه ما أعجز البشر، واستغل قوى الجن والشيطان.

---

(1) مجموعة الرسائل، ص٣٤٧ .

حرام على الأمة التي تقرأ في كتابها من الثناء على داود عليه السلام : ﴿... وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ * أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [سبأ: ١٠-١١]، وتقرأ : ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٨٠] ، ثم لا يكون فيها مصنع للسلاح .

ثم تقرأ في كتابها : ﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ *يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣]. ثم لا يكون فيها مسبك عظيم ، ولا مصنع كامل للأدوات المعدنية.

ثم تقرأ: ﴿... وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد: ٢٥] .. ثم تهمل ما عندها من هذا المعدن هذا الإهمال، وهو من أجود الأنواع ويكفي العالم مائتي عام كما قدر الخبراء.

حرام هذا كله !!![1].

ولو عاش الشيخ حسن البنا إلى هذا العصر لرأى عجبا، فنحن حتى الآن لم نستطع تصنيع جهاز كمبيوتر واحد دون الاعتماد على غيرنا، ولا نصنع سيارة تصنيعا كاملا ننافس به محليا أو عالميا، بل إننا ما زلنا نستورد سجادة الصلاة والمسبحة، وما يستر عوراتنا، وكل شيء حتى الأقلام، ولعب الأطفال وغير ذلك.

والذي يعجز عن هذا كله لا يمكنه أن يفكر في امتلاك السلاح النووي، ولا الأسلحة المتقدمة التي يسلطها الأعداء في نحورنا فنسمع ونطيع في رهبة وذلة يأباها الله ورسوله والمؤمنون الصادقون.

---

(1) مجموعة الرسائل، ص٣٤٧-٣٤٨.

٥- الواجبات الناتجة عن تطبيق النظام الإسلامي في الاقتصاد :

ويستطرد الشيخ حسن البنا . رحمه الله . في طرح الوسائل التي يمكننا تفعيلها من خلال تطبيق النظام الإسلامي في الاقتصاد القومي فيقول :

أ- نظام الملكيات في مصر :

عرضت في الكلمة السابقة لبعض صور التطبيق التي تمليها علينا قواعد النظام الإسلامي الاقتصادي ، وأعرض في هذه الكلمة لبعض الصور التي تمليها هذه القواعد أيضا في صميم الإصلاح الاقتصادي القومي.

توجب علينا روح الإسلام الحنيف، وقواعده الأساسية في الاقتصاد القومي، أن نعيد النظر في نظام الملكيات في مصر ، فنختصر الملكيات الكبيرة ، ونعوض أصحابها عن حقهم بما هو أجدى عليهم وعلى المجتمع ، ونشجع الملكيات الصغيرة، حتى يشعر الفقراء المعدمون بأنه قد أصبح لهم في هذا الوطن ما يعنيهم أمره، ويهمهم شأنه .. وأن نوزع أملاك الحكومة حالاً على هؤلاء الصغار كذلك حتى يكبروا.

ب- تنظيم الضرائب :

وتوجب علينا روح الإسلام في تشريعه الاقتصادي، أن نبادر بتنظيم الضرائب الاجتماعية، وأولها الزكاة، وليس في الدنيا تشريع فرض الضريبة على رأس المال لا على الربح وحده كالإسلام، وذلك لحكم جليلة منها : محاربة الكنز وحبس الأموال عن التداول، وما جعلت الأموال إلا وسيلة لهذا التداول الذي يستفيد من ورائه كل الذين يقع في أيديهم هذا المال المتداول.

وإنما جعل الإسلام مصارف الزكاة اجتماعية بحتة لتكون سبباً في جبر النقص

والقصور الذي لا تستطيع المشاعر الإنسانية والعواطف الطيبة أن تجبره، فيطهر بذلك المجتمع ويزكو، وتصفو النفوس وتسمو: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا...﴾ [التوبة: ١٠٣].

فلا بد من العناية بفرض ضرائب اجتماعية على النظام التصاعدي – بحسب المال لا بحسب الربح – يعفى منها الفقراء طبعاً، وتجبى من الأغنياء الموسرين وتنفق في رفع مستوى المعيشة بكل الوسائل المستطاعة .. ومن لطائف عُمر (رضي الله عنه)، أنه كان يفرض الضرائب الثقيلة على العنب لأنه فاكهة الأغنياء، والضريبة التي لا تذكر على التمر لأنه طعام الفقراء ، فكان أول من لاحظ هذا المعنى الاجتماعي في الحكام والأمراء (رضي الله عنه).

ج- محاربة الربا :

ويوجب علينا روح الإسلام أن نحارب الربا حالاً، ونحرمه ونقضي على كل تعامل على أساسه : (ألا وإن الربا موضوع، وأول ربا أبدأ به ربا عمى العباس بن عبد المطلب)[1] وصدق رسول الله.

ولقد كان المصلحون يتجنبون أن يقولوا في الماضي هذا الكلام حتى لا يقال لهم إن هذا مستحيل وعليه دولاب الاقتصاد العالمي كله ، أما اليوم .. فقد أصبحت هذه الحجة واهية ساقطة لا قيمة لها بعد أن حرّمت روسيا الربا وجعلته أفظع المنكرات في دارها ، وحرام أن تسبقنا روسيا الشيوعية إلى هذه المنقبة الإسلامية ، فالربا حرام ... حرام ... حرام وأولى الناس بتحريمه أمم الإسلام ودول الإسلام.

د- تشجيع الصناعات المنزلية :

---

(1) كتاب الحج باب حجة النبي ﷺ، ح: ١٢١٨.

وتوجب علينا روح الإسلام تشجيع الصناعات اليدوية المنزلية، وهذا هو باب الإسعاف السريع لهذه العائلات المنكوبة، وباب التحول إلى الروح الصناعي والوضع الصناعي .. وأول ما تفعله هذه الأيدي العاطلة، الغزل والنسيج بالأنوال الصغيرة، وصناعة الصابون، وصناعة العطور والمربيات، وأنواع كثيرة من صنوف كبيرة تستطيع النساء والبنات والأولاد أن يشغلوا الوقت فيها، فتعود بالربح الوفير، وتمنعهم بؤس الحاجة وذل السؤال.

وقد رأينا هذا بأعيننا منذ زمن في (فوه)-غربية ، و(بني عدي) – منفلوط ، وغيرها من بلدان القطر المصري، ورأينا في هذه البلاد الثروة والغنى ويسر الحال .ولقد كانت وزارة الشئون قد فكرت في هذا المشروع الحيوي ، واستحضرت أصنافا من المغازل ، ولا ندري ماذا فعل الله بها ... ويوم الحكومة بسنة كما يقولون ، ولكن الأمر لم يعد يحتمل الانتظار

هـ- تقليل الكماليات والاكتفاء بالضروريات :

وإرشاد الشعب إلى التقليل من الكماليات والاكتفاء بالضروريات، وأن يكون الكبار في ذلك قدوة للصغار، فتبطل هذه الحفلات الماجنة، ويحرم هذا الترف والإسراف الفاسد، وظهور الجسد بخشونته وعبوسته ووقاره وهيبته على الدور والقصور والوجوه والمنتديات .. أمر يحتمه الإسلام الحنيف، وكل ذلك يحتاج إلى إعداد.

هذه كلها واجبات لابد أن تنهض بأعبائها حالاً .. فإلى العمل[1].

ثم يختم الشيخ حسن البنا . رحمه الله . هذه الرسالة القيمة بأحوال الشعوب البائسة الفقيرة التي هي في أشد الحاجة إلى الإصلاح الفوري والعاجل بقوله :

---

(1) مجموعة الرسائل، ص٣٤٩-٣٥١.

فهنا نحن قد رأينا مما تقدم كيف أننا لم نسر على نظام اقتصادي معروف لا نظرياً ولا عملياً، وأن هذا الغموض والارتجال قد أدّيا بنا إلى ضائقة أخذت بمخانق الناس جميعًا.

وليس الشأن أن نرتجل الحلول، ونواجه الظروف، بالمخدرات والمسكنات التي يكون لها من رد الفعل ما ينذر بأخطر العواقب، ولكن المهم في أن ننظر إلى الأمور نظرة شاملة محيطة، وأن نردها إلى أصل ثابت تستند إليه، وترتكز عليه . وليس ذلك الأمر إلا (النظام الإسلامي) الشامل الدقيق، وفيه خير السداد.

لقد أتاح الله لنا من أسباب اليسر الاقتصادي، والنجاح المادي ما لم يتحه لغيرنا من الأمم والشعوب، فهذه الرابطة الوثيقة من اللغة والعقيدة والمصلحة والتاريخ بيننا وبين أمم العروبة والإسلام، وهى بحمد الله أغنى بلاد الله في أرضه، أخصبها تربة، وأعدلها جواً، وأكثرها خيرات، وأثراها بالمواد الأولية وبالخامات من كل شئ.

هذه الرابطة، تمهد لنا – لو أحسنا الانتفاع بها – سبيل الاكتفاء الذاتي والاستقلال الاقتصادي، وتنقذنا من هذا التحكم الغربي في التصدير والاستيراد وما إليهما.

ولا يكلفنا الأمر أكثر من أن نعزم ونتقدم، ونقوي الصلة، ونحكم الرابطة، ونوالي البعثات والدراسات، ونحاول بكل سبيل إنشاء أسطول تجارى، ونشيع روح الوحدة والتعاون بيننا وبين أمم العروبة وشعوب الإسلام.

إن الأمر جدٌ لا هزل فيه، وقد بلغ غايته، ووصل إلى مداه، ولا بد من علاج حاسم وسريع، ولن نجده كما قلت إلا في طب الإسلام الحنيف وعلاجه :

فيا رئيس الحكومة، ويا رؤساء الهيئات والجماعات، ويا من يعنيهم أمر الطمأنينة والسلام في هذا الوطن.

تداركوا الأمر بحزم ... وعودوا إلى نظام الإسلام ..

ألا قد بلغت .. اللهم فاشهد[1].

نعم بلغ الرجل قومه، وأنذرهم وحذرهم، ولكنهم لم يسمعوا له ولا للمصلحين من قبله ومن بعده، فأصبح الحال كما نرى ويرى الناس الآن.

لقد أسمعت لو ناديت حيا ولكن لاحياة لمن تنادي

لكن الأمل ما زال معقودا وموجودا في أن يخرج من هذه الأمة قائدا ربانيا، يعمد إلى هذه الكتابات والأفكار فيحولها إلى أعمال، فيغير الله به الحال.

(1) مجموعة الرسائل، ص٣٥١-٣٥٢.

المبحث الثاني
عناية الشيخ حسن البنا بمقصد حفظ المال على المستوى العملي

لم يقف الشيخ حسن البنا . رحمه الله . عند التنظير، فهو يعلم أن مشكلة المسلمين عامة، والشرقيين منهم خاصة تكمن في كثرة الكلام وقلة العمل، وقد حذرنا الله تعالى من هذا أشد التحذير فقال تعالى﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللهِ أَن تَقُولُوا مَا لاَ تَفْعَلُونَ ﴾ [الصف:٢- ٣].

وفي ذلك يقول الشيخ حسن البنا ـ رحمه الله ـ :

(إن ميدان القول غير ميدان الخيال، وميدان العمل غير ميدان القول، وميدان الجهاد غير ميدان العمل، وميدان الجهاد الحق غير ميدان الجهاد الخاطئ.

يسهل علي كثيرين أن يتخيلوا، ولكن ليس كل خيال يدور بالبال يستطاع تصويره أقوالا باللسان، وإن كثيرين يستطيعون أن يقولوا ولكن قليلاً من هذا الكثير يثبت عند العمل، وكثير من هذا القليل يستطيع أن يعمل، ولكن قليلا منهم يقدر علي حمل أعباء الجهاد الشاق والعمل المضني . وهؤلاء المجاهدون وهم الصفوة القلائل من الأنصار قد يخطئون الطريق ولا يصيبون الهدف إن لم تتداركهم عناية الله...)[١].

ولم يكتف الشيخ حسن البنا . رحمه الله . بما كتب في هذه الرسائل النافعة، ولا ما كتبه قبلها وبعدها، ولكنه حول هذه الكلمات إلى واجبات عملية، وجعلها ملزمة لأصحابه، لا يتم اعتماد العضو المنتسب لهذه الجماعة،ويكون عضوا عاملا فاعلا إلا بمجاهدة النفس في تطبيقها، فيذكر من بين هذه الواجبات.

١- أن تزاول عملا اقتصاديا مهما كنت غنيا ، وأن تقدم العمل الحر مهما ضئيلا،

(١) الرسائل، ص١٢٨.

وأن تزج بنفسك فيه مهما كانت مواهبك العملية.

٢- ألا تحرص على الوظيفة الحكومية ، و أن تعتبرها الضيق أبواب الرزق ولا ترفضها إذا أتيحت لك ، ولا تتخل عنها إلا إذا تعارضت تعارضا تاما مع واجبات الدعوة.

٣- أن تحرص كل الحرص على أداء مهنتك من حيث الإجادة والإتقان وعدم الغش وضبط الموعد .

٤- أن تكون حسن التقاضي لحقّك ، وأن تؤدي حقوق الناس كاملة غير منقوصة بدون طلب ، ولا تماطل أبدا .

٥- أن تبتعد عن الميسر بكل أنواعه مهما كان المقصد من ورائها ، وتتجنب وسائل الكسب الحرام مهما كان وراءها من ربح عاجل .

٦- أن تبتعد عن الربا في جميع المعاملات وأن تطهر منه تماما .

٧- أن تخدم الثروة الإسلامية العامة بتشجيع المصنوعات والمنشآت الاقتصادية الإسلامية ، وأن تحرص على القرش فلا يقع في يد غير إسلامية مهما كانت الأحوال ، ولا تلبس ولا تأكل إلا من صنع وطنك الإسلامي .

٨- أن تشترك في الدعوة بجزء من مالك ، تؤدي الزكاة الواجبة فيه ، وأن تجعل منه حقا معلوما للسائل والمحروم مهما كان دخلك ضئيلا .

٩- أن تدخر للطوارئ جزءا من دخلك مهما قل ، وألا تتورط في الكماليات أبدا[1].

ولذلك خطا الشيخ حسن البنا . رحمه الله . خطوة أوسع حيث قام بإنشاء مشاريع إسلامية، حتى يضرب المثل العملي للناس في هذا الشأن، ومن بين هذه

(1) مجموعة الرسائل، ص٣٧٦.

الشركات التي قامت في عهده :

١- شركة المعاملات الإسلامية :

وقد تكونت برأس مال أساسي قدره (٤٠٠٠ج) أربعة آلاف جنيه مصري سنة ١٩٣٩، ثم تطورت في سنة ١٩٤٥ تطورًا كبيرًا، فقد أقبل الإخوان، وغير الإخوان على الاكتتاب في أسهمها، وزيد رأس المال من (٤٠٠٠) أربعة آلاف جنيه إلى (٢٠٠٠٠) عشرين ألف جنيه، وقامت الشركة بإنشاء خطوط نقل، وأقامت مصنعًا كبيرًا للنحاس ينتج وابور غاز كامل، وقطع غياره المختلفة؛ راجت في الأسواق المحلية والخارجية، وخاصة أسواق الأقطار الشقيقة.

٢- الشركة العربية للمناجم والمحاجر :

وقد تكونت في سنة ١٩٤٧ برأس مال قدره (٦٠٠٠٠) ستين ألف جنيه، وفي سنة ١٩٤٨ اتحدت الشركة العربية للمناجم والمحاجر وشركة المعاملات الإسلامية، لتوحيد الجهود، للارتباط الوثيق بين ما تقوم به الشركتان؛ فشركة المعاملات تملك سيارات نقل، وتوكيلاً للسيارات من أمريكا، ومصنعًا كبيرًا للبلاط والأسمنت بجميع أنواعه؛ وهو يستهلك كميات كبيرة من كسر الرخام الناتج من شركة المناجم، ولدى شركة المعاملات مصنعًا للنحاس، وورشة ميكانيكية.

٣- شركة الإخوان المسلمين للغزل والنسيج :

تأسست هذه الشركة سنة ١٩٤٨ برأس مال أساسي قدره (٨٠٠٠) ثمانية آلاف جنيهًا، جمع منها فعلاً (٦٥٠٠) ستة آلاف وخمسمائة جنيه، وظل باب الاكتتاب مفتوحًا حتى وقت الحل، وبدأت الشركة عملها، وكان عدد عمالها حوالي ٦٠ عامل، جميعهم من المساهمين في الشركة، وفي عشرة أشهر، صرفت أجور عمال (٢٧٠٠) ألفين وسبعمائة جنيه، أي بما يوازي نصف رأس المال، وبالرغم من ذلك فقد بلغ

صافي أرباحها في هذه الفترة الصغيرة (١٤٠٠) ألف وأربعمائة جنيه، وكانت تنتج البفتة، والدمور، والأقمشة الحريرية، والجبردين المقلم، وكانت منتجاتها تباع بأقل من أسعار أى بضاعة أخرى من مثيلاتها.

٤- شركة المطبعة الإسلامية والجريدة اليومية :

وكل منها منفصلة عن الأخرى، وسميت الأولى "شركة الإخوان للطباعة" ورأس مالها (٧٠٠٠٠) سبعون ألف جنيه والثانية "شركة الإخوان للصحافة" ورأس مالها (٥٠٠٠٠) خمسون ألف جنيه، وقد سبقت شركة الإخوان للصحافة في استئناف نشاطها، وصدر العدد الأول من الجريدة اليومية في مايو سنة ١٩٤٦، وتأخرت شركة الإخوان للطباعة في استئناف نشاطها، لأنها كانت بسبيل استيراد ماكينات للطباعة من الخارج حتى صدر أمر الحل فتوقفت أعمالها هى وسائر الشركات الإخوانية.

٥- **شركة التجارة والأشغال الهندسية بالإسكندرية** وقد تكونت برأس مال قدره (١٤٠٠٠) جنيه موزع على ٣٥٠٠ سهم للقيام بأعمال التجارة والهندسة.

٦- شركة التوكيلات التجارية :

وقد بدأت مشروعها في السويس للتجارة أولاً، ثم توسعت أعمالها حتى شملت التجارة والنقل والإعلام، وصار لها مركز رئيسي في القاهرة، وأصبح لها عدة فروع في جميع أنحاء القطر المصري تقريبًا.

٧- شركة الإعلانات العربية :

وقد أنشئت قبل الحل بحوالي عام، وكانت أعمالها تشمل النشر بالصحف، والدعاية بالسينما، وعمل الرسوم الفنية، وأغلفة الكتب والمجلات، وتصميم لافتات وواجهات المحلات، وشرعت في عمل دليل تجاري عام للدول العربية.

وجميع الشركات الإخوانية السابقة موزعة أسهمها على مجموعة كبيرة جدًا من

المساهمين، بعكس ما ألف الناس في الشركات الكبيرة في مصر، التي يتحكم فيها ويملك غالبية أسهمها قلة من الرأسماليين، ولعل أوضح مثال لذلك هو شركة الإخوان المسلمين للغزل والنسيج فرأس المال الفعلي لها كان ٦٥٠٠ ستة آلاف وخمسمائة جنيه وكان عدد المساهمين ٥٥٠ خمسمائة وخمسين مساهم، وبعضهم من العمال الذين كانوا يساهمون بمبلغ (٢٥) خمسة وعشرين قرشًا شهريًا، فكانت الشركة بذلك سبيل ادخار للطبقات التي لم تتعود الادخار، وتكوين رأس مال صناعي من الطبقات الشعبية[١].

ويمكننا التعليق السريع على هذه الشركات في نقاط موجزة فنقول :

١- هذه الأرقام وإن بدت متواضعة قليلة في عصر المليارات والترليونات لكنها يجب أن تقرأ في ضوء عصرها، يوم أن كان يمثل الجنيه المصري ثروة كبيرة، ورقما هاما وسط العملات العالمية، ولو امتدت هذه الشركات حتى يومنا هذا لكان لها شأن آخر فإن النجاح دائما يولد نجاحات كثيرة، لكنها إرادة الله أولا وآخر وإن كان هذا لا يعفي أتباعه من تكرار التجربة، والتعلم من أخطاء الماضي.

٢- إن الناظر إلى هذه الشركات يرى أن الشيخ .رحمه الله .كان مستوعبا سلم الأولويات في الشريعة الإسلامية الذي يبدأ بالضروري ثم الحاجي والتحسيني، وفق مقاصد الشريعة الإسلامية الخمسة وهي حفظ الدين والنفس والعقل والعرض والمال .

فهذه الشركات التي أنشأها ليس من بينها شركات تتخصص في صناعة شيء

(١) الإخوان المسلمون والمجتمع المصري، تأليف محمد شوقي زكي، تقديم أسعد سيد أحمد، ص٢٠٨-٢١٢، باختصار وتصرف يسير، ط٢ـ ١٤٠١هـ/١٩٨٠م، دار الثقافة العربية للطباعة.

ترفيهي أو كمالي، وإن كان هذا ليس محرما لكن بعد استكمال حاجة الناس في الضروري والحاجي.

٣- التركيز على الطبقة المعدمة أو الفقيرة التي نسميها تأدبا الطبقة المتوسطة، وتمكينها من المساهمة في هذه الشركات ولو ببعض القروش القليلة، وهذا يشعر العامل بأهميته، وأنه ليس خادما ذليلا يتعب ليأكل غيره ثم لا يناله من كسبه إلا الفتات، ولكنه يشعر بأنه شريك في الربح وصاحب مال فيدفعه ذلك للحرص على هذا المال وتنميته.

٤- إن أتباع الشيخ البنا . رحمه الله . لم يواصلوا الجهود التي بدأها في مجال الاقتصاد العملي ؛ صحيح أنهم يعتذرون بالملاحقات الأمنية وهي واقعة وملموسة لكل متابع للحركات الإسلامية حيث لا تسمح النظم الدكتاتورية لأحد من غير أتباعها أن يقوى اقتصاديا وتعتبره منافسا وبديلا للنظام، لكن هذا لا ينفي أيضا أن حرص الأفراد على العمل الاقتصادي الجماعي المنظم ليس في مستوى العمل الدعوي، وإن كثيرا من المشكلات ربما تنشأ بين بعض الأفراد عندما يعملون عملا اقتصاديا من أي نوع.

٥- إن أتباع الشيخ حسن البنا- رحمه الله . وإن كانوا نجحوا نجاحات فردية في استثمار الأموال وتنميتها لكنهم خالفوا شيخهم في نقاط جوهرية منها :

أ- أن هذا كان استثمارًا فرديا وليس جماعيًا منظمًا، والاستثمار الفردي مهما كان كبيرا فإنه لا يصل بحال إلى ما يصل إليه الاستثمار الجماعي المنظم من حيث الإفادة من الإمكانات البشرية والمادية .

ب- أنه لم يشرك الطبقة الفقيرة أو المتوسطة في المساهمة في هذه الشركات فظلت شركات فردية.

ج- أنـه لم يرع فـي بعض الحـالات سلم الأولويات وحاجـة المجتمـع، بل أسـهم فــي كثيــر مــن الحــالات فــي الــسرف والتــرف ولــم يعــتن بالــضروريات والحاجيات.

توصيات الدراسة

١- بعد هذه الجولة التي قطعناها في فكر الشيخ حسن البنا لانزعم أننا وفينا الرجل حقه، ذلك أننا اكتفينا بكتاب الرسائل فقط (في طبعاته القديمة) حتى لا يطول البحث ويخرج عن المساحة المحددة له، ولم نخرج عنه إلا في حالات نادرة جدا، والكتاب وإن كان ــ من وجهة نظري ــ أهم ما كتب الشيخ حسن البنا ولكنه من المؤكد أن ما كتبه في غيره يعطي فكرة أعمق عن رؤية الشيخ للمقاصد عامة.

٢- أن القصد من كتابة هذا البحث هو تحريك الماء الراكد وإثارة هذه القضية، ولا شك أنها ستكون كغيرها من الأفكار مثار قبول ورفض من العلماء والباحثين، ومراجعة لما كتب الرجل، وأعتقد أن هذا في غاية الأهمية أيا كانت النتائج التي يتوصل إليها.

٣- يوصي الباحث أن يقوم العلماء والباحثون بدراسة الشيخ حسن البنا كعالم شرعي، وفقيه أصولي مقاصدي، وليس كزعيم سياسي وحركي فقط حتى تكتمل الصورة عن هذا الرجل ولا يظلم من العلماء كما ظلم من الأمراء والعلم رحم بين أهله.

٤- أود أن تكون هذا الشخصية شخصية عامة وموطن دراسة الباحثين سواء أكانوا من أتباع الشيخ البنا أو من غير أتباعة، فالرجل محل إجماع لدى كثير من الناس في الدوائر العلمية وغيرها، فليكن تراثه ملكا لأمته، وليفعّل هذا التراث ويبحث له عن الأطر العملية لوضعه موضع التنفيذ، وهذه مسئولية كل العلماء وليست مسئولية جماعته، أو أتباعه فقط .

٥- خطا الرجل خطوات عملية من خلال ما قام به من مشروعات محلية تعتمد على ما يدخره العامل الذي يكون شريكا في العمل ينال من ربحه بالإضافة

لما يأخذه من راتب، ولو توسعنا في هذه المشروعات الصغيرة أو المتوسطة، لكان لنا شأن آخر بين الأمم .

وهذه المشروعات وإن كانت صغيرة، بيد أنه يظهر فيها فقه الأولويات، ومراعاة الجانب المقاصدي من تنمية المال واستثماره، والترتيب الصحيح للضروريات والحاجيات والتحسينيات.

٦- ركز الإمام البنا ــ رحمه الله ــ على أمرين غاية في الأهمية وهما :

أ- التخلي عن الغطاء الذهبي للنقود، وهذه مشكلة المشاكل في العالم كله بصفة عامة، والعربي والإسلامي بصفة خاصة، بعد أن استطاعت الدول الرأسمالية الكبرى أن تلغي هذا الغطاء الذهبي وتستبدل بها أشياء أخرى حتى تحكم سيطرتها وهيمنتها على الشعوب العربية والإسلامية، وقد حذر علماؤنا في الماضي والحاضر من مغبة التخلي عن غطاء الذهب.

ب- الأمر الثاني : سيطرة الشركات الأجنبية، وهيمنة رأس المال الأجنبي على الاقتصاد المحلي، وهذا ما نعاني منه الآن ونستطيع أن نقول إن الشعوب العربية والإسلامية قد استبدلت الاستعمار السياسي بالاستعمار الاقتصادي، وهو لا يقل خطرا عن الاستعمار السياسي، بل إن الاستعمار السياسي يحفز الشعوب ويحثها على الثورة والانتفاض للتخلص من المستعمر، لكن الاستعمار الاقتصادي يضمن للمستعمر إحكام السيطرة والهيمنة على الشعوب فلا تقوى على شيء.

٧- نريد لهذه الأفكار الموجودة في كتابات الإمام البنا ــ رحمه الله ــ وغيره ممن كتب عنه بالشرح أو التأصيل أن تأخذ طريقها للتطبيق العملي، وأن تكون أمام أصحاب القرار في العمل الجماعي خاصة، والعمل للإسلام بصفة

عامة، حتى لا نكون من هذا الفريق الذي عاتبه الله تعالى في كتابه الكريم فقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللهِ أَن تَقُولُوا مَا لاَ تَفْعَلُونَ ﴾ [الصف:٢- ٣].

٨- هناك مساحات من فكر الإمام البنا ــ رحمه الله ــ تحتاج إلى بحث ودراسة، خاصة الجوانب الفقهية والشرعية في رسالة التعاليم وغيرها من الرسائل، وهذا واجب العلماء الشرعيين عامة، والمنتسبين إلى جماعة الإخوان المسلمين خاصة.

٩- نود أن يرفع الحظر عن كتابة الرسائل العلمية عن هذا الرجل، ونتخلص من عقد الماضي، ليتحول الرجل إلى مشروع سياسي ودعوي وشرعي تستفيد منه الأمة العربية والإسلامية، ولو كان هذا الرجل عند غيرنا لاستفادوا وأفادوا منه فوائدة جمة.

١٠- نود أن يستقل البحث العلمي في عالمنا العربي والإسلامي عن الهيمنة الأمنية التي لا يمكنها بحال أن تنهض بالبحث العلمي، ولا يمكن للبحث العلمي أن ينهض تحت رقابتها وسيطرتها.

١١- نوصي الكتاب في الفقه والشريعة بكافة فروعها ألا يغفلوا التعريفات المقاصدية، وأن يولوا حكمة التشريع ما تسحقه من العناية، وألا نقف عند حد التعريفات اللغوية والاصطلاحية وحدها، فهي على الرغم من أهميتها في البحث العلمي، لكنها في الغالب لا تعطي تصورا عن حكمة التشريع، ولا تخاطب الروح والنفس الإنسانية.

والحمد لله أولا وآخرًا وظاهرا وباطنا والحمد لله أبدًا أبدا.

المحتويات :

مقدمة عامة ٥

الفصل الأول ١٣

حول تعريف المقاصد،وأهميتها، ومجالاتها، وأقسامها

المبحث الأول :المقاصد لغة واصطلاحًا ١٥

المبحث الثاني : أهمية العلم بمقاصد الشريعة ٢٧

المبحث الثالث : نشأة علم المقاصد وتطوره ٤١

المبحث الرابع : طرق معرفة المقاصد ٤٧

المبحث الخامس : أقسام المقاصد ٥٣

المبحث السادس : تجديد المقاصد أم تفعيلها ٦١

الفصل الثاني ٧٣

العناية بالمقاصد عند الإمام البنا بصفة عامة

المبحث الأول : موقف الإمام البنا من الدعوات المعاصرة ٧٩

المبحث الثاني : الفهم المقاصدي عند الإمام البنا ٩١

الفصل الثالث ١٠٧

حفظ الدين عند الإمام البنا

المبحث الأول : حفظ الدين بالتيسير ١١٧

المبحث الثاني : حفظ الدين عن طريق الاجتهاد ١٣٩

المبحث الثالث : حفظ الدين عن طريق التبليغ ١٤٧

المبحث الرابع : حفظ الدين عن طريق السلطان ١٦٧

المبحث الخامس : حفظ الدين عن طريق الفهم الصحيح ١٩٣

المبحث السادس : حفظ الدين عن طريق الجهاد في سبيل الله ٢٢٣

المبحث السابع : حفظ الدين: بمقاومة الإرجاف وبث الأمل ٢٦٥

المبحث الثامن : حفظ الدين بمدافعة التحريف واتباع الهوى ٢٧٩

المبحث التاسع : حفظ الدين بمقاومة الاستبداد ٣٠٧

الفصل الرابع ٣٢٣

حفظ النفس

المبحث الأول : الحفظ المعنوي للنفس ٣٣٣

المبحث الثاني : الحفظ المادي للنفس ٣٧٣

الفصل الخامس ٣٨١

حفظ العقل

تمهيد ٣٨٣

مقصد حفظ العقل عند الإمام البنا ــ رحمه الله ــ ٣٨٨

حفظ العقل عن طريق التفكير والتعليم المنهجي ٣٩٠

موقف الإخوان من القومية والعروبة عن طريق التعليم المنهجي ٣٩٤

موقف الإسلام من القومية ٣٩٥

موقف الإسلام من العروبة ٣٩٦

موقف الإسلام من الوحدة الإسلامية ٣٩٦

تقدير الإسلام للعقل من خلال فهم العقيدة ٤١١

الأدلة العقلية والمنطقية على وجود الله تعالى ٤١٩

حفظ العقل عن طريق كيفية النقل عن غير المسلمين ٤٢٢

موقف السلف والخلف من تأويل الصفات ٤٢٤

ترجيح مذهب السلف ٤٢٨

الفصل السادس ٤٣١

حفظ النسل (النسب)

تمهيد ٤٣٣

حفظ النسل عند الإمام البنا ــ رحمه الله ــ ٤٣٥

حفظ النسب عن طريقة الاهتمام بمؤسسة الأسرة ٤٤٩

رأي الأستاذ البنا في موضوع تحديد النسل ٤٥٦

فتوى الإمام البنا في تحديد النسل ٤٥٨

الفصل السابع ٤٧١

حفظ المال

المبحث الأول : عناية الشيخ حسن البنا بمقاصد حفظ المال في الإطـــار النظـــري والتنظيري ٤٧٣

المبحث الثاني : عناية الشيخ حسن البنا بمقصد حفظ المال على المستوى العملي ... ٥٠٧

توصيات الدراسة ٥١٥

د. رجب أبومليح محمد

الأستاذ المشارك بكلية الشريعة جامعة الإنسانية قدح (دار الأمان) ماليزيا

وكيل عميد الدراسات العليا والبحث العلمي بجامعة الإنسانية

عضو الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين

عضو الاتحاد الأسيوي لعلماء المسلمين

المستشار الشرعي لموقع إسلام أون لاين (سابقا)

له عدة مؤلفات منها :

1- فقه المعاملات المالية (دراسة في الأحكام والأخلاق والسلوك) مجلدان

2- تاريخ التشريع الإسلامي .

3- أشواك في طريق التجديد الفقهي (جمال البنا نموذجا) كتاب بالاشتراك .

4- قراءة في كتاب الجهاد للعلامة الشيخ الدكتور يوسف القرضاوي.

5- الغناء والموسيقى قراءة في فتاوى إسلام أون لاين

وله عدة بحوث قدمت في مؤتمرات منها:

1- ضوابط الإفتاء في قضايا النوازل (خبرة إسلام أون لاين خلال عشر سنين).

2- التورق والتوريق قراءة في فتاوى المجامع الفقهية.

3- من قضايا المستجدات الفقهية التسوق الشبكي والمسابقات الهاتفية

4- حول تقنين العقوبات في الشريعة الإسلامية .

5- إجراء العقود عبر وسائل الاتصالات الحديثة .

6- مقاصد الشريعة الإسلامية في حفظ المال قراءة في فكر الشيخ حسن البنا.

7- مقاصد الإسلام في تشريع الزكاة ودورها في التزكية والتنمية.

8- الاختلاط بين الجنسين : بين أدلة المنع وشروط الجواز